أبو منصور الثعالبي

ثمار القلوب

في المضاف والمنسوب

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب

أبو منصور الثعالبي



ثمار القلوب في المضاف والمنسوب

أبو منصور الثعالبي



دار المستَرسل العربيِّ

تصميم الغلاف: عمر الحجّ.

نسخة دار المسترسل العربيِّ عام 1444 هـ.

توفِّيَ المؤلف عام 429 هـ.

الفهرست

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعدَ حمد الله الذي أقل نعمه يستغرق أكثر الشكر، والصلاة على نبيه المصطفى محمد وآله ما نطق لسان بالذكر؛ فإن هذا الكتاب مترجم بثمار القلوب في المضاف والمنسوب خدمت به خزانة كتب الأمير السيد أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي، عمرها الله تعالى بطول عمره، وعلو أمره.

وإن كنت في ذلك كمهدي العود للهنود، وناقل المسك إلى أرض الترك، وجالب العنبر إلى البحر الأخضر، ولكن ما على الناصح إلَّا جهده ولي أسوة في ابن طباطبا العلوي، إذ قال:

لا تنكرن إهداءنا لك منطقًا   منك استفدنا حسنه ونظامه
فالله عز وجل يشكر فعل من   يتلو عليه وحيه وكلامه

وأنشدني أبو الفتح علي بن محمد البستي، لنفسه:

لا تنكرن إذا أهديت نحوك من   علومك الغر أو آدابك النتفا
فقيم الباغ قد يهدي لمالكه   برسم خدمته من باغه التحفا

وبناء هذا الكتاب على ذكر أشياء مضافةٍ ومنسوبةٍ إلى أشياء مختلفة يتمثل بها، ويكثر في النثر والنظم على ألسن الخاصة والعامة استعمالها، كقولهم: غراب نوحٍ، ونار إبراهيم، وذئب يوسف، وعصا موسى، وخاتم سليمان، وحمار عزير، وبردة النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وكقولهم: كنز النطف، وقوس حاجب، وقرطا مارية، وصحيفة المتلمس، وحديث خرافة، ومواعيد عرقوب، وجزاء سنمار، ويوم عبيد، وعطر منشم، ونسر لقمان، وعير أبي سيارة.

وكقولهم: سيرة أزدشير، وعدل أنو شروان، وإيوان كسرى، ورمي بهرام.

وكقولهم سيرة العمرين، ودرة عمر، وقميص عثمان، وفضائل علي، وصدق أبي ذر، وحلم الأحنف، وزهد الحسن، وعنز الأعمش، وجامع سفيان.

وكقولهم: حنين الإبل، وخيلاء الخيل، وأخلاق البغال، وصبر الحمار، وداء الذئب، ومزجر الكلب، ونوم الفهد، وروغان الثعلب، وقبح القرد.

وكقولهم: أفاعي سجستان، وثعابين مصر، وعقارب نصيبين، وجرارات الأهواز، وحمى خيبر، وطحال البحرين، ودماميل الجزيرة.

وكقولهم: تفاح الشام، وأترج العراق، وسكر الأهواز، وورد جور، وعود الهند، ومسك تبت، وعنبر الشحر، وطرف الصين.

وكقولهم في الاستعارات: رأس المال: ووجه النهار، وعين الشمس، وأنف الجبل، ولسان الحال، وناب النوائب، وأذن الحائط، وقلب العسكر، وكبد السماء، وصدر الأمر.

وقد خرجتها في أحدٍ وستين بابًا، ينطق كل بابٍ بذكر ما يشتمل عليه أولًا، ويفصح عن الاستشهاد وسياقة المراد آخرًا.

وما منها إلَّا ما يتعلق من المثل بسببٍ، ويوفي من اللغة والشعر على طرفٍ، ويضرب في التشبيهات والاستعارات بسهمٍ، ويأخذ من الأخبار والأنساب بقسمٍ، ويجيل في خصائص البلدان والأماكن قدحًا، ويطوي في أعاجيب الأحاديث شوطًا.

وهذا ثبت الأبواب، والله الموفق للصواب.

الباب الأول

فيما يضاف إلى اسم الله تعالى عز ذكره

أهل الله، بيت الله، رسول الله، كتاب الله، خليل الله، روح الله، أرض الله، أسد الله، سيف الله، قوس الله، رمح الله، كلب الله، نار الله، شمس الله، ظل الله، سعد الله، ناقة الله، نهر الله، خاتم الله، رحمة الله، ستر الله، يد الله، عمال الله، سبيل الله، باب الله، نور الله، حراس الله، أمان الله، ميزان الله: خالصة الله، موائد الله، عين الله، أمر الله، طراز الله، خلافة الله، لعنة الله، سجن الله، بنيان الله، صبغة الله، وفد الله.

الاستشهاد

أهل الله

كان يقال لقريش في الجاهلية: أهل الله؛ لما تميزوا به عن سائر العرب من المحاسن والمكارم، والفضائل والخصائص، التي هي أكثر من أن تحصى.

فمنها: مجاورتهم بيت الله تعالى، وإيثارهم سكنى حرمه على جميع بلاد الله، وصبرهم على لأواء مكة وشدتها، وخشونة العيش بها.

ومنها: ما تفردوا به من الإيلاف والوفادة والرفادة، والسقاية والرياسة، واللواء والندوة.

ومنها: كونهم على إرثٍ من دين أبويهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، من قرى الضيف، ورفد الحاج والمعتمرين، والقيام بما يصلحهم، وتعظيم الحرم، وصيانته عن البغي فيه والإلحاد، وقمع الظالم، ومنع المظلوم.

ومنها: كونهم قبلة العرب، وموضع الحج الأكبر يؤتون من كل أوبٍ بعيد، فترد عليهم الأخلاق والعقول والآداب، والألسنة واللغات، والعادات والصور والشمائل، عفوًا بلا كلفةٍ ولا غرمٍ، ولا عزم ولا حيلة؛ فشاهدوا ما لم تشاهده قبيلة، وليس من شاهد الجميع كمن شاهد البعض، ولا المجرب كالغمر، ولا الأريب كالعتل، فكثرت الخواطر، واتسع السماع، وانفسحت الصدور، ورأوا الغرائب التي تشحذ، والأعاجيب التي تحفظ، فثبتت تلك الأمور في صدورهم واختمرت، وتزاوجت فتناتجت وتوالدت، فصادفت قريحةً جيدةً، وطنيةً كريمة.

والقوم في الأصل مرشحون للأمر الجسيم، فلذلك صاروا أدهى العرب، وأعقل البرية، وأبين الناس بيانًا، وصار أحدهم يوزن بأمةٍ من الأمم، وكذلك ينبغي أن يكون الإمام إمامًا، فأما الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد كان يزن جميع الأمم.

ومنها: ثبات جودهم، وجزيل عطاياهم، واحتمالهم المؤن الغلاظ في أموالهم المكتسبة من التجارة؛ ومعلوم أن البخل والنظر في الطفيف، مقرون بالتجارة التي هي صناعتهم، والتجار هم أصحاب الربيح والتكسب والتدنيق والتدقيق.

وكان في اتصال جودهم العالي على الأجواد من قومٍ لا كسب لهم إلَّا من التجارة عجب من العجب.

وأعجب من ذلك أنهم من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشدد في الدين، فتركوا الغزو كراهةً للسبي واستحلال الأموال؛ فلما زهدوا في الغصوب لم يبق مكسب سوى التجارة، فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم، والنجاشي بالحبشة، والمقوقس بمصر، فصاروا بأجمعهم تجارًا خلطاء؛ فكانوا مع طول ترك الغزو إذا غزوا كالأسود على فرائسها، مع الرأي الأصيل، والبصيرة النافذة.

فهذا يسير من كثير خصائصهم في الجاهلية.

ولما جاء الله تعالى بالإسلام، وبعث منهم خير خلقه وأفضل رسله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، تظاهر شرفهم، وتضاعف كرمهم، وصاروا على الحقيقة أهلًا لأن يدعوا: أهل الله، فاستمر عليهم وعلى سائر أهل مكة، وعلى أهل القرآن، هذا الاسم؛ حين قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أهل القرآن هم أهل

الله وخاصته» وقال لعتاب بن أسيد لما بعثه إلى مكة: «هل تدري على من استعملتك؟ استعملتك على أهل الله».

وسأل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه نافع بن عبد الحارث الخزاعي حين قدم عليه من مكة: من استخلفت على مكة؟ قال: ابن أبزى؛ قال: أتستخلف على أهل الله مولى! قال: إنه أقرؤهم لكتاب الله تعالى. قال: فإن الله تعالى يرفع بالقرآن أقوامًا.

وقال بعض السلف: حسبك من قريشٍ أنهم أهل الله، وأقرب الناس بيوتًا من بيت الله، وأقربهم قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يسم الله تعالى قبيلةً باسمها غير قريش. وصارت فيهم ولهم الخصال الأربع التي هي أشرف خصال الإسلام: النبوة، والخلافة، والشورى، والفتوح؛ فليس اليوم على ظهر الأرض، وفي جميع ممالك العرب والعجم، وفي جميع الأقاليم السبعة ملك في نصاب نبوة، أو إمامة في مغرس رسالةٍ إلَّا من قريش.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الأئمة من قريش».

وقال عليه السلام: «قدموا قريشًا ولا تتقدموها، وتعلموا منها ولا تعلموها». وينشد:

إن قريشًا وهي من خير الأمم ... لا يضعون قدمًا على قدم

أي: يتبعون ولا يتبعون.

وقال الأعشى وهو يؤنب رجلًا ويخبر أنه مع شرفه لم يبلغ مبلغ قريش:

فما أنت من أهل الحجون ولا الصفا ... ولا لك حق الشرب في ماء زمزم

وسيمر بك في هذا الباب من نكت فضائلهم، وغرر غرائبهم، ما تكثر فائدته، وتطيب ثمرته؛ وإن كان لا مزيد على وصف الجاحظ لهم، ومدحه إياهم، وتخصيصه بني هاشم منهم، فإنه رحمه الله تعالى القى جمة فصاحته، واستنزف بحر بلاغته، في فصلٍ له، وهو قوله:

العرب كالبدن وقريش روحها، وقريش روح وبنو هاشمٍ سرها ولبها، وموضع غاية الدين والدنيا منها. وبنو هاشمٍ ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلي العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهرٍ كريمٍ، وسر كل عنصرٍ شريف؛ والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، ومعدن الفهم،

وينبوع العلم، وثهلان ذو الهضبات في الحلم، والسيف الحسام في العزم، مع الأناة والحزم، والصفح عن الجرم، والقصد عند المعرفة، والعفو عند المقدرة، وهم الأنف المتقدم، والسنام الأكوم، والعزم المشمخر، والصيانة والسر؛ وكالماء الذي لا ينجسه شئ، وكالشمس لا تخفى بكل مكانٍ، وكالنجم للحيران، والبارد للظمآن.

ومنهم: الثقلان، والأطيبان، والسبطان، والشهيدان، وأسد الله، وذو الجناحين، وذو قرينها، وسيد الوادي، وساقي الحيجيج، وحليم البطحاء، والبحر والحبر.

والأنصار أنصارهم، والمهاجر من هاجر إليهم أو معهم، والصديق من صدقهم، والفاروق من فرق بين الحق والباطل منهم، والحواري حواريهم، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم، ولا خير إلَّا هم أو فيهم أولهم أو معهم، أو انضاف إليهم.

وكيف لا يكونون كذلك، ومنهم رسول رب العالمين، وإمام الأولين والآخرين، ونجيب المرسلين، وخاتم النبيين! الذي لم تتم لنبي نبوة إلَّا بعد التصديق به، والبشارة بمجيئه؛ الذي عم برسالته ما بين الخافقين، وأظهره الله ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ فقام ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ وقال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

وقال عليه السلام: «بعثت إلى الأحمر والأسود، وإلى الناس كافة».

وقال: «نصرت بالرعب من مسيرة شهرٍ، وأعطيت جوامع الكلم، وعرضت علي مفاتيح خزائن الأرض».

وقال: «أنا أول شافعٍ ومشفعٍ، وأول من تنشق عنه الأرض».

وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بحياته في القرآن، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقال: ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ﴾ استفتاح وقسم، ثم قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فأكد القسم، وفسر المعنى، ثم قصد إلى نبيه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، ولا عظيم أعظم ممن عظم الله تعالى، كما أنه لا صغير ممن صغر الله تعالى.

فأي ممدوح أعظم وأفخر، وأسنى وأكبر، من ممدوح ما مدحه الله؛ وناقل مديحه وراوية كلامه جبريل عليه السلام! والممدوح هو محمد صلى الله عليه وسلم قال مؤلف الكتاب: وكما سمتهم العرب: أهل الله، سمى محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي بني هاشم: آل الله، وكان يطلب مهاجاة محمد بن يزيد

المسلمي، من ولد مسلمة بن عبد الملك بن مروان. وكان المسلمي يأبى ذلك، ويقول: لا أهاجي رجلًا في دولته.

وكان إذا فخر في قصيدةٍ نقض عليه محمد، فمن ذلك قول المسلمي:

أما صفاتي فلها شان ونماني الشيخ مروان

وهي طويلة يفخر فيها ببني أمية.

فقال محمد بن عبد الملك على وزنها قصيدةً أولها:

أنا ابن آل الله من هاشمٍ حيث نمى خير وإحسان
من نبعةٍ منها نبي الهدى مونقة والفرع فينان
منا علي بن أبي طالبٍ ومنك مروان وسفيان
مولاك في الإيمان لا تنسه إن كان في قلبك إيمان
آمن بالله وآياته وأنتم صم وعميان

وأول من قال لهم عترة الله: إبراهيم بن المهدي، فإنه لما أغارت الروم، بعد انصراف المعتصم، على المسلمين، وأسرت خلقًا كثيرًا منهم، دخل على المعتصم، فأنشده قصيدة يحضه بها على جهادهم، فمنها قوله:

يا عترة الله قد عاينت فانتقمي تلك النساء وما منهن يرتكب
هب الرجال على أجرامها قتلت ما بال أطفالها بالذبح تستلب

وقبل إبراهيم، قد جعلهم الحارث بن ظالم المري قرابين الله يتقرب إليه بهم، لأنهم هم، فقال:

إذا فارقت ثعلبة بن سعدٍ وإخوتهم نسبت إلى لؤي
إلى نسبٍ كريمٍ غير وغدٍ وحي هم أكارم كل حي
فإن يعصب بهم نسبي فمنهم قرابين الإله بنو قصي

وفي المناسبة بين العترة والقرابين خفاء.

بيت الله: كما أن أهل مكة أهل الله، والحجاج زوار الله، فالكعبة بيت الله الذي جعله الله تعالى مثابةً للناس، وحطةً للخليل، وحلةً للذبيح، وقبلةً لسيد ولد آدم وخاتم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكعبةً لأمته التي هي خير الأمم.

وقد كانت العرب في الجاهلية لا تبني بنيانًا مربعًا تعظيمًا للكعبة، وكانت تحلف ببيت الله، كما قال زهير:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريشٍ وجرهم

وقال النابغة:

فلا ورب الذي قد زرته حججًا وما هريق على الأنصاب من جسد

وقال الله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

فمن خصائص الحرم: أنه بوادٍ غير ذي زرعٍ ولا شجرٍ، ويوجد فيه كل ثمرات الأشجار والزرع وغيرها.

ومن خصائصه: أن الذئب يريغ الظبي ويعارضه، ويصيده، فإذا دخل الحرم كف عنه.

ومن خصائصه: أنه لا يسقط على الكعبة حمام إلَّا وهو عليل، يعرف ذلك من امتحن وتعرف حاله، ولا يسقط عليها مادام صحيحًا.

ومن خصائصه: أن الطير إذا حاذت الكعبة، انفرقت فرقتين، ولم تعلها.

ومن خصائصه: أنه لا يراه أحد ممن لم يكن رآه إلَّا ضحك أو بكى.

ومنها: أنه إذا أصاب المطر الباب الذي من شق العراق، كان الخصب في تلك السنة بالعراق؛ وإذا أصاب الذي من شق الشام، كان الخصب بالشام؛ وإذا عم جوانب البيت، كان الخصب عامًا في البلدان.

ومنها: أن الجمار ترمى في ذلك المرمى منذ يوم حج الناس البيت على طول الدهر، ثم كأنه إلى اليوم على مقدار واحد، ولولا موضع الآية والعلامة والأعجوبة التي فيها، لقد كان ذلك كالجبال، هذا من غير أن تكسحه السيول، أو يأخذ منه الناس.

ومن سنتهم: أن من علا الكعبة من العبيد فهو حر، لا يرون الملك على من علاها، ولا يجمعون بين عز علوها، وذل الرق.

وبمكة رجال من الصلحاء لم يدخلوها قط إعظامًا لها.

ومن يستطيع أن يدعي الإحاطة بفضائل بيت الله وخصائصه!

ومن بارع التمثيل به قول بعض المحدثين في الحسن بن مخلد وقد خلع عليه:

أبا محمدٍ المسعود طالعه   فت البرية طرًا أيما فوت
زهت بك الخلعة الميمون طائرها   كزهو خلعة بيت الله بالبيت

وقال آخر:

وكعبة الله لا تكسى لإعوازِ

رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله عز ذكره: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

وممن تمثل به فأحسن جدًّا، ابن الرومي حيث قال في التمثل لتفضيل الولد على الوالد:

قالوا: أبو الصقر من شيبان، قلت لهم: كلا لعمري، ولكن منه شيبان
وكم أبٍ قد علا بابنٍ ذرا شرفٍ   كما علا برسول الله عدنان

وقال آخر في تفضيل الآخر على الأول:

كذاك رسول الله آخر مرسلٍ   وما مثله فيما تقدم مرسل

وقال الطائي في الاعتذار من اختيار غير الخيار، واصطناع من لا يصلح للصنيعة:

هذا رسول الله صفوة ربه   من بين بادٍ في الأنام وقار
قد خص من أهل النفاق عصابةً   وهم أشد أذًى من الكفار
واختار من سعدٍ لعين بني أبي   سرحٍ لوحي الله غير خيار
حتى استضاء بشعلة السور التي   رفعت له سجفًا عن الأسرار

كتاب الله

قال ابن الرومي متمثلًا به:

وكأنما يمناي حين تناولت   يمناك إذ صافحتني بكتاب
أخذت كتاب الله وهو مبشر   بكرامة الرضوان يوم حساب

خليل الله عليه الصلاة والسلام

اتخذ الله تعالى إبراهيم خليلًا، واتخذ محمدًا حبيبًا، والحبيب أخص من الخليل في الشائع المستفيض من العادات؛ ألا تراه تعالى قال له عليه الصلاة والسلام: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، بمعنى أحبك، وفي مقتضى هذه اللفظة أنه اتخذه حبيبًا؛ ومما يؤيد ذلك ويؤكده أنه تعالى لا يحب أحدًا ما لم يؤمن بمحمدٍ ويتبعه؛ ألا تسمعه يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وممن ملح في التمثيل بخليل الله: الأصمعي، حين استقرضه صديق له من خلص أصدقائه: فقال: نعم، وكرامة؛ ولكن سكن قلبي برهنٍ يساوي ضعف ما تلمسته! فقال له: يا أبا سعيد، ألست واثقًا بي؟ فقال: بلى، ولكن هذا خليل الله كان واثقًا بربه حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

روح الله

قال الله تعالى في ذكر عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، فلذا قيل له: روح الله، كما قيل لإبراهيم: خليل الله؛ ولموسى: كليم الله؛ عليهم الصلاة والسلام أجمعين. والأرواح كلها منه وله، وإنما أضيفت روح الله إليه على سبيل الاختصاص.

ومما يستملح لأبي أحمد بن أبي بكر الكاتب قوله لعلي بن عيسى الوزير ويروى لابن بسام، وهو بقوله أشبه:

لست روح الله عيسى إنما أنت ابن عيسى
كلم الناس فإن اللـ ـه قد كلم موسى

أرض الله

قد أكثر الناس في الحث على السير في الأرض لطلب الرزق؛ قال منصور بن باذان:

فسر في بلاد الله والتمس الغنى فما الكرج الدنيا ولا الناس قاسم

وقال البحتري:

شرق وغرب فعهد العاهدين بما طالبت في ذملان الأينق الذمل
ولا تقل أمم شتى ولا فرق فالأرض من تربةٍ والناس من رجل

وقال سعيد بن محمد الطبري:

سأغني بالهبيد عن اللبيد وبالفلوات عن قصرٍ مشيد
فأرض الله واسعة أمامي إذا ضاق الفضاء على البليد

ومعنى الهبيد: الحنظل، واللبيد: الجوالق؛ أي: أستغني بالحنظل ومرعى البر عن استصحاب زادٍ.

وكأن أحسن ما قيل في ذلك مقتبس من قوله عز ذكره: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

أسد الله

كان يقال لحمزة بن عبد المطلب: أسد الله، لتقدم قدمه في الحرب، وشدة إقدامه على حرب أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما قال حمزة يوم حرب بدر: أنا أسد الله، وأسد رسول الله؛ قال له عتبة بن ربيعة: أنا أسد الحلفاء.

قال الزبير بن بكار: لم يعرف لعتبة رفث إلَّا هذه الكلمة؛ وكلمة أخرى قالها يوم بدر أيضًا لأبي جهل، وهي قوله في كلام جرى بينهما: يا مصفر استه.

ولست أدري أي رفث في قوله: أنا أسد الحلفاء!

سيف الله

خالد بن الوليد بن المغيرة، أبو سليمان سماه النبي صلى الله عليه وسلم سيف الله لحسن آثاره في الإسلام، وصدقه في قتال المشركين.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نظر إليه وإلى عكرمة بن أبي جهل قرأ: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾؛ لأنهما من خيار الصحابة، وأبواهما أعدى عدو لله ورسوله.

وروى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إلى خالد رضي الله عنه متدليًا من هرشى فقال: «نعم المرء خالد».

وكان على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، وهو الذي كسر أكثر الأصنام، وهدم جل الأوثان التي كانت قريش تعبدها، وتسمع من أجوافها همهمةً حتى فتنت بها.

ولما هدم عزى، رمته بالشرر حتى أحرقت عامة فخذه؛ فعاده النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الجاحظ: وما أشك في أنه قد كانت للسدنة حيل وكمين لمكان التكسب، ولو سمعت أو رأيت بعض ما أعد الهند من هذه المخاريق في بيوت عبادتهم، لعلمت أن الله تعالى قد من على جملة المسلمين بالمتكلمين الذين نشؤوا فيهم.

وقال في موضع آخر: وما زالت السدنة تحتال للناس من جهة النيران بأنواع الحيل، كاحتيال رهبان كنيسة الرها بمصابيحها، حتى إن زيت قناديلها ليستوقد لهم من غير نارٍ في بعض ليالي أعيادهم.

وبمثل هذا احتال السادن لخالد بن الوليد حتى رماه بالشرر، ليوهمه أن ذلك من الأوثان عقوبةً على ترك عبادتها وإنكارها، والتعرض لها حين قال:

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

قال: وجعلت قريش وقد أهوى خالد بسيفه إلى العزى، تصيح: ياعزى خبليه، ياعزى عزريه؛ وليس ينثني من تهاويلهم، وعلاها بالسيف حتى كسرها.

وفي بعض الروايات: أن العزى كانت ثلاث شجرات سمرٍ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم خالدًا رضي الله تعالى عنه ليعضدها، فمضى خالد وعضد أكبرها وترك اثنتين؛ فلما انصرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فارجع إليها فاعضدها. فرجع فعضد الكبرى منهما، ثم أقبل ليعضد الصغرى، فإذا حبشية قد خرجت عليه من جوفها ناشرةً شعرها، واضعةً كفها على كعثبها، تصرف بأنيابها؛ فشد عليها خالد، وهو يقول:

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ضربةً فلق بها رأسها، وانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بالذي رأى، فقال: «تلك عزى، ولا عزى للعرب بعدها».

ولما قتل خالد بني جذيمة وهم من كنانة بالغميصاء، وداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد».

ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت أيام الردة، حسن بلاء خالدٍ فيها، وكان عميدًا عند أبي بكر رضي الله عنه، فبعثه إلى طليحة فهزمه، وصالح أهل اليمامة، ونكح ابنة مجاعة.

وكان إذا صار إليه المال قسمه في أهل الغزو، ولم يرفع إلى أبي بكر رضي الله عنه حسابًا.

وكان يقدم على أشياء لا يراها أبو بكر رضي الله تعالى عنه كقتله مالك بن نويرة ونكاحه امرأته من غير أن صحت ردته.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يهب سيئاته لحسناته، ويقول إذا كلمه عمر أو غيره في عزله: إني لأكره أن أغمد سيفًا سله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم إنه استعمله على الشام، فلم يزل بها حتى عزله عمر رضي الله تعالى عنه.

ولما اعتل خالد علة الموت جعل يقول: لقيت كذا وكذا زحفًا، فما في جسدي موضع إلَّا وفيه ضربة بسيفٍ، أو طعنة برمحٍ، أو رمية بسهم، وها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء!

ولما توفي لم تبق امرأة من بني المغيرة إلَّا وضعت لمتها على قبره.

ولما ارتفعت أصوات النساء عليه أنكرها بعض الناس، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: دع نساء بني المغيرة يبكين أبا سليمان، ويرقن من دموعهن سجلًا أو سجلين، ما لم يكن نقع أو لقلقة.

وكان الحجاج يقول لأبناء الملهب: هم سيوف من سيوف الله.

وكتب بعض البلغاء: ما ظنك بسيوف الله تعالى في أيدي أوليائه، وقد نصره من سمائه على أعدائه.

قوس الله

هي التي يقال لها: قوس قزح، ويشبه بها ما يقل لبثه، ولا يدوم مكثه، كما قال العلوي الحماني:

فشبهت سرعة أيامهم بسرعة قوسٍ يسمى قزح
تلون معترضًا في السماء فما تم ذلك حتى نزح

وفي الخبر: لا تقولوا: قوس قزح، ولكن قولوا: قوس الله: فإن قزح من أسماء الشياطين.

ويجوز أن يكون: سميت بهذا الاسم وأضيفت إلى الله تعالى لأنها من فعل الله، وسائر القسي من بري الناس وفعلهم.

وقد سماها الوأواء الدمشقي: قوس السماء، في قوله:

أحسن بيومٍ ترى قوس السماء به والشمس مسفرة، والبرق خلاس

كنها قوس رامٍ، والبروق لها رشق السهام، وعين الشمس برجاس

وسماها سيف الدولة: قوس السحاب، في قوله؛ وأنشدنيه أبو الحسن الإفريقي المتيم، قال: أنشدني سيف الدولة لنفسه، وهو أحسن ما قيل في وصفها:

وساقٍ صبيحٍ للصبوح دعوته فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجمٍ فمن بين منقض علينا ومنقض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفًا على الجو دكنًا والحواشي على الأرض
تطرزها قوس السحاب بأحمرٍ على أصفرٍ في أخضرٍ إثر مبيض
كأذيال خوذٍ أقبلت في غلائلٍ مصبغةٍ والبعض أقصر من بعض

رمح الله

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا ذكر الكوفة قال: هي رمح الله، وفيها جمجمة العرب، وكنز الإيمان. كأنه أراد أن أهلها سلاح على أعداء الله في المحاربة.

كلب الله

قال الجاحظ: يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعتبة بن أبي لهب: «أكلك كلب الله»، فأكله الأسد. ففي هذا الخبر فائدتان: إحداهما: أنه ثبت بذلك أن الأسد كلب الله.

والثانية: أن الله تعالى لا يضاف إليه إلَّا العظيم من جميع الأشياء من الخير أو الشر؛ أما الخير فكقولهم: بيت الله، وأهل الله، وزوار الله، وكتاب الله، وسماء الله وأرض الله، وخليل الله، وكليم الله، وروح الله، وأشباه ذلك.

وأما الشر فكقولهم: دعه في لعنة الله تعالى، ويخطه، وأليم عذابه؛ ودعه في نار الله وسقره.

نار الله

قال الجاحظ: كل شيءٍ أضافه الله تعالى إلى نفسه فقد عظم شأنه وشدد أمره؛ وقد فعل ذلك بالنار، فقال: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾.

وحكى أبو منصور العبدوني الكاتب، قال: تنجزت جوازًا لرجلٍ قبيح الخلق، وحش الصورة، غايةٍ في الدمامة والسماجة؛ فلم يقدر الكاتب على تحليته، فكتب: يأتيك بهذا الجواز آية من آيات الله تعالى ونذره، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره.

وقرأت في أخبار أبي دلامة زند بن الجون أنه أخذ ليلةً وهو سكران، فخرق طيلسانه، وحبس، فكتب من الغد إلى المنصور أبياتًا منها:

أمن صهباء صافية المزاج	كأن شعاعها ضوء السراج
وقد طبخت بنار الله حتى	لقد صارت من النطف النضاج
أقاد إلى السجون بغير جرمٍ	كأني بعض عمال الخراج
أمير المؤمنين فدتك نفسي	علام حبستني وخرقت ساجي
ألا إني وإن لاقيت شرًا	لخيرك بعد هذا الشر راج

فاستدعاه واستنشده الأبيات، فأنشده إياها، فأمر له بألف درهمٍ، فلما ولى ليخرج، قال الربيع: أفهم أمير المؤمنين معنى قوله: وقد طبخت بنار الله؟ قال: فما عنى بها؟ قال: عنى بها الشمس. فقال: علي به؛ فلما جاء قال: يا عدو الله، ما عنيت بنار الله؟ قال: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۞ الَّتِي تَطَّلِعُ﴾ على فؤاد من أخبرك يا أمير المؤمنين.

فضحك منه وأمره بالانصراف.

شمس الله

عهدي بالأمير السيد أدام الله تأييده ينشدني فائية ديك الجن، من أولها إلى آخرها؛ وهي فائقة رائقة، يزداد حسنها لجريها لسانه، وتكتسي شعارًا أنيقًا من عباراته، ومنها:

وصفراوين من حلب الأماني	إذا جليت ومن حلب القطاف

أدرا منهما فلكًا وشمسًا وشمس الله مسرجة الغلاف

ظل الله

يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «السلطان ظل الله في أرضه». وأنشدني أبو الفتح علي بن محمد البستي لنفسه:

يا قوم أرعوني أسماعكم حتى أؤدي واجب الفرض
أشهد حقًّا أن سلطانكم ليس بظل الله في الأرض

سعد الله

قال الأصمعي: من أمثال العرب: أسعد الله أكثر أم جذام.

وهما حيان بينهما فضل بين لا يخفى إلَّا على جاهل لا يعرف شيئًا؛ قال الشاعر:

لقد أفحمت حتى لست تدري أسعد الله أكثر أم جذام

وضمن الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد معظم هذا البيت شعرًا له، كتب به في صباه إلى بعض إخوانه، فمنه قوله:

كتبت وقد سبت عقلي المدام وساعدني على الشرب الندام
وأسرفنا فما ندري لسكرٍ أسعد الله أكثر أم جذام

وسعد من خير قبائل العرب، مخصوصة بالفصاحة وحسن البيان، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مسترضعًا فيهم، وظئره حليمة السعدية هي التي تسلمته من عبد المطلب، فحملته إلى المدينة، فكانت ترضعه وتحسن تربيته.

ولما ردته إلى مكة نظر إليه عبد المطلب وقد نما نمو الهلال، وهو يتكلم بفصاحةٍ، فامتلأ سرورًا، وقال: جمال قريشٍ، وفصاحة سعدٍ، وحلاوة يثرب.

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «أنا أفصح العرب، بيد أني من قريشٍ، ونشأت في بني سعد بن بكر، فأنى يأتيني اللحن!».

وكان شبيب بن شيبة من أفصح الخطباء، وهو من بني سعد، وفيه يقول أبو نخيلة:

إذا عدت سعد على شبيبها على فتاها وعلى خطيبها
من مطلع الشمس إلى مغيبها عجبت من كثرتها وطيبها

ناقة الله

النوق وغيرها من المخلوقات كلها لله، ولكن هذه الناقة لما كانت آيةً من آيات الله تعالى، ومعجزةً لنبيه صالح عليه السلام، خصت بالإضافة إلى الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ وذلك أن ثمود قالوا لصالح: إن أردت أن نؤمن بك فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقةً عشراء تبرك بين أيدينا، وتمخض كما تمخض النوق الحوامل، وتنتج سقبًا مثلها.

فصلى صالح ركعتين، ودعا الله تعالى فانشقت الصخرة عن ناقةٍ عظيمة الخلق، حسنة الصورة؛ فبركت بين أيديهم، وتمخضت، ونتجت سقبًا مثل أمه في عظم الخلقة. فقال لهم صالح عن الله تعالى: ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾. فاقتسموا الماء، فكان لهم يوم، وللناقة يوم؛ فإذا كان يوم الناقة توسعوا في اللبن ما شاؤوا، وإذا كان يومهم لم يكن للناقة ماء.

فنفسوا عليها بشرب يومها، وتآمروا في عقرها، فقال لهم صالح: هذه ناقة الله لكم آيةً فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب أليم، فانبعث أشقاها قدار بن سالف وعقرها بأمرهم تمردًا؛ فرفع السقب رأسه إلى السماء، ورغا بحنينٍ وأنينٍ.

فقال لهم صالح عليه السلام: تمتعوا في داركم ثلاثة أيامٍ. ثم جاءهم العذاب في اليوم الرابع،» فأخذتهم الرجفة، فأصبحوا في دارهم جاثمين».

وصارت ناقة الله مثلًا سائرًا على وجه الدهر؛ وربما قيل لها: ناقة صالح.

وصار عاقرها مثلًا في الشقوة والشؤم، وهو أحمر ثمود.

وصارت ثمود مثلًا في الفناء والهلاك.

ومن طريف التمثيل بهذه القصة قول والي اليمامة في خطبته: أيها الناس، لا تجترئوا على الله، فإنه لا يقار على المعاصي عباده، ولقد أهلك أمةً عظيمةً من أجل ناقةٍ قيمتها ثلاثمائة درهم. فسمي: مقوم الناقة.

وقد أكثر الناس من ضرب المثل بهذه الناقة؛ ومن مليح ذلك قول بعضهم في العتاب والاقتضاء:

وائج الناس كلها قضيت وحاجتي لا أراك تقضيها
أناقة الله حاجتي عقرت أم نبت الحرف في حواشيها

وضرب بها ابن الرومي المثل فقال وهو يصف إنسانًا بشدة الأكل:

شبه عصا موسى ولكنه لم يخلق الله لها فاها
رفقًا بزاد القوم لا تفنه يا ناقة الله وسقياها

نهر الله

من أمثال العامة والخاصة: إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل وإذا جاء نهر الله بطل نهر عيسى.

ونهر معقل بالبصرة، ونهر عيسى ببغداد، وعليهما أكثر الضياع الفاخرة، والبساتين النزهة.

وإنما يريدون بنهر الله: البحر والمطر والسيل، فإنها تغلب سائر المياه والأنهار وتطم عليها، ولا أعرف نهرًا مخصوصًا بهذه الإضافة سواهما.

ومما يجري مجرى المثل المذكور، قول الشاعر:

إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السحر والساحر

خاتم الله

يراد بذلك ثلاثة أشياء: اثنان منها للخاصة، وواحد للعامة. أما اللذان للخاصة، فقولهم للدراهم والدنانير خاصةً: خاتم الله.

وفي الخبر: كنوز الله في أرضه، فمن أردها فليأتها بخاتمه. وقولهم في الكناية عن العذرة: خاتم الله. قال ابن الرومي في فتنة البرقعي:

كم رضيعٍ هناك قد فطموه بشبا السيف قبل وقت الفطام
كم من فتاة بخاتم الله بكرٍ فضحوها جهرًا بغير اكتتام

وأما الذي للعامة والعجم فقولهم للصوم: خاتم الله. وقولهم عند الحلف بالله على الصوم: لا والذي خاتمه على فمي.

رحمة الله

قال سليمان بن عبد الملك لأبي حازم الأعرج، وقد خوفه عذاب الله في موعظته له حتى أبكاه: فأين رحمة الله؟ فقال أبو حازم: قريب من المحسنين.

وكانت بالبصرة جارية تسمى: رحمة الله؛ يشبب بها بشار بن برد، فقال أبو نواس يذكرها بشارًا، ويضمن شعره بيتًا له يجري مجرى المثل لحسنه وسلامته:

أحببت من شعر بشارٍ لحبكم بيتًا لهجت به من شعر بشار
يا رحمة الله حلي في منازلنا وجاورينا فدتك النفس من جار

ستر الله

في مناجاة بعض الصالحين: يا رب غرني سترك المرخى علي، فعصيتك بجهلي، فالآن من عذابك من يستنقذني! وبحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني!

وفي الدعوات المأثورة: اللهم استرنا بسترك الجميل، وأظلنا بظلك الظليل.

وقرأت على سترٍ من ستور الموصل: هذا ستر حسن، وستر الله أحسن. فأما قول الشاعر:

رمتني وستر الله بيني وبينها ونحن بأكناف الحجاز، رميم

فقد اختلفت أقوال أصحاب المعاني فيه؛ فمن قائلٍ: إنه أراد به الإسلام؛ وقائل: إنه أراد به الشيب؛ وقال ثالث: إنه أراد به الكعبة.

ولما أراد الحسن البصري الحج، قال له ثابت البناني: يا أبا سعيد، بلغني أنك تريد الحج، فأحببت أن نصطحب؛ فقال: ويحك! دعنا نتعايش بستر الله، إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعضٍ ما نتماقت عليه.

يد الله

قال الله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

ومن أبيات التمثيل والمحاضرة قول من اقتبس من قوله تعالى، فقال:

وما من يدٍ إلَّا يد الله فوقها ولا ظالم إلَّا سيبلى بظالم

وسمعت أبا نصرٍ سهل بن المَرْزُبان يقول: قال أبو العيناء: كان لي خصوم ظلمة، فشكوتهم إلى أحمد بن أبي داود، وقلت له: إن القوم قد تضافروا علي، وصاروا يدًا واحدة علي؛ فقال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ فقلت: إن لهم مكرًا، فقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، فقلت: هم كثير وأنا واحد، فقال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وأنشدت ببخارى للمرادي في بكر بن مالك لما قلد سياسة الجيش بخراسان:

قلد الجيش سيد هو جيش على حده
يد بكرٍ وسيفه ويد الله واحده

عمال الله

هم الذين يعملون لله، فإما يشتغلون بعبادته، وإما يجاهدون في سبيله.

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقومٍ يربعون حجرًا، فقال: عمال الله أقوى من هؤلاء.

وفي بعض الروايات: أنه قال: ألا أخبركم بأشدكم؟ قالوا: بلى، قال: من ملك نفسه عند الغضب.

سبيل الله

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من قطرةٍ أحب إلى الله من قطرة دمٍ في سبيله، أو قطرة دمعٍ في جوف الليل من خشيته».

باب الله

قلت في كتابي المبهج: سبحان من بابه غير مرتجٍ لمرتج.

وقال علي بن الجهم:

وأفنية الملوك محجبات وباب الله مبذول الفناء

نور الله

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل».

حراس الله

عن ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن لله تعالى حراسًا في السماء وفي الأرض، فحراسه في السماء الملائكة، وحراسه في الأرض الذين يأخذون الديوان».

آمان الله

عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تطرقوا الطير في أوكارها، فإن الليل أمان الله».

وفي بعض الأخبار: أنه نهى عن البيات، وقال: الليل أمان الله عز وجل.

ميزان الله

قال بعض الحكماء: العدل ميزان الله، فلذلك هو مبرأ من كل ميلٍ وزلل.

وعن بعض السلف: العدل ميزان الله، والجور مكيال الشيطان.

خالصة الله

عون بن عبد الله، قال: كان يقال: من كان في صورة حسنة، ومنصب لا يشينه، ووسع عليه الرزق، كان من خالصة الله تعالى.

موائد الله

يروى عن الحسن البصري رحمه الله: الأسواق موائد الله تعالى في أرضه، فمن أتاها أصاب منها.

عين الله

قلت في كتاني المترجم بالمبهج: الملك العادل مكنوف بعون الله، محروس بعين الله.

وقلت من قصيدة السلطان الماضي:

يا قاهر الملك ويا خاتم الـ ـأملاك بين الأخذ والصفح
عليك الله من فاتح للأرض مستول على النجح

رایاته تنطق بالنصر بل تكاد تملي كتب الفتح

أمر الله

الرياشي قال: ما اعتراني هم فأنشدت قول أبي العتاهية:

هي الأيام والغير وأمر الله ينتظر
أتياس أن ترى فرجًا فأين الرب والقدر

إلا سري عني، وتنسمت ريح الفرج.

وسمعت أبا بكر الخوارزمي يقول: لم أسمع في وصف الطفيلي أبلغ من القول الحمدوني:

أراك الدهر تطرق كل دارٍ كأمر الله يحدث كل ليلة

طراز الله

قرئ على عصابة بعض جواري الخلفاء: مما عمل في طراز الله فاستعمل الصاحب هذه الاستعارة المليحة، في شعرٍ له حيث قال:

هذا علي في محاسنه كأنما حسبه أن يبلغ الأملا
وكم أقول وقد أبصرت طلعته: هذا الذي في طراز الله قد عملا

وقال أيضًا:

رأيت عليًا في كمال جماله فشاهدت منه الروض ثاني مزنه
ولما تبدى في طراز عذاره رأيت طراز الله في ثوب حسنه

وقال بعض أهل العصر:

ديباجة الوجه من عليٍ معمولة في طراز ربي
فحسنه ملء كل عينٍ وحبه ملء كل قلب

خلافة الله

كان أبو الفتح البستي يستحسن قولي في كتابي: الملك خليفة الله في عباده وبلاده، ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته.

وكان يقول: بودي أنه لي ببعض كلامي.

لعنة الله

أنشدني أبو بكر الخوارزمي لبعضهم:

لعنة الله والرسول وأهل الـ ـأرض طرًا على بني مظعون
بعت في الصيف قبة الخيش فيهم ورهنت الكانون في كانون

وبلغني عن الصاحب أنه كان يقول: لم أسمع جوابًا أظرف وأوقع وأبلغ من جواب عبادة؛ فإنه قال الرجل: من أين أقبلت؟ من لعنة الله. فقال: رد الله عليك غربتك!

سجن الله

عن النبي صلى الله عليه وسلم «الحمى رائد الموت، وسجن الله في الأرض، وقطعة من العذاب».

وفي خبرٍ آخر: «الحمى سجن الله في أرضه، يحبس فيها عباده إذا شاء، ويطلقهم إذا شاء».

بنيان الله

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من هدم بنيان الله فهو ملعون». يعني: من قتل نفسًا. وهذه من استعاراته التي لا شيء أحسن منها صلى الله عليه وسلم.

صبغة الله

قال الله عز من قائل: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾.

وقلت في الكتاب المبهج: تعالى الله ما أبدع صنعته، وأحسن صبغته، وألطف صيغته!

وفد الله

كتب الصاحب أبو القاسم: الحجيج وفد الله، وهم له متاجرون، وفي طلب ثوابه مسافرون، وإلى بيته الحرام سائرون، ولقبر نبيه صلى الله عليه وسلم زائرون.

وقلت في الكتاب المبهج: بشر وفد الله بفوائد الدارين.

الباب الثاني

فيما يضاف وينسب إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وصي آدم، شهرة آدم، سفينة نوح، غراب نوح، عمر نوح، مقام إبراهيم، نار إبراهيم، صحف إبراهيم، ضيف إبراهيم، تحفة إبراهيم، وعد إسماعيل، ناقة صالح، رؤيا يوسف، ذئب يوسف قميص يوسف، حسن يوسف، سنو يوسف، ريح يوسف، عصا موسى، نار موسى، يد موسى، بقية قوم موسى، لطمة موسى، خليفة الخضر، صبر أيوب، حوت يونس، درع داود، نغمة داود، مزامير داود، خاتم سليمان، جن سليمان، سير سليمان، ملك سليمان، حمار عزير، طب عيسى، دم يحيى بن زكريا، بردة النبي صلى الله عليه وسلم، داء الأنبياء عليهم السلام، فقر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

الاستشهاد

وصي آدم

إذا كان الإنسان فضوليًا داخلًا فيما لا يعنيه، متكلفًا ما لا يلزمه من التطفل على أمور الناس، والتهالك في الاشتغال بها، قيل: فلان وصي آدم. وقد توضع هذه الصفة مكان المدح، كما قال الشاعر:

وكأن آدم حين حم حمامه ... أوصاك وهو يجود بالحوباء
ببنيه أن ترعاهم فرعيتهم ... وكفيت آدم عيلة الأبناء

ومنه أخذ أبو العيناء معنى كلامه في الحسن بن سهل، وقد سأله عنه محمد بن عبد الله بن طاهر، فقال: خلف آدم عليه السلام في ولده، فهو يسد خلتهم، وينقع غلتهم، وقد رفع الله تعالى للدنيا من شأنها إذ جعله من سكانها، وذوي الأمر فيها. ولما نعي الحسن إليه قال: لئن أتعب المادحين، لقد أطال بكاء الباكين، ولقد كان بقيةً وفي الناس بقية، فكيف الآن وقد أودت البرية.

شهرة آدم

يضرب بها المثل وحقت. قال أبو عبد الله بن الحجاج من أبياتٍ، وكتبها إلى بعض الرؤساء، وهو يشكو بوابًا له أنكره، ولم يأذن له:

خادمكم يشكو وقد جاءكم غلظة بوابكم الخادم
أنكرني عنكم عن زعمه فلم أزل في عجبٍ دائم
لأني من بني آدمٍ مذ خلقوا أشهر من آدم

سفينة نوح

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن عترتي كسفينة نوح، من ركب فيها نجا، ومن تأخر عنها هلك».

وأخذ هذا المعنى أبو عثمان الخالدي، فقال من قصيدة:

أعاذل إن كساء التقى كسانيه حبي لأهل الكساء
سفينة نوحس فمن يعتلق بحبلهم يعتلق بالنجاء

وقد تضرب سفينة نوحٍ مثلًا للشيء الجامع؛ لأن نوحًا حمل فيها من كل زوجين اثنين؛ كما يضرب المثل في ذلك المعنى بجامع سفيان.

قال بعض العصريين:

يا طبيبًا منجمًا وفقيهًا شاعرًا شعره غذاء الروح

فهو طورًا كمثل جامع سفيا ن وطورًا يحكى سفينة نوح

وقال الجاحظ: قال أبو عبيدة: زعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار: أن أهل سفينة نوحٍ كانوا قد تأذوا بالفأر، فعطس الأسد عطسةً من منخريه بزوج سنانير، فلذلك السنور أشبه شيءٍ بالأسد. وسلح الفيل زوج خنازير، فلذلك الخنزير أشبه شيءٍ بالفيل.

قال كيسان لأبي عبيدة: فينبغي أن يكون ذلك السنور هو آدم السنانير، وتلك السنورة حواءها. فقال أبو عبيدة وضحك منه: أو لم تعلم أن لكل جنسٍ من الحيوان آدم وحواء! فضحك القوم من ذلك.

غراب نوح

يضرب مثلًا للرسول الذي لا يعود، أو يبطئ عن ذي الحاجة من غير إنجاحٍ، وذلك أن نوحًا عليه السلام أرسل الغراب من السفينة ليأتيه بخبر الماء، فاشتغل بميتةٍ وجدها، ولم يعد إلى نوحٍ حتى أرسل مكانه الحمامة، فجاءته بالخبر.

قال الجاحظ: يقال في المثل: فلان لا يرجع حتى يرجع غراب نوح. كما يقول أهل البصرة: حتى يرجع نشيط من مرو. وكما يقول أهل الكوفة: حتى يرجع مصقلة من سجستان. وكما تقول العرب: حتى يئوب القارظ العنزي.

وقال بعض الشعراء في قصةٍ له:

وندمانٍ بعثت به رسولًا فأهمل حاجتي كغراب نوح
ورأى في الدير بدرًا مستنيرًا فساعده على دين المسيح

عمر نوح عليه السلام

يضرب مثلًا في الطول. قال وهب بن منبه: كان عمر نوح عليه السلام ألف سنة، لأنه بعث إلى قومه وهو ابن خمسين سنةً، ولبث يدعوهم إلى أن مات تسعمائة وخمسين سنةً. فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾.

ويروى أنه عايش ثلاثة قرون منهم، وعمر فيهم وهم لا يحبونه، ولا أتبعه منهم إلَّا القليل، كما ذكره عز ذكره، قال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

وقد أكثر الناس التمثيل بعمر نوحٍ نظمًا ونثرًا؛ قال محمد بن مكرم، لأحمد بن إسرائيل:

قل لابن إسرائيل: يا أحمد عمرك في العالم لا ينفد
إن زمانًا أنت مستوزر فيه، زمان عسر أنكد
يا لبد الدهر ويا عوجه أنت كنوحٍ عمره سرمد

وقال آخر:

يحتاج راجي نوالهم أبدًا إلى ثلاثٍ بغير تكذيب
كنوز قارون أن تكون له، وعمر نوحٍ، وصبر أيوب

وقال أبو العتاهية:

لتموتن وإن عمـ ـرت مل عمر نوح
فعلى نفسك نح إن كنت لا بد تنوح

وقرأت للصاحب فصلًا من كتابٍ له إلى أبي محمد العلوي، علق بحفظي منه في ذكر نوحٍ صاحبه وكان بعث به رسولًا إليه: وأما صلته ولي بره بوسيمه، وإنفاذه للتهنئة نوحًا أبقى الله سيدي بقاء سمية، فقد أطاع فيه خلقًا طالما وردنا حياضه، فارتوينا من كرمٍ غمرٍ، وقصدنا رياضه فرعينا من شرفٍ دثرٍ.

مقام إبراهيم عليه السلام

يضرب مثلًا لكل مكانٍ شريفٍ، ومقامٍ كريمٍ.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. ويروى أنه كان فيه أثر عقبيه وأصابعه، فما زالت الأمة تمسحه حتى عفا الأثر.

ومن أحسن ما سمعت في ضرب المثل به، ما أنشده أبو إسحاق الصابي لعلي بن هارون بن علي بن يحيى المنجم في ابن أبي الحواري، وقد عرضت له سقطة وثئت رجله منها:

كيف نال العثار من لم يزل منـ ـه مقيلًا في كل خطبٍ جسيم
أو ترقى الأذى إلى قدمٍ لم تخط إلَّا إلى مقامٍ كريم
كمقام النبي أحمد أو مثـ ـل مقام الخليل إبراهيم

نار إبراهيم عليه السلام

يضرب بها المثل في البرد والسلامة. ويروى أن إبراهيم عليه السلام لما قذف به في النار، بعث الله له ملكًا يقال له: ملك الظل، فكان يحدثه ويؤنسه، فلم تصل النار إلى أذاه، مع قربه من طباع ذلك الملك؛ قال الله عز ذكره: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

وقد شبه بها ابن الرومي الخمر، فقال:

وعاتقةٍ زفت لنا من قرى كوثى تلقب أم الدهر بل بنته الكبرى
رأت نار إبراهيم أيام أوقدت وحازت من الأوصاف أوصافها الحسنى
حكت نورها في بردها وسلامها وباتت بطيب لا يوازى ولا يحكى

وتعاطى ابن المعتز هذا التشبيه، فأوجز حيث قال:

ومشمولةٍ قد طال بالقفص لبثها حكت نار إبراهيم في اللون والبرد

ولنار إبراهيم مكان آخر من باب النيران في هذا الكتاب.

صحف إبراهيم

عن وهب بن منبه، قال: أنزل الله تعالى على إبراهيم عشرين صحيفةً، كلها أمثال وعبر وتسبيح وتحميد؛ وكان مما فيها: أيها الملك المسلط، المغرور المبتلى، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولتبني

المدائن والحصون؛ ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها ولو كانت من كافر.

وفي بعض الروايات: إنها ردت إلى السماء فلم يبق في أيدي الناس منها شيء.

وقد يضرب بها المثل في الشيء المتروك المنسي؛ كما قال الصاحب في رسالةٍ له إلى بعض إخوانه: ونسيتني وما كان حقي أن أنسى، وطويتني في صحف إبراهيم وموسى.

ضيف إبراهيم

يضرب مثلًا للضيف الكريم؛ لأن الله تعالى يقول في قصته: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾. قال المفسرون: إنما قال ذلك لأن إبراهيم عليه السلام قام عليهم بنفسه، ثم ما لبث أن جاء ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ ❋ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

ومن كرامة الضيف تعجيل قراه؛ قال الشاعر:

أسأتم وأبطأتم على الضيف بالقرى وخير القرى للنازلين المعجل

وقرأت في أخبار الحسين الجمل المصري أنه دخل على قادمٍ من مكة، وعنده قوم يهنئونه، وبين أيديهم أطباق من الحلواء، وليس يمد أحد منهم يده إليها، فقال: يا قوم: والله لقد ذكرتموني ضيف إبراهيم؛ قالوا: وكيف؟ فقرأ: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾، ثم قال: كلوا رحمكم الله! فضحكوا من قوله، وأكلوا وأكل معهم.

تحفة إبراهيم

هي اللحم؛ ويحكى أن الشعبي دخل على صديقٍ له فتحدثا ساعةً؛ فلما أراد القيام قال له: لا نفترق إلَّا عن ذواقٍ؛ قال الشعبي: فأتحفني بما عندك، ولا تتكلف لي ما لا يحضرك؛ فقال: أي التحفتين أحب إليك؟ تحفة إبراهيم أم تحفة مريم؟ قال الشعبي: أما تحفة إبراهيم فعهدي بها الساعة، وأريد تحفة مريم؛ فدعا له بطبقٍ من رطبٍ.

وإنما عني بتحفة إبراهيم: اللحم؛ لأن في قصته: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

وعنى بتحفة مريم: الرطب؛ لأن في قصتها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

وعد إسماعيل

يضرب به المثل في الصدق، لأن الله عز ذكره أثنى عليه بصدق الوعد، فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

وكان العلاء بن صاعد وعد البحتري مائة دينار يصله بها، فلما حصل منها على الخلف كتب إليه أبياتًا، منها:

المائة الدينار منسية	في عدةٍ أوسعتها خلفا
لا صدق إسماعيل فيها ولا	وفاء إبراهيم إذ وفى
إن كنت لا تنوي نجاحًا لها	فكيف لا تجعلها ألفا

ناقة صالح

هي ناقة الله التي تقدم ذكرها في الباب الأول، ويقال لها: ناقة صالح.

وكثيرًا ما يضرب المثل بها من ينبه على براءة ساحته، أو خفة جرمه، فيقول: إني لم أعقر ناقة صالح.

رؤيا يوسف

تضرب مثلًا للرؤيا الصحيحة الصادقة.

إذ كان عليه السلام رأى في المنام وهو ابن اثنتي عشرة سنة أحد عشر كوكبًا، والشمس والقمر له سجدًا؛ فلما قصها على أبيه يعقوب عليه السلام، قال له: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

فلما كان من شأنه ما كان، وملك مصر، ودخل عليه إخوته وأبواه ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾.

ولما قال المهدي لعبد الله بن أبي عبيد الله الكاتب وكان يتهمه بالزندقة قد رأيت لك رؤيا قبيحة. فقال: يا أمير المؤمنين، ليست برؤيا يوسف. فغضب المهدي، وأنشد:

ومطلعٍ من نفسه ما يسره عليه من اللحظ الخفي دليل
إذا المرء لم يبد الذي في ضميره ففي اللحظ والألفاظ منه دليل

ذئب يوسف

يضرب مثلًا لمن يرمى بذنبٍ جناه غيره، وهو بريء الساحة منه.

قال أبو عبد الله بن الحجاج الكاتب:

قد أذنب القوم وألزمته كأنهم أولاد يعقوب
إذ جعلوا يوسف في جبه وركبوا الذنب على الذيب

قال الجاحظ: قال أبو علقمة: إن اسم الذئب الذي أكل يوسف: رغمون، فقيل له: إن يوسف لم يأكله الذئب، وإنما كذبوا عليه؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾. قال: فهذا اسم الذئب الذي لم يأكله. قيل: فينبغي أن يكون هذا الاسم لجميع الذئاب، فإن الذئاب كلها لم تأكله.

وللبديع الهمذاني من فصلٍ له: كذب القميص، لا ذنب للذيب في تلك الأكاذيب.

قميص يوسف

أجرى الله تعالى أمر يوسف عليه السلام من ابتدائه إلى انتهائه، على ثلاثة أقمصةٍ؛ أولها: قميصه المضرج بدمٍ كذبٍ؛ والثاني: قميصه الذي قد من دبرٍ؛ والثالث: قميصه الذي ألقي على وجه أبيه فارتد بصيرًا. ولكل من هذه الأقمصة موضع من ضرب المثل وإجراء النادرة.

أما القميص الأول فيروى أن إخوة يوسف لما قالوا لأبيهم: ﴿إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾، قال لهم: أروني قميصه؛ فأروه إياه مضرجًا بالدم غير ممزق. فقال: تالله ما رأيت ذئبًا أحلم من هذا ولا أرفق! أكل ابني ولم يمزق قميصه!

وأنشدني أبو عبيد الله المَرْزُباني في كتابه: كتاب المستنير، لأبي الشيص:

وقائلةٍ وقد بصرت بدمعٍ ... على الخدين منهمرٍ سكوب
أتكذب في البكاء وأنت خلو ... قديمًا ما جسرت على الذنوب
جفونك والدموع تجول فيها ... وقلبك ليس بالقلب الكئيب
نظير قميص يوسف يوم جاؤوا ... على لباته بدمٍ كذوب
فقلت لها: فداك أبي وأمي ... رجمت لسوء ظنك بالغيوب

وأما القميص الثاني: فلأبي الحارث جمينٍ فيه نادرة ظريفة، وهي: أنه رئي في ثياب متخرقةٍ؛ فقيل له: ألا يكسوك محمد بن يحيى فقال: لو كان له بيت مملوء إبرًا، وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء، والملائكة ضمناء، يطلب إبرةً ليخيط بها قميص يوسف الذي قد من دبر، ما أعاره إياها! فكيف يكسوني؟

ونظم هذا المعنى من قال:

لو أن دارك أنبتت لك واحتشت ... إبرًا يضيق بها فناء المنزل
وأتاك يوسف يستعيرك إبرةً ... ليخيط قد قميصه لم تفعل

وقال العباس بن الأحنف:

وقد زعمت جمل بأني أردتها ... على نفسها، تبًا لذلك من فعل
سلوا عن قميصي مثل شاهد يوسفٍ ... فإن قميصي لم يكن قد من قبل

وأما القميص الثالث: فهو مثل سائر في لطف الموقع؛ كما قال أبو الطيب المتنبي:

كأن كل سؤالٍ في مسامعه ... قميص يوسف في أجفان يعقوب

وقال أبو عثمان الخالدي للمهلبي الوزير، وذكر معز الدولة:

إن غبت أودعك الإله حياطةً وإذا قدمت أباحك الترحيبا
ويكون من مقةٍ كتابك عندنا كقميص يوسف إذ أتى يعقوبا

ولبلغاء المترسلين لا سيما أهل العصر منهم في التمثيل بهذا القميص نكت وغرر.

فمنها فصل للأمير السيد أبي الفضل من رسالةٍ إلى أبيه: وصل كتاب مولانا فعددت يوم وروده عيدًا، أعاد عهد لسرور جديدًا؛ ورد طرف الحسود كليلًا، وقد كان حديدًا؛ ولم أشبهه في إهداء الروح ورد الشفاء، وتلاقي الروح بعد أن أشفت على المكروه كل الإشفاء؛ إلَّا بقميص يوسف حين تلقاه يعقوب عليهما السلام من البشير، وألقاه على وجهه فنظر بعين البصير؛ فكم أوسعته لثمًا واستلامًا، والتقطت منه بردًا وسلامًا، حتى لم تبق غلة في الصدر إلَّا بردتها، ولا غمة بالنفس إلَّا طردتها، ولا شريعة من الأنس إلَّا رويت منها وقد وردتها.

ومنها فصل لأبي العباس الضبي: وصل كتاب مولانا، فكان رحمه الله عند أيوب، وقميص يوسف في أجفان يعقوب.

حسن يوسف

يضرب به المثل في شعر العرب والعجم.

وفي الخبر: أن يوسف عليه السلام أعطي نصف الحسن، فكان النصف له والنصف لسائر الناس؛ وما الظن بمن لَمَّا ﴿رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وكان أبو عيسى بن الرشيد أحسن أهل زمانه؛ حتى إنه كان أحسن من أخيه محمد الأمين وهو المضروب به المثل في الحسن وكان يقال لأبي عيسى: يوسف الزمان.

وسيمر ذكره في موضعه من الكتاب إن شاء الله تعالى.

سنو يوسف

يضرب بها المثل في القحط والشدة، وكانت سبعًا متواترةً.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، وابعث فيهم سنين كسني يوسف»، فاستجاب الله دعاءه حتى شووا الجلد وأكلوا القد.

ومن قصة سني يوسف: أنه كان عليه السلام أعد في سني الخصب من الحنطة والشعير وسائر الحبوب في الأهراء والخزائن ما يسع أهل مصر وغيرهم.

فلما كانت السنون الشداد، جعل يوسف يبيعهم في السنة الأولى بالدراهم والدنانير، حتى استغرق دراهم مصر ودنانيرها؛ ثم باعهم في الثانية بالحلي والجواهر حتى لم يبق في أيدي الناس شيء منها؛ ثم باعهم في الثالثة بالمواشي والدواب حتى احتوى عليها كلها؛ ثم باعهم في الرابعة بالعبيد والإماء حتى لم يبقى لأحدهم عبد ولا أمة؛ ثم باعهم في الخامسة بالضياع والعقار والدور حتى جمع بين ملك مصر وملكها؛ ثم باعهم في السادسة بأولادهم حتى استرقهم؛ ثم باعهم في السابعة برقابهم حتى لم يبق بمصر حر ولا حرة إلَّا صار عبدًا وصارت أمةً له.

ثم إنه عليه لسلام، قال: لم أملك مصر لأملك أهلها، ولم أبرهم لأجفوهم؛ فأعتقهم كلهم، ورد عليهم أموالهم وأملاكهم؛ فذلك قوله عز ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾.

ريح يوسف

يضرب مثلًا فيما يحس به من أثر الشيء السار.

كما يحكى أن آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز استأذن على يعقوب بن الربيع، وهو على الشراب، فأمر برفعه والإذن له؛ فلما دخل، قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ فضحك يعقوب، وأمر برد الشراب، ونادمه يومه.

عصا موسى

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾.

قال الجاحظ: من يستطيع أن يدعي الإحاطة بما في قول موسى: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾، إلَّا بالتقريب، وذكر ما خطر على البال!

ولكنني سأذكر جملًا تدخل في باب الحاجة إلى العصا، فمنها: أنها تحمل للحية، والعقرب، والذئب، والفحل الهائج في زمن هيج الفحول؛ ويتوكأ عليها الشيخ الدالف، والسقيم المدنف، والأقطع الرجل، والأعرج، فإنها تقوم مقام الرجل الأخرى.

وتنوب للأعمى عن قائده، وتتخذ مفأدًا للملة، ومحراكًا للتنور. وهي لدق الجص والحشيش والسمسم، ولخبط الشجر؛ وهي للفيج والمكاري، فإنهما يتخذان المخاصر، فإذا طال الشوط وبعدت الغاية استعانا في حضرهما وهرولتهما في أضعاف ذلك، بالاعتماد على وجه الأرض. وهي تعدل من ميل المفلوج، وتقيم من ارتعاش المبرسم، ويتخذها الراعي لغنمه، وكل راكبٍ لمركبه، ويدخل الرجل عصاه في عروة المزود ويمسك بيده الطرف الآخر، وربما كان أحد طرفيها في يد رجلٍ، والطرف الآخر في يد صاحبه، وعليها حمل ثقيل.

وتكون إن شئت وتدًا في حائط، وإن شئت ركزتها في الفضاء وجعلتها قبلةً، وإن شئت جعلتها مظلةً، وإن جعلت فيها زجًا فكانت عنزةً، وإن زدت فيها شيئًا كانت عكازًا، وإن زدت فيها شيئًا كانت مطردًا، وإن زدت فيها شيئًا كانت رمحًا؛ وإن أردت كانت سلاحًا وسوطًا ومخصرةً.

وممن ضرب المثل بعصا موسى فأحسن وأبدع ابن الرومي، حيث قال:

مديحي عصا موسى وذلك أنني ... ضربت به بحر الندى فتضحضحا
فيا ليت شعري إن ضربت به الصفا ... أيبعث لي منه جداول سيحا
كتلك التي أبدت ثرى الأرض يابسًا ... وأبدت عيونًا في الحجارة سفحا
سأمدح بعض الباخلين لعله ... إن اطرد المقياس أن يتسمحا

ولو لم يفترع غير هذا المعنى البكر لكان من أشعر الناس؛ إذ شبه مديحه بعصا موسى التي ضرب بها البحر فيبس، وضرب بها الحجر فانبجس؛ وذلك أن ابن الرومي مدح جوادًا فبخل، فقال: سأمدح بخيلًا فلعله أن يجود على هذا المقياس.

ومن مليح ما قيل في عصا موسى، قول أبي الطيب الشعيري من أهل الشام:

قل لمن يحمل العصا حيث أمسى وأصبحا
ما حوتها يد امرئٍ بعد موسى فأفلحا

وظرف من قال:

علمت يا مجاشع بن حارثة أن العصا في الوحل رجل ثالثة

نار موسى

تضرب مثلًا للشيء الهين اليسير يطلب فيوجد بسببه العلق النفيس، والغنيمة الباردة.

قال ابن عائشة كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو، فإن موسى ذهب يقتبس النار، فكلمه الملك الجبار.

وقد أعدت ذكر هذه النار في باب النيران من هذا الكتاب.

يد موسى

يشبه بها ما يوصف بحسن البياض وشعاع النور، لقول الله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾.

قال بعض أهل العصر في الغزل:

لك صدغ كأنه قلب فرعو ن ووجه كأنه يد موسى
وفم قد أتى ببرهان عيسى فهو بالطيب منه يحيي النفوسا

واخترع ابن طباطبا العلوي في ذكر هذا البياض معنًى أحسن فيه على إساءته، حيث قال لأبي علي بن رستم:

أنت أعطيت من دلائل رسل اللـ ـه آيًا بها علوت الرؤوسا
جئت فردًا بلا أبٍ وبيمنا ك بياض فأنت عيسى وموسى

بقية قوم موسى

يضرب بهم المثل في الملال، وقلة الصبر، لأنهم لم يصبروا على طعامٍ واحدٍ، كما قال الشاعر:

وقوم موسى في الزمان البائد لم يصبروا على طعامٍ واحد

وقال أبو نواس:

أتيت فؤادها أشكو إليه فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيها خليل ولا ألفا خليلٍ كل عام
أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

وقال العباس بن الأحنف:

يا قوم لم أهجركم لملالةٍ حدثت ولا لمقال واشٍ حاسد
لكنني جربتكم فوجدتكم لا تصبرون على طعامٍ واحد

لطمة موسى

تضرب مثلًا لما يسوء أثره.

وفي أساطير الأولين: أن موسى سأل ربه أن يؤذنه بوقت موته ليستعد لذلك، فلما كتب الله تعالى له سعادة المحتضر، أرسل إليه ملك الموت، وأمره بقبض روحه بعد أن يخبره بذلك؛ فأتاه في صورة آدمي، وأخبره بالأمر، فما زال يحاجه ويلاجه؛ وحين رآه نافذ العزيمة في ذلك لطمه لطمةً؛ فذهبت إحدى عينيه، فهو إلى الآن أعور.

وفيه قيل:

يا ملك الموت لقيت منكرًا لطمة موسى تركتك أعورا

وأنا بريء من عهدة هذه الحكاية.

خليفة الخضر

يقال للرجل إذا كان جوالًا في الأسفار، جوابًا للآفاق: فلان خليفة الخضر. كما قال أبو تمام في نفسه:

خليفة الخضر من يربح على وطنٍ ... في بلدةٍ فظهور العيس أوطاني

ثم قال:

بالشام قومي، وبغداد الهوى، وأنا ... بالرقتين، وبالفسطاط إخواني

وما أظن النوى ترضى بما صنعت ... حتى تسافر بي أقصى خراسان

قال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز: أما الخضر فالناس في أمره فريقان: منكر ومكذب، ومقر ومصدق. ومعظم أهل الشرائع والنبوات يثبت عينه وإن اختلف في نعته، وإنما ينكره خواص من متكلمي الإسلام ومتخصصي الملل؛ فأما عوام ملتنا والسواد الأعظم من أهل الكتابين والمجوس، فهم على افتراق المذاهب بهم في اسمه وصفته، وفي زمانه ومدته، مطبقون على إثبات. عبدٍ لله صالحٍ، حي على الدهر، ممدودٍ له في الأجل، جوالٍ في الأرض، مغيب الشخص عن الأبصار.

وربما تجاوز جهال هذه الأمم إلى تثبيت أمورٍ هي أبعد من العقول، وأذهب في طريق الاستحالة، كاستتاره عن العيون وهو حاضر، وقصورها عنه وهو شاهد، وقطعه الأمكنة البعيدة في الأزمنة اليسيرة، وتصوره عند ذكر كل من ذكره، ومثوله بحضرة كل من دعا باسمه؛ وإن اختلفت بهم الأماكن، وتباعدت بينهم المسافة، حتى إنه ليكون في أقصى المشرق، وعند منتهى العمارة، وفي منقطع الترب ومسقط الشمس من آخر المغرب في وقتٍ واحدٍ.

وربما طوى ما بينهما في قدر رجع اللحظ، وزمان امتداد الطرف؛ إلى أكاذيب شنيعة، وحماقاتٍ عجيبةٍ.

ورب سفيهٍ ماجنٍ، وخليعٍ ماردٍ، قد استغوى ضعفة قومٍ فأعد لهم أثرًا في صخرةٍ، أو موطئ قدمٍ على صفحة أرضٍ؛ فادعى أنه رأى رجلًا حسن الهيئة والشارة، جميل الرواء والسحنة، عطر الثوب والبزة، قد ظهر في موضع كذا، أو صلى على جبل كذا، ثم أراهم ذلك الأثر؛ فلم يشك القوم أن الخضر ظهر له، وأن نعمةً من الله أهديت إليه. وكرامةً من كراماته أفيضت عليه، فاتخذوا ذلك الماجن إمامًا، وتلك البقعة مشهدًا ومثابًا.

وأكثر الرواة والعلماء، على أنه صاحب موسى، الذي قال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

وقال بعضهم: إنما كان السبب في امتداد عمره وتأخر يومه، والعلة في خلوده، واتصال حياته أنه كان على مقدمة ذي القرنين لما اقتحم الظلمات، طالبًا فيها عين الحياة، التي جرع من مائها جرعةً عاش مخلدًا، ولم يذق الموت أبدًا. قالوا: فبينا هم بين أطباق الظلمات، وفي جو لا تتخلله الأنوار، إذ هجم الخضر على تلك العين فشرب منها حتى اكتفى؛ ولحق ذو القرنين وقد غارت فلم يجد لها أثرًا، فانكفأ راجعًا، وغاب عنه الخضر سائحًا. والله سبحانه أعلم.

صبر أيوب

قصته في البلاء والصبر مشهورة، والمثل به سائر. قال ابن لَنْكك:

نحن من الدهر في أعاجيب فنسأل الله صبر أيوب
أقفرت الأرض من محاسنها فابك عليها بكاء يعقوب

حوت يونس

يشبه به النهم الأكول، الجيد الالتقام والالتهام، كما يشبه بعصا موسى.

كما كتب أبو الخطاب الصابي من العهد الذي أمره وأبا إسحق بذلك عز الدولة أبو منصور بختيار على سبيل المطايبة لبعض جلسائه، فنشأ كل منهما ما لا شيء أحسن وأبلغ منه في فنه؛ فمما أنشأه أبو الخطاب وأمره أن يتخير من أطايب ما يقرب إليه، ما لا يتعذر هضمه، ولا يبطئ استمراؤه؛ وأن يتخير صدور الدجاج، وخواصر الحملان؛ ويتجنب شحوم الكلى فإنها تمنع من الإمعان؛ وأن يحاكي حوت يونس في جودت الالتقام، وثعبان موسى في سرعة الالتهام؛ ويبادر الطرف باستراطه، ويسبق النفس بازدراده.

درع داود

قال الله عز ذكره في قصة داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾.

قال المفسرون: كان الحديد في يده كالعجين في يد أحدكم؛ وقالوا في قوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾، أي: لا تضيق ثقب مسامير الدروع فتخرق، ولا توسعها فتفلق.

قالوا: ولم يكن قبل داود عليه السلام دروع، وإنما كانت صفائح من حديد مضروبة؛ وهو أول من عملها ولبسها وألبسها.

قال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما ... داود أو صنع السوابغ تبع

وأحسن السلامي في قوله من قصيدة لعضد الدولة:

ألبستهم نسج داودٍ فنلت بهم ... ملك ابن داود إذ دانت له الأمم

نغمة داود

يضرب بها المثل في الطيب.

وكان عليه السلام إذا قام في محرابه يقرأ الزبور، عكفت عليه الوحش والطير تصغي إليه. ولذلك قال ابن الرومي في ذم صياد يرمي بقوس البندق ولا يخطئ بإصابة:

تستأنس الطير إلى قوسه ... كأنها محراب داود

وقال أبو علي البصير في جارية قارئة اسمها سكر:

أسكرتني سكر بغير شراب ... وأتت إذ أتت بأمرٍ عجاب

لم ترجع بآيةٍ من كتاب اللـ ... ـه حتى نسيت أم الكتاب

أذكرتني بصوتها صوت داو ... د يهز الزبور في المحراب

وقال بعض العرب:

لها حكم لقمانٍ وصورة يوسفٍ ونغمة داودٍ وعفة مريم
ولي سقم أيوبٍ وغربة يونسٍ وأحزان يعقوبٍ ووحشة آدم

مزامير داود

حدث أبو عاصم، عن ابن جريج، قال: سألت عطاء عن قراءة القرآن على ألحان الغناء والحداء؛ فقال: لا بأس؛ فقد حدثني عبيد بن عمير الليثي: أنه كان لداود عليه السلام مزامير يزمر بها إذا قرأ الزبور، فكان إذا اجتمع عليه الإنس والجن والوحش والطير، أبكى من حوله.

قال ابن الحجاج:

هذا ومعشوقتي مجنحة أطيب من جنحت بطنبور
لها غناء أشجى إذا نغمت من صوت داود بالمزامير

وقال المبرد: مزامير آل داود، كأنها ألحانهم وأغانيهم.

وقال غيره: إن طيب صوته، ونغمة نغمته شبهها بالمزامير، ولا مزامير ولا معازف هناك؛ والله سبحانه أعلم.

خاتم سليمان

يضرب به المثل في الشرف والعلو ونفاذ الأمر.

وذلك أن ملكه زال عنه بعدمه، وعاوده مع عوده؛ والقصة فيه معروفة سائرة؛ ويقال: إنه كان معجزةً له، كما كانت عصا موسى من معجزاته؛ وبه اقتدى الملوك بعده في اتخاذ خواتم الملوك، ودواوين الخاتم، والله سبحانه أعلم.

جن سليمان

لما سخر الله تعالى لسليمان عليه السلام، الجن والشياطين، وجعلهم يصدرون عن رأيه، ويتصرفون عن أمره، أضيفوا إليه، فقيل: جن سليمان، وشياطين سليمان.

كما قال البحتري:

كأن جن سليمان الذين ولوا إبداعها فأدقوا في معانيها

وقال غير لبعض الملوك:

شيدت قصرًا عاليًا مشرفًا بطالعتي سعد ومسعود
كأنما يرفع بنيانه جن سليمان ابن داود
لا زلت مسرورًا به باقيًا على اختلاف البيض والسود

وأنشد الجاحظ للنابغة:

إلا سليمان إذ قال المليك له قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

ثم قال: وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء بني قبل زمن سليمان بأكثر من قدر ما بيننا اليوم وبين زمن سليمان. قالوا: ولكنكم إذا رأيتم بنيانًا عجيبًا وجهلتم موضع الحيلة فيه أضفتموه إلى الشياطين، ولم تعانوه بالفكر.

وأنشد للعرجي:

سدت مسامعها لقرع مراجلٍ من نسج جن مثله لا ينسج

وقال الأصمعي: السيوف المأثورة هي التي يقال إنها من عمل الجن والشياطين لسليمان، فأما القوارير والحمامات، فذلك ما لا شك فيه.

وقال البعيث:

بني زياد لعمر الله مصنعةً ... من الحجارة لم تعمل من الطين
كأنها غير أن الإنس ترفعها ... مما بنت لسليمان الشياطين

وأحسن ما أحاضر به عن شياطين سليمان قول أبي القاسم غانم بن أبي العلاء الأصفهاني، في مرثية الصاحب:

يا كافي الملك ما وفيت حقك من ... مدحٍ وإن طال تقريظ وتأبين
فت الصفات فما يرثيك من أحدٍ ... إلا وتزيينه إياك تهجين
ما مت وحدك بل قد مات من ولدت ... حواء طرًا، بل الدنيا، بل الدين
هذي نواعي العلا مذ مت نادبة ... من بعد ما ندبتك الخرد العين
تبكي عليك العطايا والصلات كما ... تبكي عليك الرعايا والسلاطين
قام السعاة فكان الخوف أقعدهم ... واستيقظوا بعدما نام الملاعين
لا يعجب الناس منهم إن هم انتشروا ... مضى سليمان فانحل الشياطين

سير سليمان

يضرب به المثل في السرعة، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾.

ويروى أنه كان يسير في يوم واحد من اصطخر فارس إلى بيت المقدس.

وبه ضرب المثل سلم بن عمرو حيث قال للهادي، وقد ركب البريد من جرجان إلى بغداد، لما بلغه وفاة المنصور:

لما أتت خير بني هاشمٍ ... خلافة الله بجرجان
أسرع في الأرض وقد سارها ... يحكي لنا سير سليمان

ومن المسير المذكور في العرب مسير حذيفة بن بدر؛ وسيمر ذكر ذلك في الكتاب في مكانه إن شاء الله تعالى.

ملك سليمان

يضرب به المثل في الاتساع والانبساط.

وذلك أنه ملك ملكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده. وفي عوده إليه بعد ذهابه وزواله يقول الشاعر:

قد زال ملك سليمان فعاوده والشمس تنحط في المجرى وترتفع

حمار عزير

يجري ذكره في عدة مواضع؛ فمنها أنه يضرب مثلًا للمنكوب الذي ينتعش، لأن الله تعالى أحياه بعد مائة عامٍ من موته.

قال الصاحب في أبي محمد عبد الله بن محمد بن عزير، لما استوزر بعدا لنكبة:

حمار عزيرٍ ذاك لا ابن عزير

ونظر الفضل بن عيسى الرقاشي إلى حمارٍ فارهٍ تحت سلم بن قتيبة، فقال: قعدة نبيٍ، وبذلة جبار؛ ذهب إلى حمار عزير وعيسى عليهما السلام.

وقال بعض المتعصبين للحمار، والقائلين بفضله: وكيف لا أحب شيئًا أحياه الله بعد موته قبل الحشر! يعني حمار عزير.

وحكى الجاحظ، عن مقاتل بن سليمان، قال: قال موسى للخضر عليهما السلام: أي الدواب أحب إليك؟ قال: الفرس والحمار والبعير لأنها من مراكب الأنبياء.

قال الجاحظ: أما الفرس فمركب أولي العزم من الرسل، وكل من أمره تعالى بحمل السلاح وقتال الكفار؛ وأما البعير فمركب هود وصالحٍ وشعيبٍ ومحمدٍ صلى الله عليه وسلم؛ وأما الحمار فمركب عزيرٍ وعيسى عليهما السلام وبلعم.

طب عيسى

يضرب به المثل لأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله. ومن أمثال العرب: فلان يتطبب على عيسى بن مريم.

قال المتنبي:

فآجرك الإله على عليلٍ بعثت إلى المسيح به طبيبا

وقال أبو بكر الخوارزمي:

وما كنت في تريكك إلَّا كتاركٍ طهورًا وراضٍ بعده بالتيمم
وراوي كلامٍ يقتفي إثر باقلٍ ويترك قسًا جانبًا وابن أهتم
وذي علةٍ يأتي طبيبًا ليشتفي به وهو جار للمسيح بن مريم

دم يحيى بن زكريا

قال أبو عمرو بن العلاء: قيل لنا: إن في دار فلان ناسًا قد اشتملوا على سوءةٍ لهم، وهم جلوس على خمرةٍ وعندهم طنبور؛ فدخلنا عليهم في جماعةٍ من رجال الحي؛ فإذا فتًى جالس في وسط الدار وأصحابه حوله، وهم بيض اللحى، وإذا هو يقرأ عليهم دفتر شعرٍ. فقال الذي كان سعى بهم: السوءة في ذلك البيت، فإن دخلتموه عثرتم بها. قال: قلت: لا والله لا كشفت فتًى أصحابه شيوخ، وفي يده دفتر علمٍ؛ ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكريا عليه السلام.

اختلفوا في مقتل يحيى: هل هو بالمسجد الأقصى أو بغيره؟ وعن سعيد بن المسيب: قدم بخت نصر دمشق، فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفًا، فسكن؛ وقد طعن في صحة هذا القول.

بردة النبي صلى الله عليه وسلم

يضرب بها المثل في البلى والخلوقة.

فيقال: أعتق من الحنطة، وأخلق من البردة؛ ويقال: أعتق من ألا هبي، ومن بردة النبي صلى الله عليه وسلم.

وهي التي كساها رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب بن زهير، رضي اله عنه، لما أنشده قصيدته التي منها:

نبئت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

فاشتراها معاوية منه بستمائة دينار؛ فلم يزل الخلفاء يتداولونها تبركًا بها إلى يومنا هذا.

ومن ظريف التمثيل بها قول جعيفران الموسوس في رجل استوهبه جعيفران دراعة له، فقال: قد لبسها أبي، وأنا أكره أن يلبسها أحد بعده:

سألته دراعةً لباسها يحسن بي
فقال لي: أكره أن تلبسها بعد أبي
وقد رأى البردة من يلبسها بعد النبي

داء الأنبياء

قال الجاحظ: ومن المفاليج ادريس عليه السلام، وروي أن الفالج من أمراض الأنبياء.

قال: ولا أعرف إسناد هذين القولين، ومثل هذا يحتاج إلى الرواية عن الثقات، إلَّا ما حدث به عباد بن كثير الخزاعي، عن الحسن بن ذكوان، عن عبد الواحد بن قيس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «داء الأنبياء الفالج واللقوة».

قال الجاحظ: وأكثر ما يعتري الفالج المتوسطين في الأسنان، لأن الشباب كثير الحرارة، والشيخوخة كثيرة اليبس، فأكثر ما يعتري بين هذين السنين.

فقر الأنبياء

يقال ذلك لأن فقراءهم أكثر من أغنيائهم، والفقر شعار الصالحين.

ويروى أن نبيًا من الأنبياء شكا إلى الله تعالى شدة الفقر، فأوحى الله إليه: هكذا أجري أمرك عندي، أفتريد أن أعيد الدنيا من أجلك!

على أنه لا يجوز وصف الأنبياء بالفقر كما صرحوا به؛ لأن تركهم الدنيا عن قدرة، وحديث الفقر لا أصل له.

وقال البحتري:

فقر كفقر الأنبياء وغربة ... وصبابة، ليس البلاء بواحد

الباب الثالث

فيما يضاف وينسب إلى الملائكة والجن والشياطين

خط الملائكة، طاووس الملائكة، غسيل الملائكة، قوط الملائكة، سيرة الملائكة، جناح الملائكة، جناح جبريل، حربة أبي يحيى، سحر هاروت، رماح الجن، ديك الجن، كلاب الجن، ذبائح الجن، جند إبليس عليه اللعنة، إبليس الأباليس، صديق إبليس، قبح الشيطان، خطوات الشيطان، أصابع الشيطان، رقى الشيطان، مكيال الشيطان، ظل الشيطان، لطيم الشيطان، مخاط الشيطان، بريد الشيطان، وكر الشيطان، حبائل الشيطان، خمر الشيطان، رؤوس الشياطين.

الاستشهاد

خط الملائكة

يكنى به عن الخط الرديء.

ولما وصف الله الملائكة بالكتابة قال: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾، وقال: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾، ولما كان خطهم غير بين للناس — وأجود الخط أبينه — قيل في الكناية عن الخط الرديء: خط الملائكة.

وسمعت أبا القاسم الطهماني الفقيه، يقول: سمعت أبا محمد يحيى بن محمد العلوي، يقول: إنما شبه الخط الرديء بخط الملائكة، لأن أردأ الخط الرقم، وخط الملائكة الرقم، كما الله تعالى: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ❋

يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

طاووس الملائكة

كان عندنا بنَيْسابور شيخ يقال له: أبو بكر الفارسي المذكر، يقص ويذكر، وكان تفسير ابن الكلبي على طرف لسانه يهذه هذًا، ويسبب الإسراع فيه، وفي القراءة، كان يقال: هو بحذاء القرآن، كناية عن حفظه له.

وكان إذا جبريل عليه السلام، قال له: طاووس الملائكة.

وما أشك في أنه ليس أبا عذرة هذا اللقب، وإنما هو أخذ خلفٍ عن سلفٍ؛ والله أعلم.

غسيل الملائكة

هو حنظلة بن أبي عامر الأنصاري، غسلته الملائكة.

وذلك أنه خرج يوم أحدٍ فأصيب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا صاحبكم قد غسلته الملائكة»، فسئلت عن ذلك امرأته، فقالت: إنه كان معي على ما يكون عليه الرجل مع امرأته، فأعجلته حطمة بلغته في المسلمين عن الاغتسال، فخرج فأصيب.

وفيه يقول الأحوص وكان حنظلة خال أبيه:

غسلت خالي الملائكة الأبـ ـرار ميتًا أكرم به من صريع

وقد ذكر المبرد نفرًا ممن كان بينهم وبين الملائكة سبب: فمنهم: سعد بن معاذ: هبط لموته سبعون ألف ملك، لم يهبطوا إلى الأرض قبلها، وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم رجله وهو في جنازته، لئلا يطأ على جناح ملكٍ، واهتز لموته عرش الله جل وعز.

وفي ذلك يقول حسان:

وما اهتز عرش الله من موت هالكٍ سمعنا به إلَّا لموت أبي عمرو

وكبر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعًا، كما كبر على حمزة، وشم من تراب قبره ريح المسك.

ومنهم: حسان بن ثابت: قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اهجهم وروح القدس معك».

وقال في حديث آخر: «إن الله مؤيد حسان بروح القدس ما نافح عن نبيه».

وقالت عائشة: كان يوضع لحسان منبر في مؤخر المسجد، يقوم عليه فينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنهم: عمران بن حصين: كانت تصافحه الملائكة وتعوده، ثم افتقدها؛ فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إن رجالًا كانوا يأتونني لم أر أحسن وجوهًا، ولا أطيب أرواحًا منهم، ثم انقطعوا عني. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أصابك جرح فكنت تكتمه؟». قال أجل. قال: «ثم أظهرته؟». قال: قد كان ذاك. قال: «أما لو أقمت على كتمانه لزارتك الملائكة إلى أن تموت». وهذا جرح أصابه في سبيل الله.

ومنهم جرير بن عبد الله البجلي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يطلع عليكم من هذا الفج خير ذي يمنٍ، عليه مسحة ملك».

ومنهم دحية بن خليفة الكلبي، كان جبريل صلى الله عليه وسلم ينزل في صورته.

فمن ذلك: يوم بني قريظة، لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق، هبط عليه جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، أقد وضعت سلاحك، وما وضعت الملائكة أسلحتها بعد! إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، وها أنذا سائر إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ألا يصلوا العصر إلَّا في بني قريظة. وجعل يمر بالناس فيقول: «أمر بكم أحد؟» فيقولون: مر بنا دحية بن خليفة على بغلةٍ، وعليه قطيفة خز، نحو بني قريظة. فيقول: «ذاك جبريل». ثم مر بهم دحية بعد ذلك. وكان لا يزال بعد ذلك ينزل على صورته.

كما ظهر إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم الكناني، وفي صورة الشيخ النجدي، يوم دار الندوة، حين أشار بأن تجتمع قريش، فتضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيفٍ واحدٍ. والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوط الملائكة

قرأت وسمعت أن بقرب باب آمد صخرة عظيمة فيها صدع، يخرج منه عين ماء يشرب منه الناس والأنعام، ويقال لذلك الصدع: قوط الملائكة. والقوط بلغتهم: الفرج.

سيرة الملائكة

أنشدني أبو الفتح البستي لنفسه، في أبي سعدٍ ابن ملة الهروي:

أما الكريم أبو سعدٍ وهمته فقد غدا في العلا أعجوبة الفلك
لو استعار الورى إكسير سيرته لكان أجورهم في سيرة الملك

جناح الملائكة

قال الله تعالى في وصف الملائكة: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾.

جناح جبريل

وقد ضرب المثل في البركة والشفاء بجناح جبريل بعض أهل العصر، فقال في وصف رقعةٍ في العيادة وردت عليه:

أرقعة في عيادتي وردت أم رقية قد شفت لتعجيل
أم عوذة عن نبينا صدرت أم مسحة من جناح جبريل

حربة أبي يحيى

أبو يحيى: هو كنية ملك الموت؛ وإنما كني بهذه الكنية كنايةً عن الموت، كما كني عن اللديغ بالسليم، وعن المهلكة بالمفازة.

قال الصاحب في أخوين، مليحٍ وقبيحٍ؛ واسم المليح منهما يحي:

يحيى حلو المحيا ولكن له أخ حكى وجه أبي يحيى

وحربة أبي يحيى يراد بها المقدمة من مقدمات الموت، على جهة التمثيل والاستعارة.

قال بعض أهل العصر:

عذيري من الأيام مدت صروفها إلى وجه من أهوى يد النسخ والمحو
وأبدت بوجهي طالعاتٍ أرى بها سهام أبي يحيى مسددةً نحوي
فذاك سواد الخط ينهى عن الهوى وهذا بياض الوخط يأمر بالصحو

سحر هاروت

يضرب به المثل، وينسب إليه السحر دون صاحبه ماروت، لأن الله تعالى بدأ به، فقال: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.

وكذلك يقال: أقصر من يأجوج، ولا يقال: من مأجوج.

قال بشار بن برد:

وكأن رجع حديثها قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها هاروت ينفث فيه سحرا

وقال عبد الله بن المعتز:

أسترزق الله عطف الحب من رشأٍ يشوب تذكير عينيه بتأنيث
كأن في طرفه هاروت يقصدني منه بسحرٍ إلى الأحشاء منفوث

وقال الصاحب:

لقد ظن بدر التم نقص جماله فبعدًا لوجه البدر مع سوء ظنه

ولو أن هاروتًا رأى سحر عينه تعلم كيف السحر من حد جفنه

رماح الجن

العرب تسمي الطاعون: رماح الجن. وجاء في الحديث: «إنه وخز أعدائكم من الجن». ولما كان طاعون عمواس، قام عمرو بن العاص في الناس خطيبًا، فقال: يا أيها الناس، إن هذا الطاعون قد ظهر، وإنما هو وخز من الشياطين، ففروا منه في الشعاب.

وبلغ ذلك معاذ بن جبل، فأنكر عليه هذا القول، ثم لم يلبث أن مات فيه.

قال الجاحظ: قد كانت الطواعين تقع كثيرًا فتصير تواريخ، كطاعون عمواس، وطاعون العذارى، وطاعون الأشراف، وغيرها.

ولما ملك بنو العباس، رفع الله ببركتهم الطواعين والموتان الجارف عن بني آدم، فإنهم كانوا يحصدون حصدًا بهما، وفي ذلك يقول العماني للرشيد:

قد أذهب الله رماح الجن وأذهب التعليق والتجني

يريد أن ما كان بنو مروان يفعلونه من مطالبة الناس بالأموال، وتعذيب عمال الخراج بالتعليق والتجريد والمسال، قد ذهب.

وقالت امرأة قتل ابنها غير أكفائه:

لَعَمْرُك ما خشيت على عدي رماح بني مقيدة الحمار
ولكني خشيت على عدي رماح الجن أو إياك حار

كأنها قالت: إنما كنت أخشى على ابني طواعين الشام، أو الحارث الملك الغساني؛ فأما من يرتبط الحمير ولا يرتبط الخيل، فلم أكن أخشاه.

وقال المنصور يومًا لأبي بكر بن عياش: من بركتنا أن رفع عنكم الطاعون! فقال: لم يكن الله ليجمعكم علينا والطاعون!

قال الصولي: لما كانت سنة أربعٍ وعشرين وثلثمائة، وقع طاعون عظيم في الناس فتفانوا ببغداد وما سواها.

ديك الجن

هو عبد السلام بن رغبان الحمصي، شاعر مفلق في المحدثين، أدرك زمان المتوكل حتى قال من قصيدةٍ له:

حتى حسبت أنو شروان من خدمي   وخلت أن نديمي عاشر الخلفا

ولست أعرف السبب في تلقيبه بديك الجن، ويشبه أن يكون قال بيتًا يشتمل على ذكر ديك الجن فلقب بذلك، كما لقب كثير من الشعراء بأقوال تجري لهم مجرى الشواذ والنوادر.

كلاب الجن

قال الجاحظ: أما قول عمرو بن كلثوم:

وقد هرت كلاب الجن منا   وشذبنا قتادة من يلينا

فإنهم يزعمون أن كلاب الجن هم الشعراء.

ذبائح الجن

في الحديث: أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن ذبائح الجن. وهي أن يشتري الرجل الدار، أو يستخرج العين، وما أشبههما، فيذبح لها ذبيحة للطيرة، ويضيف جماعة.

جند إبليس

يقال ذلك للمجان والخلعاء؛ قال الشاعر:

وكنت فتًى من جند إبليس فارتقت بي الحال حتى صار إبليس من جندي

إبليس الأباليس

قال جرير من قصيدته التي فيها:

وابن اللبون إذا ما لز في قرنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس
إني ليلقي علي الشعر مكتهل من الشياطين إبليس الأباليس

وكانت الشعراء تزعم أن الشياطين تلقي على أفواهها الشعر، وتلقنها إياه، وتعينها عليه، وتدعي أن لكل فحلٍ منهم شيطانًا يقول الشعر على لسانه، فمن كان شيطانه أمرد، كان شعره أجود.

وبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بهذا الشأن أن ذكروا لهم أسماء، فقالوا: إن اسم شيطان الأعشى مسحل، واسم شيطان الفرزدق عمرو، واسم شيطان بشار شنقناق.

وفي مسحل يقول الأعشى:

وما كنت شاجردًا ولكن حسبتني إذا مسحل سدى لي القول أنطق
خليلان فيما بيننا من مودةٍ شريكان جني وإنس موفق

وقال يذكره:

ياني أخي الجني نفسي فداؤه بأفيح جياش العشيات مرجم

وقال أيضًا فيه:

دعوت خليلي مسحلًا ودعوا له جهنام، جدعًا للهجين المذمم

وقال حسان بن ثابت:

إذا ما ترعرع فينا الغلام فليس يقال له: من هوه

إذا لم يسد قبل شد الإزار فذلك فينا الذي لا هوه
ولي صاحب من بني الشيصبان فحينًا أقول وحينًا هوه

شيصبان وشنقناق: رئيسان عظيمان من الجن، بزعمهم.

ولما ادعى بشار أن شنقناق يرغب في مصاحبته ومعاونته، قال:

دعاني شنقناق إلى خلف بكرةٍ فقلت: اتركني، فالتفرد أحمد

يقول: أحمد لي في الشعر ألا يكون لي عليه معين.

قال أعشى بني سليم، يرد عليه:

إذا ألف الجني قردًا مشنفًا فقل لخنازير الجزيرة: أبشري

فجزع بشار لذلك كجزعه من قول حماد عجرد فيه:

ويا أقبح من قردٍ إذا ما عمي القرد

لأنه كان يعلم مع تغزله أن وجهه وجه قردٍ وفي زعمهم أن مع كل شاعرٍ شيطانًا، يقول أعشى بني سليم:

وما كان جني الفرزدق قدوةً وما كان فيهم مثل فحل المخبل
وما في الخوافي مثل عمرٍو وشيخه ولا بعد عمرٍو شاعر مثل مسحل

وقال الفرزدق وهو يمدح أسد بن عبد الله القسري:

ليبلغن أبا الأشبال مدحتنا من كان بالغور أو مروي خراسانا
كأنها الذهب الإبريز حبرها لسان أشعر خلق الله شيطانا

وقال أبو النجم:

إني وكل شاعرٍ من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر
فما يراني شاعر إلَّا استتر فعل نجوم الليل عاين القمر

وقال آخر:

إني وإن كنت صغير السن وكان في العين نبو عني
فإن شيطاني أمير الجن يذهب بي في الشعر كل فن

وقال ابن ميادة:

ولما أتاني ما تقول محارب تغنت شيطاني وجن جنونها

وقال منظور بن رواحة:

ولما أتاني ما يقول ترقصت شياطين رأسي وانتشين من الخمر

وقال الزفيان العوافي:

أنا العوافي فمن عاداني أذقته بوادر الهوان
حتى تراه مطرق الشيطان علمني الشعر معلمان

يعني معلمًا من الإنس، ومعلمًا من الجن.

وقال أبو السمط لعلي بن الجهم:

إن ابن جهمٍ في المغيب يعيبني ويقول لي حسنًا إذا لاقاني
ويكون حين أغيب عنه شاعرًا ويضل عنه الشعر حين يراني
وإذا التقينا ناك شعري شعره ونزا على شيطانه شيطاني
إن ابن جهمٍ ليس يرحم أمه لو كان يرحمها لما عاداني

وكان الفرزدق يقول: شيطان جرير شيطاني، إلَّا أنه من في فمي أخبث.

وقيل لجعفر بن يحيى: لو قلت الشعر! فقال: شيطانه أخبث من أن أسلطه على عقلي.

صديق إبليس

هو عبد الله بن هلال، الذي يقال له: الساحر؛ وكان في زمن الحجاج، وكان صاحب شعبذةٍ ونيرنجاتٍ، يدعي أن إبليس يتراءى له، ويصادقه ويكاتبه، ويطلعه على أسراره.

ولما قال الحجاج ليحيى بن سعيد بن العاص: أخبرني عبد الله بن هلال، صديق إبليس عليه اللعنة؛ أنك تشبه إبليس! قال: وما ينكر الأمير أن يكون سيد الإنس يشبه سيد الجن! فعجب من قوة جوابه.

قبح الشيطان

بلغني عن الصاحب أنه كان يستملح قول أبي علي البصير في أبي هفان، ويستطرفه، وكثيرًا ما كان ينشده ويردده:

لي صديق في خلقة الشيطان   وعقول النساء والصبيان
من تظنونه؟ فقالوا جميعًا: ليس هذا إلَّا أبو هفان

قال الجاحظ: إنا وإن كنا لم نر شيطانًا قط، ولا صوره لنا صادق، ففي إجماع العرب والمسلمين وكل من لقيناه، على ضرب المثل بقبح الشيطان، دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح؛ والكتاب إنما نزل على الذين ثبت هذا في طبائعهم غاية الثبات.

قال وربما قالوا: فلان شيطان، على معنى الشهامة والنفاذ، لذلك قالوا لأبي حنيفة: شيطان خرج من البحر.

قال مؤلف الكتاب: قلت في كتاب يتيمة الدهر في أبي الحسن اللحام: هو من شياطين الإنس، ورياحين الأنس.

خطوات الشيطان

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

قال الزجاج: خطوات الشيطان: طرقه التي يسلكها؛ أي: لا تسلكوا الطرق التي يدعوكم الشيطان إليها.

وقال غيره: أراد: لا تقتفوا آثاره.

قال الشاعر:

يا نابذًا لوصايا إلهه خلف ظهره
وتابعًا خطوات الـ ـشيطان في كل أمره
أراك لم تر ميتًا يهوى إلى قعر قبره

أصابع الشيطان

كان يقال: من ولاه السلطان، صبعه الشيطان.

قال الشاعر:

قد كنت أكرم صاحبٍ وأبره ... حتى دهتك أصابع الشيطان
جذ الإله بنانها وأبانها ... كم غيرت خلقًا من الإنسان

رقى الشيطان

هي الشعر.

قال جرير لما مدح عمر بن عبد العزيز، فلم يعطه:

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه ... وقد كان شيطاني من الجن راقيا

وأما قول الشاعر:

ماذا تظن بسلمى إذ يلم بها   مرجل الرأس ذو بردين وضاح
خز عمامته، حلو فكاهته   في كفه من رقى إبليس مفتاح

فإنه عنى برقى إبليس كلمات التغزل والخلابة، والتجميش، وما يجري مجراها في معاشرة النساء.

مكيال الشيطان

قال بعض الحكماء: العدل ميزان الباري، والجور مكيال الشيطان. كأنه أراد ما يجري في الكيل من المجازفة عند الأخذ، ومن التطفيف لدى الأداء، فنسب ذلك إلى الشيطان.

ظل الشيطان

العرب تقول للمتكبر الضخم: ظل الشيطان.

قال الحجاج لمحمد بن سعد بن أبي وقاص: بينا أنت يا ظل الشيطان أشد الناس كبرًا، إذ صرت مؤذنًا لفلان!

لطيم الشيطان

يقال لمن به لقوة أو شتر إذا سب: يا لطيم الشيطان. وكان عمرو بن سعيد بن العاص، يلقب بذلك.

ولما بلغ عبد الله بن الزبير خبر فتك عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد، قال في خطبته: بلغنا أن أبا الذبان، قتل لطيم الشيطان، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وكان عبد الملك يكنى أبا الذبان لشدة بخره، وموت الذبان إذا دنت من فمه.

مخاط الشيطان

الخيوط التي تتراءى في الهواء عند شدة الحر، يقال لها: مخاط الشيطان، ولعاب الشمس، وخيط باطل؛ ويشبه به ما لا حاصل له، وما لا طائل فيه.

وكان مروان بن الحكم يقال له: خيط باطل، لأنه كان طويلًا مضطربًا.

قال الشاعر:

لحا الله قومًا أمروا خيط باطلٍ على الناس يعطي من يشاء ويمنع

بريد الشيطان

الوزغ.

ذكر الجاحظ عن شريك النخعي، عن جابر، عن عكرمة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: الوزغ بريد الشيطان.

وفي بعض الأخبار: من قتل وزغةً حط الله عنه بها سبعين خطيئةً، ومن قتل سبعًا، كان كمن اعتق رقبة.

وكر الشيطان

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إياكم والأسواق، فإن الشيطان قد باض فيها وفرخ». على سبيل الاستعارة والتمثيل.

وقد حذا الصاحب على تشبيهه، فقال في وصف بعض مواطن الشر: عش من أعشاش العدوان، ووكر من أوكار الشيطان.

حبائل الشيطان

قال بعض السلف: احذروا النساء فإنهن من حبائل الشيطان.

وجاء في بعض الأشعار:

خمر الشيطان

قال يحيى بن معاذ الرازي: الدنيا خمر الشيطان، فمن شرب منها لم يفق من سكرتها إلَّا في عسكر الموتى خاسرًا نادمًا. والله أعلم.

رؤوس الشياطين

يشبه بها ما يستقبح ويستهول.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

قال الجاحظ: ليس أن الناس رأوا شيطانًا قط على صورته، ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طبائع جميع الم استقباح صورة الشيطان، واستسماجه وكراهته، وأجرى على ألسنة جميعهم، ضرب المثل به في ذلك، رجع بالإيحاش والتنفير، وبالإخافة والتفزيع، إلى ما جعله في طبائع الأولين والآخرين، والشيوخ والصبيان والرجال والنساء.

وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رؤوس الشياطين نبات ينبت باليمن. وقول بعضهم: إن الشياطين ها هنا: الحيات.

وحدث الصولي، بإسناد له عن أبي عبيدة، قال: لما قدمت من البصرة، وصلت إلى الفضل بن الربيع، فسلمت عليه بالوزارة، فضحك إلي واستدناني، حتى جلست بين يدي فرشه، ثم لاطفني واستنشدني، فأنشدته عيون أشعارٍ أحفظها جاهليةً؛ فقال: قد عرفت أكثر هذه، وأريد من ملح الشعر، فأنشدته منها، فطرب لها وضحك، وزاد نشاطه.

ثم دخل رجل في زي الكتاب، له هيئة، فأقعده إلى جانبي، وقال له: أتعرف هذا؟ قال: لا قال: هذا علامة أهل البصرة، أبو عبيدة؛ احضرناه لنستفيد من علمه. فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا، وقال لي: والله إني كنت مشتاقًا إليك؛ وقد سئلت عن مسألةٍ، أفتأذن أن أعرفك إياها؟ قلت: هات. قال: قال الله عز وجل: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾؛ وإنما يقع الوعد وإلا يعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف!

فقلت: إنما كلمهم الله تعالى بما يعرفون، وعلى كلام العرب؛ أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول، ولكن لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به.

فاستحسن الفضل ذلك، واستحسنه السائل، فاعتقدت منذ ذلك الوقت أن أضع كتابًا لمثل هذا وأشباهه.

فلما رجعت إلى البصرة علمت كتابي الذي سميته كتاب المجاز.

وسألت عن الرجل فقيل: هو من كتاب الوزير وجلسائه، يقال له: إبراهيم بن إسماعيل بن داود الكاتب العبرتايي.

الباب الرابع

فيما يضاف وينسب إلى القرون الأولى

أحلام عاد، ريح عاد، أحمر ثمود، صاعقة ثمود، أكل لقمان، نخوة فرعون، صرح هامان، كنوز قارون، سد الإسكندر، نوم أصحاب الكهف، جور سدوم، جوف حمار.

الاستشهاد

أحلام عاد العرب

تضرب المثل بأحلام عادٍ، لما تتصور من عظيم خلقها، وتزعم أن أحلامها على مقادير أجسامها.

قال الشاعر يمدح قومًا:

وأحلام عادٍ لا يخاف جليسهم ... وإن نطق العوراء غرب لسان

وقال آخر:

كأنما ورثوا لقمان حكمته ... علمًا كما ورثوا الأحلام من عاد

ريح عاد

تضرب مثلًا في الإهلاك والإفناء، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾.

أحمر ثمود

هو قدار بن سالف، عاقر ناقة الله، يضرب به المثل في الشؤم والشقوة؛ وقد غلط زهير في قوله:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عادٍ ثم ترضع فتفطم

وكأنه سمع بعادٍ وثمود، فنسب الأحمر إلى عادٍ على ما توهم، وهو من ثمود.

وكان قدار أحمر أزرق العينين، وهو الذي ذكره الله تعالى، فقال: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾.

وعن عمار بن ياسر قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات العشيرة، فلما قفلنا نزلنا منزلًا، فخرجت أنا وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ننظر إلى قومٍ يعتملون، فنعسنا فنمنا، فسفت علينا الريح التراب، فما نبهنا إلَّا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال لعلي رضي الله عنه: «يا أبا تراب لما عليه من التراب أتعلم من أشقى الناس؟» فقال: خبرني يا رسول الله، فقال: «أشقى الناس اثنان: أحمر ثمود الذي عقر الناقة، وأشقاها الذي يخضب هذه» ووضع يده على لحيته من هذا ووضع يده على قرنه؛ فكان علي رضي الله عنه كثيرًا ما يقول عند الضجر بأصحابه: ما يمنع أشقاها أن يخضب هذه من هذا!

صاعقة ثمود

هي الصيحة التي أخذتهم، فأصبحوا في ديارهم جاثمين؛ وإنها كانت صيحة جبريل عليه السلام. تضرب مثلًا في الإبادة والإفناء، كريح عادٍ.

ولما قيل: إن الحجاج من بقية قوم ثمود، قال في خطبته: أتزعمون أني من بقية ثمود، والله تعالى يقول: ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾! صدق الله وكذبتم أنتم.

ودعا أبو الفرج الببغاء على القرامطة، فقال: صب الله تعالى عليهم طوفان نوحٍ، وحجارة لوطٍ، وريح عادٍ وصاعقة ثمود.

أكل لقمان

هو لقمان العادي صاحب النسور؛ تضرب به العرب المثل في الأكل، فتقول: آكل من لقمان. وتزعم أنه كان يتغذى بجزورٍ، ويتعشى بمثله.

نخوة فرعون

أنشدني الخوارزمي لنفسه في اللحام:

رأيت للحام في خلقه ... للشعر تطبيقًا وتجنيسا

نخوة فرعون ولكنه ... جانس في حمل العصا موسى

وغش إبليس ولكنه ... خالف في السجدة إبليسا

صرح هامان

بناه لفرعون من الآجر، وهو أول من استعمله، كما حكى الله تعالى عن فرعون إذ قال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾.

ويقال: إنه جلب الفعلة لبناء الصرح من الآفاق، وأكثرهم من الخوز حتى بنوا ما يضرب به المثل للأبنية الرفيعة الحصينة.

ومن أحسن ما أحاضر به في ذلك، قول أبي القاسم الزعفراني في تهنئة الصاحب بداره الجديدة، من قصيدةٍ أولها:

سرك الله بالبناء الجديد ... نلت حال الشكور لا المستزيد

هذه الدار جنة الخلد في الدن يا فصلها وأختها بالخلود

ومنها:

ألزم الإنس كل جاف شديد عمل الجن كل خافٍ مريد
فابتنوا ما لو أن هامان يدنو منه لم يرض صرحه للصعود

أي: للصعود إلى السماء في زعمه، لظهور حقارته عنده.

وقرأت في كتاب الجوابات المسكتة، لابن أبي عون: أن عبد الله بن خازم قال يومًا لقَهْرَمانه: إلى أين تمضي يا هامان؟ قال: أبني لك صرحًا! فعجب من جوابه، لأنه أشار إلى أنه فرعون إن كان هو هامان.

كنوز قارون

يضرب بها المثل فيما يستعظم قدره من نفائس الأموال لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾.

وقرأت فصلًا للخوارزمي من رسائله القديمة: لو كنا نعمل على قدر النية، لحملنا إليك خراج فارس، وعشر الأهواز، ودخل البصرة، وتاج كسرى، وإكليل شيرين، وكنوز قارون، وعرش بلقيس.

سد الإسكندر

هو سد يأجوج الذي جاء ذكره في القرآن، وتولاه ذو القرنين، وهو الإسكندر عند أكثر الناس؛ يضرب به المثل في الحصانة والوثاقة.

قال المتنبي:

كأني دحوت الأرض من خبرتي بها كأني بنى الإسكندر السد من عزمي

وقد ضرب به المثل ابن طباطبا العلوي أيضًا، فقال وهو يهجو أبا علي بن رستم، ويذكر بناءه سور أصبهان، ويرمي حرته بآذريون غلامه:

يا رستمي استعمل الجدا وكدنا في حظنا كدا
فإنك المأمول والمرتجى تهون الخطب إذا اشتدا
أحكمت من ذا السور ما لم تجد والله من إحكامه بدا
فخلفه نسل كثير لمن أصفت لآذريونها الودا
وهم كيأجوج ومأجوج إن عددتهم لم تحصهم عدا
وأنت ذو القرنين في عصرنا جعلته ما بينهم سدا

نوم أصحاب الكهف

يضرب مثلًا للنوم الكثير الفرق، لأن الله تعالى يقول في قصتهم: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ الآية.

قال ابن الحجاج:

قوموا فأهل الكهف مع عبود عندكم صراصر

وقصة عبود ستمر في مكانها من الكتاب إن شاء الله تعالى.

جور سدوم

سدوم كان ملكًا في الزمن الأول جائرًا، وله قاضٍ أجور منه، يضرب به المثل، فيقال: أجور من قاضي سدوم.

قال أبو اللفت في موسى بن خلف، صاحب ابن الفرات:

أف من دولةٍ بموسى تقوم ما نراها مع البلاء تدوم

ما قضى مثل ما به النذل يقضي   في جميع الأمور قط سدوم

وقال آخر:

لا تبع عقدة مالٍ خيفة الجار الغشوم
واصطبر للفلك الجا ري على كل ظلوم
فهو الدائر بالأمـ ـس على آل سدوم

جوف حمار

من أمثال العرب: هو أكفر من حمار، وأخلى من جوف حمار.

وهو رجل من عادٍ، يقال له: حمار بن مويلع؛ وجوفه وادٍ له طويل عريض، لم يكن ببلاد العرب أخصب منه، وفيه من كل الثمرات؛ فخرج بنوه يتصيدون، فأصابتهم صاعقة فهلكوا، فكفر، وقال: لا اعبد من فعل هذا ببني.

ودعا قومه إلى الكفر، فمن عصاه قتله، فأخرب الله واديه، فضربت العرب به المثل في الخراب والخلاء.

قال الأفوه الأودي:

وبشؤم البغي والغشم قديمًا   قد خلا جوف ولم يبق حمار

وقال امرؤ القيس:

ووادٍ كجوف العير قفرٍ قطعته   به الذئب يعوي كالخليع المعيل

الباب الخامس

فيما يضاف وينسب إلى الصحابة والتابعين رضي الله عنهم

سيرة العمرين، درة عمر، قميص عثمان، فضائل علي، صدق أبي ذر، مشية أبي دجانة، دهاء معاوية، فقه العبادلة، وليمة الأشعث، حلم الأحنف، زكن إياس، زهد الحسن، ورع ابن سيرين، سجع المختار، شجة عبد الحميد.

الاستشهاد

سيرة العمرين

هما أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. يضرب بسيرتهما المثل، إذ لا عهد بمثلهما بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان عبد الملك بن مروان، يقول: أنصفونا يا معشر الرعية، تريدون منا سيرة أبي بكر وعمر، ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكرٍ وعمر! فنسأل الله أن يعين كلًا على كل.

وقال البحتري:

إن الرعية لم تزل في سيرةٍ عمريةٍ مذ ساسها المتوكل

وقال بعض البلغاء، وقد رأى بعض الملوك: رأيت صورةً قمريةً، وسيرة عمريةً.

وقال الآخر: رأيت بفلان نور القمرين، وعدل العمرين.

درة عمر رضي الله عنه

قال الشعبي: كانت درة عمر رضي الله عنه أهيب من سيف الحجاج. ولما جيء بالهرمزان، ملك خوزستان أسيرًا إلى عمر رضي الله عنه، وافق ذلك غيبته من منزله؛ فما زال الهرمزان يقتفي أثر عمر رضي الله عنه حتى عثر عليه في بعض المساجد نائمًا، متوسدًا درته. فلما رآه الهرمزان قال: هذا والله الملك الهنيء؛ عدلت فأمنت فنمت! والله إني خدمت أربعةً من ملوكنا الأكاسرة أصحاب التيجان. فما هبت أحدًا منهم هيبتي لصاحب هذه الدرة.

قميص عثمان رضي الله عنه

هو قميصه المضرج بالدم الذي قتل فيه، يضرب به المثل للشيء يكون سببًا للتحريش بين الناس والتحريض على الشر.

وذلك أن عمر بن العاص رضي الله عنه، لما أحس من عسكر معاوية رضي الله عنه بصفين فتورًا في المحاربة، أشار عليه أن يبرز لهم قميص عثمان، ليستأنفوا جدًّا جديدًا في الامتعاض والمقارعة؛ ففعل ذلك معاوية، فحين وقعت أعين القوم على القميص ارتفعت ضجتهم بالبكاء والنحيب، وتحرك منهم الساكن، وثار من حقودهم الكامن، فعندها قال عمرو: حرك لها حوارها تحن.

وعلى ذكر هذا القميص: فإن المتوكل لما قتله الأتراك بمواطأة المنتصر، وأفضى الأمر بعده وبعد المنتصر والمستعين إلى المعتز، لم تزل أمه قبيحة تحرضه بقتلة أبيه، وتلومه على مقارنته إياهم، دون الطلب الثأر منهم.

وكان المعتز يعدها ويمنيها، وهو يعلم أنه لا يقوى عليهم مع كثرة عددهم، وشدة شوكتهم، وغلبتهم على أمور الخلافة؛ فأبرزت قبيحة يومًا للمعتز قميص المتوكل الذي قتل فيه، وهو مضرج بالدم، وجعلت تبكي وتبالغ في التقريع والتحريض كل المبالغة.

فلما طال ذلك منها قال لها المعتز: يا أمي، ارفعي القميص، وإلا صار قميصين. فعندها أمسكت ولم تعد لعادتها.

فضائل علي رضي الله عنه

يضرب بها المثل في الكثرة.

كما قال محمد بن مكرم، لأبي علي البصير: فضولك والله أكثر من فضائل علي.

وقال الجاحظ: لا يعلم رجل في الأرض متى ذكر السبق في الإسلام والتقدم فيه، ومتى ذكرت النجدة والذب عن الإسلام، ومتى ذكر الفقه في الدين، ومتى ذكر الزهد في الأموال التي تتناحر الناس عليها، ومتى ذكر الإعطاء في الماعون، كان مذكورًا في هذه الخلال كلها إلَّا علي رضي الله عنه.

وقد كان الحسن يقول: قد يكون الرجل عالمًا وليس بعابدٍ، وقد يكون عابدًا وليس بعالم، وعالمًا عابدًا وليس بعاقل؛ وسليمان بن يسار عالم عابد عاقل، فانظر أين تقع خلال سليمان من خصال علي رضي الله عنه.

صدق أبي ذر

يضرب به المثل.

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يقول: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أصدق لهجةً من أبي ذر». ومن أملح ما سمعت في ضرب المثل به، قول الصاحب في إنسانٍ كذوبٍ: الفاختة عنده أبو ذر. لأن الفاختة يضرب بها المثل في الكذب، وأبو ذر يضرب به المثل في الصدق.

مشية أبي دجانة

هو سماك بن خرشة الأنصاري، رضي الله عنه.

كان شجاعًا بطلًا، قد تعود الإقدام حيث تزل الأقدام، وكانت له آثار جميلة في الإسلام، وكانت له مشية عجيبة في الخيلاء.

ونظر صلى الله عليه وسلم إليه في المعركة، وهو يتبختر بين الصفين، فقال: «إن هذه مشية يبغضها الله إلَّا في هذا المكان».

وكان يقال له: ذو المشهرة، لأنه كانت له مشهرة إذا لبسها في الحرب لم يبق ولم يذر.

دهاء معاوية

ذلك مما شهر أمره، وسار ذكره، وكثرت الروايات والحكايات فيه.

ووقع الإجماع على أن الدهاة أربعة: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، رضي الله عنهم. فلما كان معاوية بحيث هو من الدهاء، وبعد الغور، وانضم إليه الدهاة الثلاثة الذين يرون بأول آرائهم أواخر الأمور، فكان لا يقطع أمرًا حتى يشهدوه، ولا يستضيء في ظلم الخطوب، إلَّا بمصابيح آرائهم، اطرد له أمر الملك، وألقت إليه الدنيا أزمتها، وسار دهاؤه ودهاء أصحابه الثلاثة مثلًا، ولم يذكر معهم في الدهاء إلَّا قيس بن سعد بن عبادة، وعبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي.

فقه العبادلة

هم عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرو بن العاص. فهؤلاء من فقهاء الصحابة وعلمائهم، ومن أثباتهم، ومن أنبههم.

ومن عبادلتهم أيضًا: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن أبي بكر الصديق، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وليمة الأشعث

كان الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، ارتد في جملة أهل الردة، فلما أتي أبو بكر رضي الله عنه به أسيرًا استتابه وأطلقه، وزوجه أخته أم فروة بنت أبي قحافة، فأصبح صبيحة البناء وخرج شاهرًا سيفه،

فلم يلق ذات أربعٍ مما يؤكل لحمه إلَّا عقرها.

فقال الناس: هذا الأشعث قد ارتد ثيابه. ثم إنه قال: يا أهل المدينة، إنا والله لو كنا في ببلادنا لأولمنا، فاجتزروا من هذه اللحمان، وتصادقوا في الأثمان.

فلم يبق دار من دور المدينة إلَّا دخلها من تلك اللحوم، ولم ير يوم أشبه بيوم الأضحى من ذلك اليوم. فضرب أهل المدينة المثل بوليمة الأشعث، فقالوا: وليمة الأشعث، وأولم من الأشعث.

حلم الأحنف

قال الجاحظ: قد ذكروا في الأشعار حلم لقمان، ولقيم بن لقمان، وذكروا قيس بن عاصم، ومعاوية بن أبي سفيان، ورجالًا كثيرًا، ما رأيناه هذا الاسم التزق بأحدٍ والتحم بإنسانٍ، وظهر على الألسنة كما رأيناه تهيأ للأحنف بن قيس. ثم كان مع ذلك رئيسًا في أكثر تلك الفتن، فلم ير حاله عند الخاصة والعامة، وعند النساك والفتاك، وعند الخلفاء الراشدين، والملوك المتغلبين، ولا حاله في حياته، ولا حاله بعد موته إلَّا مستويًا.

فينبغي أن يكون قد سبقت له من النبي صلى الله عليه وسلم دعوة، وقال فيه خيرًا كما رووه وذكروه، أو يكون قد كان يضمر من حسن النية، ومن شدة الإخلاص ما لم يكن عليه أحد من نظرائه. فإن قال قائل: تزعمون أن عبد المطلب كان أحلم الناس، وكذلك العباس بن عبد المطلب، قلنا: إن الأحنف كان سيد عمله، فبان حلمه من سائر أعماله.

ومحاسن عبد المطلب، وخصال العباس في المجد والشرف، كانت متكافئةً متساوية، كل خصلة منها تنتصف من أختها، فكانت كما قال الشاعر:

ني غرضت إلى تناصف وجهها   غرض المحب إلى الحبيب الغائب

وإذا كانت الخصال كذلك، لم يغلب على صاحبها اسم دون اسمٍ، ورجع الأمر فيه إلى أن يسمى سيدًا، وما أشبه ذلك من الأسماء الخاصة.

زهد الحسن

قال الجاحظ: كان الحسن رضي الله تعالى عنه يستثنى من كل غايةٍ؛ فيقال: أزهد الناس إلَّا الحسن، وأفقه الناس إلَّا الحسن، وأفصح الناس إلَّا الحسن، وأخطب الناس إلَّا الحسن، وأعقل الناس إلَّا الحسن وعلى هذا كان جميع كلامهم.

ورع ابن سيرين

قال الجاحظ: كان يقال: زهد الحسن وورع ابن سيرين، وعقل مطرف، وحفظ قتادة وكلهم من البصرة.

قال الشاعر:

فأنت بلليل ذئب لا حريم له وبالنهار على سمت ابن سيرين

لما لم يستقم له أن يقول: على ورع ابن سيرين، أقام السمت مقامه وأحسن، وهذا من لطائف الشعر.

سجع المختار

كان المختار بن أبي عبيد الثقفي لا يوقف له على مذهب؛ كان خارجيًا، ثم صار زبيريًا، ثم صار رافضيًا، يدعو إلى محمد بن الحنفية، ويطلب بدم الحسين رضي الله عنه، وتغلب على الكوفة، وفعل الأفاعيل.

فقيل له: يا أبا إسحق، كيف خرجت تدعوا إلى هؤلاء القوم ولم تعرف بالتشيع لهم؟ فقال: إني رأيت مروان وثب على الشام، وابن الزبير على مكة، ونجدة على اليمامة، وابن خازم على خراسان. والله ما أنا دونهم.

وكان يدعي أنه يلهم ضربًا من السجاعة لأمورٍ تكون، ثم يحتال فيوقعها، فيقول للناس: هذا من عند الله.

ولما قيل لابن عباس رضي الله عنهما: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه! قال: صدق المختار، يعني قول الله عز ذكره: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾.

وقيل للمختار: إنك تقول أشياء فلا تكون! فقرأ: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

فمن أسجاعه؛ أنه قال ذات يوم: لتنزلن من السماء، نار دهماء سحماء، فلتحرقن دار أسماء.

فذكر ذلك لأسماء بن خارجة، فقال: أوقد سجع بي أبو إسحق! هو والله محرق داري. فتركه والدار وهرب من الكوفة.

وقال في بعض سجعه: أما والذي شرع الأديان، وحبب الإيمان، وكره العصيان، لأقتلن أزدعمان، وجل قيس عيلان، وتميمًا أولياء الشيطان، حاشا النجيب ظبيان.

فكان ظبيان يقول: لم أزل في عصر المختار أتقلب آمنًا.

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن لثقيف كذابًا ومبيرًا». فقيل: هما المختار والحجاج.

وفي المختار يقول أبو تمام متمثلًا:

والهاشميون استقلت عيرهم ... من كربلاء بأعظم الأوتار
فشفاهم المختار منه ولم يكن ... في دينه المختار بالمختار

وقال أعشى همدان في أيام ابن الأشعث للحجاج:

إن ثقيفًا منهم الكذابان ... كذابها الماضي وكذاب ثان

ومن ظريف ما يحكى من حيل المختار: أنه كان عنده كرسي قديم العهد، فغشاه بالديباج، وقال: هذا الكرسي من ذخائر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فضعوه في حومة القتال، وقاتلوا عنه، فإن محله فيكم محل السكينة في بني إسرائيل. ويقال: إنه كان اشتراه من نجارٍ بدرهمين.

ولما وجه المختار إبراهيم بن الأشتر، إلى حرب عبيد الله بن زياد، خرج يشيعه ماشيًا، فقال له إبراهيم: اركب يا أبا إسحق، فقال له: إني أحب أن تعبر قدماي في نصرة آل محمد صلى الله عليه وسلم. فشيعه فرسخين، ودفع إلى قومٍ من خاصته حمامًا بيضًا ضخامًا، وقال لهم: إن رأيتم الأمر علينا، فأرسلوها في المعركة؛ وقال للناس: إني أجد في محكم الكتاب، وفي اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضابٍ، تأتي في صور الحمام دوين السحاب.

فلما التقت الفئتان، وكادت الدبرة تكون على عسكر ابن الأشتر، أرسلت الحمام البيض، فتصايح الناس: الملائكة، الملائكة! فتراجعوا؛ فأسرع القتل في أصحاب عبيد الله، ثم انكشفوا، ووضعت السيوف فيهم حتى

أفنوا. فقال ابن الأشتر: لقد ضربت رجلًا على شاطئ النهر، ورجع إلى سيفي تنفح منه رائحة المسك، ورأيت له إقدامًا وجرأةً، فصرعته، فشرقت يداه، وغربت رجلاه، فانظروا من هو؟ فنظروا، فإذا هو عبيد الله بن زياد.

زكن إياس

هو أبو واثلة، إياس بن معاوية، وكان قاضيًا فائقًا، زكنًا يضرب بزكنه المثل. ولما أراد أبو تمام أن يتمثل به في شعرٍ له، ولم يستو له أن يذكر زكنه في البيت، أقام الذكاء مقام الزكن، فقال:

إقدام عمرٍو في سماحة حاتمٍ   في حلم أحنف في ذكاء إياس

ولأبي الحسن المدائني كتاب مقصور على زكن إياس، وإيراد نوادره.

وحكى الجاحظ عنه، قال: كان إياس وهو صغير ضئيلًا، وكان له أخ أشد حركةً منه وأقوى، فكان معاوية أبوه يقدمه على إياس، فقال له إياس يومًا: يا أبت، إنك تقدم أخي علي، وسأضرب لك مثله ومثلي، فهو مثل الفروج حين تنفلق عنه البيضة، يخرج كاسيًا كافيًا لنفسه، يلتقط ويستخفه الناس، فكلما كبر انتقص، حتى إذا تم فصار دجاجة لم يصلح إلَّا للذبح. وأنا مثل فرخ الحمام، تنفلق عنه البيضة عن شيء ساقطٍ لا يقدر على حركةٍ، وأبواه يغذوانه حتى يقوى وينبت ريشه، ثم يحسن بعد ذلك ويطير، ويتخذه الناس ويرسلونه من المواضع البعيدة، فيجيء، فيصان لذلك ويكرم، ويشترى بالأثمان الغالية.

فقال له أبوه: لقد أحسنت المثل! فقدمه على أخيه، فوجد عنده أكثر مما ظن به، وخرج إياس باقعةً منقطع النظير.

وزعم الأصمعي: أن إياسًا نظر إلى رجلٍ من ثقيف أبيض بض، فقال له إياس: أهندية أمك؟ قال: لا والله ما ضربت في هندية ولا هندي قط بعرق؛ قال: بلى والله وإن جهلت، وإني لأرى فيك آثار ذلك؛ قال: لا والله إلَّا اللبن والحضانة، فإن خادمةً هنديةً كانت لأمي أرضعتني مديدةً؛ قال: فمن ذلك!

وقال المدائني: حج إياس فسمع نباح كلبٍ، فقال: هذا كلب مشدود، ثم سمع نباحه، فقال: قد أرسل. فلما انتهوا إلى الماء سألوا أهله، فكان كما قال. فقيل له: كيف علمت أنه موثق، وأنه قد أطلق؟ فقال: كان نباحه وهو موثق يسمع من مكان واحد، فلما أطلق سمعته يقرب مرةً ويبتعد أخرى، ويتصرف في ذلك!

ومر ذات ليلة بماءٍ، فقال: أسمع صوت كلب غريب، فقيل له: كيف عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته، وشدة نباح الآخر؛ فسألوا عنه، فإذا كلب غريب، وإذا الكلاب تنبحه!

وقال رجل لإياس: أنا أصنع مثل ما تصنع؛ فنظر إياس إلى صدعٍ في الأرض، فقال: ما في هذا الصدع؟ قال: لا أدري، وما أرى شيئًا؛ قال إياس إن فيه دابةً؛ فنظروا فإذا فيه دابة، فقال إياس: إن الأرض لا تتصدع إلَّا عن دابةٍ أو نبات!

ونظر يومًا بواسط في الرحبة إلى آجرةٍ، فقال: إن تحت هذه الآجرة دابةً؛ فنزعوها فإذا تحتها حية مطوقة، فسئل عن ذلك، فقال: إني رأيت ما بين الآجرتين نديًا من بين جميع الرحبة، فعلمت أن تحتها شيئًا يتنفس!

ورأى أثر رعي بعيرٍ، فقال: هذا بعير أعور؛ فنظروا، فكان كما قال؛ فقيل له: من أين علمت هذا؟ فقال: لأني رأيت رعيه من جهةٍ واحدة!

شجة عبد الحميد

تضرب مثلًا للعورة تصيب الإنسان الجميل فلا تشينه، بل تزيده حسنًا. وكان عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب من أجمل أهل دهره، فأصابته شجة في وجهه، فلم تشنه، بل استحسنها الناس. وكان النساء يخططن في وجوههن شجة عبد الحميد. والله أعلم.

الباب السادس

في ذكر رجالات العرب في الجاهلية والإسلام مختلفي الألقاب والمراتب مضافين إلى أشياء مختلفة يضرب بأكثرهم الأمثال

قريش الأباطح، شيبة الحمد، حاتم طيِّئ، كليب وائل، زيد الخيل، ملاعب الأسنة، سحبان وائل، أزواد الركب، عروة الصعاليك، أبو عروة السباع، سعد العشيرة، سعد المطر، دعيميص الرمل، سليك المقانب، عراف اليمامة، شيخ مهو، حنيف الحناتم، وافد البراجم، يسار الكواعب، طفيل العرائس، سعد القرقرة، وضاح اليمن، مجنون بني عامر، شيخ المضيرة، أمين الأمة، حواري النبي، رباني الأمة، أشج بني أمية، جبار بني العباس.

الاستشهاد

قريش الأباطح

يقال لهم أيضًا: قريش البطاح، لأنهم صيابة قريش وصميمها، الذين اختطوا بطحاء مكة، وهي سرتها فنزلوها.

وهم بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار، وبنو عبد العزى، وبنو زهرة، وبنو تيم بن مرة، وبنو مخزوم، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي بن كعب، وبنو عامر بن لؤي، وبنو هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن

فهر.

ويقال لهم: الأبطحيون، أيضًا. قال خلف بن خليفة حين ذكر الأشراف الذين يدخلون على ابن هبيرة:

وقامت قريش قريش البطاح مع العصب الأول الداخلة

وما أحسن ما قال البحتري للمتوكل:

يابن الأباطح من أرضٍ أباطحها في ذروة المجد أعلى من روابيها
ما ضيع الله في بدوٍ ولا حضرٍ رعيةً أنت بالإحسان راعيها

فهؤلاء قريش الأباطح.

وأما قريش الظواهر: فهم الذين لم تسعهم الأباطح، فنزلوا ظواهر مكة.

وهم: معيص بن عامر بن لؤي، وتيم بن غالب بن فهر، ومحارب والحارث ابنا فهر.

شيبة الحمد

كان يقال لعبد المطلب بن هاشم: شيبة الحمد، وذلك أنه كانت في ذؤابته شعرة بيضاء حين ولد، فسمي شيبة ثم قيل له: شيبة الحمد، وفيه يقول حذافة بن غانم:

بنو شيبة الحمد الذي كان وجهه يضيء ظلام الليل كالقمر البدر

حاتم طيِّئ

جواد العرب، والمضروب به في الجود المثل.

أنشد الجاحظ لأبي الشمقمق:

لما سألتك شيئًا أبدلت رشدًا بغي

ممن تعلمت هذا ألا تجود بشي
أما مررت بعبدٍ لعبد حاتم طي

وقال آخر:

للجود حاتم طي وحاتم البخل عون
له مطابخ بيض والعرض أسود جون

ونظر أصرم بن حميد الطوسي إلى رجلٍ يقول: أنا مسلوب الغنى؛ فنزل عن برزونه وأعطاه إياه، فأنشأ يقول أبياتًا، منها:

إلي مسلوب الغنى إلي حاتم طي وحميد طي
مدا رواقات العلا علي

وقال الصاحب لابن العميد من قصيدة:

وهو إن جاد ذم حاتم طي وهو إن قال قل قس إياد

وأخباره في الجود أكثر من أن تحصى، وأشهر من أن ينبه عليها.

ومن أحاسنها: أنه قسم ماله بضع عشرة مرة.

ومر في سفرٍ له على بني عنزة، ولهم أسير في القد، فاستغاث به، ولم يحضره فكاكه، ففاداه وخلاه، وأقام مقامه في القد حتى أدي فداؤه.

وروت الرواة بالأسانيد عن ملحان ابن أخي ماوية امرأة حاتم، قال: قلت لها: يا عمة، حدثيني ببعض عجائب حاتم، فقالت: كل أمره عجب، فعن أيه تسأل؟ قلت: حدثيني بما شئت؛ قالت: أصابت الناس سنة أذهبت الخف والظلف، وأكلت النفوس، فبينا نحن ذات ليلةٍ، وقد أسهرنا الجوع، فأخذ هو عديًا، وأخذت أنا سفانة، وجعلنا نعللهما حتى ناما، ثم أقبل علي يعللني بالحديث حتى أنام، فرققت لما به من الجهد، وأمسكت عن كلامه لينام، فقال لي: أنمت، مرارًا، فلم أجبه؛ فسكت، ثم نظر من فتق الخباء، فإذا بشخصٍ قد أقبل، فرفع رأسه، فإذا امرأة تقول: يا أبا سفانة، أتيتك من عند صبيةٍ يتعاوون من الجوع كالذئاب،

فقال: أحضرينيهم، فوالله لأشبعنهم. قالت: فقمت سريعًا، وقلت: بماذا! فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلَّا بالتعليل، فقال: والله لأشبعن صبيانك مع صبيانها، فلما جاءت بالصبية قام حاتم إلى فرسه فذبحها، ثم قدح نارًا وأججها، ودفع إليها شفرةً، وقال لها: اشتوي وكلي! ثم قال لي: أيقظي صبيبك، فأيقظتهما؛ ثم قال: والله إن هذا للؤم أن تأكلوا وأهل الصرم جياع!

فجعل يأتي الصرم بيتًا بيتًا، ويقول انهضوا، عليكم النار فاجتمعوا حول الفرس، وتقنع هو بكسائه، وجلس ناحيةً، فما أصبحوا ومن الفرس على الأرض قليل ولا كثير، إلَّا حوافره؛ وإنه لأشد جوعًا منه، وما ذاقه.

كليب وائل

كان سيد ربيعة في زمانه وقاد نزارًا كلها.

والعرب تضرب به المثل في العز والقوة والظلم، وكان لا يظلم إلَّا القوي.

وبلغ من عزه وظلمه أنه كان يحمي الكلأ فلا يقرب حماه، ويجير الصيد فلا يهاج؛ وكان الناس إذا وردوا الماء لم يسق أحد منهم إلَّا بأمره؛ وإن أصابهم مطر وقد بدوا لم يحوض إنسان حوضًا إلَّا على ما فضل عنه؛ وكان إذا أتى الماء وقد سبق إليه أخذ الماتح فألقى عليه الكلاب حتى تنهشه؛ وكان يعمد إلى الروضة تعجبه فيأمر بأن يؤخذ كلب وتشد قوائمه ويلقى في وسطها، فحيث بلغ عواؤه كان حمًى لا يرعى: وكان لا يمر بين يديه أحد إلَّا جلس، ولا يحتبي في مجلسه غيره، ولا يرفع الصوت عنده.

ولما قتله من سيمر ذكره في مكانه من هذا الكتاب، رثاه مهلهل بقوله:

نبئت أن النار بعدك أوقدت   واستب بعدك يا كليب المجلس
وتكلموا في أمر كل عظيمةٍ   لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

وقال أبو نواس يهجو إسماعيل النيبختي ويضرب المثل بكليب وائل:

على خبز إسماعيل واقية البخل   فقد حل في دار الأمان من الأكل
وما خبزه إلَّا كآوى يرى ابنها   ولم تر آوى في الحزون ولا السهل

وما خبزه إلَّا كعنقاء مغربٍ يصور في بسط الملوك وفي المثل
يحدث عنها الناس من غير رؤيةٍ سوى صورةٍ ما إن تمر ولا تحلي
وما خبزه إلَّا كليب من وائلٍ ليالي يحمي عزه منبت البقل
وإذ هو لا يستب خصمان عنده ولا الصوت مرفوع بجد ولا هزل
فإن خبز إسماعيل حل به الذي أصاب كليبًا لم يكن ذاك عن ذل
ولكن قضاء ليس يسطاع رده بحيلة ذي دهيٍ ولا فكر ذي عقل

قال الجاحظ: وأبيات أبي نواس على أنه مولد شاطر أشعر من شعر مهلهل في إطراق الناس في مجلس كليب.

قال مؤلف الكتاب: ومن ألفاظ الأمير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي، أدام الله أيامه، الجارية مجرى الأمثال، قوله، لست مني بنائل، ولو كنت كليب وائل،

زيد الخيل

هو زيد بن مهلهل الطائي، قيل له: زيد الخيل، لطول طراده بها، وقيادته لها.

وكان جسيمًا وسيمًا، يقبل المرأة على الهودج، ويخط رجله على الأرض إذا ركب، وكان شاعرًا.

وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، فسماه: زيد الخير، وقال له: «يا زيد، ما وصف لي أحد في الجاهلية، فرأيته في الإسلام، إلَّا كان دون الصفة ليسك»، يريد: غيرك؛ وأقطعه أرضين، وكانت المدينة وبيئةً، فقال لما خرج من عنده عليه السلام: «إن ينج زيد من أم ملدم» فلما بلغ بلده مات.

ملاعب السنة

هو عامر بن الطفيل بن مالك، أحد فرسان العرب المذكورين.

قال أبو عبيدة: فرسان العرب ثلاثة: فارس تميم، عتيبة بن الحارث بن شهاب، وكان يقال له: صياد الفوارس، وسم الفوارس.

وفارس ربيعة، بسطام بن قيس بن مسعود. وفارس قيس، عامر بن الطفيل، ملاعب الأسنة. فأما ملاعب الرماح، فأبو براء عامر بن مالك بن جعفر، وكان بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله أن يوجه إليهم قومًا يفقهونهم في الدين، فبعث إليهم قومًا من أصحابه فعرض لهم عامر بن الطفيل، فقتلهم يوم بئر معونة فلم يفلت منهم إلَّا رجل واحد، فاغتم أبو براءٍ لذلك، وقلق لإخفار عامر بن الطفيل بقتلهم ذمته.

وبلغ بني عامرٍ موت عامر بن الطفيل، وهو منصرف من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرادوا النجعة، فجعلوا يرتحلون؛ فقال أبو براء: ما يصنع القوم؟ قالوا: يرتحلون لهذا الأمر الذي حدث. قال: أبغير أمري! فقال بعض بني أخيه: يزعمون أنه قد عرض لك في عقلك، منذ ساءك أمر هذا الرجل. فدعا لبيدًا، واستدعى قينتين له، فشرب وغنتاه؛ فقال: يا لبيد، أرأيت إن حدث بعمك حدث ما كنت قائلًا؟ فإن قومك يزعمون أن عقلي قد ذهب، والموت خير من عزوب العقل؛ فقال لبيد:

قوما تنوحان مع الأنواح وأبنا ملاعب الرماح
يا عامرًا يا عامر القداح وعامر الكتيبة الرداح
لو كان حي مدرك الفلاح أدركه ملاعب الرماح

فلما أثقله الشراب اتكأ على سيفه حتى فاظت نفسه. وقال: لا خير في العيش وقد عصتني بنو عامر.

سحبان وائل

رجل من باهلة، خطيب بليغ. يضرب به المثل في الخطابة والبلاغة، وهو القائل:

لقد علم الحي اليمانون أنني إذا قلت: أما بعد، أني خطيبها

وقال حميد الأرقط، وهو يهجو ضيفًا له، ويضرب المثل في البيان بسحبان، وفي العي بباقل:

أتانا وما داناه سحبان وائلٍ بيانًا وعلمًا بالذي هو قائل
فما زال منه اللقم حتى كأنه من العي لما أن تكلم باقل

وقال بعض المحدثين:

وعاشقٍ تحت رواق الدجى أغرى به الحيرة فقدان
أعرب عن مكنون أسراره أحوى لطيف الكشح خمصان
كأنما يسحب في إثره ذيلًا من الحكمة سحبان

أزواد الركب

هم ثلاثة نفرٍ من قريش: مسافر بن أبي عمرو بن أمية، وزمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وأبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم؛ سموا بذلك لأنه لم يكن يتزود معهم أحد في سفرٍ، وكانوا يطعمون كل من يصحبهم ويكفونه الزاد، وكان ذلك خلقًا من أخلاق أشراف قريش؛ ولكن لم يسم بهذا الاسم إلَّا هؤلاء الثلاثة.

عروة الصعاليك

هو عروة بن الورد، الذي يقول:

ومن يك مثلي ذا عيالٍ ومقترًا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرًا أو يصيب رغيبةً ومبلغ نفسٍ عذرها مثل منجح

قال المبرد: إنما سمي عروة الصعاليك، لأنه كان إذا شكا إليه فتًى من فتيان قومه الفقر أعطاه فرسًا ورمحًا، وقال له: إن لم تستغن بهما فلا أغناك الله!

أبو عروة السباع

يضرب به المثل في جهارة الصوت وشدته.

قال أبو عبيدة: كان أبو عروة يصيح بالسبع، وقد احتمل الشاة فيخليها ويسقط فيموت، فيشق بطنه فيوجد فؤاده قد انخلع، قال الشاعر:

وأزجر الكاشح العدو إذا غـ ـتابك عندي زجرًا على أضم
زجر أبي عروة السباع إذا أشفق أن يلتبسن بالغنم

سعد العشيرة

إنما قيل له: سعد العشيرة، لأنه كان يركب في عشرةٍ من أولاده الذكور، فكأنه منهم في عشيرةٍ؛ وصار مثلًا للرجل يتكثر بأبنائه وعشيرته، ويتعزز بهم.

سعد المطر

قال الجاحظ: إنما قيل له: سعد المطر، لأنه كان ملقًى من المطر وهو الذي يقول في ذلك:

دع المواعيد لا تعرض لوجهتها إن المواعيد مقرون بها المطر
إن المواعيد والأعياد قد منيا منه بأنكد ما يمنى به بشر
أما الثياب فلا يغررك إن غسلت صحو يدوم ولا شمس ولا قمر
وفي الشخوص له نوء وبارقة وإن يبيت فذاك الفالج الذكر

قال: والفالج الذكر؛ هو الذي يهجم على الجوف.

قال: وممن دهاه المطر؛ المحلول مولى آل سليمان، جلس على طريق الناس، وقد رجعوا من الاستمطار وقد سقوا، فهم ضاحكون مستبشرون؛ فأقبل على صاحبٍ له، وقال: ليس بي إلَّا سرورهم بالإجابة، وإنما مطروا لأني غسلت ثيابي اليوم؛ ولم أغسل ثيابي قط إلَّا جاء الغيم والمطر، فليخرجوا غدًا، فإن سقوا فإني ظالم!

ولبعضهم في معناه:

ولو أني أردت غسل ثيابي في حزيران عاد يومًا مطيرا

دعيميص الرمل

أهدى أدلاء العرب للطرق، يضرب به المثل، فيقال: أهدى من دعيميص الرمل. ويقال: إنه دخل وبار وهي بلدة تزعم العرب أنها بلدة الجن، ولم يدخلها إنسي غيره فرمته الجن بالرمل حتى عمي، ثم مات، ولما كان دليلًا خريتًا غلب عليه هذا الاسم.

ويقال: هو دعيميص هذا الأمر، أي: العالم به. قال الشاعر:

دعموص أبواب الملو ك وارتق للخرق فاتق

سليك المقانب

هو السليك بن السلكة، وهي أمه؛ وكانت أمةً سوداء، وسليك أيضًا أسود، وهو أحد أغربة العرب، وأعدى الناس، لا يشق غباره، وأخباره في العدو والغارة مشهورة معروفة. وكان يقول: اللهم إني لو كنت ضعيفًا كنت عبدًا، ولو كنت امرأةً كنت أمةً؛ اللهم إنك تهيء ما شئت لما شئت إذا شئت؛ اللهم إني أعوذ بك من الخيبة، وأما الهيبة فلا هيبة.

وممن ضرب به المثل، أبو تمام في قوله:

مفازة صدقٍ لو تطرق لم يكن ليسلكها فردًا سليك المقانب

وابن الرومي في قوله، يشكو رمضان:

شهر الصيام وإن عظمت حرمته شهر طويل بطيء السير والحركة
يمشي رويدًا فأما حين يطلبنا فلا السليك يدانيه ولا السلكة

عراف اليمامة

أحد كهان العرب المعروفين، مثل حازية جهينة، وكاهنة باهلة، ومثل شق وسطيح.

فأما عراف اليمامة فهو رياح بن كحيلة، وفيه يقول الشاعر:

أقول لعراف اليمامة دواني فإنك إن أبرأتني لطبيب

شيخ مهو

يضرب به المثل في الخسران، فيقال: أخسر صفقةً من شيخ مهو.

ومهو: حي من عبد القيس، وكانت إياد تسب بالفسو وتعير به، فقام رجل من إياد بسوق عكاظ ومعه بردا حبرة، فقال: من يشتري مني عار الفسو بهذين البردين؟ فقام عبد الله بن بيدرة أحد مهو، فقال: هاتهما، فأعطاهما إياه. فاتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، وأشهد الإيادي عليه القبائل بأنه اشترى عار الفسو من إياد لعبد القيس بالبردين.

فلما أتى رحله، وسئل عن البردين، قال: اشتريت لكم بهما عار الدهر، فوثبت عبد القيس وقالت:

إن الفساة قبلنا إياد ونحن لا نفسو ولا نكاد

وتفرق الناس عن سوق عكاظ بابتياع عبد القيس عار الفسو، حتى قال الشاعر:

يا من رأى كصفقة ابن بيدرة من صفقةٍ خاسرةٍ مخسرة
المشتري الفسو ببردي حبره شلت يمين صافقٍ ما أخسره

وقال ابن دارة في وقعة مسعود بن عمرو:

وإني إن صرمت جبال قيسٍ وحالفت المزون على تميم
لأخسر صفقةً من شيخ مهوٍ وأجور في الحكومة من سدوم

ثم إن العار زال عن إيادٍ، ولصق بعبد القيس، فهجوا به كثيرًا.

ومر إنسان بالجماز، فقال: يا شيخ، كيف آخذ إلى عبد القيس؟ قال: امض قدمًا وشم، فإن كرهت الرائحة فثم.

ومن هذا أخذ الحمدوني قوله في قينةٍ ذات صنان:

من كان لا يدري لها منزلًا فقل له: يمضي ويستنشق

حنيف الحناتم

هو رجل من تيم اللات بن ثعلبة، تضرب العرب به المثل في الإبالة وهي مصدر لأبل وهو البصير برعية الإبل وما يصلحها، فيقال: آبل من حنيف الحناتم.

ومن كلامه الدال على إبالته، قوله: من قاظ الشرف، وتربع الحزن، وتشتى الصمان، فقد أصاب المرعى.

وافد البراجم

يضرب به المثل في الشقاء والجبن.

وذلك أن أسعد بن المنذر أخا عمرو بن هند، انصرف ذات ليلةٍ من متصيده وهو ثمل، فرمى رجلًا من بني دارم بسهمٍ فقتله، فوثب عليه بنو دارم فقتلوه، فغزاهم عمرو بن هندٍ وقتل منهم مقتلةً عظيمةً، ثم أقسم ليحرقن منهم مائةً، فبذلك سمي محرقًا، وأخذ تسعةً وتسعين رجلًا منهم فقذفهم في النار، وأراد أن يبر قسمه بمن تكمل به العدة، فمر رجل يقال له: عمار، من بني مالك بن حنظلة، فتشمم رائحة اللحم، فظن أن الملك قد اتخذ طعامًا للأضياف، فعرج إليه، فأتي به، فقال له: من أنت؟ قال: أنا وافد البراجم، فقال عمرو: إن الشقي وافد البراجم؛ فصار مثلًا للشقي يسعى بقدمه إلى مراق دمه، ثم أمر به فقذف في النار تحلةً لقسمه.

قال الطِّرِمّاح في إحراق عمرو بن دارم:

ودارمٍ قد قتلنا منهم مائةً في جاحم النار إذ ينزون بالخدد
ينزون بالمشتوى منها ويوقدها عمرو ولولا شحوم القوم لم تقد

وقال جرير يعير الفرزدق:

أين الذين بنار عمرو أحرقوا أم أين أسعد فيكم المسترضع

يسار الكواعب

عبد تعرض لبنت مولاه، وراودها عن نفسها، فنهته، فعاودها، فامتنعت عليه، فعاد لعادته، فقالت: إن كان لا بد فإني مبخرتك ببخورٍ، فإن صبرت على حرارته صرت إلى ما تريد مني، فعمدت إلى مجمرٍ، فأدخلته تحته، واشتملت على سكين حديد، فجبت به مذاكيره، فقال: صبرًا على مجامر الكرام! ثم لم يلبث أن مات. فصار مثلًا لكل جانٍ على نفسه، ومتعرضٍ لما يجل عن قدره.

وفيه يقول الفرزدق لجرير:

وهل أنت إن ماتت أتانك راكب إلى آل بسطام بن قيسٍ كخاطب
وإني لأخشى إن خطبت إليهم عليك الذي لاقى يسار الكواعب

طفيل العرائس

ويقال له طفيل الأعراس أيضًا وهو من غطفان، ويقال: إنه من موالي عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وكان يتتبع الأعراس، فيأتيها من غير أن يدعى إليها.

وهو أول من فعل ذلك، وإليه ينسب الطفيليون، وكان يقول: وددت أن الكوفة بركة مصهرجة، فلا يخفى علي من أعراسها شيء.

وسئل عن أشرف الأعواد، فقال: عصا موسى، ومنبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وخوان العرس؛ وفيه يقول ذاهب في طريقه:

وكنا بالمطالب قد شقينا ففزنا بالسعادة عن طفيل

وفيه يقول عملاق العثماني، الذي كان ينزل بنَيْسابور، وهو الآن حي يرزق:

تلبس عملاق بن غيداق للشقا وللخرق والإخفاق أثواب حارس
يطوف بنَيْسابور في كل سكةٍ خليفة مولاه طفيل العرائس

سعد القرقرة

مضحك النعمان، يعد في المستأكلين والمتطفلين.

وقيل له: ما رأيناك إلَّا وأنت تزيد شحمًا، وتقطر دمًا! فقال: لأني آخذ ولا أعطي، وأخطئ ولا ألام، فأنا طول الدهر مسرور ضاحك.

وضاح اليمن

قال الجاحظ: ثلاثة من العبيد قتلوا بسبب العشق: منهم يسار الكواعب، ومنهم عبد بني الحسحاس، ومنهم وضاح اليمن؛ فأما يسار الكواعب، فقد مرت قصته؛ وأما عبد بني الحسحاس، فإنه كان يشبب ببنات مواليه، ويصرح بالفاحشة معهن، كقوله:

وأشهد بالرحمن أني تركتها وعشرين منها إصبعًا من ورائيا

ولما عرض على السيف ضحك منه بعضهن، فقال:

فإن تضحكي مني فيا رب ليلةٍ تركتك فيها كالقباء المفرج

وأما وضاح اليمن فإنه كان شاعرًا من أجمل الناس، وأظرفهم وأخفهم شعرًا، وهو القائل:

ضحك الناس وقالوا: شعر وضاح اليماني
إنما شعري قند قد خلط بجلجلان

وعن الهيثم بن عدي، قال: سمعت صالح بن حسان، يقول: أفقه الناس وضاح اليمن، في قوله:

إذا قلت: هاتي نوليني، تبسمت وقالت: معاذ الله من فعل ما حرم
فما نولت حتى تضرعت عندها وأنبأتها ما رخص الله في اللمم

ويحكى أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، كانت تصادقه وتستخصه، وكانت عند الوليد بن عبد الملك، وكانت قد جعلت للوضاح هذا صندوقًا تجعله فيه، فإذا وجدت من الرقباء فرصةً وغفلةً أخرجته وخلت به، فحمل إلى الوليد جوهر نفيس، فأمر خادمًا له يحمله إلى أم البنين، فدخل الخادم إليها، فوجدها قد خلت بوضاح، فلما أحست بالخادم جعلته في الصندوق، ولم تعلم أن الخادم قد بصر به، فلما ناولها الجوهر سألها الخادم أن تهب له جوهرةً منه، فزجرته، وأنكرت عليه تهكمه، فخرج الخادم وأخبر الوليد بالقصة، فدخل عليها، وقعد على بعض الصناديق، وقال لها: يا ابنة عمي، هبي لي صندوقًا من صناديقك هذه؛ قالت: يا أمير المؤمنين، هي بأسرها لك؛ قال: لا، بل أريد واحدًا منها؛ قالت: خذ منها ما شئت؛ وكان الخادم قد وصف له الصندوق الذي فيه وضاح وأعلمه بمكانه، فأمر بحمله، واحتفار موضع يبلغ الماء به، وأدلي الصندوق بما فيه إليه، وهما ينظران، فلم ير واحد من الوليد وأم البنين أثر ذلك في وجه صاحبه، ولا أجريا حديثه إلى أن فرق بينهما الموت.

مجنون بني عامر

هو قيس بن الملوح، صاحب ليلى، يضرب به المثل في الحب.

وهو أشهر، وشعره أسير، من أن ينبه عليهما؛ ومن أحسن ما يروى له قوله:

وأدنيتني حتى إذا ما سبيتني بقولٍ يحل العصم سهل الأباطح
تجافيت عني حين مالي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وقوله:

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما أطار بليلى طائرًا كان في صدري

ويروى لليلى:

لم يكن المجنون في حالةٍ إلا وقد كنت كما كانا
لكنه باح بسر الهوى وأنني قد ذبت كتمانا

شيخ المضيرة

كان أبو هريرة رضي الله عنه، على فضله واختصاصه بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم، مزاحًا أكولًا؛ وكان مروان بن الحكم يستخلفه على المدينة، فيركب حمارًا قد شد عليه برذعةً، وفي رأسه خلبة من ليف، فيسير فيلقى الرجل فيقول: الطريق الطريق، قد جاء الأمير! وعن أبي رافع، قال: كان أبو هريرة رضي الله عنه ربما دعاني إلى عشائه، فيقول: دع العراق للأمير، فأنظر فإذا هو ثريد بزيت.

وكان يدعي الطب، فيقول: أكل التمر أمان من القولنج؛ وشرب العسل على الريق أمان من الفالج؛ وأكل السفرجل يحسن الولد؛ وأكل الرمان يصلح الكبد؛ والزبيب يشد العصب، ويذهب الوصب والنصب؛ والكرفس يقوي المعدة، ويطيب النكهة؛ والعدس يرق القلب، ويذرف الدمعة؛ والقرع يزيد في اللب، ويرق البشرة؛ وأطيب اللحم الكتف، وحواشي فقار العنق والظهر. وكان يديم أكل الهريسة والفالوذج، ويقول: هما مادة الولد.

وكان يعجبه المضيرة جدًّا فيأكل مع معاوية رضي الله عنه، فإذا حضرت الصلاة صلى خلف علي رضي الله عنه، فإذا قيل له في ذلك، قال: مضيرة معاوية أدسم وأطيب، والصلاة خلف علي أفضل. وكان يقال له شيخ المضيرة؛ وقيل فيه:

وتولى أبو هريرة عن نصـــ ـــر علي ليستفيد الثريدا
ولعمري إن الثريد كثير للذي ليس يستحق الهبيدا

أمين الأمة

هو أبو عبيدة بن الجراح، وكان من عظماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عليه السلام يقول: «لكل أمةٍ أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح».

وروي أنه أتي بطعامٍ، فقال: «يستحب أن يبدأ رجل صالح، فابدأ يا أبا عبيدة».

حواري النبي صلى الله عليه وسلم

هو الزبير بن العوام، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «لكل نبي حواري، وحواري الزبير».

وكان أحد العشرة الذين سموا للجنة، وأحد أصحاب الشورى.

ولما قتل أتي إلى علي بسيفه، فنظر إليه وقال: هذا هو السيف الذي طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وبشر قاتله ابن جرموز بالنار؛ وقال: سمعته عليه الصلاة والسلام، يقول: «بشروا قاتل ابن صفية بالنار».

رباني الأمة

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، كان يقال له: رباني الأمة وحبرها، وترجمان القرآن.

والرباني: المتأله العالم العارف بالله تعالى. وقال الله عز وجل في القرآن: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

أشج بني أمية

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان وأمه أم عاصم بنت عاصم بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان عمر بن الخطاب، رضي الله عنه بقول: إن من ولدي رجلًا بوجهه أثر يملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا.

ولما نفحه حمار برجله فأصاب جبهته، وأثر بها، قال أخوه أصبغ: الله أكبر! هذا أشج بني أمية، يملك ويملأ الأرض عدلًا.

ولما قال عمر في يزيد بن المهلب: أي عراقي هو لولا عذرة في رأسه! بلغ ذلك يزيد فقال: من يعذرني من لطيم الحمار؟

جبار بني العباس

كان يقال للرشيد: جبار بني العباس، لأنه أغزى ابنه القاسم الروم، فقتل منهم خمسين ألفًا، وأخذ منهم خمسة آلاف دابة بسروج الفضة ولجمها.

وأغزى علي بن عيسى بن ماهان بلاد الترك، فقتل منهم أربعين ألفًا، وسبى عشرة آلاف، وأسر ملكين منهم.

ثم غزا الرشيد نفسه الروم، فافتتح هرقلة، وأخذ الجزية من ملك الروم.

ولم يخلف أحد قط من الملوك ما خلفه الرشيد من الأثاث والعين والورق والجواهر، وكان بقيمة مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف دينار، سوى قيمة الضياع والدواب والعبيد.

الباب السابع

فيما يضاف وينسب إلى القبائل

إيلاف قريش، تيه بني مخزوم، جود طيِّئ، لؤم باهلة، رماة بني ثعل، قيافة بني مدلج، عيافة بني لهب، خطباء إياد، ثريدة غسان، مهور كندة، حرة بني سليم.

الاستشهاد

إيلاف قريش

كانت قريش لا تتاجر إلَّا من ورد عليها مكة في المواسم، وبذي المجاز وسوق عكاظ في الأشهر الحرم؛ لا تبرح دارها، ولا تجاوز حرمها، للتحمس في دينهم، والحب لحرمهم، والإلف لبيتهم، ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم.

وكانوا بوادٍ غير ذي زرعٍ، كما حكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام، حين قال: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.

وكان أول من خرج إلى الشام، ووفد إلى الملوك، وأبعد في السفر، ومر بالأعداء، وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله تعالى، هاشم بن عبد مناف، وكانت له رحلتان: رحلة في الشتاء نحو العباهلة من ملوك اليمن، ونحو اليكسوم من ملوك الحبشة؛ ورحلة في الصيف نحو الشام وبلاد الروم.

وكان يأخذ الإيلاف من رؤساء القبائل، وسادات العشائر لخصلتين: إحداهما أن ذؤبان العرب، وصعاليك الأعراب وأصحاب الغارات، وطلاب الطوائل، كانوا لا يؤمنون على أهل الحرم ولا غيرهم؛ والخصلة الأخرى: أن أناسًا من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة، ولا للشهر الحرام قدرًا، كبني طيِّئ، وخثعم وقضاعة؛ وسائر العرب يحجون البيت ويدينون بالحرمة له.

ومعنى الإيلاف: إنما هو شيء كان يجعله هاشم لرؤساء القبائل من الربح، ويحمل لهم متاعًا مع متاعه، ويسوق إليهم إبلًا مع إبله، ليكفيهم مؤونة الأسفار، ويكفي قريشًا مؤونة الأعداء فكان ذلك صلاحًا للفريقين، إذ كان المقيم رابحًا، والمسافر محفوظًا؛ فأخصبت قريش، وأتاها خير الشام واليمن والحبشة، وحسنت حالها، وطاب عيشها.

ولما مات هاشم، قام بذلك المطلب، فلما مات المطلب قام بذلك عبد شمس، فلما مات عبد شمس قام بذلك نوفل، وكان أصغرهم.

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾؛ يعني الضيق الذي كان فيه أهل مكة قبل أن يأخذ هاشم لهم الإيلاف؛ والخوف الذي كانوا عليه ممن يمرون بهم من القبائل والأعداء، وهم مغتربون ومعهم الأموال، وهو قوله عز ذكره: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾، يعني في تلك الأسفار، ولم يرد ذلك وهم مقيمون في حرمهم وأمنهم، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾، وقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، وقوله: ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

وقد عم مطرود الخزاعي بني عبد مناف بذكر الإيلاف، لأن جميعهم قد فعل ذلك، فقال:

يا أيها الرجل المحول رحله هلا حللت بآل عبد مناف
الآخذين العهد في إيلافهم والراحلين برحلة الإيلاف

وفي اختصاص قريش بالإيلاف دون غيرهم من العرب، قال الشاعر، وهو يرد على بني أسد ما يدعونه من قرابة قريش:

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف
أولئك أومنو خوفًا وجوعًا وقد جاعت بنو أسد وخافوا

تيه بني مخزوم

قال الجاحظ: أما بنو مخزوم، وبنو أمية، وبنو جعفر بن كلاب، واختصاصهم بالتيه والكبر، فإنهم أبطرهم ما وجدوه لأنفسهم من الفضيلة، ولو كان في قوى عقولهم فضل على قوى دواعي الحمية فيهم لكانوا كبني هاشمٍ في تواضعهم لمن دونهم.

ولما بلغ الحسن بن علي رضي الله عنهما، قول معاوية رضي الله عنه: إذا لم يكن الهاشمي جوادًا، والأموي حليمًا، والعوامي شجاعًا، والمخزومي تياهًا، لم يشبهوا آباءهم؛ قال: إنه والله ما أراد بها النصيحة، ولكن أراد أن يفني بنو هاشمٍ ما بأيديهم فيحتاجوا إليه، وأن يحلم بنو أمية فيحبهم الناس، وأن يشجع بنو العوام فيقتلوا، وأن يتيه بنو مخزومٍ فيمقتوا.

وكان يقال: أربعة لم يكونوا، ومحال أن يكونوا: زبيري سخي، ومخزومي متواضع، وهاشمي شحيح، وقرشي يحب آل محمد صلى الله عليه وسلم.

جود طيِّئ

يضرب به المثل، لكون حاتم وأوس بن حارثة بن لأمٍ منهم؛ وهما هما في الجود والكرم، قال أبو تمام الطائي:

لكلٍّ من بني حواء عذر ولا عذر لطائيٍّ لئيم

ويروى أن أوسًا وحاتمًا وفدا على عمرو بن هند، فدعا عمرو أوسًا، وقال له: أنت أفضل أم حاتم؟ فقال: أبيت اللعن! لو ملكني حاتم وولدي ولحمتي لوهبنا في غداة واحدة. ثم دعا حاتمًا، فقال له: أنت أفضل أم أوس؟ فقال: أبيت اللعن! إنما ذكرت بأوس، ولأحد ولده أفضل مني؛ فقال عمرو: والله ما أدري ما أيكما أفضل، وما منكما إلَّا سيد كريم!

ومن محاسن أوس: أن النعمان بن المنذر دعا بحلةٍ نفيسةٍ، وعنده وفود العرب من كل حيٍّ، وفيهم أوس، فقال لهم: احضروا غدًا، فإني ملبس هذه الحلة أكرمكم؛ فحضر القوم إلَّا أوسًا، فقيل له: لم تتخلف؟ فقال: إن كان المراد غيري، فأجمل الأشياء بي ألا أكون حاضرًا؛ وإن كنت المراد فسأطلب. فلما جلس النعمان ولم ير أوسًا، قال: اذهبوا إلى أوس فقولوا له: احضر آمنًا مما خفت، فحضر وألبس الحلة؛

فحسده قوم من أهله، فقالوا للحطيئة: اهجه ولك ثلاثمائة ناقةٍ، فقال: كيف أهجو من لا أرى في بيتي أثاثًا ولا مالًا إلَّا من عنده! ثم قال:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة   من آل لأمٍ بظهر الغيب تأتيني

فقال لهم بشر بن أبي خازم: أنا أهجوه لكم، فأخذ الإبل وفعل، فأغار أوس عليها واكتسحها، وطلبه، فجعل لا يستجير حيًا من أحياء العرب، إلَّا قالوا له: قد أجرناك من الجن والإنس إلَّا من أوس. وكان في هجائه إياه ذكر أمة، فلم يلبث إلَّا يسيرًا حتى أتي به أسيرًا، فدخل أوس إلى أمه واستشارها في أمره، فقالت: أرى أن ترد عليه ماله، وتعفو عنه، وتحبوه، وأفعل أنا مثل ذلك، فإنه لا يغسل هجاءه إلَّا مدحه؛ فأخبره بما قالت، قال: لا جرم! والله لا مدحت أحدًا حتى أموت غيرك، ففيه يقول:

إلى أوس بن حارثة بن لأم   ليقضي حاجتي فيمن قضاها
وما وطئ الثرى مثل ابن سعدى   ولا لبس النعال ولا احتذاها

لؤم باهلة

كان ذلك مشهورًا مضروبًا به المثل، ولم تزل العرب تصف باهلة باللؤم في الجاهلية والإسلام، ثم خفيت منهم تلك الصفة وشرفت بقتيبة بن مسلم وبنيه، حتى قال القائل:

إذا ما قريش خلا ملكها   فإن الخلافة في باهلة

ومما يحكى من لؤم باهلة أنه قيل لأعرابي: أيسرك أن لك مائة ألف درهم وأنت باهلة؟ فقال: لا والله، فقيل أفيسرك أن لك حمر النعم وأنك منها؟ قال: اللهم لا؛ قيل: أفيسرك أنك في الجنة وأنت باهلي؟ قال: نعم، ولكن بشريطة ألا يعلم أهلها أنني منها.

ومن أبيات التمثيل والمحاضرة التي تقع في كل اختيار، قول بعضهم:

فخرت بأصلك، أصل شريف   أضرت به نفسك الخاملة
وما ينفع الأصل من هاشمٍ   إذا كانت النفس من باهله

ومما يستجاد لأبي هفان، قوله:

أباهل ينبحني كلبكم وأسدكم ككلاب العرب
ولو قيل للكلب: ياباهلي عوى الكلب من لؤم هذا النسب

وكان الأصمعي يجزع من قول اليزيدي فيه:

ومن أنت! هل أنت إلَّا امرؤ إذا صح أصلك من باهلة
وللباهلي على خبزه كتاب: لآكله الآكله

وقد ظرف أبو محمد عبد الله بن أحمد الخازن الأصبهاني، في قوله من قصيدةٍ للصاحب:

وما قعدت بنا الأحوال حتى أقام حذاء أعيننا الحذايا
ومن باره ضل ولا خفاء بلوم الباهلي وإن تطايا

رماة بني ثعل

يضرب بهم المثل، ويوصفون بجودة الرمي من بين قبائل العرب.

قال امرؤ القيس:

رب رامٍ من بني ثعلٍ مخرج كفيه من ستره

وقال أبو مسلم محمد بن بحر:

هل أنت مبلغ هذا الفارس البطل عني مقالة طب غير ذي خطل
إن كنت أخطأت برجاسًا عمدت له فأنت في رمي قلبي من بني ثعل

قيافة بني مدلجد

القيافة علم اختصت به العرب من بين سائر الأمم، وهي إصابة الفراسة في معرفة الأشباه في الأولاد والقرابات ومعرفة الآثار.

وهي كنانة أكثر منها في غيرها، وبنو مدلج القافة منهم؛ وما ظنك بقومٍ يلحقون الأبيض بالأسود، والوضيء بالدميم، والدميم بالوضيء، والطويل بالقصير، والقصير بالطويل!

فمنهم سراقة بن مالك المدلجي، أخرجه أبو سفيان ليقتاف أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين خرج إلى الغار مع أبي بكرٍ رضي الله عنه، فلما رأى أثر قدمه، قال: أما محمد فإني لم أراه، ولكن إن شئتم أن ألحق هذا الأثر؛ قالوا: فألحقه، قال: هو أشبه شيءٍ بالأثر الذي في مقام إبراهيم؛ فضرب أبو سفيان بكمه على الأرض ليعفو الأثر، وقال: قد خرف الشيخ!

ومنهم مجزر المدلجي، دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرأى زيد بن حارثة، وأسامة بن زيدٍ قد ناما في قطيفة، وغطيا رؤوسهما، وبدت أقدامهما، فقال: إن هذه أقدام بعضها من بعضً، فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن مليح الشعر في القيافة، قول أبي محمد بن مطران الشاشي، في أخوين متفاوتين:

بين أخلاقك التي هي أخلا ق، وأخلاقه العتاق مسافه
ولعمري لفي أدعائك إيا ه ابن أم إبطال علم القيافه

عيافة بني لهب

هم أزجر العرب وأعيفهم.

قال بعض الرواة: حضرت الموقف مع عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، فصاح به صائح: يا خليفة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ فقال رجل من خلفي: دعاه باسم ميتٍ مات والله أمير المؤمنين! فالتفت فإذا رجل من بني نص بن الأزد، وهم أزجر العرب وأعيفهم؛ قال: فلما وقفنا للجمار ورميه، إذا حصاة قد صكت صلعة عمر رضي الله عنه فأدمتها، فقال قائل: أشعر والله أمير المؤمنين! وما والله ما يقف هذا الموقف أبدًا؛ فالتفت فإذا أنا بذلك اللهبي بعينه. فقتل عمر رضي الله عنه قبل الحول.

وقال كثير في رجلٍ منهم، يقال له: لهب بن أبي أحجن الأزدي العائف:

تيممت لهبًا أبتغي العلم عنده وقد صار علم العائفين إلى لهب

خطباء إياد

يضرب بهم المثل.

وقال يومًا عبد الملك بن مروان لجلسائة: هل تعرفون حياتهم أخطب الناس، وأجود الناس، وأنكح الناس؟ فأطرقوا؛ فقال: هم إياد، لأن قسًا منهم، وكعب بن مامة منهم، وأبو دواد الإيادي منهم، وابن ألغز منهم؛ وكل مثل في جنسه.

فأما قس فهو ابن ساعدة، أسقف نجران، وأحكم حكماء العرب، وأعقل وأبلغ من سمع به منهم، وهو أول من كتب: من فلان إلى فلان؛ وأول من خطب متوكئًا على عصاه، وأول من أقر بالبعث، وأول من قال: أما بعد.

وبه يضرب المثل في البلاغة والخطابة، قال الأعشى:

وأبغ من قس وأجرا من الذي بذي الغيل من خفان أصبح خادرا

وقال الحطيئة:

وأخطب من قسٍ وأمضى إذا مضى من الريح إذ مس النفوس نكالها

ومن مشهور كلامه: مالي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون! أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا!

ومن سائر شعره:

في الذاهبين الأوليـ ـن من القرون لنا بصائر
لما رأيت موردًا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر

أيقنت أني لامحا لة حيث صار القوم صائر

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم، ذكر قسًا، فقال: «يحشر أمة واحدة».

ثريدة غسان

كان القوم ملوكًا يختصمون من بين سائر العرب بالطيبات، ولهم الثريدة التي يضرب بها المثل؛ وهي التي أجمعت العرب على أنه ليست ثريدة أطيب منها، لا من طعام الخاصة؛ فصارت مثلًا في أطايب الأطعمة، كمضيرة معاوية، وفالوذج ابن جدعان.

وذكر بعض الرواة أنها كانت من المخ والمح: ولا أطيب منها.

مهور كندة

كانت كندة لا تزوج بناتها بأقل من مائة من الإبل، وربما أمهرت الواحدة منهن ألفًا منها، فصارت مهور كندة مثلًا في الغلاء، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم أذهب ملك غسان، وضع مهور كندة».

وقال صلى الله عليه وسلم: «أعظم النساء بركةً، أحسنهن وجوهًا، وأرخصهن مهورًا».

حرة بني سليم

يضرب بها المثل في السواد؛ وهي إحدى العجائب، لأنها سوداء، وأهلها بنو سليم كلهم سود، ومن نزلها من غير سليمٍ اسود.

وقال الجاحظ: وأنهم ليتخذون المماليك للرعي والسقي، والمهنة والخدمة، من الروميين والصقلابيين مع نسائهم، فما يتوالدون ثلاثة أبطن، حتى تقلبهم الحرة، إلى ألوان بني سليم.

ولقد بلغ من أمر هذه الحرة أن ظباءها ونعامها وسوامها وذئابها وثعالبها وحميرها وخيلها وإبلها كلها سود. قال: والسواد والبياض هما من قبل خلقة البلدة، وما طبع الله عليه الماء والتربة، ومن قبل قرب

الشمس وبعدها، وشدة حرها ولينها، وليس ذلك من قبل مسخٍ ولا عقوبةٍ ولا تشويهٍ ولا تفضيل، على أن حرة بني سليم تجري مجرى بلاد الترك، فإنك إذا رأيت إبلهم ودوابهم، وكل شيءٍ لهم تركي المنظر.

الباب الثامن

فيما يضاف وينسب إلى رجالٍ مختلفين

حكمة لقمان، رأي سطيح، جود كعب، بخل مادر، بلاغة قس، عي باقل، جار أبي دواد، جليس قعقاع، فتكة البراض، حديث خرافة، مواعيد عرقوب، وفاء السموأل، ندامة الكسعي، عدو سليك، صفقة أبي غبشان، قبر أبي رغال، نفس عصام، يدا عدل، هوان قعيس، ميتة أبي خارجة، جزاء سنمار، كنز النطف، حلف الفضول، مسير حذيفة، نكاح حوثرة، ذكر ابن ألغز، أير الحارث بن سدوس، نومة عبود، حمق هبنقة، جهل أبي جهل، شؤم طويس، كذب مسيلمة، طمع أشعب، سنيات خالد، أصفر سليم، بخت أبي نافع، قنديل سعدان، واو عمرو، شربة أبي الجهم، لحن الموصلي، غناء إبراهيم بن المهدي، عود بنان، ناي زنام، خرص أبي السقاء، حكاية أبي ديونة، لواط يحي بن أكثم.

الاستشهاد

حكمة لقمان

قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ وحكى عنه مواعظة ووصاياه لابنه، ونسب إليه سورة من كتابه؛ فما الظن بمن ثبت الله حكمته، وارتضى كلامه! أليس حقيقًا أن يضرب به المثل؟!

ويروى أنه عبدًا حبشيًا لرجلٍ من بني إسرائيل، فأعتقه وأعطاه مالًا، وذلك في زمن داود عليه السلام؛ ولم يكن لقمان نبيًا في قول أكثر الناس.

وعن سعيد بن المسيب: أن لقمان النبي كان خياطًا.

قال وهب بن منبه: قرأت من حكمته نحوًا من عشر آلاف بابٍ، لم يسمع الناس كلامًا أحسن منها، ثم نظرت فرأيت الناس قد أدخلوها في كلامهم، واستعانوا بها في خطبهم ورسائلهم، ووصلوا بها بلاغاتهم.

وقد أكثروا من ضرب المثل بحكمته، كما قال السري، وهو يمدح أبا محمد الفياضي الكاتب:

أخو حكمٍ إذا بدأت وعادت حكمن بعجز لقمان الحكيم
ملكت خطامها فعلوت قسًا برونقها، وقيس بن الخطيم

ومن محاسن مواعظه لابنه قوله: يا بني، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا.

يا بني، إياك وصاحب السوء، فإنه كالسيف يحسن منظره، ويقبح أثره.

يا بني، لا تكن النملة أكيس منك، تجمع في صيفها لشتائها.

يا بني، لا يكن الديك أكيس منك، ينادي بالأسحار وأنت نائم.

يا بني، إياك والكذب، فإنه أشهى من لحم العصفور.

يا بني، إن الله تعالى يحيي القلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بالمطر.

يا بني، لا تقرب السلطان إذا غضب، والنهر إذا مد.

يا بني، اتخذ تقوى الله بضاعة، تأتك الأرباح من غير تجارة.

يا بني، شاور من جرب الأمور، فإنه يعطيك من رأيه ما قام عليه بالغلاء، وأنت تأخذه بالمجان.

يا بني، كذب من قال: إن الشر؛ يطفأ بالشر؛ فإن كان صادقًا فليوقد نارين، ثم لينظر هل تطفأ إحداهما بالأخرى! وإنما يطفئ الخير الشر، كما يطفئ الماء النار.

رأي سطيح

سطيح الكاهن، كان يطوى كما تطوى الحصير، ويتكلم بكل أعجوبةٍ في الكهانة؛ وكذلك شق الكاهن، وكان نصف إنسان.

قال ابن الرومي متمثلًا برأي سطيح:

وإذا ارتأى رأيًا فأثقب ناظرٍ نظرًا، وأبعده مدى تطويح
تبدي له سر القلوب كهانةً يوحي بها رئي كرئي سطيح
سبقت بحنكته التجارب فطنة كالشوكة استغنت عن التنقيح

وقال أيضًا، وذكرهما معًا:

لك رأي كأنه رأي شق وسطيح قريعي الكهان
تستشف الغيوب عما تواريـ ـن بعينٍ جلية الإنسان

جود كعب

قال الجاحظ: العامة تحكم بأن حاتمًا الطائي أجود العرب، ولو قدمته على هرمٍ الجواد لما اعترض عليهم، ولكن الذي يحدث به عن حاتم لا يبلغ مقدار ما رووه عن كعب؛ لأن كعبًا بذل النفس حتى أعطبه الكرم، وبذل المجهود في المال فساوى حاتمًا من هذا الوجه، وباينه ببذل المهجة.

ومن حديثه: أنه خرج في ركبٍ فيهم رجل من النمر بن قاسط، في شهر ناجر، فضلوا وعطشوا، فتصافنوا ماءهم؛ والتصافن: أن تطرح حصاة في القعب ثم يصب فيه الماء بقدر ما يغمرها، فقعدوا للشرب، فلما دار العقب إلى كعب أبصر النمري يحدد النظر إليه، فآثره بمائه، وقال للساقي: اسق أخاك النمري، فشرب النمري نصيب كعبٍ ذلك اليوم؛ ثم نزلوا المنزل الآخر، فتصافنوا بقية مائهم، ونظر النمري إلى كعبٍ كنظرة أمسه، فقال كعب كقول أمسه، وارتحل القوم، وقالوا: ارتحل ياكعب، فلم يكن به قوة للنهوض، وكانوا قد قربوا من الماء، فقيل له: رد يا كعب إنك وارد، فعجز عن الجواب، ثم فاظت نفسه النفيسة.

وقد أكثر الناس التمثل به، ومن أبدعه قول الصاحب: وما نال كعب في السماحة كعبه.

بخل مارد

يضرب به المثل، وهو رجل من بني هلال بن عامر. بلغ من بخله: أنه سقى إبله، فبقي في الحوض ماء قليل، فسلح فيه، ومدر الحوض بالسلح؛ أي: لطخه.

وأحسن من هذا القول، ما قرأت للصاحب في رسالة مداعبةٍ، قوله: اعلم يا أخي أنك جئت في اللؤم بنادرٍ، لم تهتد له فطنة مارد؛ وكان يأتي الماء حتى إذا روي وأروى ملأه مدرًا ضنًا على غيره بوروده.

بلاغة قس

قد تقدم ذكره، وذكر ضرب المثل ببلاغته وخطابته، في الباب الذي قبل هذا الباب؛ وهو أشهر من أن يعاد حديثه.

عي باقل

حديثه مشهور.

وهو أنه اشترى ظبيًا بأحد عشر درهمًا، فمر بقومٍ، فقالوا له: بكم أخذت الظبي؟ فمد أصابع يديه، وأخرج لسانه — يريد بأصابعه عشرة دراهم وبلسانه درهمًا — فشرد الظبي حين مد يديه، وكان تحت إبطه، فجرى المثل بيعه؛ وقيل: أعيا من باقل، كما قيل: أبلغ من سحبان وائل.

جار أبي دواد

كان كعب بن مامة إذا جاوره رجل، قام بكل ما يصلحه وعياله، وحماه ممن يريده بسوء، وإن هلك له بعير أو شاة أو عبد، أخلف عليه، وإن مات وداه؛ فجاوره أبو دوادٍ الإيادي الشاعر، فكان يفعل به ذلك، ويزيده من بره، فصارت العرب إذا حمدت جارًا بحسن جواره، قالوا: كجار أبي دواد، قال قيس بن زهير:

أطوف ما أطوف ثم آوي   إلى جارٍ كجار أبي دواد

وكان أبو دواد يفعل بجيرانه مثل ما فعل كعب به.

ولبعض أهل العصر في التمثيل به:

وعجزي بان عن وصف الأيادي   كجار أبي دوادٍ الإيادي

جليس قعقاع

هو القعقاع بن شور الذهلي، إذا جالسه رجل فعرفه بالقصد إليه جعل له نصيبًا من ماله، وأعانه على عدوه، وشفع له في حوائجه، وغدا إليه بعد المجالسة شاكرًا له.

ودخل القعقاع على معاوية رضي الله عنه، يومًا، ومجلسه غاص بأهله، فلم يجد موضعًا، فأوسع له بعض جلسائه حتى جلس بجنبه؛ ثم أمر معاوية للقعقاع بمائة ألف درهم، فقال القعقاع لجليسه: اقبضها، فلما قام قال له الرجل: خذ مالك، فقال: ما دفعته إليك، وأنا أريد أن أسترجعه منك، فقال الرجل في ذلك:

وكنت جليس قعقاع بن شورٍ   ولا يشقى بقعقاعٍ جليس
ضحوك السن إن نطقوا بخيرٍ   وعند الشر مطراق عبوس

وكان رجل يجالس بني مخزومٍ، فأساؤوا عشرته، فسعوا به، إلى معاوية وزعموا أنه يقع في الولاة، فقال الرجل:

شقيت بكم وكنت لكم جليسًا   ولست جليس قعقاع بن شور
وقبلكم أبو جهلٍ أخوكم   غزا بدرًا بمجمرةٍ وتور

وإنما نسب إلى التخنيث والأبنة لشهرته بهما.

فتكة البراض

هو البراض بن قيس الكناني، أحد فتاك العرب الذين يضرب بهم المثل في الفتك، كالحارث بن ظالم، وعمرو بن كلثوم، والجحاف بن حكيم.

ومن خبر فتك البراض أنه كان وهو في حيه عيارًا فاتكًا يجني الجنايات على أهله، فخلعه قومه وتبرؤوا من صنيعه، ففارقهم، وقدم مكة فحالف حرب بن أمية، ثم نبا به المقام بمكة أيضًا، ففارق الحجاز إلى العراق، وقدم على النعمان بن المنذر، فأقام ببابه، وكان النعمان يبعث كل عامٍ إلى عكاظ بلطيمةٍ لتباع له هناك، فقال وعنده البراض والرحال وهو عروة بن عتبة: من يجيز لي لطيمتي حتى يقدمها عكاظًا؟ فقال البراض: أبيت اللعن! أنا المجيز بها على كنانة؛ فقال النعمان: ما أريد إلَّا رجلًا يجيز بها على الحيين: قيس وكنانة، فقال عروة الرحال: أبيت اللعن! أهذا العيار الخليع يكمل لأن يجيز لطيمة الملك! أنا والله المجيز بها على أهل الشيح والقيصوم من نجدٍ وتهامة؛ فقال: خذها فأنت لها؛ فرحل عروة بها، وتبع البراض أثره، حتى إذا صار بين ظهراني قومه، وثب إليه البراض بسيفه، فضربه ضربةً خمد منها، واستاق العير.

فصارت فتكة البراض مثلًا؛ قال أبو تمام:

والفتى من تعرقته الليالي   والفيافي كالحية النضناض
كل يومٍ له بصرف الليالي   فتكة مثل فتكة البراض

وكان يقال: فتكات الجاهلية ثلاث، وفتكات الإسلام اثنتان؛ فأما فتكات الجاهلية: ففتكة البراض بعروة؛ وفتكة الحارث بن ظالم بخالد بن جعفر بن كلاب، فتك به وهو في جوار الأسود بن المنذر الملك، فقتله وطلبه الملك فأعجزه؛ وفتكة عمرو بن كلثوم بعمرو بن هندٍ الملك؛ فتك به وقتله في دار ملكة بين الحيرة والفرات، وهتك سرادقه، وانتهب رحله وخزائنه، وانصرف بالتغالبة إلى بادية الشام موفورًا، ولم يكلم أحد من أصحابه.

وأما فتكة عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد بن العاص، وفيه قيل:

كأن بني مروان إذ يقتلونه   يغاث من الطير اجتمعن على صقر

وفتكة المنصور العباسي بأبي مسلم الخراساني، صاحب الدعوة.

حديث خرافة

خرافة رجل من بني عذرة، استهوته الجن، فلما خلت عنه رجع إلى قومه، وجعل يحدثهم بالأعاجيب من أعاجيب الجن؛ وكانت العرب إذا سمعت حديثًا لا أصل له، قالت: حديث خرافة؛ وضربه ابن الزبعرى مثلًا في الكفر بالبعث، حيث قال:

ياة ثم موت ثم نشر حديث خرافةٍ ياأم عمرو

ثم كثر هذا في كلامهم، حتى قيل للأباطيل والترهات: خرافات.

ويروى أن رجلًا تحدث بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديثٍ، فقالت امرأة من نسائه: هذا حديث خرافة؛ فقال عليه السلام: «لا، وخرافة حق».

ويروى أن الجن لما استهوته كانت تخبره بما يقع إليهم من أخبار السماء عند استراقهم السمع، فيخبر به خرافة هل الأرض فيجدونه كما قال.

مواعيد عرقوب

يضرب بها المثل في الكذب والخلف.

وعرقوب من خيبر، ويقال: من العمالقة، أتاه أخوه يسأله شيئًا فقال له عرقوب: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها؛ فلما أطلعت أتاه للعدة، فقال له: دعها حتى تبلح؛ فلما أبلحت أتاه، فقال: دعها حتى تزهي؛ فلما أزهت، قال: دعها حتى ترطب فلما أرطبت، قال: دعها حتى تثمر؛ فلما أثمرت سرى إليها عرقوب من الليل، فجدها ولم يعط أخاه شيئًا؛ فسارت مواعيده مثلًا سائرًا في الإخلاف، كما قال كعب بن زهير:

صارت مواعيد عرقوب لها مثلًا وما مواعيدها إلَّا الأباطيل
فليس تنجز ميعادًا إذا وعدت إلا كما تمسك الماء الغرابيل

وقال الشماخ:

وعدت وكان الخلف منك سجيةً مواعيد عرقوبٍ أخاه بيترب

ومما نقم به عمرو بن هند على المتلمس، حتى أمر فيه بما أمر، قوله في هجائه:

وطردتني حذر الهجاء ولا واللات والأنصاب لا تئل
شر الملوك وشرهم حسبًا في الناس من عرفوا ومن جهلوا
من كان خلف الوعد شيمته والغدر عرقوب له مثل

وقال الصنوبري في نظم قصة عرقوب:

قالوا: لنا نخلة وقد طلعت نخلتها فاصطبر لطلعتها
حتى إذا صار طلعها بلحًا قالوا: توقع بلوغ بسرتها
حتى إذا بسرها غدا رطبا فازوا بأعذاقها برمتها
فعد عن نخلةٍ كنخلة عر قوبٍ وعن قصةٍ كقصتها

وقرأت لبعض الكتاب فصلًا في الشكوى استظرفت منه قوله: وقد حصلت على أحزان يعقوب، ومواعيد عرقوب.

وفاء السموأل

هو ابن عادياء اليهودي، القائل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداءٍ يرتديه جميل

ومن وفائه أن امرأ القيس بن حجر الكندي لما أراد الخروج إلى الروم، استودع السموأل دروعًا له، فلما هلك امرؤ القيس، غزا ملك من ملوك الشام السموأل، فتحصن منه في حصنه، فأخذ الملك ابنًا له خارج الحصن، وقال له: إما أن تفرج عن وديعة امرئ القيس، وإما أن أقتل ابنك؛ فامتنع من تسليم الوديعة، فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه، ثم انصرف. ووافى السموأل بالدروع الموسم، فدفعها إلى ورثة امرئ القيس، وقال:

بنى لي عاديا حصنًا منيعًا وماءً كلما شئت استقيت

وفيت بأدرع الكندي إني إذا ما خان أقوام وفيت
وقالوا: إنه كنز رغيب ولا والله أغدر ما مشيت

وقد أكثر الناس من ضرب المثل به، فمن ذلك قول الأعشى:

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به في جحفلٍ كسواد الليل جرار
بالأبلق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غير غدار
خيره خطتي خسفٍ فقال له: مهما تقله فإني سامع حار
فقال: غدر وثكل أنت بينهما فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويلٍ ثم قال له: اقتل أسيرك إني مانع جاري

ندامة الكسعي

هومحارب بن قيس.

ومن حديثه: أنه كان يرعى إبل ًاله، فبصر بنبعةٍ في صخرةٍ، فأعجبته؛ وقال: ينبغي أن تكون هذه قوسًا، فجعل يتعهدها ويرقبها، حتى إذا أدركت قطعها وجففها؛ فلما جفت اتخذ منها قوسًا وأسهمًا، ثم خرج حتى أتى غرةً على موارد حمير وحشٍ، فكمن ليلًا فيها، فمر قطيع منها، فرماه فمرق منه السهم، فظن أنه اخطأ، ثم لم يزل يفعل ذلك حتى أفنى الأسهم الخمسة في أعيارٍ خمسة، وقد أصابها كلها، ومرق منها سهمه، فأصاب الصخرة فأجج نارًا، وهو يظن أنه أخطأها، فأنشأ يقول:

أبعد خمسٍ قد حفظت عدها أحمل قوسي فأريد ردها
أخزى الإله لينها وشدها والله لا تسلم عندي بعدها
ولا أرجي ما حييت رفدها

ثم عمد إلى القوس، فضرب بها حجرًا، وكسرها ونام؛ فلما أصبح نظر إلى الأعيار مصرعةً حوله، ونظر إلى أسهمه مضرجة بالدم؛ فندم على كسر القوس، فشد على إبهامه، فقطعها، وأنشأ يقول:

ندمت ندامةً لو أن نفسي تطاوعني، إذن لقطعت خمسي
تبين لي سفاه الرأي مني لعمر أبيك حين كسرت قوسي

وسارت ندامته مثلًا في كل نادمٍ على ما جنته يداه.

كما قال الفرزدق لما طلق امرأته نوار، وندم عليها:

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار
وكنت كفاقئٍ عينيه جهلًا فأصبح لا يضيء له نهار
وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين لج به الضرار

وقال آخر:

أسر ندامة الكسعي لما رأت عيناه ما صنعت يداه

عدو السليك

هو السليك بن السلكة، الذي يقال له: سليك المقانب؛ وقد تقدم ذكره.

والعرب تضرب به المثل، وتزعم أنه والشنفرى أعدى من رئي؛ ويحكى عن سبقهما الأفراس، وصيدهما الظباء عدوًا، ما الله أعلم بصدقه وكذبه.

قال أبو عبيدة: العداؤون من العرب: السليك، والشنفرى، والمنتشر بن وهب، وأوفى بن مطر؛ ولكن المثل سار من بينهم بالسليك.

صفقة أبي غبشان: يضرب بها المثل في الخسران.

وكانت خزاعة سدنة الكعبة قبل قريش؛ وكان أبو غبشان الخزاعي يلي من بينهم أمر الكعبة، وبيده مفاتيحها؛ فاتفق له أنه اجتمع مع قصي بن كلاب في شربٍ بالطائف، فخدعه قصي عن مفاتيح الكعبة، بأن أسكره، ثم اشتراها منه بزق خمرٍ، وأشهد عليه، ودفع المفاتيح بيد ابنه عبد الدار بن قصي، وطير به إلى مكة؛ فلما أشرف عبد الدار على دور مكة، رفع عقيرته، وقال: يا معاشر قريش؛ هذه مفاتيح بيت

أبيكم إسماعيل، قد ردها الله تعالى عليكم، من غير غدرٍ ولا ظلمٍ؛ وأفاق أبو غبشان من سكره نادمًا خاسرًا.

فقال الناس: أحمق من أبي غبشان، وأندم من أبي غبشان، وأخسر صفقة من أبي غبشان؛ فذهبت الكلمات الثلاث أمثالًا.

وأكثرت الشعراء القول فيه، فقال بعضهم:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت بزق خمرٍ فبئست صفقة البادي
باعت سقايتها بالخمر وانقرضت عن المقام وظل البيت والنادي

وقال آخر:

أبو غبشان أظلم من قصيٍ وأظلم من بني فهرٍ خزاعه
فلا تلحوا قصيًا في شراء ولوموا شيخكم إذ كان باعه

وقال آخر:

إذا افتخرت خزاعة في قديم وجدنا فخرها شرب الخمور
وبيعًا كعبة الرحمن حمقًا بزقٍ بئس مفتخر الفخور

وقال آخر:

باعت خزاعة بيت الله ضاحيةً بزق خمرٍ فما فازوا ولا ربحوا

قبر أبي رغال

أبو رغال، هو الذي كان يرجم الناي قبره إذا أتوا مكة.

وكان وجهه فيما يزعمون صالح النبي عليه السلام، على صدقات الأموال، فخالف أمره، وأساء السيرة، فوثبت عليه ثقيف، فقتله قتلًا شنيعًا؛ وإنما فعلوا به ذلك لسوء سيرته في أهل الحرم؛ وقد ذكره الشعراء

فأكثروا، قال مسكين الدارمي:

وأرجم قبره في كل عامٍ كرجم الناس قبر أبي رغال

وقال جرير:

إذا مات الفرزدق فارجموه كرجم الناس قبر أبي رغال

وأنشد الجاحظ للحكم بن عمر البهراني:

والذي كان يكتني برغالٍ جعل الله قبره شر قبر

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لغيلان بن سلمة، حين أعتق عبيدة، وجعل ماله في رتاج الكعبة: لئن لم ترجع في مالك لأرجمن قبرك، كما يرجم قبر أبي رغال.

نفس عصام

يضرب مثلًا لمن يشرف بالاكتساب، لا بالانتساب، ويسود بنفسه لا بقومه. وعصام هو الباهلي، الذي يقول فيه النابغة:

نفس عصامٍ سودت عصاما وعلمته الكر والإقداما
وجعلته ملكًا هماما

وكان عصام هذا حاجب النعمان بن المنذر، فعرض للنعمان مرض احتجب فيه عن الناس، حتى أرجفوا به، ولما تعذر وصول النابغة إليه، قال فيه قصيدةً، منها قوله لعصام:

فإني لا ألومك في دخولٍ فقل لي: ما وراءك يا عصام
ألم أقسم عليك لتخبرني أمحمول على النعش الهمام؟
فإن يهلك أبو قابوس يهلك ربيع الناس والشهر الحرام

قال الجاحظ: وإنما مدحه ليستأذن له، وليوصله، ولم يمدحه لعظم الحجابة في عينيه، ومعلوم كيف قدر حاجب الملك اليوم.

وكان الأمير إسماعيل بن أحمد الساماني، يقول: كن عصاميًا، ولا تكن عظاميًا؛ أي: سد بشرف نفسك كما ساد عصام، ولا تتكل على سؤدد آبائك الذين ماتوا وصاروا عظامًا نخرةً، فإن الشاعر يقول:

إذا ما الحي عاش بعظم ميتٍ فذاك العظم حي وهو ميت

يدا عدل

هو عدل بن جزء بن سعد العشيرة، كان على شرطة تبعٍ، وكان تبع إذا أراد قتل رجلٍ دفعه إليه؛ فجرى المثل به في ذلك الوقت، فصار الناس يقولون للشيء الذي ييئسون منه: هو على يدي عدلٍ.

وعهدي بأبي بكر الخوارزمي يقول عند ذم العدول: ما وقع بين يدي عدل، فهو على يدي عدل.

هوان قعيس

قال الجاحظ: كان قعيس عند عمته في ليلة مطرٍ وقر، وكان بيتها ضيقًا، فأدخلت كلبها إلى البيت، وتركت قعيسًا في المطر، فمات من البرد.

وذكر الشرقي بن القطامي؛ أنه قعيس بن مقاعس من بني تميم، ولما مات أبوه حملته عمته إلى صاحب بر، فرهنته على صاعٍ من بر، ولم تفكه حتى غلق الرهن، واستعبده الحناط، فصار عبدًا له، وصار هوان قعيس مثلًا.

كما قال جحظة البرمكي، ويروى لمنصور الفقيه:

إذا ما البخيل ثوى في الثرى خري وارثوه على حفرته
هوان البخيل على أهله هوان قعيسٍ على عمته

ميتة آبي خارجة

سمع أعرابي يقول وهو متعلق بأستار الكعبة: اللهم ميتةً كما مات أبو خارجة؛ فقيل له: كيف كانت ميتة أبي خارجة؟ فقال: أكل بذجًا، وشرب مشعلًا، ونام شامسًا، فأتته منيته شبعان ريان دفان.

جزاء سنمار

يضرب مثلًا للمحسن يكافأ بالإساءة.

وكان سنمار الرومي مشهورًا باتخاذ المصانع والحصون والقصور للملوك، فبنى الخورنق على فرات الكوفة للنعمان بن امرئ القيس في مدة عشرين سنة؛ وكان يبني مدةً ويغيب مدةً، يريد بذلك أن يطمئن البنيان ويتمكن، فلما فرغ منه وصعده النعمان، وهو معه، ورأى البر والبحر، ورأى صيد الضباب والظباء والحمير، ورأى صيد الحيتان، وصيد الطير، وسمع غناء الملاحين وأصوات الحداة، أعجبه حسن البناء، وطيب موضعه؛ فقال سنمار عند ذلك متقربًا إليه بالحذق وحسن المعرفة: أبيت اللعن! والله إني لأعرف في أركانه موضع حجرٍ لو زال لزال جميع البنيان؛ قال: أو كذلك! قال: نعم، قال: لا جرم! والله لأدعنه، ولا يعلم بمكانه أحد؛ ثم أمر به فرمي من أعالي البنيان، فتقطع.

ويقال: بل قتله مخافة أن يبني مثله لغيره من الملوك.

فقال شراحيل الكلبي، وجعل الحديث مثلًا:

جزاني جزاه الله شر جزائه ... جزاء سنمارٍ، وما كان ذا ذنب
سوى رصه البنيان عشرين حجةً ... يعالي عليه بالقراميد والسكب
فلما رأى البنيان تم سحوقه ... وآض كمثل الطود ذي الباذخ الصعب
وظن سنمار به كل حبرةٍ ... وفاز لديه بالكرامة والقرب
فقال: اقذفوا بالعلج من رأس شاهقٍ ... وذاك لعمر الله من أعظم الخطب

كنز النطف

من أمثال العرب: كأن عنده كنز النطف.

وهو النطف بن خيبري، أحد بني سليط بن الحارث بن يربوع، وكان أصاب عيبتي جوهرٍ من اللطيمة التي أنفذها باذان من اليمن إلى كسرى بن هرمز، فانتهبها بنو حنظلة، وحصلت الجواهر عند النطف، فكنزها، وقتلت بها تميم يوم صفقة المشقر، وصار كنز النطف مثلًا في كل رغيبةٍ وعلقٍ نفيس؛ يقال: لو كان عنده كنز النطف ما عدا.

حلف الفضول

هو في بعض الروايات تحالف ثلاثة من الفضلين على ألا يروا ظلمًا بمكة إلَّا غيروه؛ وأسماؤهم: الفضل بن شراعة، والفضل بن قضاعة، والفضل بن بضاعة.

وفي الرواية الصحيحة أنه لما كان فيه من الشرف والفضل، سمي حلف الفضول.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا لو دعيت إلى مثله اليوم لأجبت».

وكان سبب ذلك الحلف أن رجلًا جاورهم من زبيدٍ، فظلم حقه، وثمن سلعته؛ وكانت ظلامته عند العاص بن وائل السهمي؛ وكانت لرجلٍ من بارق ظلامة عند أبي بن خلف الجمحي؛ فلما سمع الزبير بن عبد المطلب الزبيدي وقد صعد في الجبل، ورفع عقيرته بقوله:

يا للرجال لمظلومٍ بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر
إن الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقال الزبير:

لفت لنعقدن حلفًا عليهم وإن كنا جميعًا أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يقر به الغريب لذي الجوار

ثم قام هو وعبد الله بن جدعان، فدعوا قريشًا إلى التحالف والتناصر، والأخذ للمظلوم من الظالم، فأجابوهما، وتحالفوا في دار ابن جدعان، وشهده النبي صلى الله عليه وسلم قبل الوحي، فهذا حلف

الفضول.

وأما حلف المطيبين؛ فهو آخر بين قريش؛ ولما اجتمعوا لذلك، غمسوا أيديهم في الطيب، ثم تصافحوا وتحالفوا وتعاقدوا.

مسير حذيفة

قال المبرد: من المسير المذكور الذي يتمثل به، مسير حذيفة بن بدرٍ، وكان أغار على هجائن المنذر بن ماء السماء، وسار في ليلةٍ مسير ثمانٍ، فقال قيس بن الخطيم، متمثلًا به:

همـمنا بالإقامة ثم سرنا مسير حذيفة الخير بن بدر

نكاح حوثرة

حوثرة: رجل من عبد القيس، تضرب به العرب المثل في شدة النكاح، وكثرته، فتقول: أنكح من حوثرة.

وممن يضرب به المثل في النكاح والغلمة؛ خوات بني جبير الأنصاري، صاحب ذات النحيين؛ وكان يأتي أحياء العرب يتطلب النساء، فإذا سئل عن حاجته، قال: قد شرد لي بعير، فخرجت في طلبه.

وأدرك الإسلام، وشهد بدرًا؛ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم يومًا: «ما فعل بعيرك! أيشرد عليك؟» فقال: أما منذ قيده الإسلام فلا.

وتزعم الأنصار أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له بأن تسكن غلمته، فسكنت بدعائه صلى الله عليه وسلم.

ذكر ابن ألغز

ابن ألغز: رجل من إياد، كان أعظم الناس أيرًا، وأشدهم نكاحًا، وكان إذا أنعظ يستلقي على قفاه، فيجيء الفصيل الأجرب فيحتك بأيره يظنه الجذل والجذل عود في العطن ينصب لتحتك به الإبل الجربى ويزعمون أنه أصاب رأس أيره جنب عروس زفت إليه، فقالت: أتهددنا بالركبة! وهو القائل:

ألا ربما أنعظت حتى إخاله سينقد بالإنعاظ أو يتمزق
فأعمله حتى إذا قلت: قد ونى أبى وتمطى جامحًا يتمطق

وممن ضرب به المثل، الفرزدق حيث قال:

لحا الله هذا من حلالٍ ومن يقل سوى ذاك لاقاه بأير ابن ألغز

وقال آخر:

أولاك الألى كان ابن ألغز منهم ولا مثل ما كان ابن ألغر يصنع

وذكر عبد الملك بن مروان إيادًا، فقال: هم أخطب الناس لمكان قس، وأسخى الناس لمكان كعبٍ، وأشعر الناس لمكان أبي داود، وأنكح الناس لمكان ابن ألغز.

أير الحارث بن سدوس

يضرب به المثل في كثرة الأولاد الذكور.

قال الأصمعي: كان له أحد وعشرون ذكرًا؛ قال الشاعر:

فلو شاء ربي كان أير أبيكم طويلًا كأير الحارث بن سدوس

والعرب تقول: فلان طويل الأير، إذا كان كثير الأولاد.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: من يطل أير أبيه ينتطق به؛ أي: من كثرت إخوته استظهر بهم، وضرب المنطقة إذا كانت تشد الظهر، مثلًا لذلك.

نومة عبود

روى الفراء عن المفضل بن سلمة، قال: كان عبود عبدًا أسود حطابًا، فعبر في محتطبه أسبوعًا لم ينم، ثم انصرف وبقي أسبوعًا نائمًا؛ فضرب به المثل لمن ثقل نومه، فقيل: قد نام نومة عبود.

وقال الشرقي بن القطامي: أصل ذلك أن عبودًا تماوت على أهله، وقال: اندبوني لأعلم كيف تندبون إذا مت؛ فسجينه وندبنه، فإذا به قد مات.

قال أبو عبد الله بن الحجاج، وهو يضرب به المثل:

قوموا فأهل الكهف مع عبود عندكم صراصر

حمق هبنقة

قال حمزة الأصبهاني: هو هبنقة ذو الودعات، واسمه: يزيد بن ثروان، أحد بني قيس بن ثعلبة.

ومن حمقه؛ أنه جعل في عنقه قلادةً من ودعٍ وعظمٍ وخزفٍ، وهو ذو لحية طويلة، فسئل عنها، فقال: لأعرف بها نفسي، ولئلا أضل؛ فبات ذات ليلة، وأخذ أخوه قلادته فتقلدها، فلما أصبح رأى القلادة في عنق أخيه، فقال له: يا أخي إن كنت أنت أنا فمن أنا!

ومن حمقه؛ أنه اختصمت الطفاوة وبنو راسبٍ، إلى عرباض، في رجلٍ ادعاه كل منهم هؤلاء وهؤلاء، فقالت الطفاوة: هذا من عرافتنا، وقالت بنو راسب: بل هو من عرافتنا، ثم قالوا: قد رضينا بحكم أول من يطلع علينا؛ فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم هبنقة، فقصوا عليه القصة، فقال: الحكم عندي في ذلك أن تلقوه في نهر البصرة، فإن كان راسبيًا رسب، وإن كان طفاويًا طفا؛ فقال الرجل: قد زهدت في النسبتين، فخلوا عني، فلست من راسبٍ ولا من الطفاوة.

ومن حمقه أنه ضل له بعير، فأخذ ينادي: من وجد بعيري فهو له؛ فقيل له: فلم تنشده؟ قال: فأين حلاوة الوجدان!

وكان يرعى غنمًا له، فيرعى السمان منها في العشب، وينحي المهازيل؛ فقيل له في ذلك، فقال: لا أفسد ما أصلح الله، ولا أصلح ما أفسد الله!

وقال الشاعر فيه:

عش بجد ولا يضرك نوك — إنما عيش من ترى بالجدود
عش بجد وكن هبنقة القيـ — ـسي أو مثل شيبة بن الوليد
رب ذي إربةٍ مقل من الما — ل وذي عنجهيةٍ مجدود

العنجهية: الجهل؛ وشيبة بن الوليد: من رجالات العرب وقال آخر:

فعش بجد وكن هبنقةً ير — ض بك الناس قاضيًا حكما

وأخبار حمقه كثيرة، والمثل به سائر، كما سار بحمق جحا، وحمق دغة.

جهل أبي جهل

هو ابن هشام، يضرب به المثل لجهله، ولموافقة كنيته صفته، وكان يكنى بأبي الحكم؛ وفيه قال مصعب بن الحسين الوراق في مخالفة ظاهره باطنه:

ألم ترياني حين أغدو مسبحًا — بسمت أبي ذر، وجهل أبي جهل
ومحبرتي رأس الرياء ودفتري — ونعلي بالأسحار أو رائحًا رجلي
فكم من فتًى قد قال والده له — عليك بهذا، إنه من ذوي الفضل
يفر به من أن يصاحب شاطرًا — كمن فر من حبس الخراج إلى القتل

وفيه يقول أيضًا حسان بن ثابت:

الناس كنوه أبا حكمٍ — والله كناه أبا جهل
أبقت رئلسته لأسرته — غضب الإله وذلة الأصل

وقال ابن الحجاج من قصيدته:

برطل راحٍ كالمسك ساعيةٍ — تغنيك في طيبها عن النقل

عادية السن، بطش سورتها أجهل في الرأس من أبي جهل

شؤم طويس

طويس: من مخنثي المدينة، وكان يسمى طاووسًا، فلما تخنث سمي بطويس، ويكنى بأبي عبد النعيم.

وهو أول من غنى في الإسلام بالمدينة، ونقر بالدف المربع؛ وكان مأبونًا خليعًا، يضحك كل حزين وثكلى.

وكان يقول: يا أهل المدينة، ما دمت بين ظهرانيكم، فتوقعوا خروج الدجال والدابة، فإن مت فأنتم آمنون.

اعلموا أن أمي كانت تمشي بين نساء الأنصار بالنمائم؛ وولدتني في الليلة التي مات فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفطمتني يوم مات أبو بكر، وبلغت الحلم في اليوم الذي قتل فيه عمر، وتزوجت في اليوم الذي قتل فيه عثمان، وولد لي في اليوم الذي قتل فيه علي رضي الله عنهم.

وكان يضرب فيه المثل في التخنث، وفي الأبنة والشؤم.

ومن أملح ما أحفظ في التمثيل بشؤمه، قول أبي الفتح البستي، في أبي علي ابن سيمجور:

ألم تر ما أرتاه أبو علي وكنت أراه ذا لب وكيس
عصى السلطان فابتدرت إليه جيوش يقلعون أبا قبيس
وصير طوس معقله فأضحت عليه طوس أشأم من طويس

وكان أبو الحسن اللحام، يلقب أبا جعفر محمد بن العباس بن الحسن، بطويس، حتى شهر به، وفيه يقول:

عاد إلى الحضرة نفسان طويس والنذل ابن مطران
اثنان ما إن لهما ثالث إلا عصا موسى بن عمران

كذب مسيلمة

أبو ثمامة مسيلمة بن حبيب الحنفي، من أهل اليمامة، كان صاحب نيرنجاتٍ وأسجاع ومخاريق وتمويهات؛ وادعى النبوة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة، فما زال يخفى ويظهر، ويقوى ويضعف، وأهل اليمامة فرقتان: إحداهما تعظمه وتؤمن به، والأخرى تستخفه وتضحك منه. وكان يقول: أنا شريك محمد في النبوة، وجبريل عليه السلام ينزل علي كما ينزل عليه. وكان رجال بن عنفوة، من رائشي نبله، والحاطبين في حبله، والساعين في نصرته.

وكان مسيلمة يقول: يا بني حنيفة، ما جعل الله قريشًا أحق بالنبوة منكم؛ وبلادكم أوسع من بلادهم، وسوادكم أكثر من سوادهم؛ وجبريل ينزل على صاحبكم مثل ما ينزل على صاحبهم.

ولما قدم النبي صلى الله عليه وسلم، وجد الناس يتذاكرونه، وما يبلغهم عنه من قوله وقول بني حنيفة فيه، فقام صلى الله عليه وسلم يومًا خطيبًا، فقال بعد حمد الله، والثناء عليه: «أما بعد؛ فإن هذا الرجل الذي تكثرون في شأنه كذاب في ثلاثين كذابًا قبل الدجال».

فسماه المسلمون مسيلمة الكذاب، وأظهروا شتمه، وعيبه وتصغيره.

وهو باليمامة يركب الصعب والذلول في تقوية أمره، ويعتضد برجال بن عنفوة، وهو ينصره ويذب عنه، ويصدق أكاذيبه، ويقرأ أقاويله، التي منها: والشمس وضحاها، في ضوئها ومنجلاها؛ والليل إذا عداها، يطلبها ليغشاها، فأدركها حتى إذا أتاها، أطفأ نورها فمحاها.

ومنها سبح اسم ربك الأعلى الذي يسر على الحبلى، فأخرج منها نسمةً تسعى، من بين أحشاءٍ ومعى، فمنهم من يموت ويدس في الثرى، ومنهم من يعيش ويبقى، إلى أجلٍ ومنتهى، والله يعلم السر وأخفى، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى.

ومنها: اذكروا نعمة الله عليكم واشكروها؛ إذ جعل لكم الشمس سراجًا، والغيث ثجاجًا، وجعل لكم كبشًا ونعاجًا، وفضةً وزجاجًا، وذهبًا وديباجًا؛ ومن نعمته عليكم أن أخرج لكم من الأرض رمانًا، وعنبًا وريحانًا، وحنطةً وزؤانًا.

وكان أبو بكر رضي الله عنه إذا قرع سمعه هذه الترهات، يقول: أشهد أن هذا الكلام لم يخرج من إل.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم رأى، فيما يرى النائم، في يده سواري ذهبٍ، فنفخهما، فطارا، فوقع أحدهما باليمامة، والآخر باليمن؛ فأولهما مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة، والأسود العنسي صاحب اليمن.

وكان رجال بن عنفوة صاحب مسيلمة، قدم المدينة مرارًا، وقرأ القرآن، وأظهر الإيمان، وأسر الكفر.

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم، بينما هو جالس في أصحابه، إذ سمع وطئًا من خلفه، فقال: «هذا وطء رجلٍ من أهل النار»، فإذا هو رجال بن عنفوة.

فلما قدم وفد حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم، وفيهم مسيلمة إلَّا أنه لم يلقه وأظهروا الإسلام، وأرادوا الانصراف، أمر لهم عليه الصلاة والسلام بجوائز كعادته في الوفود، وقال: «هل بقي منكم أحد»؟ قالوا: لا، إلَّا رجل منا يحفظ رحالنا يعنون مسيلمة، فقال صلى الله عليه وسلم: «ليس بشركم مكانًا»؛ فلما رجع الوفد إلى مسيلمة وقد بلغه كلام النبي صلى الله عليه وسلم فيه قال لهم: قد سمعتم قول محمد فِيِّ: «ليس بشركم مكانًا»، وقد أشركني في الأمر؛ فسكتوا ولم يحيروا جوابًا، فقال رجال بن عنفوة: يا قوم، نبي منكم خير من نبيٍ من غيركم، وأنا أشهد أن محمدًا أشركه في الأمر بعده، فعليكم به.

ولما انصرفوا إلى اليمامة أعلن مسيلمة النبوة، وادعى الشركة، وفتن أهل اليمامة فانقسموا بين مصدقٍ ومكذبٍ، وراضٍ وساخطٍ.

وكتب مسيلمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم كتابًا فيه:

> إلى النبي محمدٍ رسول الله من مسيلمة رسول الله، أما بعد؛ فإني قد أشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض ولقريشٍ نصفها، ولكن قريشًا قوم يعتدون ولا يعدلون.

وختم الكتاب وأنفذه مع رسولين، فلما قرئ الكتاب على النبي صلى الله عليه وسلم، قال لهما: «ما تقولان؟» قالا: نقول ما قال أبو ثمامة؛ فقال: «أما والله لولا أن الرسل لا يقتلون لقتلتكما»؛ وأملى الجواب:

> «من محمدٍ رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد؛ فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

ولما صدر الرسولان إلى مسيلمة الكذاب افتعل كتابًا يذكر فيه أنه جعل له الأمر من بعده، فصدقه أكثر بني حنيفة.

وبلغ من تبركهم به أنهم كانوا يسألونه أن يدعو لمريضهم، ويبرك لمولودهم؛ وجاءه قوم بمولودٍ لهم، فمسح رأسه فقرع.

وجاءه رجل يسأله أن يدعو لمولودٍ بطول العمر، فمات من يومه.

وكان ثمامة بن أثالٍ الحنفي يقشعر جلده من ذكر مسيلمة؛ فقال يومًا لأصحابه: إن محمدًا لا نبي معه ولا بعده، كما أن الله لا شريك له في ألوهيته، فلا شريك لمحمدٍ صلى الله عليه وسلم في نبوته.

ثم قال: أين قول مسيلمة: يا ضفدع نقي نقي، كم تنقين! لا الماء تكدرين، ولا الشرب تمنعين؛ من قول الله تعالى الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، فقالوا: أوقح بمن يقول مثل ذلك مع مثل هذا!

ولما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه، وارتدت العرب، بعث أبو بكرٍ رضي الله عنه خالد بن الوليد إلى حرب أهل الردة، فأوقع بهم وانتصف منهم، ثم أمره أبو بكر رضي الله عنه بقصد اليمامة ومقارعة مسيلمة، ففعل، وزحف إليها في وجوه المهاجرين والأنصار، وتلقاه مسيلمة في خيله ورجله.

ولما كان يوم اليمامة حمي الوطيس، واشتدت الوقعة، وعظمت الملحمة، فالتجأ بنو حنيفة — وفيهم مسيلمة — إلى حديقةٍ سميت بعد حديقة الموت؛ فاقتحمها خالد رضي الله عنه والمسلمون، ووضعوا فيهم السيوف، وقتل الله تعالى مسيلمة، فاشترك في قتله وحشي بحربته، وعبد الله بن الزبير بسيفه؛ وفتح الله تعالى اليمامة على المسلمين، وأفاء عليهم الغنيمة، ببركة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ويمن نقيبته، رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

طمع أشعب

كان أشعب من أهل المدينة، وكان صاحب نوادر، وصاحب إسنادٍ.

وكان يحدث فيقول: حدثنا سالم بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وكان يبغضني في الله، فإذا قيل له: دع ذا، قال: ليس للحق مترك.

وكانت عائشة بنت عثمان كفلته، وكفلت معه ابن أبي الزناد.

وكان أشعب يقول: تربيت أنا وابن أبي الزناد في مكانٍ واحدٍ، فكنت أسفل وهو يعلو حتى بلغنا إلى ما ترون.

وساومه رجل قوس بندقٍ بدينارٍ، فقال: لو كنت إذا رميت عنها طائرًا وقع مشويًا بين رغيفين ما اشتريته بدينارٍ!

وقال له سالم بن عبد الله: ما بلغ من طمعك؟ قال: ما نظرت إلى اثنين في جنازةٍ يتساران إلَّا قدرت أن الميت أوصى لي بشيءٍ! وما زفت في جواري امرأة إلَّا كنست بيتي رجاء أن يغلط بها إلي!

وبلغ من طمعه؛ أنه مر برجلٍ يعمل طبقًا، فقال: أحب أن تزيد فيه طوقًا، فقال: ولم؟ قال: عسى أن يهدى إلي فيه شيء فيكون أكثر!

وقيل له: هل رأيت أطمع منك؟ قال: نعم، خرجت إلى الشام مع رفيقٍ لي، فنزلنا عند ديرٍ فيه راهب، وتلاحينا في أمرٍ، فقلت: أير الراهب في است الكاذب، فنزل الراهب وقد أنعظ، وقال: بأبي أنتما! من الكاذب منكما؟

ونوادر طمعه أكثر من أن تحصى؛ وقد ظرف من قال في كذب مسيلمة وطمع أشعب:

وتقول لي قولًا أظنك صادقًا ... فأجيء من طمعٍ إليك وأذهب

فإذا اجتمعت أنا وأنت بمجلسٍ ... قالوا: مسيلمة وهذا أشعب

سنيات خالد

يضرب المثل بها أهل المدينة في القحط والشدة، كما يضرب المثل بسني يوسف.

وخالد هذا هو خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، المعروف بابن نظرة: ولي لهشام بن عبد الملك المدينة سبع سنين، فقحط الناس حتى جلا أهل البوادي إلى الشام.

كان يقال: سنيات خالدٍ، لا أعادها الله أمثالها.

أصفر سليم

كان سليم صيدلانيًا بالبصرة، وقد عجن دواءً أصفر كل ما شرب له؛ فكان يستشفي به كل مبردٍ ومحرورٍ؛ فسار مثلًا في البركة وحسن الموقع. وقد قيل فيه غير هذا. والله أعلم.

بخت آبي نافع

كان أبو نافع تاجرًا، ما خسرت تجارته قط، وما عرف الربح فيما يبيعه ويشتريه طل أيامه؛ فسار المثل ببخته.

قنديل سعدان

كان يحيى بن خالد ولى سعدان الديوان، فكان يرتشي، ولا يقضي حاجةً لأحدٍ ما لم يأخذ رشوةً؛ حتى قال فيه الشاعر:

صب في قنديل سعدا ن مع التسليم زيتا
وقناديل بنيه قبل أن يخفي الكُمَيتا

وصب الزيت في القنديل كناية عن الرشوة؛ فلما شهر بالارتشاء عزله يحيى، وولى مكانه أبا صالح بن ميمون، فكان يربو على سعدان في الارتشاء وفرط الطمع؛ فقيل فيه:

قنديل سعدان على ضوئه فرخ لقنديل أبي صالح
تراه في ديوانه أحولًا من لمحه للدرهم اللائح

فعزله يحيى وأعاد سعدان إلى عمله.

واو عمرو

تضرب مثلًا لما لا يحتاج إليه.

وأول من ضرب المثل بها أبو نواس، حيث قال لأشجع السلمي:

أيها المدعي سليمًا سفاهًا لست منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت من سليم كواوٍ ألحقت في الهجاء ظلمًا بعمرو

وقال ابن بسام:

يا طلوع الرقيب ما بين إلفٍ　　يا غريمًا أتى على الميعاد
يا ركودًا في يوم صيفٍ وغيمٍ　　يا وجوه التجار يوم الكساد
خل عنا فإنما أنت فينا　　واو عمروٍ وكالحديث المعاد

وأحسن ما سمعت فيه قول أبي سعيدٍ الرستمي للصاحب بن عباد، من قصيدة:

أفي الحق أن يعطى ثلاثون شاعرًا　　ويحرم ما دون الرضا شاعر مثلي
كما ألحقت واو بعمروٍ زيادةً　　وضويق بسم الله في ألف الوصل

ووصف بعضهم زيادةً لا يحتاج إليها، فقال: واو عمروٍ، وبغلة الشطرنج.

شربة أبي الجهم

يضرب للشيء اللذيذ الطعم، الرديء العاقبة.

وكان أبو الجهم عينًا لأبي مسلمٍ على أبي جعفر المنصور، يراعيه ويداخله ويحفظ أنفاسه؛ والمنصور يستثقله، ويتبرم به، ويترصد الغوائل له؛ فبينا هو ذات يوم عنده إذ عطش فاستسقى، فقال المنصور: يا غلام اسقه سويق اللوز بالطبرزذ؛ فجاءه بقدحٍ منه وفيه سم ذعاف، فشربه أبو الجهم، ولم يلبث أن حرك بطنه، فقام، فقال المنصور: إلى أين يا أبا الجهم؟ فقال: إلى حيث وجهتني يا أبا جعفر.

ورجع إلى منزله، وقذف كل شيءٍ في بطنه، وتلف لوقته، فقيل فيه:

تجنب سويق اللوز لا تشربنه　　فشرب سويق اللوز أردى أبا الجهم

لحن الموصلي

هو إسحاق بن إبراهيم؛ يتمثل به في الظرف وجودة الغناء، كما قال ابن أبي عيينة، وهو يصف حمامة:

ووِرقاء تحكي الموصلي إذا شدا بألحانه، أحبب بها وبمن تحكي

وقال آخر:

أزاح بلبالي غناء البلبل إذ مر في ألحانه كالموصلي

وقال آخر:

خلق ما يكاد يصبر عنه قلب خلقٍ إلَّا بألف كفيل
وحديث كأن إسحاق يحدو في تضاعيفه بشعر جميل

غناء إبراهيم بن المهدي

كان من آدب الناس وأشعرهم وأبلغهم، وغلب عليه الغناء، فبرز فيه وأعجز، وسحر وبهر، حتى ضرب به المثل، وكان عجيب الشأن، بديع الوصف والحال.

وكان أسود شديد السواد، براق اللون، وأبوه المهدي أبيض، وأمه شكلة أميل إلى السواد.

وتنقلت به أحوال وأدوار، وتقلد الخلافة سنتين إلى أن دخل المأمون بغداد وهو مستتر، ثم ظفر به وعفا عنه المأمون، ورد عليه أمواله، وأكرمه ونادمه، ورتبه في مشايخ بني هاشم.

وكان غناء إبراهيم لأخيه الرشيد، ثم للثلاثة من بني أخيه الخلفاء، وهم: الأمين والمأمون والمعتصم.

وطرب المعتصم يومًا لغنائه، فقال: أحسنت يا أمير المؤمنين! فقال: إبراهيم: عربدت يا أمير المؤمنين!

وكان إذا ضرب وغنى لأحدهم في الصحارى والمتصيدات والمتنزهات، وقفت له الطير، وعكفت عليه الوحش حتى تكاد تؤخذ بالأيدي.

وكان أبو عيسى بن الرشيد، يقول فيه: السكر على صوتك شهادة يا عم.

وكان أحمد بن يوسف يقول: القلوب من غنائه على خطرٍ، فكيف الجيوب!

وقرأت لأبي إسحاق الصابي فصلًا، إلى أبي عثمان الخالدي استحسنته جدًّا في محاسن الأفراد، وهو قوله له: لو كان لك خصم يجمع شعر البحتري، وغناء إبراهيم بن المهدي، ومذاكرة الأصمعي، وكتابة جعفر بن يحيى، وحسن وجه المعتز، وطيب عشرة ابن حمدون، لما كنت لا منحرفًا عنه، مقبحًا محاسنه من أجلك!

عود بنان وناي زنام

كان بنان وزنام مصدري مطربي المتوكل، وكان كل منهما منقطع القرين في طبقته؛ فإذا اجتمعا على الضرب والزمر أحسنا وفتنا، وأعجبا وعجبا.

وكان المتوكل لا يشرب إلَّا على سماعهما؛ وفيهما يقول البحتري من قصيدةٍ:

هل العيش إلَّا ماء كرمٍ مصفق يرقرقه في الكأس ماء غمام

وعود بنان حين ساعد شدوه على نغم الألحان ناي زنام

خرص أبي السقاء

كان يخرص النخيل بالبصرة للسلطان، فلا يغلط برطلٍ، فضرب به المثل في ذلك.

حكاية أبي ديونة

كان زنجيًا، وكان كما قال ابن الرومي:

كيت القرد في قبحٍ وسخفٍ وما قصرت عنه في الحكاية

وكان يحكي كل صوتٍ، وكل هيئة ومشيةٍ، ويحكي أصوات الدواب والبهائم والطير، فلا يفرق بين صوته وأصواتها؛ ونظيره في زماننا أبو الورد صاحب المهلبي، ولا ثالث لهما.

لواط يحيى ابن آكثم

أصله من مرو؛ واتصل بالمأمون أيام مقامه بها، فاختص به، واستولى على قلبه، وصحبه إلى بغداد، وأحله محل الأقارب أو أقرب.

وكان متقدمًا في الفقه، وأدب القضاء، حسن العشرة، عذب اللسان، وافر الحظ من الجد والهزل.

ولاه المأمون قضاء القضاة، وأمر بألا يحجب عنه ليلًا ولا نهارًا؛ وأفضى إليه بأسراره، وشاوره في مهماته.

وكان يحيى ألوط من ثغر، ومن قوم لوطٍ؛ وكان إذا رأى غلامًا يستشرطه، وقعت عليه الرعدة، وسال لعابه، وبرق بصره.

وكان لا يستخدم في داره إلَّا المرد الملاح، ويقول قد أكرم الله تعالى أهل جنته بأن أطاف عليهم الغلمان في حال رضاه عنهم، لفضلهم على الجواري؛ فما بالي لا أطلب هذه الزلفى والكرامة في دار الدنيا معهم!

ويقال: إنه هو الذي زين للمأمون اللواط، وحبب إليه الولدان، وغرس في قلبه فضائلهم ومحاسنهم وخصائصهم؛ وقال: إنهم بالليل عرائس، وبالنهار فوارس؛ وهم للفراش والهراش، وللسفر والحضر؛ فصدر المأمون عن رأيه، وجرى في طريقه؛ واقتدى به المعتصم، حتى استهتر بهم، وملك ثمانية آلاف منهم.

وما كان بنو العباس يحومون حولهم، إلَّا ما كان محمد الأمين يؤثره من استخدام الصبيان، والعبث بهم دون فحول الولدان.

ويحكى أن المأمون نظر يومًا إلى يحيى في مجلسه، وهو يحد النظر إلى ابن أخيه الواثق، وهو إذا ذاك أمرد تأكله العين؛ فتبسم إليه، وقال: يا أبا محمد حوالينا ولا علينا! فقال: يا أمير المؤمنين، إن الكلب لا يأكل النار!

وخلا به المأمون ليلةً على المطايبة والمداعبة، والمجاراة في ميدان الغلمان؛ ومترف غلام المأمون يتسمع عليهما وهو الذي حكى هذه القصة عنهما قال: قال له المأمون: يا أبا محمد، أخبرني عن أظرف غلامٍ مر بك؛ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، احتكم إلي غلام في نهاية الملاحة والظرف واللباقة، فأخذته عيني، وتعلقه قلبي، فلم أفصل الحكم بينه وبين خصمه إيثارًا مني للقائه ومعاودته إياي في حكومته، فدخل إلي على حين خلوة، ومثله لا يحجب عني؛ فلما وصل إلي قال: أيها القاضي أعدني على خصمي؛ فقلت له: ومن

يعديني على عينيك يا بني؟ قال: شفتي وأدناها مني فلما شممت الخمر من فيه وفيته حدًا من القبل، وقلت له ويدي في ثيابه: يا بني، ما أنحفك! فقال: كلما دق قصب السكر كان أحلى.

فضحك المأمون، ووقع له بمائتي دينار، وقال: أوصلها إليه ولو على أجنحة الطير؛ وكان إذ ذاك قد التحى، وكان يحيى يعرف منزله، فامتثل أمره، وأوصلها إليه.

ومما قيل في يحيى:

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهرًا فأعقبنا بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها وقاضي قضاة المسلمين يلوط

وفيه أيضًا:

أنطقني الدهر بعد إخراسٍ بحادثاتٍ أطلن وسواسي
قاضٍ يرى الحد في الزناء ولا يرى على من يلوط من باس
أميرنا يرتشي وحاكمنا يلوط، والرأس شر ما راس
ما إن أرى الجور ينقضي وعلى الـ ـأمة والٍ من آل عباس

وفيه قيل:

وكنت ألوم الشيخ فيك ولا أرى دم الشيخ إن رام الحرام محرما
فلما رأيت الحسن ألقى رداءه عليك عذرت الشيخ يحيى بن أكثما

ولفرط لواطه نسب إلى الأبنة، فقيل فيه:

ربة يحيى لين رأسها إن وقعت في اللحم لم تخدش
يحشو بها المرد إذا ما خلا وهو كما يحشوهم يحتشي
ينحط من فوقٍ إلى أسفلٍ مثل انحطاط الطائر المرعش

ويحكى أنه دخل يومًا على العباس بن المأمون، وهو يلعب بالشطرنج، وينشد:

يا ليت يحيى لم يلده أكثمه ولم تطأ أرض العراق قدمه

أي دواةٍ لم يلقها قدمه!

فقال يحيى: دواتك أيها الأمير!

وسمعه إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة يومًا يغض من جده فقال له: ما هذا جزاؤه منك! قال: حين فعل ماذا؟ قال: حين أباح النبيذ، ودرأ الحد عن اللوطي.

الباب التاسع

فيما يضاف وينسب إلى العرب

تيجان العرب، أغربة العرب، جمرات العرب، أثافي العرب، نخوة العرب، صناجة العرب، كسرى العرب، صلاء العرب، كاهل العرب، سابق العرب.

الاستشهاد

تيجان العرب

في الخبر: إن العمائم تيجان العرب، فإذا وضعوها وضع الله عزهم.

وكان يقال: اختصت العرب من بين الأمم بأربع: العمائم تيجانها، والحبى حيطانها، والسيوف سيجانها، والشعر ديوانها.

أغربة العرب

هم أربعة سودان شجعان.

فمنهم: عنترة بن شداد العبسي، سرى السواد فيه من جهة أمه، وكانت زنجية تسمى زبيبة؛ وفيها قال من وصف رجلًا بقلة الشراب:

ويدعى الشرب في رطلٍ وباطيةٍ وأم عنترة العبسي تكفيه

ومنهم خفاف بن ندبة السلمي، سرى السواد فيه من قبل أمه وبلدته، لأنه من حرة بني سليم؛ وأدرك النبي صلى الله عليه وسلم، وكان شاعرًا شجاعًا، وقل ما يجتمع الشعر والشجاعة في واحدٍ، وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة ومعه لواء بني سليم.

ومنهم السليك بن السلكة، وقد تقدم ذكره.

ومنهم عبد الله بن خازم السلمي، والي خراسان لعبد الله بن الزبير.

ومن عجيب أمره أنه كان نهايةً في الشجاعة والنجدة، وكان يخاف الفأر أشد مخافةٍ؛ فبينما هو ذات يومٍ عند عبيد الله بن زياد، إذا أدخل عليه جرذ أبيض، فتعجب منه، فقال لعبد الله: يا أبا صالح، هل رأيت أعجب من هذا؟ وإذا عبد الله قد تضاءل كأنه فرخ، واصفر كأنه جرادة؛ فقال عبيد الله: أبو صالح يعصي الرحمن، ويتهاون بالسلطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي إلى الأسد الورد، ويلقى الرماح بوجهه، والسيوف بيده، وقد اعتراه من جرذٍ ما ترون! أشهد أن الله على كل شيءٍ قدير.

جمرات العرب

بنو ضبة، وبنو الحارث بن الكعب، وبنو نمير بن عامر، وبنو عبس بن بغيض، وبنو يربوع بن حنظلة.

قال الخليل: الجمرة؛ كل قومٍ يصبرون لقتال من قاتلهم، لا يحالفون أحدًا، ولا ينضمون إلى أحدٍ، تكون القبيلة نفسها جمرةً تصبر لمقارعة القبائل، كما صبرت عبس لقيسٍ كلها.

أثافي العرب

قال محمد بن حبيب البصري في الكتاب المحبر: سليم وهوازن ابنا منصور بن عكرمة أثفية؛ وغطفان أثفية؛ ومحارب أثفية، وهي ألأمها.

نخوة العرب

لم تزل العرب تتميز عن سائر الأمم بالنخوة، لما كانت تختص به من السماحة، والفصاحة والشجاعة؛ حتى إن النعمان بن المنذر ترفع عن مصاهرة سلطانه أبرويز، إذ كان من العجم؛ ولما بعث الله تعالى صفوة خلقه، وخاتم رسله منهم ازدادت نخوتهم وصارت مثلهم؛ كما قال الشاعر:

لؤم النبيط ونخوة العرب

صناجة العرب

كان يقال للأعشى: صناجة العرب، لكثرة ما غنت بشعره.

ويقال: بل لأنه أول من ذكر الصنج في شعره، حيث قال:

ومستجيبٍ تخال الصنج يسمعه إذا ترجع فيه القينة الفضل

كسرى العرب

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نظر إلى معاوية بن سفيان رضي الله عنه قال: هذا كسرى العرب؛ لأنه كان يجمع بين سخاء العرب، وآيين ملوك العجم في الرياش والمطعم.

ومما يقارب هذا المعنى، فصل قرأته للصاحب في ذكرٍ فصلٍ قرأه للأمير شمس المعالي: قرأت الفصل الذي تجشمه جامع هزة العرب إلى عزة العجم، وناظم ما بين صليل السيف وصرير القلم.

صلاء العرب

قال عمر رضي الله عنه: الشمس صلاء العرب. وكان يقول: العربي كالبعير حيثما دارت الشمس استقبلها بهامته.

ووصف الراجز الإبل فقال:

كاهل العرب

قال معاوية للأحنف وحارثة بن قدامة ورجالٍ من بني سعدٍ معهما كلامًا ما أحفظهم، فردوا عليه جوابًا مقذعًا، وابنة قرظة في بيتٍ بقربه تستمع؛ فلما خرجوا قالت: يا أمير المؤمنين، لقد سمعت من هؤلاء الأجلاف كلامًا رموك به فلم تنكره عليهم، فأردت أن أخرج عليهم فأسطو بهم.

فقال لها معاوية رضي الله عنه: إن مضر كاهل العرب، وتميمًا كاهل مضر، وسعدًا كاهل تميم، وهؤلاء كاهل سعدٍ.

وشبيه بهذا الكلام في المعنى، ما يحكى عن جعفر بن سليمان الهاشمي أنه كان يقول: العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، وداري عين المربد.

وعن يحيى بن خالد: العرب يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويروون أحسن ما يحفظون.

سابق العرب

عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق فارس، وبلال سابق الحبشة».

الباب العاشر

فيما يضاف وينسب إلى الإسلام والمسلمين

سهم الإسلام، قبة الإسلام، بيضة الإسلام، خضاب الإسلام، فتكتا الإسلام، نطاق الإسلام، دعوة الإسلام، عصا المسلمين، حلوبة المسلمين، جناح المسلمين.

الاستشهاد

سهم الإسلام

كان السلف يقولون في وصاياهم: إذا مررت بقومٍ فابدأهم بسهم الإسلام، وهو السلام، فقل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم، يقول يوم دخول المدينة: «أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، وصلوا الأرحام، تدخلوا الجنة بسلام».

قبة الإسلام

لما مصر عمر رضي الله عنه البصرة، وانتقلت قبائل العرب إليها، وكثرت الأبنية فيها، واشتدت شوكة الإسلام بها، سميت: قبة الإسلام.

ثم لما بنى المنصور بغداد، وسماها مدينة الإسلام، وصارت دار الخلافة، ومصب أموال الدنيا، قال الناس: هذه الآن أولى بأن تسمى: قبة الإسلام، من البصرة؛ فقالوا: مدينة السلام، وقبة الإسلام.

ولما وقعت فتنة الزنج بالبصرة رفعت إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان بسُرَّ مَن رأى قصة: إن البصرة قبة الإسلام، وفيها قريش والهاشميون، والعرب، وهي على شرف الخراب والذهاب؛ فاضَّجر وقال: وذهبت البصرة فمه! فقيل له: وذهبت أنت فمه!

فكان يصاح به في الطريق: فمه! حتى اشتهر بها فهرب من سُرَّ مَن رأى.

وذكر ابن الموسوي النقيب قبة الإسلام في قصيدةٍ مدح بها الطائع، وذكر فيها أباه، فقال:

لما رآك رأى النبي محمدًا ... في بردة الإجلال والإعظام
ورأى بمجلسك المعرق في العلا ... حرم الرجاء وقبة الإسلام

بيضة الإسلام

هي على طريقة الإستعارة والتشبيه: مجتمعه وحوزته، ويقال أيضًا: البيضة.

وقد قصرت في هذا الكتاب بابًا على البيض المضاف والمنسوب.

خضاب الإسلام

ذكر أبو عبيد الله المَرْزُباني في كتاب الأنوار والثمار حديثًا يرفعه إلى عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بالحناء فإنه خضاب الإسلام، وإنه يصفي البصر، ويذهب بالصداع، ويزيد في الباه؛ وإياكم والسواد، فإنه من سود سود الله وجهه يوم القيامة».

فتكتا الإسلام

كان يقال لفتكة عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد بن العاص الأشدق: فتكة الإسلام؛ ثم صارت بفتكة المنصور بأبي مسلم فتكتا الإسلام، ولا ثالث لهما.

نطاق الإسلام

هو على طريق الإستعارة: أنصاره وأعوانه؛ فكأنه يستظهر بهم عند التنطق.

وسئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن تغيير الشيب، وما يروى في ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود»؛ فقال: إنما قال ذلك والدين في قل، فأما وقد اتسع نطاق الإسلام فكل امرئٍ وما اختار لنفسه.

دعوة الإسلام

كانت دعوة الحسن بن سهل حين بنى المأمون ببنته بوران، تدعى: دعوة الإسلام؛ حتى جاءت دعوة بركوارا، فقال الناس: هي مثلها، وقالوا: إن دعوة بركوارا دعوة الإسلام، لم يكن قبلها ولا بعدها مثلها، إلَّا ما يحكى في وقت بناء المأمون ببوران وبلغ من جلالة دعوة الحسن بن سهل، وعظم خطرها وارتفاع مقدارها أن أقام المأمون بفم الصلح وجميع قواده وأصحابه وأنزالهم أربعين يومًا، واحتفل بما لم ير مثله نفاسةً وكثرة.

قال المبرد: سمعت الحسن بن رجاء يقول: كنا نجري أيام مقام المأمون عند الحسن بن سهل على ستةٍ وثلاثين ألف ملاحٍ؛ ولقد عز بنا الحطب يومًا فأوقدنا تحت القدور الخيش مغموسًا في الزيت؛ ولما كانت ليلة البناء، وجلين بوران على المأمون فرش لهما حصير من ذهب، وجيء بمكتل مرصع بالجواهر، فيه در كبار، فنثرت على من حضر من النساء، وفيهن زبيدة، وحمدونة بنت الرشيد، وعجائز الخلافة، فما مس من حضر منهن من الدرر شيئًا؛ فقال المأمون: شرفن أبا محمد، وأكرمن بوران، فمدت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة واحدة، وبقي سائر الدر يلوح على حصير الذهب بحاله؛ فقال المأمون: قاتل الله الحسن بن هانئ، كأنه قد رأى هذا حيث قال:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرضٍ من الذهب

وكانت في ذلك المجلس شمعة عنبرٍ زنتها مائتا رطلٍ، فضج المأمون من دخانها، فعملت له مثل من الشمع، فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار.

ولما كانت دعوة القواد، نثرت عليهم رقاع فيها أسماء ضياعٍ، فمن وقعت في يده رقعة لضيعةٍ، أشهد الحسن له بها.

ويقال: إنه أنفق في هذه الدعوة أربعة آلاف ألف دينار، وأقطعه الصلح، وعاتبه على احتفاله واجتهاده، وحمله على نفسه، فقال له: يا أمير المؤمنين، أتظن هذا من مالِ سهلٍ! والله ما هو إلَّا مالك رد إليك، وأردت أن يفضل الله أيامك ونكاحك كما فضلك على جميع خلقه.

فهذه دعوة الإسلام الأولى.

وأما دعوة الإسلام الثانية، فهي بركوارا؛ لما أعذر المتوكل المعتز. ومن قصتها: أنه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل، ومدت بين يديه مرافع من ذهب مرصعة بالجواهر، وعليها أمثلة من العنبر والند والمسك المعجون على جميع الصور، وجعلت بساطًا ممدودًا، وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعةً بأصناف الجواهر من الجانبين، وبين السماطين فرجة، وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالأدم مملوءةً دراهم ودنانير نصفين، فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني، وأمر الحاضرون أن يشربوا، وأن يتنقل كل من شرب من تلك الدنانير ثلاث حفنات بقدر ما حملت يده؛ فكلما خف موضع صبوا عليه من الزنابيل حتى يرد إلى حالته.

ووقف غلمان في آخر المجلس، فصاحوا: إن أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء ما شاء؛ فمد الناس أيديهم إلى المال فأخذوه، فكان الرجل منهم يثقله ما معه فيخرج فيسلمه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه.

ونظر ابن حمدون إلى سطلٍ من ذهبٍ مملوءٍ مسكًا، فأخذه ومر ليدفعه إلى غلمانه؛ فقال له المتوكل: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين.

ولما تقوض المجلس خلع على الناس ألف خلعة، وأعتق ألف نسمة.

فصارت دعوته يقال لها: دعوة الإسلام الثانية.

عصا المسلمين

قال أبو عمرو بن العلاء: من أمثالهم شق فلان عصا المسلمين؛ إذا فرق جمعهم. وشق العصا، إذا خرج من الطاعة. قال جرير:

ألا بكرت سلمى فجد بكورها   وشق العصا بعد اجتماع أميرها

وقال العتابي في الرشيد:

إمام له كف يضم بنانها   عصا الدين ممنوعًا من البري عودها
وعين محيط بالبرية طرفها   سواء عليه قربها وبعيدها

حلوبة المسلمين

من طريق الاستعارة: هي فيئهم وخراجهم؛ يقال: درت حلوبة المسلمين؛ إذا جبيت حقوق بيت المال.

جناح المسلمين

كان يقال للبريد: جناح المسلمين، لما كان يتطاير به من الأخبار.

ولما ولي الحسن بن وهب بريد الحضرة، قال دعبل:

من مبلغ عني إمام الهدى   قافيةً للستر هتاكه
هذا جناح المسلمين الذي   قد قصه تولية الحاكه
أضحت بغال البرد منظومةً   إلى ابن وهبٍ تحمل الناكه

فبلغت المتوكل فأمر بعزله.

الباب الحادي عشر

فيما يضاف وينسب إلى القراء والعلماء

خريطة شهر، فقه أبي حنيفة، جامع سفيان، عنز الأعمش، طفرة النظام، حاجة أبي الهذيل.

الاستشهاد

خريطة شهر

تضرب مثلًا فيما يختزله القراء والفقهاء من أموال الناس والودائع.

وذلك أن شهر بن حوشب وكان من جلة القراء والمحدثين دخل بيت المال، فأخذ خريطةً فيها دراهم، فقال فيه القائل:

لقد باع شهر دينه بخريطةٍ فمن يأمن القراء بعدك يا شهر

فصارت خريطته مثلًا.

وشهر هو الذي قال له رجل: أنا أحبك؛ فقال: ولم لا تحبني، وأنا أخوك في كتاب الله ووزيرك على دين الله، ومؤونتي على غيرك!

فقه آبي حنيفة رضي الله عنه

يضرب به المثل؛ كما قال بعض الرجاز للمأمون:

مأمون يا ذا المنن الشريفة والعلم والمنزلة المنيفة
هل لك في أرجوزةٍ ظريفة أظرف من فقه أبي حنيفة

وفيها مما يستظرف:

الذئب والنعجة في سقيفة واللص والتاجر في قطيفةْ

وقال بعض المولدين:

متفقه جمع الكلا م إلى قياس أبي حنيفةْ
فأتاك يسعى للقضا ء بلحيةٍ فوق القطيفة

وكان يقال: أربعة لم يسبقوا ولم يلحقوا: أبو حنيفة في فقهه، والخليل في أدبه، والجاحظ في تأليفه، وأبو تمام في شعره.

وممن ضرب المثل بفقه أبي حنيفة ابن طباطبا حيث قال، وهو يهجو أبا علي الرستمي:

كفرًا بعلمك يابن رستم كله وبما حفظت سوى الكتاب المنزل
لو كنت يونس في دوائر نحوه أو كنت قطرب في الغريب المشكل
وحويت فقه أبي حنيفة كله ثم انتميت لرستم لم تنبل

جامع سفيان

يضرب المثل بجامع سفيان الثوري في الفقه، للشيء الجامع كل شيءٍ، كما يضرب المثل بسفينة نوحٍ.

وعهدي بأبي بكر الخوارزمي، إذا رأى رجلًا جامعًا أو كاتبًا، قال: ما هو إلَّا سفينة نوحٍ، وجامع سفيان، ومخلط خراسان.

وقال أبو عبد الله بن الحجاج:

بالله قولوا لي ولا تغضبوا لست من الحق بغضبان
فقر وذل وخمول معًا أحسنت يا جامع سفيان

عنز العمش

يضرب مثلًا فيمن ينزل منزلةً لا يستحقها، لغيبة من يصلح لها.

وذلك أن الأعمش كان إذا فقد من يحدثه من أصحابه، أقبل على عنزٍ له يحدثها كراهةً للفراغ، وخوفًا من النسيان، وحرصًا على الدرس والرواية؛ فجرى المثل بعنز الأعمش فيما ذكرته، وفيمن يخاطب من لا يفهم.

طفرة النظام

هي أنه كان يقول بأن الجزء ينتقل من المكان الأول إلى المكان الثالث من غير أن يمر بالمكان الثاني، بل بطفرةٍ؛ فصارت طفرة النظام مثلًا فيمن يغذ السير، ويقطع المسافة البعيدة في المدة القريبة.

حاجة أبي الهذيل

يضرب مثلًا للحاجة يسألها الإنسان لغيره، ويضمر ضد ما يظهر منها، ولا يحب قضاءها؛ إما بخلًا بها وإما لحاجةٍ أخرى في نفسه.

وكان أبو الهذيل صار إلى سهل بن هارون الكاتب وكان خاصًا بالحسن بن سهل يسأله الكلام في أمره، ويستعينه على إضاقةٍ دفع إليها؛ فصار سهل إلى الحسن فكلمه، وقال له: قد عرفت أيها الأمير حال أبي

الهذيل ومحله وقدره في الإسلام، وأنه متكلم قومه، والراد على أهل الإلحاد، وقد فزع إليك لإضاقةٍ هو فيها؛ فوعده أن ينظر له بما يصلح حاله.

فلما انصرف سهل إلى منزله، بعثه لؤم طبعه وسوء خلقه على أن كتب إلى الحسن بن سهل:

إن الضمير إذا سألتك حاجةً لأبي الهذيل خلاف ما أبدي
فامنعه روح اليأس ثم امدد له حبل الرجاء بمخلف الوعد
وألن له كنفًا ليحسن ظنه في غير منفعةٍ ولا رفد
حتى إذا طالت شقاوة جده بعنائه فاجبهه بالرد

فلما قرأ الحسن رقعته، وقع فيها: هذه — لك الويل — صفتك لا صفتي.

وأمر لأبي الهذيل بألف دينار.

وكان سهل بن هارون بن راهبون، الكاتب الميساني كاتبًا شاعرًا، ماهرًا بليغًا حكيمًا؛ ولكنه كان مفرط البخل بماله وجاهه، ضاربًا في اللؤم والدناءة بسهمٍ فائزٍ.

الباب الثاني عشر

فيما يضاف وينسب إلى أصحاب المذاهب والآراء والأهواء

إيمان المرجئ، وجه الناصبي، خف الرافضي، نجدة الخارجي، أكل الصوفي، ظرف الزنديق.

الاستشهاد

إيمان المرجئ

يضرب به المثل لما لا يزيد ولا ينقص، لأن المرجئة يقولون: إن الإيمان قول فرد لا يزيد ولا ينقص؛ وشبه بإيمانهم ما يكون بهذه الصفة.

وجه الناصبي

الشيعة تصفه بالسواد، وتشبه به كل شديد السواد، كما قال الناشئ الأصغر:

يا خليلي وصاحبي من لؤي بن غالب
حاكم الحب جائر موجب غير واجب
لك صدغ كأنما لونه وجه ناصبي

تحت أذيال طرةٍ شبهت بالغياهب
يلدغ الناس إذ تعق رب لدغ العقارب

وقال أبو الفتح كُشاجِم:

حب علي علو همه لأنه سيد الأئمه
ميز محبيه هل تراهم إلا ذوي ثروةٍ ونعمه
بين رئيسٍ إلى ظريفٍ قد أكمل الظرف واستتمه
فهم إذا حصلوا ضياء والعصب الناصبي ظلمه

وأنشد أبو بكر الخوارزمي، لنفسه:

رب ليلٍ كطلعة الناصبي ذي نجومٍ كحجة الشيعي

خف الرافضي

يشبه به ما يوصف بالسعة؛ ويقال: أوسع من خف الرافضي، لأنه لا يرى المسح على الخف فيوسع مدخله ليتمكن من إدخال يده فيه ماسحًا برجله إذا توضأ.

نجدة الخارجي

قال الجاحظ: قد علمنا أن استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدمهم فيها إنما هو بسبب الديانة، لأنا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم يقاتلون مثل قتالهم، ونجد السجستاني وهو عجمي واليماني والنجراني والجزري وهم عرب ونجد إباضية تاهرت وهي بلاد عجم كلهم في القتال والنجدة سواء، وفي ثبات العزيمة وشدة الشكيمة متكافئين؛ فاستوت حالاتهم في النجدة مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم، أفما في هذا دليل على أن الذي سوى بينهم هو التدين بالقتال؟

آكل الصوفي

يضرب المثل بأكل الصوفي، يقال: آكل من الصوفية، وآكل من الصوفي؛ لأنهم يدينون بكثرة الأكل، ويختصون بعظم اللقم، وجودة الهضم، ويأكلون أكل الغنيمة.

وسئل بعض القراء عنهم، فقال: رقصة أكلة.

وبلغ من عنايتهم بأمر الأكل، وشدة حرصهم على قطع أكثر الأوقات به أن نقش بعضهم على فص خاتمه: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾، ونقش آخر: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾، ونقش آخر: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾.

وفسر أحدهم الشجرة الملعونة في القرآن، فقال: هي الخلال، لمجيئه بعد انقضاء أمر الطعام، ووقوع اليأس منه؛ وفسر آخر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾، فقال: إلى المنزل إذا لم تكن دعوة. وإلى مثل تلك الحال أشار من قال:

كأن أبا يحيى يساق إلى الموت   إذا ما تفرقنا وصرنا إلى البيت
لعلم أبي يحيى بما هو صائر   إليه إذا أمسى من الخبز والزيت

وفسر بعضهم قوله تعالى: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾، فقال: هم الذين يثردون ولا يأكلون وغيرهم يأكل. وقال آخر: بل هم الذين لا سكاكين معهم في أيام البطيخ.

وقال بعضهم: العيش فيما بين الخشبتين؛ يعني الخوان والخلال.

ولقبوا الطست والإبريق إذا قدما قبل المائدة، ببشرٍ وبشيرٍ، وإذا قدما بعدها، بمنكرٍ ونكيرٍ؛ ولقبوا الحمل بالشهيد ابن الشهيد، ولقبوا القطايف بقبور الشهداء، وكنوا الزماورد بأبي جامعٍ، والبهط بأبي نافعٍ، والأشنان بأبي إياس؛ إلى أشباهٍ لهذه النقوش؛ والتفاسير والألقاب والكنى كثيرة جدًّا لا يتسع لها هذا الكتاب.

وقد أفصح بعض الظرفاء عن حقيقة وصفهم، وجلية أمرهم، فقال وما قال إلَّا الحق:

صحبت قومًا يقول قائلهم: نحن على ذي الجلال متكله
الوقت والحال والحقيقة والـ   ـبرهان والرقص عندهم مسأله
فلم أزل خادمًا لهم زمنًا   حتى تبينت أنهم أكله

وأنشدت لأبي القاسم عمر بن عبد الله الهرندي فيهم:

تبًا لقوم جعلوا دينًا لدنيا مأكله
تستروا بأنهم صوفية محنبله
وما يساوي نسكهم قمامةً في مزبله
اتخذوا شباكهم إحفاءهم للأسبلة
وهم إذا فتشتهم منافقون أكله

ظرف الزنديق

أما قولهم: أظرف من الزنديق، فقد سار مثلًا في زمانٍ كثيرٍ ظرفاؤه، وهو زمان المهدي، وكانوا يرمون بالزندقة، كصالح بن عبد القدوس، وأبي العتاهية، وبشار، وحماد الراوية، وحماد عجرد، ومطيع ابن إياس، ويحيى بن زياد، وعلي بن الخليل؛ ومن تقدمهم قليلًا كابن المقفع، وابن أبي العوجاء؛ وما منهم في الظاهر إلَّا نظيف البزة، جميل الشكل، ظاهر المروءة، فصيح اللهجة، ظريف التفصيل والجملة؛ والله أعلم ببواطنهم وضمائرهم.

قال أبو نواس وكان أيضًا يعد فيهم:

تيه مغن وظرف زنديق

وقد كان الجاهل الغر من أهل ذلك العصر يتطفل على الزندقة وينتحلها ليعد من الظرفاء، كما قال الشاعر:

تزندق معلنًا ليقول قوم من الأدباء زنديق ظريف
فقد بقي التزندق فيه وسمًا وما قيل: الظريف ولا الخفيف

قال الجاحظ: ربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده، ولا تحصيل له أن الزنادقة ظرفاء، وأنهم عقلاء أدباء، وأنهم عباد وأصحاب اجتهاد، وأن لهم البصائر في دينهم، والبذل لمهجهم، وأن هناك علمًا وتمييزًا، وإنصافًا وتحصيلًا، فيتنزى إليهم تنزي المهر الأرن، ويحن إليهم حنين الواله العجول، ويصب فيهم

صبابة العاشق المتيم، ويرى أنه متى اتهم بها فقد قضي له بذلك كله، فلا يزال كذلك حتى يسهل في طباعه، ويرجح عنده أن يزعم أنه زنديق.

الباب الثالث عشر

فيما يضاف وينسب إلى ملوك الجاهلية وخلفاء الإسلام

سيرة أردشير، عدل أنو شروان، رمي بهرام، إيوان كسرى، نديما جذيمة، ظلم الجلندى، شقائق النعمان، خرزات الملك، ردافة الملوك، أخلاق الملوك، دين الملوك، داء الملوك، غضب الملوك، بهاء الملوك، ميدان الخلفاء، حسن الأمين، ليلة المتوكل، خلافة ابن المعتز، جوهر الخلافة.

الاستشهاد

سيرة أردشير

من حسن سيرته أن له كتابًا في حسن السيرة، يضرب المثل به، وتقتبس الملوك من أنواره؛ فمن نكته: إذا رغب الملك عن العدل، رغبت الرعية عن الطاعة.

لا صلاح للخاصة مع فساد العامة، ولا نظام للدهماء مع دولة الغوغاء.

أوحش الأشياء عند الملوك، رأس صار ذنبًا، وذنب صار رأسًا.

لا سلطان غلا برجالٍ، ولا رجال إلَّا بمالٍ، ولا مال إلَّا بعمارة، ولا عمارة إلَّا بعدل وحسن سياسة.

ومن كلامه: القتل أنفى للقتل. وأجل منه في معناه قول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾.

عدل آنوشروان

لم يكن في الأكاسرة بعد أردشير، الذي له فضيلة السبق، أعدل من أنوشروان.

فلذلك ضرب المثل به في العدل من بينهم.

وهو الذي ولد النبي صلى الله عليه وسلم في زمانه لتسع سنين خلت من ملكه، وافتخر صلى الله عليه وسلم بذلك، فقال: «ولدت في زمن الملك العادل».

فأما سائر الأكاسرة فإنهم كانوا ظلمةً فجرةً، يستعبدون الأحرار، ويجرون الرعايا مجرى الأجراء والعبيد والإماء، فلا يقيمون لهم وزنًا، ويستأثرون عليهم حتى بأطايب الأطعمة، والثياب الحسنة، والمراكب الفاخرة، والنساء الحسان، والدور السرية، ومحاسن الآداب؛ فلا يجترئ أحد من الرعايا أن يطبخ سكباجًا، أو يلبس ديباجًا، أو يركب هملاجًا، أو ينكح امرأةً حسناء، أو يبني دارًا قوراء، أو يؤدب ولده، أو يمد إلى مروءةٍ يده؛ وكانوا يبنون أمورهم على معنى قول عمرو بن مسعدة للمأمون:

ملك ما يصلح للمو لى على العبد حرام

إلا أنهم يحبون العمارة أشد الحب، ويرونها قوام الدين والملك، ولا يقارون أحدًا على الإخلال بها، والتقصير فيها.

ويروى أن بعض الأنبياء عليهم السلام، قال: يا رب لم آتيت الكاسرة ما آتيتهم؟ فأوحى إليه: لأنهم عمروا بلادي حتى عاش فيها عبادي.

ومن كلام أنوشروان الدال على ما وراءه: كل الناس أحقاء بالسجود لله تعالى، وأحقهم بذلك من رفعه الله تعالى عن السجود لأحدٍ من خلقه.

وقوله: إن الملك إذا كثرت أمواله مما يأخذ من رعيته، كان كمن يعمر سطح بيته بما يقتلع من قواعد بنيانه.

وقوله: وجدنا للعفو من اللذة ما لم نجده للعقوبة.

وقوله: الإنعام لقاح، والشكر نتاج.

رمي بهرام

يضرب به المثل، لأنه لم يكن في العجم أرمى منه، وهو بهرام جور الملك.

ومن قصته المصورة في القصور: أنه خرج ذات يومٍ إلى الصيد على جمل، وقد أردف جاريةً له يتعشقها، فعرضت له ظباء؛ فقال للجارية: في أي موضعٍ تريدين أن أضع لك هذا السهم من هذه الظباء؟ فقالت: أريد أن تشبه ذكرانها بالإناث وإناثها بالذكران.

فرمى ظبيًا ذكرًا بنشابةٍ ذات شعبتين، فاقتلع قرنيه، ورمى ظبيةً بنشابتين أثبتهما في موضعي القرنين؛ ثم سألته أن يجمع ظلف الظبي وأذنه بنشابةٍ واحدة، فرمى أصل أذن الظبي ببندقةٍ، فلما أهوى بيده إلى أذنه ليحتك رماه بنشابةٍ فوصل أذنه بظلفه.

ثم أهوى إلى الجارية مع هواه لها فرمى بها إلى الأرض، وأوطأها الجمل، وقال: لشد ما شططت علي، وأردت إظهار عجزي! فلم تلبث أن ماتت.

إيوان كسرى

يضرب به المثل للبنيان الرفيع، العجيب الصنعة، المتناهي في الحصانة والوثاقة، لأنه من عجائب أبنية الدنيا، ومن أحسن آثار الملوك.

وهو بالمدائن، من بغداد على مرحلة، بناه كسرى أبرويز في نيفٍ وعشرين سنة، وتأنق في تأسيسه وتشييده وتحسينه؛ فلما ارتفع كان من خصائصه الثمان عشر التي لم يعطها ملك قبله.

ويقال: بل بناه أنوشروان، وهو الذي بنى الباب والإيوان أيضًا.

وأنشدني أبو نصر المَرْزُباني لنفسه يذكر ذلك:

قلت لما رأيته في قصورٍ ... مشرفات الجدران والبنيان:
هبك كسرى كسرى الملوك أنوشر ... وان باني الأبواب والإيوان
أي شكرٍ ترجوه مني إذا لم ... تقض لي حاجتي وترفع شاني!

وذكر ابن قتيبة في كتاب المعارف أن بانيه سابور ذو الأكتاف.

ومن وصفه: أن طوله مائة ذراعٍ في عرض خمسين ذراع، وهو متخذ من الآجر الكبار والجص، وثخن الأزج خمس آجرات، وطول الشرف خمسة عشر ذراعًا.

ولما بنى المنصور مدينة السلام أحب أن ينقض إيوان كسرى، ويبني بنقضه الأبنية؛ فاستشار خالد بن برمك في ذلك، فنهاه عن نقضه، وقال: يا أمير المؤمنين، إنه آية الإسلام، وإذا رآه الناس علموا أن من هذا بناؤه لا يزيل أمره إلَّا الأنبياء، وهو مع هذا مصلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والمؤونة في هدمه ونقضه أكثر من الارتفاق به.

فقال المنصور: يا خالد، أبيت إلَّا ميلًا إلى العجم! ثم أمر بهدمه، فهدمت منه ثلمة، فبلغت النفقة عليها مالًا كثيرًا؛ فأمر بالإضراب عن هدمه، وقال: يا خالد قد صرنا إلى رأيك فيه؛ فقال: أنا الآن أشير بهدمه. قال: وكيف؟ قال: لئلا يتحدث الناس بأنك عجزت عن هدمه؛ فلم يقبل قوله، وتركه على حاله.

فكان المأمون يقول: قد حببت إلي هذا الخبر ألا أبني إلَّا بناءً جليلًا يصعب هدمه.

قال الجاحظ: قال قاسم التمار: رأيت إيوان كسرى كأنما رفعت عنه الأيدي أول من أمس.

قال المبرد: تذاكر حذيفة بن اليمان وسلمان أمر الدنيا، فقال سلمان: ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غنيمات الغامدي سرير كسرى؛ وكان أعرابي من غامدٍ يرعى شويهاتٍ له، فإذا كان الليل صيرها إلى عرصة إيوان كسرى، وفي العرصة سرير رخامٍ، فتصعد غنيماته إلى ذلك السرير، وكان كسرى كثيرًا ما يجلس على ذلك السرير.

وممن ضرب المثل بإيوان كسرى، ابن الرومي في قوله وهو يهجو:

كان للكركدن قرن فأضحى وهو اليوم عند قرنك مدرى
من يكن قرنه كقرنك هذا فليكن بابه كإيوان كسرى

وممن وصفه البحتري في قصيدته التي منها:

ضرت رحلي الهموم فوجهـ ـت إلى أبيض المدائن عنسي
وكان الإيوان من عجب الصنـ ـعة جوب في جنب أرعن جلس
لم يعبه أن بز من بسط الد يباج واستل من ستور الدمقس

مشمخر تعلو له شرفات رفعت في رؤوس رضوى وقدس
ليس يدرى أصنع إنسٍ لجن سكنوه أم صنع جن لإنس!
غير أني أراه يشهد أن لم يك بانيه في الملوك بنكس!

نديما جذيمة

يضرب بهما المثل في طول الصحبة، كما يضرب بالفرقدين، وابني شمام، ونخلتي حلوان.

وكان جذيمة الوضاح الملك لا ينادم أحدًا ذهابًا بنفسه، وكان يقول: أنا أعظم من أن أنادم إلَّا الفرقدين، وكان يشرب كأسًا، ويصب لكل منهما كأسًا؛ فلما أتاه مالك وعقيل بابن أخته عمرو صاحب الطوق، الذي استهوته الجن، قال لهما: ما حاجتكما؟ قالا: منادمتك.

فنادمهما أربعين سنة، كانا يحادثانه فيها، وما أعادا عليه حديثًا قط حتى فرق بينهما الدهر، وفيهما يقول الشاعر:

ألم تعلما أن قد تفرق قبلنا نديما صفاءٍ: مالك وعقيل

ويقول متمم بن نويرة في أخيه مالك، وهو من الأمثال السائرة:

وكنا كندماني جذيمة حقبةً من الدهر حتى قيل: لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكًا لطول اجتماعٍ لم نبت ليلةً معا

ظلم الجلندى

هو الملك الذي ذكره الله تعالى في كتابه، فقال: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾، فجرى المثل لا سيما على ألسنة أهل عمان بظلمه؛ فقالوا: أظلم من الجلندى.

شقائق النعمان

يحكى أن النعمان بن المنذر خرج يومًا إلى ظهر الحيرة متنزهًا، وقد أخذت الأرض زخرفها، وازينت بالشقائق، فاستحسنها وقال: احموها، فحميت وسميت: شقائق النعمان في النسبة إليه.

وقال بعض أهل اللغة: بل النعمان اسم من أسماء الدم، نسبت الشقائق إليه تشبيهًا به، كما قال الشاعر:

كأن شقائق النعمان فيها   ثياب قد روين من الدماء

خرزات الملك

كان الملك من ملوك العرب، كلما مضت سنة من سني ملكه زيدت في تاجه خرزة؛ وكان يقال لتلك الخرزات: خرزات الملك.

ولما بلغت خرزات النعمان بن المنذر أربعين أشخصه كسرى أبرويز إلى حضرته، لهناتٍ نقمها عليه، ثم أمر بقتله؛ وإياه عنى لبيد بن ربيعة بقوله:

رعى خرزات الملك عشرين حجةً   وعشرين حتى فاد والشيب شامل

ردافة الملوك

كانت من العرب في بني عتاب بن هرمي بن رياح بن يربوع، فورثها بنوهم كابرًا عن كابر، حتى قام الإسلام، وهي أن يثنى بصاحبها في الشراب، وإن غاب الملك خلفه في المجلس.

ويقال: إن أرداف الملوك في الجاهلية بمنزلة الوزراء، والردافة كالوزارة؛ قال لبيد من قصيدةٍ:

وشهدت أنجية الأفاقة عاليًا   كعبي، وأرداف الملوك شهود

أخلاق الملوك

توصف بالتلون والتغير، لأن الملوك لهم بدوات.

وقد شبه بها يومًا من أيام الربيع من قال:

ويومٍ كأخلاق الملوك ملونٍ فشمس ودجن ثم ظل ووابل
أشبهه إياك يا من صفاته دنو وإعراض ومنع ونائل

وأحسن منه في معناه قول علي بن الجهم:

أما ترى اليوم ما أحلى شمائله صحو وغيم وإبراق وإرعاد
كأنه أنت يا من لست أذكره وصل وهجر وتقريب وإبعاد

دين الملوك

كان المأمون يقول: الإرجاء دين الملوك؛ وهو الذي تنسب إليه مذاهب المرجئة الذين يتركون القطع على أهل الكبائر إذا ماتوا غير الحشوة الطغام منهم يقولون: إن الله تعالى إن عفا عن واحدٍ من مرتكبي الكبائر، يعف عن كل من هو في مثل حاله، وإن الله لا يخلد أحدًا من أهل التوحيد في النار بارتكاب الكبائر، وإنه إن أدخلهم النار عذبهم بقدر ذنوبهم ثم أخرجهم.

داء الملوك

قد نزههم الله تعالى ورفع أقدارهم، عما ترميهم به العامة وتنسبه إليهم من الداء العضال الذي لا دواء له إلَّا بعصمة الله تعالى، وكأنها اعتقدت أن ذلك ربما يتولد من فرط الترفه والتنعم، فإضافته إليهم لتخصيصه بهم؛ قال الشاعر:

داء الملوك يلوح فوق جبينه شهدت بذاك مواضع التحديق

وقال أبو نصر الظريفي الأبيوردي:

قد ردنا إسحاق عن بابه فلم يكن فيه لنا من سلوك
وقال: بي داء وعذري به كالشمس من قبل أوان الدلوك

ليس ذاك الداء من دائنا   لكن ذاك الداء داء الملوك

وقال آخر:

أحمد الله حمد شاكر نعما   ه ولا أشتكي صروف الزمان
إن عراني داء الكرام من الدْ   دن فداء الملوك مما عداني

وقال آخر:

ما حيلتي والزمان يجفوني   وهو على الحر غير مأمون
والدين داء الكرام ينحلني   وليس داء الكرام بالدون
أحمد ربي الكريم حمد فتًى   في كدر العيش غير مغبون
إن كان داء الكرام يعروني   فإن داء الملوك يعدوني

غضب الملوك

كان يقال: اتقوا غضب الملوك، ومد البحر.

ومن غرر مدائح بكر بن النطاح في أبي دلف، قوله:

ومقسمٍ بين القواضب والقنا   غضب الملوك ونية العباد
فإذا أبو دلفٍ أمد بذكره   جيشًا كفاه مؤونة الإمداد

بهاء الملوك

وصف أعرابي الحسن البصري، فقال: بهاء الملوك، وسيما العباد.

وفي معناه قال الأخطل لعبد الملك بن مروان:

تسمو العيون إلى إمامٍ عادلٍ معطى المهابة نافعٍ ضرار
ويرى عليه إذا العيون رمقنه سيما التقي وهيبة الجبار

وأخذه البحتري، فقال في المهتدي بالله:

ملك تحييه الملوك وفوقه سيما التقى وتخشع الزهاد
متهجد يخفي الصلاة وقد أبى إخفاءها أثر السجود البادي

ميدان الخلفاء

هو عند أصحاب الأخبار عشرون سنةً إلى أربعٍ وعشرين، وهي دوران المشتري، فكأنها كناية عن أتم مدة للخلافة.

فممن بلغت مدة خلافته عشرين سنةً إلى اثنتين وعشرين سنة: معاوية رضي الله عنه وعبد الملك، وهشام، والمنصور، والمأمون، والمعتمد؛ ولم يستكمل الأربع والعشرين غير الرشيد والمقتدر.

حدث أبو العيناء، قال: حدثنا محمد بن عباد المهلبي، قال: كنا وقوفًا على باب الفضل بن الربيع، وهو عليل، في آخر أيام الرشيد، إذ أقبل الرشيد عائدًا له، فقال له عبد الملك بن هلال: الحمد لله يا أمير المؤمنين إذ خصك بطول البقاء، وأجازك ميدان الخلفاء؛ فتغير وجه الرشيد، ودخل؛ فخرج بعقب ذلك القاسم بن الربيع يشتم عبد الملك بن هلال، ويقول له: من أخذك بأن تذكر لأمير المؤمنين ما مضى من مدة خلافته! والله ليعيشن بعدها أربعين سنة؛ فما عاش بعدها إلَّا أقل من سنة.

قال محمد بن عباد: وكان محمد بن عبد الرحمن السكوني واقفًا معنا، فأقبل علي يحدثني بنحو هذا الحديث؛ وذلك أن المنصور انصرف من صلاة الفطر سنة ثمان وخمسين ومائة، فجلس وهنأه الناس، ودعوا له؛ فقال عقال بن شبة وقد وضعت الموائد، والمنصور يأكل: احمد الله يا أمير المؤمنين، فقد جزت ميدان الخلفاء قبلك! فقبض المنصور يده عن الطعام، وقال: قد كبرت والله يا عقال، وكبر كلامك؛ ففطن عقال لذلك، وتلافى أمره، وقال: أجل والله يا أمير المؤمنين، لقد أحزن سهلي، واضطرب عقلي، وأنكرني أهلي، ولا أقوم والله هذا المقام بعد يومي هذا.

فسكن قوله هذا من المنصور، ولم يعش بعد ذلك إلَّا شهرين وأيامًا.

قال مؤلف الكتاب: مثل قول عبد الملك بن هلال للرشيد، وعقال بن شبة للمنصور: سوء أدبٍ في مخاطبة الملوك والكبراء، لأن فيه نعيًا لهم إلى أنفسهم، وإنذارًا إياهم بمجيء آجالهم.

وحدثني السيد أبو جعفر الموسوي، قال: أنشد العباس الأرخسي الأمير نصر بن أحمد ليلة السذق الحادي والثلاثين من الأسذاق التي أقام رسومها، قصيدةً أولها:

مهترابار خدايا ملك بغداد سذق ويكم برتو مبارك بادا

فقطب نصر وجهه، وزوى ما بين عينيه، وقال: إين شمرون ني جه بايست؛ وتنغص بتلك الليلة ولم يسمع تمام القصيدة، ولم يسذق بعدها؛ إذ لم يدر عليه الحول حتى مات.

حسن الأمين

كان يقال لكل من محمد الأمين وأخيه أبي عيسى: يوسف الزمان؛ لفرط جمالهما. ويقال: إن جمال ولد الخلافة انتهى إليهما، فما رأى الناس مثلهما قط إلَّا المعتز بعدهما.

وفي أحدهما يقول أبو نواس:

أصبحت صبًا ولا أقول بمن أخاف من لا يخاف من أحد
إذا تفكرت في هواي له مسست رأسي هل طار عن جسدي

ويحكى أن الأمين نظر إلى أبي نواس في بعض ليالي منادمته إياه، وهو ينظر إليه نظرة علقٍ، فقال له: يا حسن، هل تشتهيني؟ فقال: معاذ الله، ومن يحدث نفسه بمثل هذا الحديث؟ فقال: أقسمت عليك بحياتي إلَّا أخبرتني! فقال: يا سيدي، إن الأموات يشتهونك، فكيف الأحياء! فأمر بقتله؛ فلما جيء بالنطع والسيف أنشد أبو نواس يقول:

أميري غير منسوبٍ إلى شيءٍ من الحيف
سقاني مثل ما يشر ب فعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف

كذا من يشرب الراح مع التنين في الصيف

فأمر بإعفائه، ووصله.

ويقال إن صاحب هذه القصة هو أبو عيسى بن الرشيد.

ويروى أن رجلًا حدق النظر إلى الأمين، فهم به بعض الخدم، فقال بعض الحاضرين: لا تلمه على النظر إلى زينة الله تعالى في عباده!

وكان الرشيد يقول للمأمون: يا عبد الله، أحب المحاسن كلها لك، حتى لو أمكنني أن أجعل وجه أبي عيسى لك لفعلت!

وقال يومًا لأبي عيسى وهو صبي: ليت جمالك لعبد الله يعني المأمون فقال: على أن حظه منك لي! فتعجب من قوة جوابه على صباه، وضمه إليه وقبله.

وقرأت رسالةً لأبي إسحاق الصابي، لا أذكرها، وقد ضرب المثل فيها بحسن وجه الأمين، وغناء إبراهيم بن المهدي، وبلاغة جعفر بن يحيى، وحفظ الأصمعي، وطيب عشرة ابن حمدون، وشعر البحتري.

وقال أبو الحسن الموسوي النقيب من قصيدةٍ يمدح بها الطائع لله:

وإذا أمير المؤمنين أضاف لي أملي نزلت على الجواد المفضل
رأي الرشيد وهيبة المنصور في حسن الأمين ونعمة المتوكل

وقال أبو عبد الله المغلسي من قصيدةٍ:

راحة تخجل السحاب ووجه يتلالا إشراقه كالصباح
ما جمال الأمين، ما كرم المهـ ـدي، ما أريحية السفاح

ومثل هذا التمثيل قول الرشيد في المأمون: والله إني لأعرف في عبد الله حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي، ولو شئت أن أشبهه في الرابعة بنفسي لفعلت؛ والله إني لأرضى سيرته، وأحمد طريقته، وأستحسن سياسته، وأرى قوته وذهنه، وآمن ضعفه ووهنه؛ ولولا أم جعفرٍ وميل بني هاشمٍ إلى محمد، لقدمت عبد الله عليه.

وكان المكتفي أيضًا موصوفًا بالجمال، وبه ضرب المثل عبد الله بن المعتز:

والله ما كلمته ولو أنه ... كالشمس أو كالبدر أو كالمكتفي
قايست بين جماله وفعاله ... فإذا الملاحة بالخيانة لا تفي

ليلة المتوكل

هي الليلة التي قتل فيها؛ وكانت ثلمة الإسلام، وعنوان سقوط الهيبة، وتاريخ تراجع الخلافة. وكانت ليلة الأربعاء لثلاث خلت من شوال سنة اثنتين وثلاثين ومائتين؛ قتله باغر التركي بمواطأة المنتصر في مجلس أنسه؛ وقد أحدق به الندماء والمطربون، ودارت الكؤوس، وطابت النفوس، فانقلب مجلس اللهو والطرب إلى مجلس الويل والحرب.

وقد أكثر الشعراء في وصف هذه الوقعة؛ فمنهم إبراهيم بن أحمد الأسدي، يقول من قصيدةٍ:

هكذا فلتكن منايا الكرام ... بين ناي ومزهرٍ ومدام
بين كأسين أروتاه جميعًا ... كأس لذاته وكأس الحمام

ومنهم البحتري، شهد القتل فقال من قصيدةٍ:

لنعم الدم المسفوح ليلة جعفرٍ ... هرقتم، وجنح الليل سود دياجره
أكان ولي العهد أضمر غدرةً ... فمن عجبٍ أن ولي العهد غادره
فلا ملي الباقي تراث الذي مضى ... ولا حملت ذاك الدعاء منابره

وممن ضرب المثل بليلة المتوكل، أبو القاسم الزعفراني، حيث قال من قصيدةٍ في فخر الدولة:

قد ألقت الدنيا أزمتها إلى ... ملك الملوك علي بن أبي علي
فاطرب سرورًا بالزمان وحسنه ... واشرب على إقبال دولة مقبل
كم آمن متحصنٍ في جوسقٍ ... قد بات منه بليلة المتوكل

خلافة ابن المعتز

تضرب مثلًا فيما لا تطول مدته، ويقرب انقضاؤه؛ لأنه ولي الخلافة يومًا وبعض يومٍ، وأدركته حرفة الأدب، فلم يلبث أمره أن انحل في اليوم الثاني؛ وقد كان بايعه كثير من الناس، وذلك لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين، ولقب بالمنتصف بالله؛ فكان أول ما تكلم به: قد حان للحق أن يتضح، وللباطل أن يفتضح.

وجرت عليه اتفاقات سوءٍ؛ منها أن مؤنسًا الحاجب في دار المقتدر كان بايع ابن المعتز على أن يكون حاجبه وواطأه على أن ينفذ إليه المقتدر، وصافيًا الحرمي؛ فبلغه أن يمنًا غلام المكتفي يذهب ويجيء قدام ابن المعتز كالحاجب له، وكان عدوًا له يناوئه، فرجع عن رأيه وعزمه في أمر ابن المعتز، وأخذ في إحكام أمر المقتدر؛ وأحضر غلمان الدار ووعدهم الزيادة في أرزاقهم؛ فلما أصبح ابن المعتز، وأراد الركوب إلى دار الخلافة، قال له وزيره محمد بن داود بن الجراح: ننتظر قليلًا إلى أن ينفض الطريق من عامةٍ تعرضت فيه؛ فقال له ابن المعتز: أهم معنا أم علينا؟ فقال: ليسوا معنا؛ قال ابن المعتز: ليس يومي بواجدٍ من ظلوم.

يريد أن أهل بغداد كانوا مع المستعين على المعتز، وهم الآن مع المقتدر عليه.

ثم جد في الركوب، فقدم أمامه الجيش إلى الشارع، فلقيهم غلمان المقتدر والحشم، فرموهم ومنعوهم من النفوذ، وانكب العامة عليهم بالرجم، فلم يجدوا مخلصًا ولا مسلكًا؛ وبعث المقتدر بشذوات وطيارات فيها غلمان، ومعهم خاله غريب، فتصاعدوا، فلما قاربت الدار التي فيها ابن المعتز، ومعهم المطارد، ضجوا وكبروا، وكبرت العامة حول الدار، فجعل الناس يتسللون لواذًا، ويرمون أنفسهم في السميريات؛ وهرب ابن المعتز وكان متلثمًا فعرفه خادم لابن الجصاص الجوهري، وسعى به حتى أخذ، وحدر في طيارٍ إلى باب الخاصة.

قال الصولي: فوقفت حتى رأيته من حيث لم يرني، وقد أخرج من الطيار حافيًا، وعليه غلالة قصبٍ، فوقها مبطنة ملحم خراساني يضرب إلى الصفرة قليلًا، وعلى رأسه مجلسية؛ فلما صار إلى مؤنس الحاجب لطمه لطمةً فانكب على وجهه، وأدخل الحبس فمات.

وقيل: بل أميت بعد أيام؛ ولم يجسر أحد على مرثيته سوى ابن بسام، فإنه قال:

لله درك من ميتٍ بمضيعةٍ   ناهيك في العلم والآداب والحسب

ما فيه لو ولا ليت فتنقصه وإنما أدركته حرفة الأدب

وقال ابن علاف النهرواني قصيدةً في مرثية هر ورى بها عن ابن المعتز، فقضى وطرًا من حيث لم تلزمه حجة، أولها:

يا هر فارقتنا ولم تعد وكنت منا بمنزل الولد
فكيف ننحل عن هواك وقد كنت لنا عدةً من العدد

ومنها:

يا من لذيذ الفراخ أوقعه ويحك هلا قنعت بالغدد
أطمعك الغي لحمها فرأى قتلك أربابها من الرشد
ألم تخف وثبة الزمان كما وثبت في البرج وثبة الأسد
تدخل برج الحمام متئدًا وتخرج الفرخ غير متئد
وتطرح الريش في الطريق لهم وتبلع اللحم بلع مزدرد
وكان قلبي عليك مرتعدًا وأنت تنساب غير مرتعد
عاقبة الظلم لا تنام وإن تأخرت مدةً من المدد
لا بارك الله في الطعام إذا كان هلاك النفوس في المعد
كم أكلة خامرت حشا شره فأخرجت روحه من الجسد
ما كان أغناك عن تسورك الـ ـبرج ولو كان جنة الخلد

ومنها:

ثم شفوا بالحديد أنفسهم منك ولم يربعوا على أحد
كأنهم يذبحون طاغيةً كانوا لطاغوتها من العبد
لم يرحموا صوتك الضعيف كما لم ترث منها لصوتها الغرد
أذاقك الموت من أذاق كما أذقت أطياره يدًا بيد

كأن حبلًا حوى بجودته ... جيدك للذبح كان من مسد
كأن عيني تراك مضطربًا ... فيه وفي فيك رغوة الزبد
وقد طلبت الخلاص منه فلم ... تقدر على حيلةٍ ولم تجد
فاذهب من البيت خير مفتقدٍ ... واذهب من البرج شر مفتقد

ومنها:

حتى اعتقدت الأذى لجيرتنا ... ولم تكن للأذى بمعتقد
وحمت حول الردى بظلمهم ... ومن يحم حول حوضه يرد

ومنها:

إن الزمان استقاد منك ومن ... يسلم لغير الزمان يستقد
فإن رماك الردى بحادثةٍ ... فما على الحادثات من قود

ومنها:

من لم يمت يومه يمت غده ... أو لم يمت في غدٍ فبعد غد

جوهر الخلافة

كانت جواهر الأكاسرة وغيرهم من الملوك صارت إلى خلفاء بني أمية، ثم صارت إلى السفاح، ثم إلى المنصور، فاتخذها عدةً للخلافة؛ وفيها كل فص ثمين، وعقدٍ نفيسٍ.

واشترى الربيع جواهرًا بألف ألف دينار وضمه إلى جوهر الخلافة ثم اشترى المهدي الفص المعروف بالجبل بثلاثمائة ألف دينار، وضمه إلى جوهر الخلافة.

ولم يزل هو والخلفاء بعده يحفظونه، ويزيدون فيه ما يقدرون عليه، ويجلب إليهم من الآفاق.

وأفضت الخلافة إلى المقتدر، وفي خزائنه من الجواهر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت؛ وفيه المعروف بالمنقار وقيمته ما لا يقدر قدره، والمعروف بالبحر، والدرة اليتيمة، وهي التي زعموا أن وزنها ثلاثة مثاقيل.

فتبسط فيه المقتدر، وقسم بعضه على الحرم، ووهب بعضه لصافي الحرمي، ووجه إلى وزيره العباس بن الحسن منه شيئًا كثيرًا، فرده العباس، وكتب إليه يعلمه أن هذا الجوهر زينة الإسلام، وعدة الخلافة، وأنه لا يصلح أن يفرق؛ فكان ذلك أول ثقله على قلبه.

وقد كانت زيدان القَهْرَمانة ممكنة من خزانة الجوهر، فاتخذت سبحةً لم ير مثلها، والمثل يضرب بها في الارتفاع والنفاسة؛ فيقال: سبحة زيدان، كما يقال: أشقر مروان، وجامع سفيان، وعود بنان؛ وقد ذكرتها في باب الحلي من هذا الكتاب.

ولما رد علي بن عيسى من مكة إلى الوزارة، قال للمقتدر بعد كلام جرى بينهما: ما فعلت سبحة جوهرٍ قيمتها ثلاثون ألف دينار، أخذت من ابن الجصاص؟ قال: هي في الخزانة؛ فقال: إن رأى سيدنا أن يأمر بطلبها؛ فطلبت فلم توجد؛ فأخرجها من كمه، وقال: قد عرضت علي بمصر، فعرفتها فاشتريتها؛ فإذا كانت خزانة الجوهر لا تحفظ فما الذي يحفظ؟ فاشتد ذلك على المقتدر وعلى السيدة؛ واتهمت بالسبحة زيدان، وقيل: ليس يصل إلى خزانة الجوهر غيرها.

ثم أفضت الخلافة إلى القاهر، ثم إلى الراضي؛ وقد امتدت إلى جوهر الخلافة أيدي الخونة؛ وأتى عليه سوء السياسة، فلم يبق منه شيء، فكأنه ذهب مع ذهاب الخلافة، وتلاشى بتلاشي المملكة؛ والله سبحانه الفاعل لما يريد.

الباب الرابع عشر

فيما يضاف وينسب إلى الكتاب والوزراء ومن يجري مجراهم في الدولة العباسية

بلاغة عبد الحميد، يتيمة ابن المقفع، دهن أبي أيوب، تيه عمارة، زمن البرامكة، جود الفضل بن يحيى، بلاغة جعفر، عام ابن عمار، فالج ابن أبي دواد، ضرطة وهب، خط ابن مقلة، مروءة ابن الفرات.

الاستشهاد

بلاغة عبد الحميد

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى العلاء بن وهب العامري.

روى المدائني أنه كان معلمًا، ثم بلغ من البلاغة مبلغًا يضرب به المثل، كما قال البحتري لمحمد بن عبد الملك:

لتفننت في البلاغة حتى عطل الناس فن عبد الحميد

وقال ابن الرومي لأبي الصقر:

لو أن عبد الحميد اليوم شاهده ... لكان بين يديه مذعنًا وسحا

وقال عمرو بن عثمان بن إسفنديار الكاتب:

وصديقٍ رقيق حاشية الخلْـ ... ـلَة صافي زجاجة الآداب
شغلته الرقاع منه إليه ... فدعا نفسه إلى الأصحاب
وهو في الحذق والبلاغة والتطـ ... ـويل عبد الحميد في الكتاب

وقال بعضهم في ضرطة وهب:

است وهب بن سليما ... ن بن وهب بن سعيد
قد تحدثت برغمٍ ... منه عن أمرٍ سديد
أنت في معناك ذا أبـ ... ـلغ من عبد الحميد

وقال أبو إسحاق الصابي من قصيدةٍ:

أنسيتم كتبًا شحنت فصولها ... بفصول در عنكم منضود
ورسائلًا نفذت إلى أطرافكم ... عبد الحميد بهن غير حميد!

ويقال: إن عبد الحميد أول من نهج طرق الكتابة، وبسط من باع البلاغة، وشنف الرسائل وقرطها، ولخص فصولها وخلصها.

وكان مروان بن محمد يستكتبه ويكرمه ويقدمه، ولا يرى الدنيا إلَّا به.

وكان عبد الحميد يقول: أكرموا الكتاب فإن الله تعالى أجرى أرزاق الخلق على أيديهم.

وكان يقول: إن كان الوحي ينزل على أحدٍ بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب.

ومن غرر كلامه: العلم شجرة ثمرها الألفاظ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة.

وقيل له: ما الذي خرجك في البلاغة؟ فقال: حفظ كلام الأصلع (يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه).

وكان إبراهيم بن العباس الصولي يقول: ما تمنيت كلام أحد أن يكون لي إلَّا كلام عبد الحميد، حيث يقول في رسالة له: الناس أصناف مختلفون، وأطوار متباينون، فمنهم علق مضنةٍ لا يباع، ومنهم غل ظنةٍ لا يبتاع.

ويروى أنه مر بإبراهيم بن جبلة وهو يكتب خطًا رديئًا، فقال: أتحب أن يجود خطك؟ قال: نعم، قال: أطل جلفة قلمك وأسمنها، وحرف قطتك وأيمنها، قال: ففعلت ذلك فجاد خطي.

وساير عبد الحميد يومًا مروان على دابةٍ قد طالت مدتها في ملكه، فقال له مروان: قد طالت صحبة هذه الدابة لك! فقال: يا أمير المؤمنين، من بركة الدابة طول صحبتها، وقلة علتها؛ قال: فكيف سيرها؟ قال: همها أمامها، وسوطها عنانها، وما ضربت قط إلَّا ظلمًا.

وقد حكي أن عبد الله بن طاهر خاطب المأمون في دابةٍ رآها تحته بهذا الخطاب بعينه. وقد يجوز أن يكون حكى كلام عبد الحميد.

ويحكى أن عاملًا لمروان أهدى إليه غلامًا أسود، فقال لعبد الحميد: اكتب إليه وذم فعله في هديته وأوجز؛ فكتب إليه: لو وجدت لونًا شرًا من السواد، وعددًا أقل من الواحد، لأهديته.

وكتب إلى أهله وأقاربه عند هزيمة مروان كتابًا قال في فصلٍ منه هو يشكو الدنيا: باعدتنا عن الأوطان، وفرقت بيننا وبين الإخوان.

ولما أيس مروان من ملكه قال لعبد الحميد: إن الأمر زائل عنا، وهؤلاء القوم — يعني بني العباس — يضطرون إليك، فصر إليهم فإني أرجو أن تتمكن منهم فتنفعني في محنتي، وفي كثير من أموري، فقال: وكيف لي بعلم الناس جميعًا أن هذا رأيك، وكلهم يقول: إني غدرت بك، وصرت إلى عدوك! ثم أنشد:

وذنبي ظاهر لا شك فيه لمبصره وعذري بالمغيب

ولما زال أمر مروان أتي المنصور بخواص مروان، وفيهم عبد الحميد والبعلبكي المؤذن، وسلام الحادي، فهم بقتلهم جميعًا، فقال سلام: استبقني يا أمير المؤمنين فإني أحسن الحداء، قال: وما بلغ من حدائك؟ قال: تعمد إلى إبلٍ فتظمئها ثلاثة أيام ثم توردها الماء، فإذا بدأت تشرب رفعت صوتي بالحداء، فترفع رؤوسها وتدع الشرب، ثم لا تشرب حتى أسكت؛ فأمر المنصور بإبل ففعل بها ذلك، فكان الأمر كما قال، فاستبقاه وأجازه، وأجرى عليه.

وقال له البعلبكي: استبقني يا أمير المؤمنين فإني مؤذن منقطع النظير، قال: وما بلغ من أذانك؟ قال: تأمر جاريةً فتقدم إليك طستًا، وتأخذ بيدها إبريقًا، وتصب الماء على يديك، فأبتدئ بالأذان، فتدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذاني حتى تلقي الإبريق من يدها وهي لا تعلم؛ فأمر المنصور جاريةً ففعلت ذلك، وأخذ البعلبكي في الأذان، فكانت حالها كما وصف.

وقال عبد الحميد: يا أمير المؤمنين، استبقني فإني فرد الزمان في الكتابة والبلاغة، فقال: ما أعرفني بك! أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل، وعملت بنا الدواهي! وأمر به فقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه.

ويروى أنه سلمه إلى عبد الجبار، فكان يحمي له طستًا ويضعه على بطنه حتى قتله.

يتيمة ابن المقفع

يضرب بها المثل لبلاغتها وبراعة منشئها، وهي رسالة في نهاية الحسن، تشتمل على محاسن من الآداب.

فمنها هذا الفصل في ذكر السلطان:

> مثل قليل مضار السلطان في جنب كثير منافعه، كمثل الغيث الذي هو سقيا الله وبركة السماء وحياة الأرض ومن عليها؛ وقد يتأذى به السفر، ويتداعى له البنيان، وتدر سيوله فيهلك الناس والدواب، ويموج له البحر، وتكون فيه الصواعق، فلا يمتنع الناس إذا نظروا إلى آثار رحمة الله في الأرض التي أحياها لهم، والنبات الذي أخرجه، والرزق الذي بسطه عن أن يعظموا نعمة ربهم ويشكروها، ويلغوا ذكر خواص البلايا التي دخلت على خواص الخلق؛ وكمثل الرياح التي يرسلها الله بشرًا بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب، ويجعلها لقاحًا للأشجار، وروحًا للعباد، ويتنسمون منها، ويتقلبون فيها، وتجري مياههم وفلكهم، وتقد نيرانهم بها؛ وقد تضر بكثير من الناس في برهم وبحرهم فيشكوها الشاكي، ويتأذى بها المتأذي، فلا يزيلها ذلك عن منزلتها التي جعلها الله بها، وقدرهًا سببًا لقوام عباده وتمام نعمته؛ ومثل الشتاء والصيف، والليل والنهار وما فيهما من قليل المضار وكثير المنافع، ولو أن الدنيا كانت كلها سواء، وكانت نعماؤها من غير كد، وميسورها من غير معسور، لكانت الدنيا إذن هي الجنة التي لا يشوب مسرتها مكروه.

وقد ذكر أبو تمام يتيمة ابن المقفع، وأجراها مثلًا في قوله للحسن بن وهبٍ:

ولقد شهدتك والكلام لآلئ   توم فبكر في النظام وثيب

فكأن قسًا في عكاظٍ يخطب وكأن ليلى الأخيلية تندب
وكثير عزة يوم بينٍ ينسب وابن المقفع في اليتيمة يسهب

دهن أبي أيوب

كان لأبي أيوب المورياني وزير المنصور دهن طيب الريح يدهن به إذا ركب إلى المنصور، فكان الناس إذا رأوا غلبته على المنصور وطاعة المنصور له فيما يريده يقولون: دهن أبي أيوب من عمل السحرة؛ إلى أن ضربوا به المثل فقالوا للذي يغلب على الإنسان: معه دهن أبي أيوب.

تيه عمارة

هو عمارة بن حمزة بن ميمون مولى بني العباس. وكان سخيًا سريًا جليل القدر، رفيع النفس تياهًا، وكان خاصًا بالمنصور وقبله بالسفاح، يتولى لهما الدواوين؛ وكان المثل يضرب بتيهه فيقال: أتيه من عمارة.

قال ميمون بن مهران: حدثني من لأثق به أن عمارة كان من تيهه إذا أخطأ يمضي على خطأه تكبرًا عن الرجوع، ويقول: نقض وإبرام في ساعة واحدة! الخطأ أهون من هذا.

وكان السفاح يعرفه بالكبر وعلو القدر، وشدة التنزه، فجرى بينه وبين أم سلمة امرأته في بعض الليالي كلام فاخرته فيه بأهلها، فقال لها السفاح: أنا أحضرك الساعة على غير أهبةٍ مولى من موالي ليس في أهلك مثله؛ فأمر بإحضار عمارة على الحال التي يوجد عليها، فلما أتاه الرسول اجتهد عمارة في تغيير زيه، فلم يدعه الرسول، وجاء به إلى السفاح، وأم سلمة خلف الستر، وإذا عمارة في ثيابٍ ممسكةٍ، وقد غلف لحيته بالغالية حتى قامت، فقال: يا أمير المؤمنين، ما كنت أحب أن تراني على هذه الحالة! فرمى السفاح إليه بمدهن ذهبٍ كان بين يديه فيه غالية، فقال: يا أمير المؤمنين، هل ترى في لحيتي موضعًا لها! فأخرجت أم سلمة إليه عقدًا له قيمة جليلة، وقالت للخادم: تعلمه أني أهديته له؛ فأخذه ووضعه بين يديه، وشكر للسفاح ودعا له، وترك العقد ونهض. فقالت أم سلمة للسفاح: قد أنسيه، فقال السفاح للخادم: ألحقه به وقل له: هذا لك فلم خلفته؟ فاتبعه الخادم به، فلما وصل إليه قال: ما هو لي فاردده؛ فلما أدى إليه الرسالة قال: إن كنت صادقًا فهو لك؛ فانصرف الخادم بالعقد، وعرف السفاح بما جرى، وامتنع من رده

على أم سلمة، وقال لها: قد وهبه لي؛ فلم تزل به حتى ابتاعته منه بعشرة آلاف دينار، وأكثرت التعجب من كبر نفس عمارة.

وأراد المنصور يومًا أن يعبث به، فخرج عمارة من عنده، فأمر المنصور بعض الخدم أن يقطعوا حمائل سيفه لينظر أيأخذه أم لا؛ ففعلوا ذلك، وسقط السيف، فمضى عمارة لوجهه ولم يلتفت إليه.

وكان يومًا يماشي المهدي في أيام المنصور، ويده في يده، فقال له رجل: من هذا أيها الأمير؟ فقال: أخي وابن عمي عمارة بن حمزة، فلما ولى الرجل ذكر المهدي ذلك لعمارة كالممازح له، فقال له عمارة: إنما انتظرت أن تقول: ومولاي، فأنفض والله يدي من يدك؛ فضحك المهدي.

زمن البرامكة

يضرب مثلًا لكل شيءٍ حسن، كما قال الجماز: أتينا بمائدةٍ كأنها زمن البرامكة على العفاة.

وقد أكثر الناس في وصفهم وأيامهم؛ قال صالح بن طريف:

يا بني برمك واهًا لكم ولأيامكم المقبلة
كانت الدنيا عروسًا بكم وهي اليوم ثكول أرملة

وقال آخر:

ولى عن الدنيا بنو برمكٍ ولو تولى الخلق ما زاد
كأنما أيامهم كلها كانت لأهل الأرض أعيادا

وممن ضرب المثل بذلك بعض أهل العصر في قوله لمولانا الملك المؤيد خوارزم شاه:

رعى الله مأمون بن مأمونٍ الذي رعاياه منه في زمان البرامك
ولا برحت أيامه بفعاله وإنعامه المشهور غر المضاحك

جود الفضل

هو الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك، وذكره أشهر وأسير من أن ينبه عليه.

وكان يقال له: حاتم الإسلام وخاتم الأجواد؛ ويقال: حدث عن البحر ولا حرج، وعن الفضل ولا حرج.

وفيه يقول الشاعر:

ما لقينا من جود فضل بن يحيى	ترك الناس كلهم شعراء

ويقول يزيد بن خالد المعروف بابن حسبات:

ألم تر أن الجود من صلب آدمٍ	تحدر حتى صار في راحة الفضل
إذا ما أبو العباس جادت سماؤه	فيا لك من طل ويا لك من هطل

ويقول أبو نواس ما هو أمدح شعرٍ للمحدثين:

أنت الذي تأخذ الأيدي بحجزته	إذا الزمان على أبنائه كلحا
وكلت بالدهر عينًا غير غافلةٍ	بجود كفك تأسو كل ما جرحا

بلاغة جعفر

كان يقال: ما رأى الناس مثل ابني يحيى: الفضل في سماحته، وجعفرٍ في بلاغته.

قال الجاحظ: قال ثمامة: كان جعفر أبلغ الناس لسانًا وبيانًا، قد جمع الهدوء والجزالة والحلاوة، إلى إفهامٍ يغني عن الإعادة؛ ولو كان في الأرض ناطق يستغني عن الإشارة لاستغنى جعفر عنها كما استغنى عن الإعادة؛ وما رأيت أحدًا لا يتحبس ولا يتوقف ولا يتلجلج، ولا يرقب لفظًا قد استدعاه من بعده، ولا يتلمس التخلص إلى معنى قد تعاصى عليه بعد طلبه إياه إلَّا جعفر بن يحيى.

عام ابن عمار

هذا أحمد بن عمار بن شاذي الساكني البصري وزير المعتصم.

كان من علية الناس، فلما عزله المعتصم عن وزارته أمر بأن يولى الأزمة على الدواوين، فاستعفى وقال: إني نويت أن أجاور بمكة سنةً، فوصله المعتصم بعشرة آلاف دينار، ودفع إليه عشرين ألف دينار ليفرقها بالحرمين على من ترى تفريقها عليهم، ولا يعطي إلَّا هاشميًا أو قريشيًا أو أنصاريًا، فقال: يا أمير المؤمنين ربما كان من غيرهم من لهم التقدم في الزهد والعلم، فإن منعته استذممت إليه، فقال: هذه خمسة آلاف دينارٍ لهؤلاء الذين ذكرتهم. فحج ابن عمار وفرق المال كله مع العشرة آلاف التي له، وجاور سنةً، ثم انصرف، فكان الناس يضربون به المثل، ويقولون: ما رأينا مثل عام ابن عمار.

قال مؤلف الكتاب: ويضرب المثل في زماننا هذا بعام جميلة، وهي الموصلية بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان أخت أبي تغلب، فإنها حجت سنة ست وستين وثلاثمائة، وأقامت من المروءة، وفرقت من الأموال، وأظهرت من المحاسن، ونشرت من المكارم، ما لا يوصف بعضه عن زبيدة وعن غيرها ممن حجت من بنات الخلفاء والملوك.

وأخبرني الثقات أنها سقت جميع أهل الموسم السويق بالسكر الطبرزد والثلج؛ وكانت استصحبت البقول المزروعة في مراكن الخزف على الجمال، وأعدت خمسمائة راحلةٍ للمنقطعين من رجالة الحج، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينارٍ، ولم تستصبح فيها إلَّا بشموع العنبر، وأعتقت ثلاثمائة عبدٍ ومائتي جارية، وأغنت الفقراء والمجاورين بالصلات الجزيلة، فصارت حجتها تاريخًا مذكورًا، وسارت مثلًا مشهورًا؛ ومن قصتها أنها لما رجعت إلى بلدها وضرب الدهر ضربانه، وكان ما كان من استيلاء عضد الدولة على أموالها وحصونها وممالك أهلها، أفضت بها الحال إلى كل قلةٍ وذلةٍ، وتكشفت عن فقرٍ مدقعٍ، وكان عضد الدولة خطبها لنفسه، فامتنعت وترفعت عنه، واحتقدها عليها، وحين وقعت في يده تشفى منها، وما زال يعنف بها في المطالبة بالأموال حتى عراها وهتكها، ثم ألزمها أحد أمرين: إما أن تؤدي بقية ما وقعت عليه من المال، وإما أن تختلف إلى دور القحاب فتكتسب فيها ما تؤديه في بقية مصادرتها، فانتهزت يومًا فرصةً من غفلة الموكلين بها، وغرقت نفسها في دجلة؛ رضي الله عنها وأرضاها، وجعل الجنة مأواها.

فالج ابن أبي دواد

وهو بن أبي أحمد دواد الإيادي قاضي قضاة المعتصم والواثق.

وكان من الشرف والكرم بالمنزلة العالية المشهورة وكان مصروف الهمة إلى استعباد الأحرار، وغرضًا لمدائح الشعراء؛ ولما أصابته عين الكمال فلج فصار فالجه مثلًا في أدواء الأشراف وعاهاتهم، كما قيل: لقوة معاوية، وفالج أبان بن عثمان، وبحر عبد الملك بن مروان، وبرص أنس بن مالك، وجذام أبي قلابة، وعمى حسان، وصمم ابن سيرين.

وكان أهل المدينة يقولون لمن يدعون عليه: أصابه الله بفالج أبان.

قال أبو هفان وقد نظر إلى رجلٍ يضرب غلامًا له مليحًا:

ألا يا ضاربًا قمر العباد قصدت الحسن ويحك بالفساد
أتضرب مثله بالسوط عشرًا ضربت بفالج ابن أبي دواد!

ومر في كتاب الأمير — أدام الله تأييده — المترجم بنزهة اللواحظ من كلام الجاحظ فصل في أدواء الأشراف، يليق بهذا المكان، وهو من رسالةٍ إلى محمد بن عبد الملك في الشكر:

> نعمتني بتوطئة المطهمات حتى أصابني النقرس، وأتخمتني بأكل الطيبات حتى ضربني الفالج، ولولاك لكنت أبعد عن النقرس من فيجٍ وأبعد عن الفالج من مكارٍ، فأين شرف أدوائي من جرب الحسن بن وهبٍ، وداء أحمد بن أبي خالدٍ! وأين أدواء الملوك والأنبياء، من أدواء السفلة والأغبياء، ممن كان داؤه أفضل من صحة غيره، وعيبه أجمل من براءة ضده! فما ظنك بغير ذلك من أمره!

ضرطة وهب

هو وهب بن سليمان بن وهب بن سعيد صاحب بريد الحضرة، أفلتت منه ضرطة في مجلس الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان وهو غاص بأهله، فطار خبرها بالآفاق، ووقع في ألسن الشعراء، وصارت مثلًا في الشهرة، حتى قالوا: أشهر من ضرطة وهبٍ، وأفضح من ضرطة وهبٍ. وعمل أحمد بن أبي طاهرٍ كتابًا في ذكرها والاعتذار منها بعد اقتصاص كثيرٍ مما قيل فيها، كقول ابن الرومي:

ما لقينا من ظرف ضرطة وهبٍ تركت أهل دهرنا شعراء
هي عندي كجود فضل بن يحيى غير أن ليس تنعش الفقراء

وقوله:

يا وهب ذا الضرطة لا تبتئس   فإن للأستاه أنفاسا
واضرط لنا أخرى بلا كلفةٍ   كأنما مزقت قرطاسا

وقال آخر:

يا آل وهبٍ حدثوني عنكم   لم لا ترون العدل والإقساطا
ما بال ضرطتكم يحل رباطها   عفوًا ودرهمكم يشد رباطا
صروا ضراطكم المبذر صركم   عند السؤال الفلس والقيراطا
أو فاسمحوا بنوالكم وضراطكم   هيهات لستم للنوال نشاطا
لو جدتم بهما معًا فتواءما   فرشا لكم عند الرجال بساطا
لكنكم أفرطتم في واحدٍ   وهو الضراط فعدلوا الإفراطا

وقول أبي علي البصير:

قل لوهب البغيض يا وحش الخا   قة يا ناطقًا بغير لسان
كانت الضرطة المشومة نارًا   أضرمت في جوانب البلدان
قتلت مفلجًا وكان لعمري   عدةً في الحروب للسلطان

وقال عيسى بن علي القاشاني:

أقيك من حر حزيران   بالأبعد الأقصى وبالداني
كتبت من بيت صديقٍ لنا   منزله والحبس سيان
نبذه حلو وريحانه   أتى له في السوق شهران
وقينة شمطاء مطمومة   في سن نمروذ بن كنعان
إذا تغنينا حكى صوتها   ضرطة وهب بن سليمان

وقال أحمد بن يحيى البلاذري:

ليت طبول العيد تحكي لنا ضرطة وهب بن سليمان
فإنها كانت تروع العدا ما بين مصرٍ وخراسان
يا ضرطة لو أنها شرقت أودت بصنعا وسجستان

وقال آخر:

أيا وهب لا تجزع لإفلات ضرطةٍ نعاها عليك العائبون وأفرطوا
ولا تعتذر منها وإن جل أمرها فقد يغلط الحر الكريم فيضرط

وقال آخر:

لقد قال وهب إذ رأى الناس أشرفوا لضرطته قول امرئٍ غير ذي جهل:
أيا عجبي للناس يستشرفونني كأن لم يروا بعدي ضروطًا ولا قبلي!

وقال آخر:

إن وهب بن سليما ن بن وهب بن سعيد
حمل الضرط إلى الرْ رَي على ظهر البريد
استه ينطق يوم الـ ـحفل بالقول الرشيد
لم يجد في القول فاحتا ج إلى دبرٍ مجيد

وقال آخر:

ومن الحوادث أن وهبًا خانه للحين والقدر المتاح حذار
فغدا وضرطته شنار شائع شغلت بها عن غيرها الأشعار
ومن البلية أنها بشهادة الـ ـقاضي فليس يزيلها الإنكار

وقال أحمد بن أبي طاهر:

يا وهب إن ناقةً أظمأتها فوردت
ونفرت شاردةً فأبرقت وأرعدت
لو كنت لما وردت عقلتها ما شردت

وقال ابن بسام:

سأذكر عن بني وهبٍ أمورًا وليس الغمر كالرجل الخبير
وأخلاق البغال إذا استميحوا وضرط في المجالس كالحمير
وجوه لا تهش إلى المعالي وأستاه تهش إلى الأيور

وجرى بين وهبٍ وبين ابن أبي عونٍ كلام في مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، فتعدى وهب على ابن أبي عون، فقال له علي بن أبي يحيى وكان في المجلس واحتمى لابن عون: كم التوثب في مجالس الأمراء، والضراط في مجالس الوزراء!

ويحكى أنه ما سمعت للمهتدي مزحة سوى قوله لسليمان بن وهب وكان في رجله خف واسع يصوت: يا سليمان، خفك هذا ضراط، فقال: يا أمير المؤمنين ضرطة خير من ضغطةٍ.

خط ابن مقلة

يضرب مثلًا في الحسن، لأنه أحسن خطوط الدنيا؛ وما رأى الراؤون، بل ما روى الراوون مثل ارتفاعه عن الوصف، وجريه مجرى السحر.

وقال الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد:

خط الوزير ابن مقلة بستان قلبٍ ومقلة

وقال بعض أهل العصر:

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ودت جوارحه لو حولت مقلا
فالدر يصفر لاستحسانه حسدًا والبدر يحمر من أنواره خجلا

وقال أيضًا:

سقى الله عيشًا مضى وانقضى بلا رجعةٍ أرتجيها ونقلة
كوجه الحبيب وقلب الأديب وشعر الوليد بخط ابن مقلة

وكان ابن مقلة وهو أبو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة كتب كتاب هدنةٍ بين المسلمين والروم بخطه، فهو إلى اليوم عند الروم في كنيسة قسطنطينية يبرزونه في الأعياد، ويعلقونه في أخص بيوت العبادات، ويعجبون من فرط حسنه، وكونه غايةً في فنه. ومن خبر ابن مقلة هذا أنه وزر لثلاثةٍ من الخلفاء: المقتدر، والقاهر، والراضي، وتنقلت به أحوال ومحن، أدت إلى قطع يده؛ ومن نكد الدهر أن مثل تلك اليد النفيسة تقطع!

قال ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة: أمرني الراضي بالله بالدخول إلى ابن مقلة لآخر اليوم الذي قطعت فيه يده، فدخلت إليه فعالجته، وسألني عن خبر ابنه أبي الحسين، فعرفته خبر سلامته، فسكن إلى ذلك غاية السكون، ثم ناح على نفسه، وبكى على يده، وقال: يد خدمت بها الخلافة ثلاث دفعاتٍ، وكتبت بها القرآن دفعتين تقطع كما تقطع أيدي اللصوص! تذكر وأنت تقول لي: أنت في آخر نكبةٍ، والفرج قريب؟ قلت: بلى، قال: فقد ترى ما حل بي، فقلت: ما بقي بعد هذا شيء، والآن ينبغي أن تتوقع الفرج، فإنه عمل بك ما لم يعمل بنظيرٍ لك، وهذا انتهاء المكروه، ولا يكون بعد الانتهاء إلَّا الارتفاع؛ فقال: لا تغفل، إن المحنة قد تشبثت بي تشبثًا تنقلني به من حالٍ إلى حالٍ حتى تؤديني إلى التلف كما تشبثت حمى الدق بالأعضاء، فلا تفارق صاحبها حتى تؤديه إلى الموت؛ ثم تمثل بهذا البيت وهو لأبي يعقوب الخريمي:

إذا ما مات بعضك فابك بعضًا فبعض الشيء من بعضٍ قريب

فكان الأمر على ما قال، فلما قدم بجكم الماكاني من بغداد، نقل ابن مقلة من ذلك الموضع إلى موضعٍ أغمض منه، فلم يوقف له على خبرٍ، وحجبت عنه ثم قطع لسانه، وبقي في الحبس مدة طويلة، ثم لحقه ذرب، ولم يكن له من يعالجه ولا من يخدمه، حتى بلغني أنه كان يستقى الماء من البئر بيده اليسرى وفمه، ولحقه شقاء شديد إلى أن مات ودفن في دار السلطان. ثم سأل أهله بعد مدة تسليمه إليهم، فنبش

وسلم إليهم، فدفنه ابنه أبو الحسين في داره، ثم نبشته حرته المعروفة بالدينارية، ودفنته في دارها بقصر أم حبيب.

قال: ومن عجائبه أنه كان يراسل الراضي بالله من الحبس بعد قطع يده، وقبل أن يقطع لسانه، ويطمعه في المال الذي وعد تصحيحه له، ويقول: إن قطع يده ليس مما يمنعه أن يستوزره، لأنه يمكنه أن يوقع بحيلةٍ يحتالها، أو يعمل بيده اليسرى، ولقد كانت تخرج من عنده له رقاع بعد قطع يده إلى ابنه أبي الحسين وقبل أن يضيق عليه؛ ويذكر ابنه أنها كانت بخط جيد من خطه، وأنه كان يكتب بيده اليسرى، أو يشد القلم على ساعد يده اليمنى فيكتب به.

ومن عجائبه أنه تقلد الوزارة ثلاث دفعات لثلاثة من الخلفاء، وسافر في عمره ثلاث سفرات: اثنتين في النفي إلى شيراز، وواحدةً إلى الموصل، ودفن بعد موته ثلاث مرات.

مروءة ابن الفرات

هو أبو الحسن علي بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات، وزر للمقتدر ثلاث مرات، وكان يضرب بمروءته المثل.

فمما يذكر منها أنه كان كلما تقلد الوزارة يزيد سعر القرطاس والشمع والثلج والخيش زيادةً وافرةً؛ وكان ذلك متعارفًا عند التجار؛ وكانت في داره حجرة شرابٍ يوجه الناس من الكتاب والقواد غلمانهم من المواضع البعيدة، ليأخذوا لهم منها ما يريدون من السكنجبين والجلاب والفقاع والثلج وغيرها.

وكان رسم داره أن يصحب كل من يخرج منها عند غروب الشمس شمعتين، ولا يسترجعان من خدمه.

قال الصولي: وحدثني جماعة من أهل داره أنه لما استوزر في الكرة الثانية وخلع عليه، وكان الزمان صيفًا، سقى الناس في داره يوم ذلك وليلته أربعين ألف رطل من الثلج، ولما قبض عليه بعد وزارته الأولى نظر فإذا هو يجري على خمسة آلاف من الناس، أقل جاري أحدهم خمسة دراهم في الشهر، ونصف قفيز دقيق إلى عشرة أقفزةٍ ومائة دينارٍ، وما بين ذلك.

ومن خبر عاقبة أمره فيما ذكر ثابت بن سنان أنه سلم في دولتيه الأوليين جميعًا لما سلم الناس منه، وشملهم إحسانه، ولم يتعرض للنعم ولا للنفوس، واجتمع الناس على محبته والاغتنام لمحنته، واجتهدوا في خلاصه وعود أيامه؛ وصلحت الدنيا على يده؛ فلما ساعد ابنه المحسن في دولته الثالثة على ما اختار من

التشفي من أعدائه، والسرف في القتل والمصادرات وإزالة النعم، وإدخال الرعب سائر القلوب، ولم يظهر منه إنكار لذلك، لحقه من العقوبات في الدنيا إلى أن بلغ الآخرة ما لم يلحق أحدًا من نظرائه، فإنه نصب بين البيازين، وضرب بالقلوس، وكان خاتمة أمره أن ضربت عنق ابنه بحضرته، ثم ضربت عنقه بعد أن أزيلت نعمته، وتعفى أثره، ولم تبق منه باقية.

الباب الخامس عشر

فيما يضاف وينسب إلى طبقات الشعراء

حلة امرئ القيس، يوم عبيد، حكم لبيد، حوليات زهير، صحيفة المتلمس، قدح ابن مقبل، منديل عبدة، لسان حسان، سيف الفرزدق، بنات نصيب، غزل ابن أبي ربيعة، عين بشار، طبع البحتري، أير أبي حكيمة، تشبيهات ابن المعتز، عتاب جحظة، غلام الخالدي.

الاستشهاد

حلة امرئ القيس

تضرب مثلًا للشيء الحسن يكون له أثر قبيح، والمبرة يكون في ضمنها عقوق، والكرامة يحصل منها إهلاك.

وذلك أن امرأ القيس بن حجرٍ لما خرج إلى قيصر يستعينه على قتلة أبيه، ويستنجده في الاستيلاء على ملكه، قبله وأكرمه وأمده بجيشٍ، ثم لما صدر من عنده وشى الوشاة به إليه، وأخبروه بما يكره من شأنه، وخوفوه عاقبة أمره، فندم على تجهيزه، ثم اتبعه بحلةٍ مسمومةٍ عزم عليه أن يلبسها في طريقه؛ فلما لبسها تقرح جلده، وتساقط لحمه، واشتد سقمه؛ ففي ذلك يقول:

وبدلت قرحًا داميًا بعد صحةٍ وبدلت بالنعماء والخير أبؤسا

ولو أن نومًا يشترى لاشتريته قليلًا كتغميض القطا حيث عرسا
فلو أنها نفس تموت صحيحةً ولكنها نفس تساقط أنفسا

ثم لما نزل أنقرة مات بها؛ وإنما سمي ذا القروح لهذه القصة.

يوم عبيد

يضرب مثلًا لليوم المنحوس الطالع.

وكان عبيد بن الأبرص تصدى فيه للنعمان بن المنذر في يوم بؤسه الذي كان لا ينجو منه من لقيه فيه، كما كان لا يخيب من لقيه في يوم نعيمه؛ فقال له: يا عبيد؛ إنك مقتول فأنشدني قولك:

أقفر من أهله ملحوب

فأنشده:

أقفر من أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيد

ثم أمر به فقتل؛ فسار يوم عبيدٍ مثلًا؛ كما قال أبو تمام:

لما أظلتني سماؤك أقبلت تلك الشهود علي وهي شهودي
من بعد ما ظن الأعادي أنه سيكون لي يوم كيوم عبيد

حكم لبيد

يضرب مثلًا في الميت يبكى عليه، والغائب يخترم له، سنة واحدة، لأن لبيدًا يقول:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولًا كاملًا فقد اعتذر

وإلى هذا المثل يشير أبو تمام في قوله:

ظعنوا فكان بكاي حولًا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

حوليات زهير

يضرب بها المثل في جيد الشعر وبارعه.

وهي أمهات قصائده، وغرر كلماته التي كان لا يعرض واحدةً منها حتى يحول عليها الحول؛ وهو يجتهد في تصحيحها وتنقيحها وتهذيبها؛ وكان يقول: خير الشعر الحولي المنقح المحكك.

وعهدي بالخوارزمي يقول غير مرةٍ: من روى حوليات زهير، واعتذارات النابغة، وأهاجي الحطيئة، وهاشميات الكُمَيت، ونقائض جرير والفرزدق، وخمريات أبي نواس، وزهديات أبي العتاهية، ومراثي أبي تمام، ومدائح البحتري، وتشبيهات ابن المعتز، وروضيات الصنوبري، ولطائف كُشاجِم، وقلائد المتنبي؛ ولم يتخرج في الشعر فلا أشب الله تعالى قرنه.

صحيفة المتلمِّس

تضرب مثلًا لمن يحمل كتابًا فيه حتفه.

وكان طرفة بن العبد وخاله جرير بن عبد المسيح المعروف بالمتلمس ينادمان عمرو بن هند الملك؛ فبلغه أنهما هجواه؛ فكتب لهما إلى عامله بالبحرين كتابين أوهمهما أنه أمر لهما فيهما بجوائز؛ وقد كان أمره بقتلهما، فخرجا حتى إذا كانا بالنجف إذا هما بشيخٍ على لسان الطريق يحدث ويأكل من خبز في يده، ويتناول القمل من ثيابه فيقصعه؛ فقال له المتلمس: ما رأيت كاليوم شيخًا أحمق! فقال له الشيخ: وما رأيت من حمقي! أخرج خبيثًا، وأدخل طيبًا، وأقتل عدوًا؛ وأحمق مني والله من يحمل حتفه بيده؛ فاستراب المتلمس بقوله؛ وطلع عليه غلام من أهل الحيرة، فقال له: أتقرأ يا غلام؟ قال: نعم؛ ففك صحيفته ودفعها إليه فإذا فيها:

أما بعد، فإذا أتاك المتلمس بكتابنا هذا فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًا!

فأخذها المتلمس، وقذفها في نهر الحيرة، ثم قال لطرفة: إن في صحيفتك والله ما في صحيفتي؛ فقال طرفة: كلا، لم يكن ليجترئ علي؛ ثم أخذ المتلمس نحو الشام فنجا برأسه، وتوجه طرفة نحو البحرين،

وأوصل الكتاب إلى عاملها، فلما قرأه قال له: إن الملك قد أمرني بقتلك، فاختر أي قتلةٍ تريدها، فسقط في يده وقال: إن كان لا بد من القتل فقطع الأكحل؛ فأمر به ففصد من الأكحل؛ ولم تشد يده، حتى نزف دمه فمات.

وفي ذلك يقول البحتري، ويجريه مثلًا في اختيار خير الشرين:

ولقد سكنت إلى الصدود من النوى ... والشري أري عند طعم الحنظل
وكذلك طرفة حين أوجس ضربةً ... في الرأس هان عليه قطع الأكحل

وممن ضرب المثل بصحيفة المتلمس من قال للفرزدق، وقد أخذ كتابًا من بعض الملوك إلى عامله بصلةٍ له:

ألق الصحيفة يا فرزدق لا تكن ... نكداء مثل صحيفة المتلمس

وكتب شريح إلى مؤدب ابنه يشكوه، ويذكر لعبه بالكلاب، ويأمره بتعزيره:

ترك الصلاة لأكلبٍ يسعى بها ... نحو الهراش مع الغواة الرجس
فليأتينك غاديًا بصحيفةٍ ... نكداء مثل صحيفة المتلمس
فإذا أتاك فخصه بملامةٍ ... وأنله موعظة اللبيب الأكيس
فإذا هممت بضربه فبدرةٍ ... وإذا ضربت بها ثلاثًا فاحبس
واعلم بأنك ما فعلت فنفسه ... مع ما تجر عني أعز الأنفس

وقال يعقوب بن الربيع في مرثية جاريته ملك:

حتى إذا فتر اللسان وأصبحت ... للموت قد ذبلت ذبول النرجس
وتسهلت منها محاسن وجهها ... وعلا الأنين تحثه بتنفس
رجع اليقين مطامعي يأسًا كما ... رجع اليقين مطامع المتلمس

قدح ابن مقبل

يضرب المثل في حسن الأثر.

ويروى أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج: ما إن أرى لك مثلًا إلَّا قدح ابن مقبلٍ؛ فلم يعرف معناه، واغتم لذلك حتى دخل عليه قتيبة بن مسلم وكان روايةً للشعر، حافظًا له، عالمًا به فسأله عنه، فقال: أبشر أيها الأمير، فإنه قد مدحك؛ أما سمعت قول ابن مقبل وهو يصف قدحًا له:

غدا وهو مجدول وراح كأنه من المس والتقليب في الكف أفطح
خروج من الغماء إن صك صكةً بدا والعيون التسكفة تلمح

ويحكي عنه أنه كتب إليه مرةً أخرى:

أما بعد، فإنك سالم؛ والسلام.

فلم يدر ما معناه، حتى نبه على أنه أراد قول عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في ابنه سالم رضي الله عنه:

يديرونني عن سالمٍ وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

هكذا وجدت في غير كتابٍ واحدٍ، ثم وجدت نسخة رقعةٍ للصاحب إلى العامل بجرجان في الوصية بأبي سعدٍ الإسماعيلي أولها: أخبرني يا سيدي وخليلي، أطال الله بقاءك الصقر، قال: أخبرني أبو العباس محمد بن يزيد، قال: قلت للعتبي: كنت أحب أن أعرف موقعي من قلبك، قال: موقع سالمٍ وسالمٍ يعني سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم وموقعه من أبيه، فقد كان يكلف به حتى أنه كان يقبله، وقد شاخ الابن، ويقول: شيخ يقبل شيخًا! وسالمًا الآخر مولى هشام المقول فيه:

يديرونني عن سالمٍ وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

والأخ الفقيه أبو سعدٍ سميي وصفيي أدام الله عزه عندي كسالمٍ وسالمٍ، بل هو كالسلامة، فهي أخص موقعًا وأشرف موضعًا.

منديل عبدة

قال عبد الملك بن مروان يومًا لجلسائه وكان يتجنب غير الأدباء: أي المناديل أفضل؟ فقال قائل منهم: مناديل اليمن، كأنها أنوار الربيع.

قال آخر: مناديل مصر، كأنها غرقئ البيض، فقال عبد الملك: ما صنعتم شيئًا، أفضل المناديل منديل عبدة يعني عبدة الطبيب في قوله من قصيدةٍ:

لما نزلنا نصبنا ظل أخبيةٍ وفار للقوم باللحم المراجيل
ورد وأحمر ما يونيه طابخه ما غير الغلي منه فهو مأكول
ثمت قمنا إلى جردٍ مسومةٍ أعرافهن لأيدينا مناديل

والأصل في هذا المعنى قول امرئ القيس:

نمش بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواءٍ مضهب

لسان حسان

يضرب به المثل في الذلاقة والطول والحدة. ويقال: شكره شكر حسان لآل غسان.

ولما هجا النبي صلى الله عليه وسلم شعراء المشركين، كابن الزبعري وكعب بن مالك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا رجل يرد عنا؟ فقال حسان: بلى يا رسول الله! وأشار إلى نفسه فقال له: اهجهم وروح القدس معك؛ فوالله إن هجاءك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام، والق أبا بكرٍ يعلمك تلك الهنات؛ فلما قال ذلك النبي صلى الله عليه وسلم أخرج حسان لسانه، ثم ضرب بطرفه أنفه، وقال: والله يا رسول الله ما يسرني به مقول من معدٍ! والله إني لو وضعته على شعرٍ لحلقه، أو على صخرٍ لفلقه.

قال الجاحظ: فلا ينبغي أن يكون حسان قال إلَّا حقًّا وكيف يقول باطلًا والنبي صلى الله عليه وسلم يأمره، وجبريل يسدده، والصديق يعلمه، والله يوفقه!

وقال غيره: من ظريف أمر حسان أنه كان يقول الشعر في الجاهلية فيجيد جدًّا، ويغبر في وجوه الفحول، ويدعي أن له شيطانًا يقول الشعر على لسانه كعبارة الشعراء في ذلك؛ فلما أدرك الإسلام، وتبدل الملك

بالشيطان، تراجع شعره وكاد يرك قوله؛ هذا ليعلم أن الشيطان أصلح للشاعر وليق به، وأذهب في طريقه من الملك.

وأنا أستغفر الله من هذا القول فإني أكرهه.

سيف الفرزدق

يضرب مثلًا للسيف الكيل بيد الجبان.

وقصته أن جريرًا والفرزدق وفدا على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة، وأمه ولادة بنت العباس العبسية، وأخواله بنو عبسٍ، وكانوا يتعصبون على الفرزدق، ويبغضونه لهجائه قيس عيلان، ويحبون جريرًا لمدحه إياهم، فقرظوا جريرًا عند سليمان، وذموا الفرزدق، وكان سليمان عازمًا على قتل أسرى من أعلاج الروم، فجاء رجل من بني عبسٍ إلى الفرزدق؛ وقال له: إن أمير المؤمنين سيأمرك غدًا بضرب عنق أسيرٍ من أسرى الروم، وقد علمت أنك وإن كنت تصف السيوف وتحسن، فإنك لم تمرن بها وهذا سيفي إنما يكفيك أن تومئ به، فيأتي على ضريبته وأتاه بسيفٍ ملثمٍ فقال له الفرزدق: ممن أنت؟ فخشي أن يقول: من بني عبسٍ فيتهمه، فقال: من بني ضبة أخوالك؛ فعمل الفرزدق على ذلك ووثق به.

فلما كان من الغد وحضر الفرزدق والوفود دار سليمان، وجيء بالأسرى، أمر سليمان واحدًا منهم هائل المنظر أن يروع الفرزدق إذا أخذ السيف، ويلتفت إليه ويفزعه، ووعده أن يطلقه إذا فعل ذلك؛ ثم قال للفرزدق: قم فاضرب عنقه، فسل سيف العبسي فضربه به فلم يؤثر فيه، وكلح الرومي في وجهه، فارتاع الفرزدق، فضحك سليمان والقوم، فجاء جرير وقال يعيره:

بسيف أبي رغوان سيف مجاشعٍ ضربت، ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ضربت به عند الإمام فأرعشت يداك، وقالوا محدث غير صارم

فأجابه الفرزدق بقصيدةٍ منها:

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم
فهل ضربة الرومي جاعلة لكم أبًا ككليبٍ أو أبًا مثل دارم!

وقال أيضًا في الاعتذار من نبو السيف:

أيعجب الناس أن أضحكت سيدهم خليفة الله يستسقى به المطر
لم ينب سيفي من رعبٍ ولا دهش عن الأسير ولكن أخر القدر
ولن يقدم نفسًا قبل ميتتها جمع اليدين ولا الصمصامة الذكر

وقال أيضًا:

فإن يك سيفي خان أو قدر أبى لمقدار يومٍ حتفه غير شاهد
فسيف بني عبسٍ وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد
كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها وتقطع أحيانًا مناط القلائد

وقرأت في رسالةٍ لابن العميد إلى ابن سمكة:

جرب — جُعلت فداك — ما قلته، واختبرني فيما ادعيته، فإن لم أفعل فدمي حلال لك، فاقتلني بسيف الفرزدق، وكلني بخلٍ وخردلٍ. والسلام.

بنات نصيب

كان نصيب عبدًا أسود لبني كعب بن ضمرة وكان شاعرًا مفلقًا، ولشعره ديباجة؛ ولما سئل عنه جرير قال: هو أشعر أهل جلدته، ولا يقال: أشعر أهل بلدته؛ وقد يقال لمثله: هو أشعر الناس، وإن كان فيهم من هو أشعر منه.

وكان لنصيب بنات نفض عليهن من لونه، فهن يشبهنه في الأدمة والدمامة، وكان يحبهن جدًّا، وفيهن يقول:

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت: بنفسي النشأ الصغار
بنفسي كل مهضومٍ حشاها إذا ظلمت فليس بها انتصار

وكان يربأ بهن عن العجم، ولا ترغب فيهن العرب، فبقين عنده معنساتٍ، وصرن مثلًا للبنت يضن بها أبوها، فلا يرضى من يخطبها، ولا يرغب فيها من يرضاه لها.

وقد ضرب بهن المثل أبو تمامٍ في شعره حيث قال:

أما القوافي فقد حصنت عذرتها	فما يصاب دم منها ولا سلب
منعت إلَّا من الأكفاء منكحها	وكان منك عليها العطف والحدب
ولو عضلت عن الأكفاء أيمها	ولم يكن لك في أطهارها أرب
كانت بنات نصيبٍ حين ضن بها	عن الموالي ولم تحفل بها العرب

غزل ابن أبي ربيعة

هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي؛ أغزل خلق الله وأغنجهم شعرًا في الغزل، وأرقهم طبعًا في النسيب. وليس له شعر في المدح والهجاء والفخر، وإنما قصر شعره كله على ذكر النساء، وصرف معظم شعره إلى وصف النساء الشرائف وبنات الخلائف، لا سيما إذا حججن واعتمرن، وظهر المستور من محاسنهن؛ وكان يذهب في طريق من قال: إني لأعشق الشرف كما يعشق غيري الجمال.

ويروى أنه ولد في الليلة التي قبض فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسمي باسمه؛ فكان الناس يقولون: أي حق رفع، وأي باطلٍ وضع!

وقال له عبد الملك بن مروان يومًا وقد سمع شعره: بئس جار الغيور أنت.

وكان طاوس يقول إذا سمع شعره: ما عصي الله تعالى بشعرٍ كما عصي بشعر عمر.

ولما قال له هشام: ما يمنعك عن مدحنا؟ قال: إني أمدح النساء لا الرجال.

ومن ظريف ما يحكى عنه أن نعمى إحدى صواحباته اغتسلت في غدير، فأقام عليه يشرب منه حتى جف.

وكان أخوه الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة لا يقاره على تغزله ومجونه، فبينا هو ذات يومٍ في منزل عمر قد استلقى في مقيله؛ إذ دخلت عليه صاحبته الثريا، فألقت نفسها عليه، وهي تظنه عمر، فقام

الحارث مغضبًا يجر رداءه؛ وأراد أن يخرج، فتلقاه عمر وسأله عن حاله، فأخبره بحديث المرأة وإلقائها نفسها عليه، فقال: أبشر يا أخي؛ فلا تمسك النار بعدها أبدًا.

ولما أنشد عمر قوله:

ويومٍ كتنور الطواهي سجرنه وألقين فيه الجزل حتى تضرما
قذفت بنفسي في أجيج سمومه ولا زلت حتى ابتل مشفرها دما

فقال له أخوه: الله أكبر! قد أخذت في فن آخر من الشعر؛ فلما أتبعهما بقوله:

أؤمل أن ألقى من الناس عالمًا بأخباركم أو أن ألم مسلما

قال له: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾.

وقد ضرب الصاحب المثل حيث قال في رسالةٍ له: أنت أغزل من عمر، إذا حج واعتمر.

عين بشار

كان بشار بن بردٍ من عجائب الدنيا، وذلك أنه كان أعمى أكمه، لم يبصر شيئًا قط، وهو القائل:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وهو القائل في وصف ذكره:

عجل الركوب إذا اعتراه نافض وإذا أفاق فليس بالركاب
وتراه بعد ثلاث عشرة قائمًا مثل المؤذن شك يوم سحاب

وفي عين بشار يقول مخلد بن علي السلامي، وهو يهجو إبراهيم ابن المدبر ويدعو عليه:

رأيتك لا تحب الود إلا إذا ما كان من عصبٍ وجلد
أراني الله عزك في انحناءٍ وعينك عين بشار بن برد

طبع البحتري

يضرب به المثل، لأن الإجماع واقع على أنه في الشعر أطبع المحدثين والمولدين، وأن كلامه يجمع الجزالة والحلاوة والفصاحة والسلامة.

ويقال: إن شعره كتابة معقودة بالقوافي؛ لأن فيه مثل قوله:

فالله يبقيه لنا ويحوطه ويعزه ويزيد في تأييده

وقوله:

بقيت أمير المؤمنين فإنما بقاؤك حسن للزمان وطيب
ولا كان للمكروه نحوك مذهب ولا لصروف الدهر فيك نصيب

وقوله:

ما ضيع الله في بدوٍ ولا حضرٍ رعيةً أنت بالإحسان راعيها
وأمةٍ كان قبح الجور يسخطها دهرًا فأصبح حسن العدل يرضيها

فانظر إلى شرف هذا الكلام وسهولته وصعوبته على من يقصد تعاطي مثله.

وممن ضرب بطبعه المثل السلامي، حيث قال:

وأعطيت طبع البحتري وشعره فمن لي بمال البحتري وعمره!

وقال بعض العصريين:

يا لابسًا لنقاب وردٍ أحمر يا فارشًا وجهي بوردٍ أصفر
تام تنحلني بخصرٍ ناحلٍ وتعلني بعليل طرفٍ أحور!
يا واحدًا في الحسن ها أنا واحد في الحزن أصلى نار وجدٍ مضمر
وأظل بين تذللٍ وتحيرٍ إذ أنت بين تدللٍ وتجبر

مالي بوصفك سيدي من طاقةٍ ولو أنني استمليت طبع البحتري

أير أبي حكيمة

ذكر الأعضاء لا يؤثم، وإنما الإثم في ذكرها عند شتم الأعراض، وقذف المحصنات.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا».

وقال أبو بكر رضي الله عنه لبديل بن ورقاء حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن هؤلاء إن مسهم حر السلاح أسلموك: اعضض ببظر أمك، أنحن نسلمه!

وقال علي رضي الله عنه: من يطل أير أبيه ينتطق به.

وأير أبي حكيمة راشد بن إسحاق في كثرة ما قال في مدحه سالفًا، وذمه آنفًا، ووصفه بالضعف والوهن والفشل يجري مجرى المثل، وينخرط في سلك طيلسان ابن حرب، وضرطة وهب، وحمار طيابٍ، وشاة سعيدٍ.

ولقد استفرغ شعره في ذلك، وأتى بالنوادر والملح السوائر.

ويقال: إنه كان يكتب لإسحاق بن إبراهيم المصعبي، اتهمه بغلامٍ له، فأخذ في هذا الفن من الشعر، تنزيهًا لنفسه عن التهمة، حتى صار عادةً له؛ فمن ملحه قوله:

لم تكتحل عيناي مذ شقتا بمثل أيري بين رجلي أحد
أير ضعيف المتن رث القوى لو شئت أن أعقده لانعقد
إن يمس كالبقلة في لينها فطالما أصبح مثل الوتد

وقوله:

كأن أيري من لين مقبضه خريطة قد خلت من الكتب
كأنه حية مطوقة قد جعلت رأسها مع الذنب

وقوله:

أير تعفف واسترخت مفاصله   مثل العجوز حناها شدة الكبر
يقوم حين يريد البول منحنيًا   كأنه قوس ندافٍ بلا وتر
ولا يقوم إذا نبهته سحرًا   كما تقوم أيور الناس في السحر

وقوله:

ينام على كف الفتاة وتارةً   له حركات ما تحس بها الكف
كما يرفع الفرخ ابن يومين رأسه   إلى أبويه ثم يدركه الضعف

وأراد كُشاجِم أن يتعاطى فن أبي حكيمة، فما شق غباره، على ارتفاع مقداره في الشعر حيث قال:

أصبح أيري للضعف منضمًا   كأنما فيه نافض الحمى
أصفى فأشفى على الردى وغدا   أصم عما أرومه أعمى
وكان كالزير في توتره   فانحط حتى حسبته بما
لم يبق فيه حظ تؤمله   سعدى ولا تستلذه سلمى

تشبيهات ابن المعتز

يضرب بها المثل في الحسن والجودة، ويقال: إذا رأيت كاف التشبيه في شعر ابن المعتز، فقد جاءك الحسن والإحسان.

ولما كان غذي النعمة، وربيب الخلافة، ومنقطع القرين في البراعة، تهيأ له من حسن التشبيه ما لم يتهيأ لغيره؛ ممن لم يروا ما رآه، ولم يستخدموا ما استخدمه من نفائس الأشياء وطرائف الآلات؛ ولهذا المعنى اعتذر ابن الرومي في قصوره عن شأو ابن المعتز في الأوصاف والتشبيهات؛ فمن أنموذج تشبيهاته الملوكية قوله في وصف الهلال:

وانظر إليه كزورقٍ من فضةٍ   قد أثقلته حمولة من عنبر

وقوله:

ونسيمٍ يبشر الأرض بالقطر كذيل الغلالة المبلول
ووجوه البلاد تنتظر الغيـ ـث انتظار المحب رجع الرسول

وقوله في الخمر:

وأمطر الكأس ماءً من أبارقه فأنبت الدر في أرضٍ من الذهب
وسبح القوم لما أن رأوا عجبًا نورًا من الماء في نارٍ من العنب

وقوله في الآذريون:

كأن آذريونها والشمس فيها كالية
مداهن من ذهبٍ فيها بقايا غالية

ومن سائر تشبيهاته التي تفرد بها قوله:

والريح تجذب أطراف الرداء كما أفضى الشقيق إلى تنبيه وسنان

وقوله في المعتضد:

ما يحسن القطر أن ينهل عارضه كما تتابع أيام الفتوح له

وقوله:

أطال الدهر في بغداد همي وقد يشقى المسافر أو يفوز
ظللت بها على رغمي مقيمًا كعنينٍ تضاجعه عجوز

وقلائد تشبيهاته، ولطائف تمثيلاته أكثر من أن تحصى.

عتاب جحظة

يشبه به كل ما رق ولطف، لقوله:

ورق الجو حتى قيل: هذا عتاب بين جحظه والزمان

وللبديع الهمذاني من رسالةٍ له إخوانيةٍ: بيننا عتاب لحظة، كعتاب جحظة، واعتذارات بالغة، كاعتذارات النابغة.

غلام الخالدي

يضرب به المثل في الكياسة والشهامة، والنفاذ في حسن الخدمة وجمع محاسن المماليك ومناقب العبيد.

وهو غلام أبي عثمان الخالدي، أحد الأخوين الخالديين اللذين يهجوهما السري الموصلي، ويدعي عليهما سرقة شعره.

وحدثني أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي أن اسم هذا الغلام رشأ، وأنه رآه بعد موت مولاه أبي عثمان في ناحية أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف؛ قال: وهو اليوم وزير قراد العقيلي والي البلد والجامعين والقصر.

قال مؤلف الكتاب: قرأت أنا بخطه (أي: بخط الغلام) في تضاعيف مجموعٍ من شعر الخالديين بخط أحد الأخوين في دفتر أعارنيه أبو نصرٍ سهل بن المَرْزُبان:

كتب ابن سكرة الهاشمي إلى أبي عثمان يسأله عني، فكتب إليه:

ما هو عبد لكنه ولد خولنيه المهيمن الصمد
وشد أزري بحسن صحبته فهو يدي والذراع والعضد
صغير سن كبير معرفةٍ تمازج الضعف فيه والجلد
معشق الطرف طرفه كحل معطل الجيد حليه جيد
وغصن بان إذا بدا، وإذا شدا فقمري بانةٍ غرد

ثقفه كيسه فلا عوج في بعض أخلاقه ولا أود
ما غاظني ساعةً، فلا صخب يمر في منزلي ولا حرد
مسامري إن دجا الظلام فلي منه حديث كأنه الشهد
خازن ما في يدي وحافظه فليس شيء لدي يفتقد
يصون كتبي فكلها حسن يطوي ثيابي فكلها جدد
وحاجبي فالخفيف محتبس عندي به والثقيل مطرد
وصيرفي القريض وازن ديـ ـنار المعاني الجياد، منتقد
ويعرف الشعر مثل معرفتي وهو على أن يزيد مجتهد
وحافظ الدار إن ركبت فما على غلامٍ سواه أعتمد
ومنفق مشفق إذا أنا أسـ ـرفت وبدرت فهو مقتصد
وأبصر الناس بالطبيخ فكالـ ـمسك القلايا والعنبر الثرد
وواجد بي من المحبة والرأ فة أضعاف ما به أجد
إذا تبسمت فهو مبتهج وإن تنمرت فهو مرتعد
ذا بعض أوصافه وقد بقيت له صفات لم يحوها العدد

الباب السادس عشر

فيما يضاف وينسب إلى البلدان والأماكن

عزيز مصر، أسقف نجران، أبدال اللكام، ملكا بابل، جنة عبقر، حجام ساباط، قاضي منى، قاضي جبل، سحرة الهند، شيخ العراق، ظريف العراق، صوفية الدينور، لصوص الري.

الاستشهاد

عزيز مصر

في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾، وفيه أن إخوة يوسف قالوا له: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾.

وكانت هذه تحية ملوكهم وعظمائهم وإلى الآن؛ قال بعض الظرفاء في الاقتباس من القرآن من قصة يوسف عليه الصلاة السلام:

أيهذا العزيز قد مسنا الضرْ　رُ جميعًا وأهلنا أشتات
ولنا في الرحال شيخ كبير　ولدينا بضاعة مزجاة

وقال أبو الحسن بن طباطبا، وهو يهجو حرة بني رستم:

خليلي اغتممت فعللاني بصوتٍ مطربٍ حسنٍ وجيزٍ
عزيزة رق حافرها فأزرت برقة حافر امرأة العزيز

أسقف نجران

هو قس بن ساعدة، أحد بل أوحد حكماء العرب وبلغائهم؛ وقد تقدم ذكره، وضرب المثل بخطابته وبلاغته؛ وهو القائل:

منع البقاء تقلب الشمس وغدوها من حيث لا تمسي
وطلوعها بيضاء صافيةً وغروبها صفراء كالورس
اليوم أعلم ما يجيء به ومضى بفضل قضائه أمس

أبدال اللكام

يضرب بهم المثل في الزهد والعبادة ورفض الدنيا.

وهم الزهاد والعباد الذين وردت في حقهم الآثار بأن الله تعالى إنما يرحم العباد ويعفو عنهم، وينظر لهم بدعائهم؛ لا يزيدون على السبعين ولا ينقصون عنها، فكلما توفي واحد منهم قام بدل عنه يسد مكانه، وينوب منابه، ويكمل عدة الأبدال السبعين. ولا يسكنون مكانًا من أرض الله تعالى إلَّا جبل اللكام، وهو من الشام يتصل بحمص ودمشق، ويسمى هناك لبنان. ثم يمتد من دمشق، فيتصل بجبال أنطاكية والمصيصة، ويسمى هناك اللكام؛ قال أبو الطيب المتنبي:

بها الجبلان من صخرٍ وفخرٍ أنافا ذا المغيث وذا اللكام

فهؤلاء الأبدال، يضافون مرة إلى لبنان، كما قال الشاعر:

وجاور جبال الشام لبنان إنها معادن أبدالٍ إلى منتهى العرج

وتارةً يضافون إلى اللكام، كما قال أبو دلف الخزرجي وهو يصف مجاورته لأصحاب الغايات من الدنيا والدين:

وجاورت الملوك ومن يليهم كما جاورت أبدال اللكام

ويقال: إن تلك البلاد الشامية لم تزل على وجه الدهر متعبدات الأنبياء والأولياء من عباد بني إسرائيل وزهادهم، ومواضع مناجاتهم، ومحال كراماتهم، لا سيما موسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام.

وهي الآن مواطن الأبدال، وفيها عيون عذبة وأشجار كثيرة، تشتمل على كل الثمرات، لا سيما التفاح اللبناني، فإن اللبناني منه موصوف بحسن اللون وطيب الرائحة، ولذاذة الطعم، يحمل منه في القرابات إلى الآفاق، وهؤلاء الأبدال يتقوتون منها ومن السمك، ولا يفترون آناء الليل وأطراف النهار عن ذكر الله وعبادته، ولا عن اسمه والخلوة بمناجاته، إلى أن ينتقلوا إلى جواره، فطوبى لهم وحسن مآب!

ملكا بابل

هما هاروت وماروت اللذان ذكرهما الله تعالى فقال: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾، يضرب بهما المثل في السحر والفتنة؛ كما قال بعض أهل العصر:

وسائلٍ عن دمعي السائل وحال لوني الكاسف الحائل
قلت له والأرض في ناظري أوسع منها كفة الحابل:
بليت والله بمملوكةٍ في مقلتيها ملكا بابل
أو سيف مأمون بن مأمون الـ ـقرم الهمام الملك العادل

جنة عبقر

قال الجاحظ: هو كما تقول العرب: أسد الشرى، وذئاب الغضى، وبقر الجواء، ووحش وجرة، وظباء جاسم؛ فيفرقون بينها وبين ما ليس كذلك؛ إما في الخبث والقوة، وإما في السمن والحسن؛ فكذلك يفرقون بينها وبين ما ليس كذلك؛ إما في الخبث والقوة، وإما في السمن والحسن؛ فكذلك يفرقون أيضًا بين

مواضع الجن، فإذا نسبوا الشكل منها إلى موضع معروف فقد خصوه من الخبث والقوة والعرامة بما ليس لجملتهم؛ قال لبيد:

ومن فاد من إخوانهم وبنيهم كهولًا وشبانًا كجنة عبقر

وقال أيضًا:

غُلْبٍ تَشَذَّرُ بِالذُحولِ كَأَنَّها جِنُّ البَدِيِّ رَواسِيًا أَقدامُها

وقال النابغة:

سهكين من صدأ الحديد كأنهم تحت السنور جنة البقار

وقال حاتم:

عليهن فتيان كجنة عبقرٍ يهزون بالأيدي الوشيج المقوما

وقال زهير:

بخيلٍ عليها جنة عبقرية جديرون يومًا أن ينالوا ويستعلوا

قال: ولذلك قالوا لكل شيءٍ فائقٍ أو شديدٍ عبقري.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾.

وفي الحديث في صفة عمر رضوان الله عليه: «فلم أر عبقريًا يفري فريه».

وقال أعرابي: ظلمني والله ظلمًا عبقريًا.

حجام ساباط

يضرب به المثل في الفراغ، يقال: أفرغ من حجام ساباط؛ كما يضرب المثل في الشغل بذات النحيين، فيقال: أشغل من ذات النحيين.

ومن خبره أنه كان حجامًا ملازمًا لساباط المدائن. فإذا مر به جند، وقد ضرب عليهم البعث حجمهم نسيئةً بدانقٍ واحد إلى وقت قفولهم؛ وكان مع ذلك يمر به الأسبوع والأسبوعان ولا يدنو منه أحد فيخشى التقريع بالبطالة؛ فعندها يخرج أمه فيحجمها، ليرى الناس أنه غير فارغٍ، فما زال ذلك دأبه حتى نزف دم أمه، فماتت فجأةً، وسار فراغ الحجام مثلًا.

وسمعت الخوارزمي يقول: إن هذا الحجام حجم مرةً كسرى أبرويز فأمر له بما أغناه عن الحجامة؛ فكان لا يزال فارغًا مكفيًا، يضرب بفراغه المثل؛ كما قال ابن بسام:

دار أبي جعفر مفروشة ما شئت من بسطٍ وأنماط
وبعد ما بينك من خبزه كبعد بلخٍ من سميساط
مطبخه قفر وطباخه أفرغ من حجام ساباط

وكان ابن الرومي إذا ذكر أبا حفص الوراق في شعره يسميه وراق ساباط كما قال:

دعني وإيا أبا حفصٍ سأتركه حجام ساباط بل وراق ساباط

قاضي منى

يضرب به المثل في احتمال المشقة والتزام المؤونة معًا، وربما يقال: أرخص من قاضي منى.

أنشدني أبو بكر الخوارزمي لغيره:

قلت: زوريني، فقالت: عجبًا أتراني يا فتى قاضي منى!
إذ يصلي وعليه زيهم أنت تهواني وآتيك أنا!

قاضي جبل

يضرب به المثل في الجهل، فيقال: أجهل من قاضي جبل.

وجبل: مدينة من طسوج كسكر، وكان قاضيها أغر محجلًا في التخلف، فرفع إلى المأمون أنه يعض الخصوم، فوقع: يزنق.

وكان هذا القاضي قضى لخصمٍ جاءه وحده، ثم نقض حكمه لما جاءه الخصم الآخر، ففيه يقول محمد بن عبد الملك:

قضى لمخاصمٍ يومًا فلما أتاه خصمه نقض القضاء
دنا منك العدو وغبت عنه فقال بحكمه ما كان شاء

فهذا المثل سائر بالعراق في قاضي جبل، كما أن المثل سائر بالحجاز في قاضي منى.

وقاضٍ ثالث يضرب به المثل فيما وصفه به أبو إسحاق الصابي، حيث قال:

يا رب علجٍ أعلج مثل البعير الأعوج
رأيته مطلعا من خلف باب مرتج
وخلفه دنية تذهب طورًا وتجي
فقلت: قاضي إيذج؟ فقال: قاضي إيذج

وقاضٍ رابع يضرب به المثل أهل جرجان وطبرستان في اضطراب الخلقية، وهو قاضي شلمبة.

أنشدني أبو نصر العميدي، قال: أنشدني أبو الحسين بن الجوهري لنفسه:

رأيت رأسًا كدبه ولحيةً كالمذبه
فقلت: ذا التيس من هو؟ فقال: قاضي شلمبه

سحرة الهند

يضرب بهم المثل، لأن للهند السحر والرقى والتدخين والحساب والشطرنج وخرط التماثيل؛ كما أن للعرب البيان والشعر والفروسية والقيافة والعيافة؛ وللروم الطب والتنجيم والقرسطون واللحون والتصاوير والبناء؛ وللفرس السياسة والعمارة واستعمال علوم الأمم.

شيخ العراق

كان يقال ذلك بالإطلاق للمهلب بن أبي صفرة. ولما وفد عليه زياد الأعجم وهو يقاتل الأزارقة بتوج، أكرمه وأنزله على حبيبٍ ابنه، وقال له: أحسن قراه. فجلسا يومًا يشربان في بستان، فغنت حمامة على فننٍ، فطرب لها زياد، فقال حبيب: إنها فاقدة إلفٍ كنت أراه معها، فقال زياد: هو أشد لشوقها؛ وأنشأ يقول:

تغني أنت في ذممي وعهدي … وذمة والدي ألا تضاري
فإنك كلما غردت صوتًا … ذكرت أحبتي وذكرت داري
فإما يقتلوك طلبت ثأرًا … لأنك يا حمامة في جواري

فضحك حبيب، ودعا بقوس بندقٍ ورماها ببندقيةٍ، فسقطت ميتة. فنهض زياد مغضبًا، وقال: أخفرت أبا بسطام ذمتي، فقتلت جارتي! وسار إلى المهلب وشكاه إليه، فغضب له وقال لحبيبٍ: أما علمت أن جار أبي أمامة جاري، وأن ذمته ذمتي! والله لألزمنك دية الحر والعبد؛ فأخذ من ماله ألف دينار ودفعها إلى زياد، فقال من قصيدةٍ له:

فلله عينا من رأى كقضيةٍ … قضى لي بها شيخ العراق المهلب
قضى ألف دينارٍ لجارٍ أجرته … من الطير إذا يبكي شجاه ويندب

فرفع خبره إلى الحجاج فاستحسنه، وقال: لشيءٍ ما سودت العرب المهلب!

ظريف العراق

هو شراعة بن الزندبوذ، يضرب به المثل في الظرف.

ولما بلغ الوليد بن يزيد خبره أمر بإحضاره إليه، فرأى به من يزيد خبره على خبره؛ وكان مما دار بينهما أن قال له الوليد: ما تقول في الشراب؟ قال: عن أية تسألني يا أمير المؤمنين؟ قال: ما تقول في الماء؟ قال: هو قوام البدن، ويشاركني فيه الحمار؛ قال: ما تقول في اللبن؟ قال: ما نظرت إليه إلَّا استحييت من أمي لطول إرضاعها إياه لي؛ قال: ما تقول في الخمر؟ قال: آهٍ، صديقة روحي! قال: فأنت أيضًا صديقي، فاقعد وانبسط، ثم سأله عن أصلح الأمكنة للشرب، فقال: عجبت ممن لم تحرقه الشمس ولم يغرقه المطر، كيف لا يشرب إلَّا مصحرًا! فوالله ما شرب الناس على وجه أحسن من وجه السماء، وصفو الهواء، وخضرة الكلأ، وسعة الفضاء، وقمر الشتاء.

صوفية الدينور

يضرب بهم المثل لكثرتهم بها، واستيطان أعيانهم إياها، ونفاق مذهبهم فيها: كما يقال: حكماء يونان، وصاغة حران، وحاكة اليمن، وكتاب السواد، وفعلة سجستان، ولصوص طوس، وجرابزة مرو، وملاحو بخارى وصناع الصين، ورماة الترك، وقحاب الهند.

لصوص الري

دخل أبو عباد ثابت بن يحيى إلى المأمون، وهو يختال في مشيته، فقال المأمون:

زهو خراسان وتيه النبط ونخوة الخوز وغدر الشرط
اجتمعت فيك ومن بعد ذا أنك رازي كثير الغلط

قال الصولي: أراد بقوله: أنك رازي كثير الغلط أنه يرتفق، فنسبه إلى اللصوصية، لأن اللص الحاذق ينسب إلى الري.

ومثل بيتي المأمون ما أنشده الأصمعي:

إذا ما بدا عمرو بدت منه صورة تدل على مكنونه حين يقبل
بياض خرسان، ولكنه فارس وجثة رومي، وشعر مفلفل

الباب السابع عشر

فيما يضاف وينسب إلى أهل الصناعات

سرى القين، راية بيطار، راحة صباغ، حمار القصار، كلب القصاب، بيت الإسكاف، حرص النباش، تيه المغني، جنون المعلم، رغفان المعلم، كذب الدلال، كذب الصناع، قسوة الفدادين.

الاستشهاد

سُرى القَيْن

يضرب مثلًا لمن يظهر الشخوص وهو مقيم، ويعرف بالكذب فلا يصدق وإن صدق.

وأصله أن القين — وهو الحداد بالبادية — ينتقل في مياه القوم، فإذا كسد عليه عمله قال لأهل الماء: إني راحل عنكم الليلة — وإن لم يرد ذاك، ولكنه يشيعه ليستعمله من يريد استعماله — ولما كثر ذلك من قوله قالوا: إذا سمعت بسرى القين، فاعلم أنه مصبح.

وللبديع الهمذاني من رقعةٍ: شر الحمام الداجن، ومقيم الماء ياجن، وإنك لتؤذن بالبين عن سرى القين؛ ويلك ما هذه الرعونة، والأخلاق الملعونة!

راية البيطار

يضرب مثلًا في الشهرة، فيقال: أشهر من راية البيطار.

قال الشاعر وهو يصف رجلًا بطول اللحية:

فقد صار بها أشهـ ـر من راية بيطار

راحة صباغ

يضرب مثلًا لما يستقبح، ويشبه بها ما ليس يستنظف.

وأنشد الجاحظ لأبي المنهمر مولى بني تميم:

وصفت بجهدي وجه حفصٍ وخلقه فما قلت فيه واحدًا من ثمانيه
لهازم مجنونٍ وخلقة كافرٍ وتقطيع كشخانٍ ورأس ابن زانيه
ولحية قوادٍ وعين مخنثٍ وجبهة مأبونٍ يناك علانيه
وراحة صباغ وصدرة حائكٍ ومرفق سقط رد في الرحم ثانيه

حمار القصَّار

يُضْرب به المثل فِيمَن يصير إِلَى الْخَوْف وَسُوء الْقرى، فَيُقَال: كَانَ يَوْمُ فلَان كحمار القصار: إِن جَاع شرب، وَإِن عَطش شرب.

كلب القصَّاب

يضرب مثلًا للفقير يجاور الغني، فيرى من نعيم جاره وبؤس نفسه، ما تتنغص معه معيشته.

والعامة تقول: كلاب القصابين أسرع عمًى من غيرها بعشرين سنةً؛ لأنها لا تزال ترى من اللحوم ما لا تصل إليه؛ فكأن رؤية ما تشتهيه وتمنع منه يورثها العمى.

بيت الإسكاف

يضرب به المثل، فيقال: بيت الإسكاف فيه من كل جلدٍ رقعة، ومن كل أدمٍ قطعة؛ كما يقال: هم كبيت الأدم، إذا كانوا مختلفين، وفيهم الشريف والوضيع؛ قال الشاعر:

الناس أصناف وشتى في الشيم وكلهم يجمعهم بيت الأدم

قال بعضهم: يعني أديم الأرض الذي يجمعهم على اختلافهم.

حرص النباش

ذم رجل رجلًا فقال: له كياد مخنثٍ، ووقاحة نائحةٍ، وشره قوادٍ، وملق دايةٍ، وبخل كلبٍ، وحرص نباشٍ.

تيه المغني

يضرب به المثل؛ كما قال أبو نواس:

تيه مغن وظرف زنديق

وكما قال الآخر:

جمعت الذي لو كان يؤلم من أذًى فيشكى لهانت عنده أم ملدم
غباوة أصحاب الحديث ونوكهم وتيه المغني في جنون المعلم

جنون المعلم

قد جرى المثل بجنون المعلمين لفساد أدمغتهم؛ كما قال الشاعر:

معلم صبيانٍ يروح ويغتدي على أنفه ألوان ريح فسائهم
وقد أفسدوا منه الدماغ بفسوهم ورفعهم أصواتهم في هجائهم

وأبغ ما قيل في ذمهم ما أنشده الجاحظ لصقلاب المعلم:

وكيف يرجى العقل والحزم عند من يروح إلى أنثى ويغدو إلى طفل

وأنشد لغيره في معناه:

متى يأت المعلم يوم خيرٍ ولم يعرف سوى أنثى وطفل!

وأنشد:

فإن كنت قد بايعت مروان طائعًا فصرت إذن بعد المشيب معلما
وفارقت قومي مؤثرًا لعدوهم وأصبحت فيهم ذاهل العقل مفحما

وفي كتاب جراب الدولة: أن معلمًا مر في النظارة إلى حربٍ، فأصاب رأسه سهم، فقال أصحابه: ينبغي أن ينزعه أرفقنا به لئلا يفسد دماغه، فقال المعلم: انزعوه كيف شئتم، فلو كان لي دماغ ما أتيت الحرب.

رغفان المعلم

يضرب بها المثل في الاختلاف وشدة التفاوت؛ لأن رغفان المعلم تختلف بحسب اختلاف آباء الصبيان في الغنى والفقر والجود والبخل، كما قال من هجا الحجاج وذكر أنه كان معلمًا:

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيفًا له فلكة ما ترى وآخر كالقمر الأزهر

وأنشد الجاحظ للرقاشي في ذكر معلمٍ:

مختلف الخبز خفيف الرغيف منتثر الزاد لئيم الوصيف

وأنشد لأبي الشمقمق:

خبز المعلم والبقال متفق واللون مختلف والطعم والصور

وقال ابن الميساني الشعوبي في معناه:

أما رأيت بني زيدٍ قد اختلفوا كأنهم خبز بقالٍ وكتاب
هذا كريم وهذا حنبل جحد يمشون خلف عميرٍ صاحب الباب

وذكر بعض البلغاء قومًا مختلفين: قزع الخريف، وإبل الصدقة ورغفان المعلم.

كذب الدلال

يقال: إن أمر الدلال لا يتمشى بغير الكذب، فهو يثابر عليه.

ويقال: لكل واحدٍ رأس مالٍ، ورأس مال الدلال الكذب.

ويروى أنه أول من دل: إبليس حيث قال: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

كذب الصناع

قال ابن سمكة في كتابه: من أمثالهم: أكذب من صنعٍ؛ وهو الصانع العامل بيده.

وفي الحديث: «ويل لعامل يدٍ من غدٍ، وبعد غدٍ».

وفيه أيضًا: «أكذب أمتي الصواغون والصباغون».

قسوة الفدادين

هم الأكرة الذين يرفعون أصواتهم في سياقة البقر والحمير.

والفديد: الصوت الشديد.

وفي الخبر: إن الجفاء والقسوة في الفدادين.

وجهل هؤلاء متعارف مشهور.

الباب الثامن عشر

في الآباء والأمهات الذين لم يلدوا والبنين والبنات الذين لم يولدوا

وهو في أربعة فصول

الفصل الأول: في الآباء

أبو الضيفان، أبو مرة، أبو يحيى، أبو الذبان، أبو دثار، أبو سريع، أبو براقش، أبو قلمون، أبو رياح، أبو عمرة، أبو مالك، أبو عذرة، أبو مثوى، أبو العجب، أبو البيضاء، أبو طريف، أبو قبيس، أبو ضوطرى، أبو ليلى، أبو أيوب، أبو الأخطل، أبو زياد، أبو جعدة، أبو خالد.

الاستشهاد

أبو الضيفان

هو إبراهيم عليه السلام.

لأنه أول من قرى الضيف، وسن لأبنائه العرب القرى، وكان إذا أراد الأكل بعث أصحابه ميلًا في ميلٍ يطلبون ضيفًا يؤاكله. وقد تقدم ذكر «ضيفه المكرمين».

أبو مرة

هو إبليس.

وإنما كني بهذه الكنية، لأن الشيخ النجدي الذي ظهر إبليس في صورته فأشار على قريش بأن يكونوا سيفًا واحدًا على النبي صلى الله عليه وسلم، كان يكنى أبا مرة.

أنشدني الخوارزمي لنفسه من أبيات:

ويا من صبر يومٍ عنـ ـه في حكم الهوى كفره
ويا من طرفه جيش كثيف لأبي مره

ولابن الحجاج:

فما تلاقينا سوى مرةٍ حتى أتى الشيخ أبو مره

وللصاحب من رسالة مداعبةٍ:

> وأرجو أن يساعدنا الشيخ أبو مرة، كما ساعد مرةً، فنصلي للقبلة التي صلى إليها، ونخطب على الدرجة التي خطب عليها.

أبو يحيى

يقال لقابض الأرواح: أبو يحيى، كما يقال للحبشي: أبو البيضاء، وللأعمى: أبو البصير.

أنشدني أبو بكر الخوارزمي لنفسه من قصيدةٍ:

سريعة موت العاشقين كأنما يغار عليها من هواهم أبو يحيى

وله من قصيدة مرثية:

أعوذه من نفحة الريح خيفةً عليه، ورجل الموت تطلبه عجلى
وأدعو له بالعمر في كل مشهدٍ ويضحك مني في الكمين أبو يحيى

أبو الذبان

كني ذلك عبد الملك بن مروان لشدة بخره وموت الذبان إذا دنت من فمه.

ويحكى أنه عض يومًا تفاحةً ورمى بها إلى بعض نسائه، فدعت بسكينٍ فقطعت موضع عضته، فقال لها: ما تصنعين؟ قالت: أميط عنها الأذى، فطلقها من وقته.

أبو دثار

يقال للكلة التي يتوقى بها من البعوض، وهي على صورة بيتٍ يخاط من ثوبٍ رقيقٍ يستشف ما وراءه، ولا يجد البعوض متخللًا فيه: أبو دثار.

قال الشاعر، وهو من ظريف القريض:

لنعم البيت بيت أبي دثارٍ إذا ما خاف بعض القوم بعضًا

البعض: عض البعوض؛ يقال: بعضته البعوض تبعضه بعضًا، إذا عضته.

أبو سريع

هو النار في العرفج.

وأنشد:

لا تعدلن بأبي سريع إذا غدت نكباء بالصقيع

ونار العرفج أسرع النيران التهامًا، وهي نار الزحفتين؛ وسيمر ذكرها في باب النيران إن شاء الله تعالى.

أبو براقش

طائر منقط بألوان النقوش يتلون في اليوم ألوانًا ويضرب به المثل للمتلون قال الشاعر:

إن يغدروا أو يجبنوا أو يبخلوا لا يحفلوا

يغدوا عليك مرجليـ ـن كأنهم لم يفعلوا
كأبي براقش كل يو مٍ لونه يتحول

ويروى: يتخيل، أي: يصير كالأخيل.

قال الخليل: هو طائر من طير البر يشبه القنفذ، أعلى ريشه أغبر، وأوسطه أسود وأحمر، فإذا أهيج انتفش وتغير لونه.

أبو قلمون

هو في الثياب كأبي براقش في الطير، فإن أبا قلمون يتلون وأبا براقش يتخيل.

وأبو قلمون: كنية لثياب إبريسمٍ وكتانٍ تنسج بالروم ومصر، يضرب به المثل؛ فيقال: أكثر تنقلًا من أبي قلمون، كما قال الشاعر:

أنا أبو قلمون في كل لونٍ أكون

وقال أبو بكر الخوارزمي في أبي طاهر الكرماني الكاتب:

والله لا فارقت كفي قفاه ولم ينسج أبو قلمونٍ في نواحيه

أبو رياح

تمثال فارسٍ من نحاسٍ بمدينة حمص على عمود حديدٍ فوق قبةٍ كبيرةٍ بباب الجامع.

يدور مع الريح حيث هبت، ويمينه ممدودة وأصابعها مضمومة إلَّا السبابة؛ فإذا أشكل على أهل حمص مهب الريح عرفوا ذلك به، فإنه يدور بأضعف نسيمٍ يصيبه، ولذلك كني بأبي رياح.

وقد يقال للرجل الطائش الذي لا ثبات له: أبو رياح، تشبيهًا به، وينشد:

أف لقاضٍ لنا وقاح أمسى برئيًا من الصلاح
كأن دنيةً عليه غراب نوحٍ بلا جناح

وليس في الرأس منه شيء يدور إلَّا أبو رياح

ويحكى أن أبا عبادة دخل على المتوكل، وبين يديه جام من ذهبٍ فيه ألف دينارٍ، فقال: يا أبا عبادة، أسألك عن شيءٍ، فإن أجبتني على البديهة من غير أن تفكر أو تتعتع فيه فلك الجام بما يحويه، قال: سل يا أمير المؤمنين، قال: أي شيءٍ له اسم وليس له كنية؟ وأي شيءٍ له كنية وليس له اسم؟ قال: المنارة، وأبو رياح؛ ولم يفكر في الجواب؛ فعجب المتوكل من سرعة خاطره، وأعطاه الجام بما فيه.

أبو عمرة

كنية الإفلاس وكنية الجوع.

قال أبو فرعون الساسي:

إن أبا عمرة حل حجرتي وحل نسج العنكبوت برمتي

وقال آخر:

يابن المحامين عن الأحساب إن أبا عمرة في جرابي
قد ألزق است بابه ببابي

فقلبه كعادة الشعراء؛ وكان حقه أن يقول:

قد ألزق باب استه ببابي

وأنشد أبو عمرو لبعضهم:

إن أبا عمرة شر جار يجرني في ظلم الصحاري
جر الذئاب جيفة الحمار

أبو مالك

كنية الجوع، وكنية الكبر.

قال الشاعر في كنية الجوع:

أبو مالكٍ يعتادنا في الظهائر يلم فيلقي رحله عند جابر

والعرب تسمي الخبز جابرًا وعاصمًا وعامرًا.

وأنشد أبو عبيدة لبعض الأعراب في كنية الكبر:

أبا مالكٍ إن الغواني هجرنني أبا مالكٍ إني أظنك دائبًا

أي: غير زائل.

وإنما كني بهذه الكنية، لأنه يملك الرجل فيلزمه ولا يفارقه.

وأنشد أبو عبيدة أيضًا:

بئس قرينا يفنٍ هالك أم عبيدٍ وأبو مالك

وأم عبيدٍ، كنية المفازة.

أبو عذرة

يقال: فلان أبو عذرة هذا الكلام؛ أي: هو الذي اخترعه ولم يسبقه إليه أحد.

وهو مستعار من قولهم: هو أبو عذرتها؛ أي: هو الذي افتضها؛ ويقال: إن المرأة لا تنسى أبا عذرتها.

أبو مثوى

أبو مثواه؛ أي: صاحب رحله الذي نزل به وضافه، يقال: من أبو مثواك؟ أي: على من نزلت؟ والمثوى: المنزل.

أبو العجب

كنية المشعبذ.

وقد قيل: المشعوذ من الشعوذة؛ وهي السرعة والخفة؛ ولا أصل لها في العربية؛ وهي مخاريق، خفة في اليد، وتصوير للباطل في صورة الحق، وقال أبو تمام:

ما الدهر في فعله إلَّا أبو العجب

وقال ابن الرومي في البحتري:

البحتري ذنوب الوجه نعلمه — وما رأينا ذنوبًا قط ذا أدب
أولى بمن عظمت في الناس لحيته — من حاكة الشعر أن يدعى أبا العجب

أبو البيضاء

كنية الحبشي، كما يكنى المكفوف: أبو البصير، وينشد:

أبو غالبٍ ضد اسمه واكتنائه — كما قد نرى الزنجي يدعى بعنبر
ويكنى أبا البيضاء واللون أسود — ولكنهم جاؤوا بها للتطير

أبو طريف

كنية الفرج.

وأنشد لابن أحمر:

قالت: فأهد لنا إزارًا معلمًا — فأبو طريفٍ ما عليه إزار

ويكنى أيضًا بأبي المجنبذ، وأبي الزردان؛ كما يكنى الذكر بأبي جميحٍ؛ وأبي رميحٍ، وأبي عوفٍ.

أبو قبيس

جبل بمكة شرفها الله تعالى، قال أبو الفتح البستي:

عصى السلطان فابتدرت إليه جنود يقلعون أبا قبيس

أبو ضوطرى

إذا سبت العرب إنسانًا قالت له: أبو ضوطرى، وأبو حباحب وأبو جخادب، وأنشد:

أبا ضوطرى جدعًا بأنفك كلما تشبهت بالسادات والكبراء

أبو ليلى

كنية لمن يحمق، وكذلك أبو أدراص، كأنهم قالوا: أبو فأر، كما قالوا في الكنية الأولى: أبو امرأة، وهما عن العرب.

أبو أيوب

كنية الجمل، وكذلك أبو صفوان.

قال ابن الرومي، وهو يهجو أبا أيوب سليمان بن عبد الله بن طاهر:

يا أبا أيوب هذه كنية من كنى الأنعام قدمًا لم تزل
ولقد وفق من كناكها وأصاب الحق فيها وعدل
قد قضى قول لبيدٍ بيننا: إنما يجزي الفتى ليس الجمل

أبو الأخطل

كنية البغل، وكذلك أبو قموص.

وقدمت بغلة إلى أعرابيةٍ لتركبها فقالت:

لعله شحذوذ أو حبوص أو هو كما يكنى به قموص

والشحذوذ: السيئ الخلق، والحبوص: الشديد العدو.

أبو زياد

كنية الحمار، وكذلك أبو نافع.

قال الشاعر وهو يهجو زياد بن أبي زياد:

زياد لست أدري من أبوه ولكن الحمار أبو زياد

وأبو زيادٍ: كنية الذكر أيضًا، قال الشاعر:

تحاول أن تقيم أبا زيادٍ ودون قيامه شيب الغراب

أبو جعدة

كنية الذئب، قال عبيد بن الأبرص:

هي الخمر لا شك تكنى الطلا كما الذئب يكنى أبا جعده

يضرب مثلًا لمن يبر باللسان وهو يريد لصاحبه الغوائل.

ومعنى البيت أن الذئب وإن كان له كنية حسنة، فإن فعله قبيح.

وفي الحديث: إن عبد الله بن الزبير سئل عن المتعة؟ فقال: الذئب يكنى أبا جعدة؛ يريد أن أبا جعدة كنية حسنة للذئب، وهو خبيث؛ كذلك المتعة تحسن باسم التزويج وهي فاسدة.

وقال ابن شبرمة:

يا خليلي إنما الخمر ذئب وأبو جعدة الطلاء المريب
ونبيذ الزبيب ما اشتد منه فهو للخمر والطلاء نسيب

أبو خالد

كنية الكلب، قال ابن الرومي:

أخالد لا تكذب فلست بخالدٍ هنالك بل أنت المكنى بخالد
وللكلب خير منك، لؤمك شاهد عليك، وما دهري بإبعاد شاهد!

وهذه قطعة مما اخترته من هذه الكنى بعد أن ألغيت منها الكثير، بعضها عن العرب، وبعضها عن المولدين والصوفية:

- **الفَرَس:** أبو المضاء، وكذلك أبو طالب.
- **الفيل:** أبو الحجاج، وبه يكنى في بلاد الهند، وكانت كنية الفيل الذي جاءت به الحبشة إلى مكة أبا العباس، واسمه محمود.
- **الأسد:** أبو الحارث.
- **الثعلب:** أبو الحصين.
- **القرد:** أبو زنة وأبو قيس.
- **الفهد:** أبو الوثاب.
- **الأرنب:** أبو نبهان.
- **السنور:** أبو خداش.
- **الديك:** أبو يقظان.
- **الماء:** أبو غياث.
- **السفرة:** أبو رجاء.
- **الخوان:** أبو جامع، وأبو الخير.
- **الرقاق:** أبو حبيب.

- **الثريد:** أبو رزين.
- **البقل:** أبو جميل.
- **الخل:** أبو نافع.
- **الجواذب:** أبو الفرج.
- **الجبن:** أبو مسافر.
- **اللحم:** أبو الخصيب.
- **الخبيص:** أبو الطيب.
- **التمر:** أبو عون.
- **الحلوى:** أبو ناجع.
- **الفالوذج:** أبو سائغ.
- **السكباج:** أبو عاصم.
- **اللبن:** أبو الأبيض.
- **الشراب:** أبو المهنأ.
- **النقل:** أبو بشر.
- **البربط:** أبو الشهي.
- **المزمار:** أبو الصخب.
- **الطنبور:** أبو اللهو.
- **الغناء:** أبو شائق.
- **النوم:** أبو راحة.

- **الشبع:** أبو الأمن.
- **النكاح:** أبو الحركة.
- **الحمام:** أبو النظيف.

الفصل الثاني: في الأمهات

أم الكتاب، أم القرى، أم القرى، أم النجوم، أم المؤمنين، أم الحروف، أم دفر، أم الرأس، أم الطعام، أم سويد، أم عامر، أم حبين، أم عوف، أم طلحة، أم ملدم، أم المنايا، أم قشعم، أم طبق، أم الخل، أم الصبيان، أم عبيد، أم غيلان، أم الجود، أم الصدق.

الاستشهاد

أم الكتاب

جاء في بعض الأحاديث أن أم الكتاب هي فاتحة الكتاب، لأنها هي المقدمة أمام كل سورةٍ تقرأ في الصلاة، وهي أول القرآن.

ولقد ألغز الشاعر فيها، فقال:

وأم لم تلد ولدًا وليست بأم الرأس يعرفها اللبيب

وأما قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، فهو ما في اللوح المحفوظ؛ والله أعلم.

أم القرى

أما في جزيرة العرب فهي مكة، وأم كل أرضٍ، أعظم بلدانها وأكثرها كالبصرة، فإنها تسمى أم العراق.

ومرو فإنها كانت تسمى أم خراسان.

ويقال: قرية من أمهات القرى؛ إذا كانت كبيرة كثيرة الأهل.

وأم كل شيءٍ أصله، ومنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: أمي، لأنه نسب إلى أم القرى، وهي مكة، ويقال: بل نسب إلى أم العرب، أي: أصلهم، وكانوا لا يقرؤون ولا يكتبون، فقيل لكل من لا يقرأ ولا يكتب: أمي.

أم القرى

هي النار لأن من أوصافها ما قال صاحب ذات الحلل:

لا بد منها في الشتا والصيف   لا سيما عند نزول الضيف

وأنشدني أبو طالب المأموني في وصف النار:

أم القرى عندك أم يوح   فقد سرى بنورها اللوح
أم ذات قرطٍ ذهبي بدا   ينيرها في الجو تلويح
فإنني إخالها في دنها   جسم لها وهي له روح
كأنها الشمس وما نفضت   من شررٍ عنها المصابيح

أم النجوم

هي المجرة، ويقال: بل هي السماء.

قال تأبط شرًا:

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي   بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

أم المؤمنين

هي عائشة رضي الله عنها، وكل واحدةٍ من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أم المؤمنين، لقول الله عز اسمه: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.

ويروى أن أم أوفى العبدية دخلت على عائشة رضي الله تعالى عنها، فقالت لها: يا أم المؤمنين، ما تقولين في امرأة قتلت ابنًا لها صغيرًا؟ فقالت: قد استحقت النار؛ قالت: إنه أصغر مما تظنين؛ قالت: قد استوجبت

النار، قالت: فما تقولين في امرأةٍ قتلت من أبنائها الكبار ألوفًا (تعرِّض بيوم الجمل)؟ فقالت: خذوا بيد عدوة الله.

أم الحروف

سمى النحويون حروف المد واللين أم الحروف؛ وأمهات الأفعال عندهم: فعل، وجعل، وأنشأ، وأقبل، والله أعلم.

أم دفر

كنية الدنيا.

قال ابن الرومي في أبي الصقر:

لم تظلم الدنيا بأم دفر وأنت فيها من ولاة الأمر

وأم خنور أيضًا كنية الدنيا، وهي من كنى الضبع، فكأن الدنيا شبهت بها لفسادها؛ أهل الكوفة يقولونها على وزن قيوم وسفود؛ وأهل البصرة يقولونها على وزن عجول؛ قال المبرد: وكلاهما فصيحان.

ولما قال عبد الملك بن مروان: وقد تمكنا من أم خنورٍ يعني الدنيا ونعمتها وغضارتها؛ لم يعش بعد قوله هذا إلَّا أسبوعًا.

أم الرأس

هي أعلى الهامة وموضع الدماغ من الرأس وما أحاط به.

قال أبو الطيب المتنبي يصف القلم:

نحيف الشوى يعدو على أم رأسه ويحفى فيقوى عدوه حين يقطع

أم الطعام

هي الحنطة، لأن لها فضلًا على سائر الحبوب.

ومن أبيات كتاب الحماسة:

ربيته وهو مثل الفرخ أطعمه   أم الطعام ترى في جلده زغبا

أي: أطعمه أفضل الأطعمة.

ويروى: أعظمه أم الطعام، يقول أعظم شيءٍ في جسده بطنه، وأم الطعام: البطن أيضًا.

أم سويد

كنية الاست؛ وكذلك أم سكين، وأم تسعين. وسئل ابن الأعرابي عن هذا البيت:

أبى علماء الناس لا يخبرونني   بناطقةٍ خرساء مسواكها حجر

فقال: هي ما علمت أم سويد، يعني الاست.

أم عامر

هي الضبع.

يقال لها: خامري أم عامر، قال الشاعر:

ومن يصنع المعروف في غير أهله   يلاق الذي لاقى مجير أم عامر

فقال آخر:

يا أم عمرٍو أبشري بالبشرى   موت ذريع وجراد عظلى

أراد أن يقول: يا أم عامر فلم يستقم له.

أم حبين

هي دويبة على قدر كف الإنسان، تأكل الأعراب ما دب ودرج سواها؛ ولذلك قال فيها من قال: لتهنئ أم حبين العافية.

أم عوف

هي الجرادة.

وكانت في لسان زياد الأعجم لكنة لا يقيم معها الراء، فألقى عليه بعض الشعراء هذا البيت:

فما صفراء تكنى أم عوفٍ كأن حبالتيها منجلان

فأجابه على البديهة:

عنيت جرادةً وأظن ظنًا بأنك إنما تبلو لساني

أم طلحة

هي القملة.

وزعموا أن أعرابيًا كان يأكل مع بعض الأمراء، فدبت قملة على عنقه، فأخذها بعقد ثلاثين وقصعها بعقد سبعين، فقيل له: ما فعلت؟ قال له: لم يبق من أم طلحة إلَّا خرشاؤها؛ يعني جلدها المنسلخ.

أم ملدم

هي الحمى؛ وفي رقيتها: إلى أم ملدم، التي تأكل اللحم وتشرب الدم.

قال أصحاب الاشتقاق: هي مأخوذة من اللدم وهو ضرب الوجه حتى يحمر.

وقال بعضهم: ملذم، بالذال معجمةً، من قولهم: لذم به، إذا لزمه.

أم المنايا

كناية عن معظم المنية؛ قال الشاعر:

لأم المنايا علينا طريق وللدهر فينا اتساع وضيق

وجعل بعضهم الدواة أم العطايا والمنايا، فقال:

قد بعثنا إليك أم العطايا والمنايا زنيجة الأحساب
في حشاها من غير حربٍ حراب هن أمضى من مرهفات الحراب
لا كفاء لها ولا لك والله كفاء في سادة الكتاب

وقال بعضهم في الدواة:

قد فتحت فاها وقالت لنا من مسه الفقر فإني دواه

وأم كل شيءٍ: معظمه، قال ابن غنمة:

لأم الأرض ويل ما أجنت بحيث أضر بالحسن السبيل

أم قشعم

هي المنية، والحرب، والداهية الكبيرة.

والحرب أراد زهير في قوله:

لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم

ويقال للحرب أيضًا: أم قسطل.

أم طبق

هي الداهية الكبيرة.

قال الأصمعي: أول من نعى المنصور بالبصرة خلف الأحمر؛ وكنا في حلقة يونس، فجاء خلف الأحمر؛ فسلم ولم يكن الخبر فشا، ثم قال:

قد طرقت ببكرها أم طبق

فقال يونس: وما ذاك يا أبا محرز؟ فقال:

فنتجوها خبرًا ضخم العنق

فقال: لم أدر بعد، فقال:

موت الإمام فلقة من الفلق

فارتفعت الضجة بالبكاء والاسترجاع.

ومن كنى الدواهي: أم حبوكر.

ومن كناها: أم الربيق؛ تقول العرب: جاءت أم الربيق على أريق؛ قال الأصمعي: تزعم العرب أنه من قول رجلٍ رأى الغول على جمل أورق.

ومن كنى الدواهي: أم خنشفير.

وأم أدراصٍ؛ يقال: وقعوا في أم أدراص، أي: في موضع استحكام أم البلايا لأن أم أدراص جحرة للفأر لا يتخلص منها من ارتطم فيها إلَّا بعد جهدٍ.

فأما أم الدهيم، وأم اللهيم، فكنيتان من كنى المنية.

أم الخل

هي الخمر، لأن الخل منها يستحيل، وأول من كنى الخمر أم الخل: مرداس بن خذام، حيث قال:

رميت بأم الخل حبة قلبه   فلم يستفق منها ثلاث ليال

أم الصبيان

هي ريح تعتري الصبيان، وشيء يفزع به الصبيان؛ قال ابن الرومي:

شيخ إذا علم الصبيان أفزعهم كأنه أم صبيانٍ وغيلان

أم عبيد

هي المفازة.

أنشد أبو عبيدة:

بئس قرينا يفنٍ هالك أم عبيدٍ وأبو مالك

أم غيلان

شجرة كثيرة الشوك بالبادية.

قال من تأذى بها وخرقت ثيابه:

يا أم غيلان لقيت شرًا لقد فجعت مقترًا مغبرا
يبر بيت الله فيمن برا لاقيت نجارًا يجر جرا
بالفأس لا يبقي على ما اخضرا

أم الجود

أحسن كل الإحسان ابن الرومي حيث قال:

العرف غيث وهو منك مؤمل والبشر برق وهو منك مشيم
ألقحت أم الجود بعد حيالها ونتجت بنت المجد وهي عقيم

أم الصدق

أنشدت للصاحب:

يا أبا القاسم قل لي لم لماذا لا تزور
كنت قد قدمت وعدًا فإذن وعدك زور
ونحرت الود بالهجـ ـر كما تذكى الجزور
إن أم الصدق في الودْ دِ لمقلاة نزور

صدر من هذه الكنى:

- **أم شملة:** كنية الشمس؛ لأنها تشمل الخلق بطلوعها
- **أم جابر:** كنية السنبلة.
- **أم الندامة:** كنية العجلة.
- **أم الفضائل:** كنية العلم.
- **أم الرذائل:** كنية الجهل.

الفصل الثالث: في البنين

ابن الماء، ابن الليالي، ابن ذكاء، ابن الغمام، ابن جلا، ابن خلاوة، ابن حبة، ابن النعامة، ابن آوى، ابن دأية، ابن الأرض، ابن طاب، ابن السبيل، ابن الخصي، ابن طامر، ابن بجدتها، ابن الحرب، ابن ضل، ابن الغمد، ابن الدهر، ابنا عيان، ابنا شمام، ابنا سمير، بنو الأيام، بنو الدنيا، بنو غبراء، أبناء الدهاليز، أبناء درزة.

الاستشهاد

ابن الماء

كل طائرٍ يألف الماء فهو ابن الماء، قال ذو الرمة:

وردت اعتسافًا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماءٍ محلق

وقال آخر:

وينذرني بسطوته وأنى ... يخاف برودة الماء ابن ماء!

وقال أبو عيينة المهلبي:

يا عقاب الدجن في الأمـ ... ـن وفي الخوف ابن ماء

ابن الليالي

هو القمر؛ قال نصيب:

بدأن بنا وابن الليالي كأنه ... حسام جلت عنه القيون صقيل
فما زلت أفني كل يومٍ شبابه ... إلى أن أتتك العيس وهو ضئيل

وابن الليلة هو الهلال؛ قال الشاعر:

كأن ابن ليلتها جانحًا ... فسيط لدى الأفق من خنصر

ويروى: كأن ابن مزنتها، معناه: حين انقشعت عنه السحابة بدا كقلامة الظفر.

ومنه أخذ ابن المعتز قوله:

ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحنا ... مثل القلامة قد قدت من الظفر

وقال بعض العصريين:

وأرى الهلال ابن الثلاث مطرزًا ... ثوب الدجى والجوفي زرق العصب
فكأنما فرس الأمير المرتجى ... ألقى بروض بنفسجٍ نعل الذهب

والعرب تقول لصاحب الغارات: ابن الليل، ولذلك قالت أم تأبط شرًا، وهي تندبه:

وا ابناه، وابن الليل ليس بزميل!

ويروى لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه:

ماذا يريني الليل من أهواله   أنا ابن عم الليل وابن خاله

إذا دجا دخلت في سرباله

ابن ذكاء

هو الصبح، وأبوه ذكاء: هو الشمس.

قال الراجز:

فوردت قبل انبلاج الفجر   وابن ذكاء كامن في كفر

ابن الغمام

هو البرد.

وقد أحسن ابن الرومي في قوله:

يدوي الرجال ويشفيهم بمبتسمٍ   كابن الغمام وريقٍ كابنة العنب

ابن جلا

هو الذي أمره منجلٍ منكشف.

قال الشاعر:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

ومعناه: أنا المشهور، وينوَّن أيضًا فيقال: ابن جلا؛ قال الخارزنجي: أي: أنا المعروف، افتح عينيك حتى تبصرني.

ابن خلاوة

ابن خلاوة في كلام العرب: هو البريء، يقال: أنا من هذا الأمر فالج ابن خلاوة؛ أي: أنا منه ذو فلج وتخل.

ابن حبة

هو الخبز، يقال له: جابر بن حبة.

قال بعض العصريين في سنة قحطٍ:

لما رأيت زمانًا يفتر عن كل صعبه
والقحط في أكله النا س بالذئاب تشبه
والحب قد عز حتى أنسى المحب الأحبة
في حبة القلب مني زرعت حب ابن حبة

ابن النعامة

هو المحجة، وبنيات الطريق، وصدر القدم، وعرق تحت الأخمص، وعظم الساق؛ وكل ذلك عن الأئمة.

وينشد لعنترة العبسي وهو يخاطب امرأته:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي
فيكون مركبك القعود ورحله وابن النعامة عند ذلك مركبي

يقول: إذا أسرت أركبت قعودًا لموقعك من قلوب الرجال، وإذا أنا أسرت ركبت قدمي.

ابن آوى

يتمثل به من وجهين: أحدهما ما قاله أبو نواس في أن آوى، يسمع به ولا يرى، قال:

وما خبزه إلَّا كآوى يرى ابنه ولم ير آوى في الحزون ولا السهل

والآخر ما قاله الآخر في صعوبة صيده ورخص ثمنه:

كابن آوى وهو صعب صيده فإذا صيد يساوي خردله

وقال آخر:

إن ابن آوى لشديد المقتنص وهو إذا ما صيد ريح في قفص

ابن دأية

هو الغراب لأنه يقع على دأية البعير الدبر فينقرها؛ وينشد:

ولما رأيت النسر عز ابن دأيةٍ وعشش في وكريه جاشت له نفسي

عنى بالنسر الشيب، وبابن دأية الشباب.

ابن الأرض

نبت يخرج في رؤوس الآكام، وله أصل ولا يطول، وهو سريع الخروج، سريع الهيج، يضرب به المثل في سرعة الإدراك والفناء.

ابن طاب

جنس من تمور المدينة، ويقول أهلها: إذا وافق الهوى الصواب، فاللبأ بابن طاب.

ابن السبيل

إذا أريد المجتاز قيل: ابن السبيل؛ وقد نطق به القرآن.

وقيل لأعرابي: أين تحب أن يكون طعامك؟ قال: في بطن أم طفلٍ راضعٍ، أو ابن سبيل شاسعٍ، أو أسيرٍ جائعٍ، أو كبيرٍ كانعٍ.

وإذا أريد ابن الزانية قيل: ابن الطريق، كما قال دعبل في أبي سعدٍ المخزومي:

عدو راح في ثوب الصديق شريك في الصبوح وفي الغبوق
له وجهان ظاهره ابن عم وباطنه ابن زانيةٍ عتيق
يسرك ظاهرًا ويسوء سرًا كذاك يكون أبناء الطريق

وأنشدت للفريانانی في البرسخي، وقد وقع الحريق في داره:

أقول ولا شماتة في الحريق أجيدي حرق دار ابن الطريق
فما أحرقت إلَّا ما حواه بمسألةٍ وتدنيقٍ وضيق

وقولهم: ابن عجِّل عجِّل؛ كنايةً عن اللقيط. وعجل عجل قول الفاجرة تحت الفاجر تحثه على سرعة الفراغ.

ابن الخصي

يضرب مثلًا لما لا يجوز أن يكون، كما قال أبو تمام:

وذاك له إذا العنقاء صارت مربيةً وشب ابن الخصي

ابن طامر

يقال لمن لا يعرف: طامر ابن طامر؛ وهو البرغوث أيضًا لطموره.

ابن بجدتها

الهاء راجعة إلى الأرض، يعنون العالم بها.

قال أبو الطيب المتنبي:

حتى أتى الدنيا ابن بجدتها فشكا إليه السهل والجبل

ويحكى أن أعرابيًا ضاف صديقًا له في الحضر، فقدم إليه عصيدة تمر تنش حرارةً، فضرب بيده إليها، فامتنعت عليه، فقال بعد ما تأملها: والله إني لأعلم أنك هينة المزدرد، ولينة المسترط، وإنك لتعلمين أني ابن بجدة بلادك في أهلك، وأني أخاف أن العود إلى مثلك ستطول مدته، ويتعذر وجوده، فما يمنعني أن أتلقى حرارتك ببلعومٍ سرطمٍ، وحلقومٍ لحجمٍ، وبطنٍ أكبد، وجوفٍ أرحب، ويقضي الله قضاءه بما أحببت أو كرهت.

السرطم: الذي يبلغ كل شيء؛ واللحجم، واللهجم على التعاقب: الواسع الجوف.

ابن الحرب

هو الشجاع الذي تعود الحرب وألفها.

قرأت من فصل من رسالةٍ للصاحب:

> أبناء الحروب الذين ذاقوا كؤوسها حلوةً ومرةً، والتحفوا لباسها مرةً بعد مرة.

ابن ضل

تقول العرب لمن لا يدرى من هو ومن أبوه: ضل ابن ضل، وقل ابن قل.

ويقولون للمفلس: صلمعة ابن قلمعة.

قال أبو سعيد: هو كقولك: الأحد ابن الأحد.

ابن الغمد

هو السيف لطول ملازمته إياه وقراره فيه.

قال الشاعر:

كأني وابن الغمد والطرف أثجم ... على قصدها والنجم يسري على قصدي

ابن الدهر

هو النهار؛ ومنه قول ابن الرومي:

وما الدهر إلَّا كابنه فيه بكرة وهاجرة مسمومة الجو صيخد

ابنا عيان

ضرب من الزجر، وهو أن يخط الناظر في أمرٍ بإصبعه ثم بإصبع أخرى، ويقول: ابنا عيان، أسرعا البيان؛ ثم يخبر بما يرى؛ وهو مشتق من قولك: أرياني ما أريد عيانًا.

وهذا معنى قول ذي الرمة:

عشية ما لي حيلة غير أنني بلقط الحصى والخط في الدار مولع

ابنا شمام

هما هضبتان في أصل جبل يقال له: شمام.

يضرب بهما المثل في الاقتران والاصطحاب؛ قال الشاعر:

فهل حدثت عن أخوين داما على الأيام إلَّا ابني شمام

ابنا سمير

العرب تقول: لا أفعل ذلك ما سمر ابنا سميرٍ، وهما الليل والنهار؛ وقيل: الغداة والعشي.

قال ابن الرومي:

لابني سميرٍ صروف غير غافلة يحسن نقضًا كما يحسن إمرار

بنو الأيام

هم أهل العصر.

قال المطراني من قصيدةٍ رثى بها أبا القاسم الإسكافي، وخاطب الدهر فيها بقوله:

ما كان ضرك لو أبقيت ذا أدبٍ ألقت إليه بنو أيامك السلما
أعدمت من لست منه موجدًا بدلًا ما كررت يدك الوجدان والعدما

بنو الدنيا

هم الناس؛ وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أما ترى حب الناس للدنيا! فقال: هم بنوها.

وسمعت الخوارزمي يقول: أحسن ما قيل في مدح النساء قول الشاعر:

ونحن بنو الدنيا وهن بناتها وعيش بني الدنيا لقاء بناتها

وأبلغ ما قيل في ذمهن قول الآخر:

إن النساء شياطين خلقن لنا فكلنا يتقي شر الشياطين

على أنه نقض قول من قال:

إن النساء رياحين خلقن لنا فكلنا يشتهي شم الرياحين

بنو غبراء

هم اللصوص والصعاليك المهتدون في مجاهل الأرض، والعالمون بطرقها.

وقيل: بل هم الفقراء اللاصقون بالغبراء من سوء الحال، على غير غطاء ولا وطاء، قال طرفة بن العبد:

رَأَيْتُ بَني غَبَراءَ لا يُنْكِرُونَني وَلا أَهْلُ هذاكَ الطِّرَافِ الْمُمَدَّدِ

يقول: أنا معروف عند الأخيار والأشرار، وعند اللئام والكرام.

أبناء الدهاليز

كناية عن الأراذل الأنذال أبناء الزواني، قال ابن بسام:

يابن الدهاليز وأبناء السكك ... ويابن عجل لا يحي زوجي يرك
يابن الزنا وحدك لا شريك لك ... وابن البغايا والفراش المشترك
ويابن من لو نومت فوق الحسك ... تحت الزناة وجدته كالفنك

أبناء درزة

كناية عن السفل والسقاط، ويقال لهم: أولاد درزة؛ قال المبرد: هم خياطون من أهل الكوفة خرجوا مع زيد بن علي.

وقال بعض الشراة وهو حبيب بن جدرة الهلالي:

يا با حسينٍ لو شراة عصابةٍ ... علقتك كان لوردهم إصدار
يا با حسينٍ والأمور إلى مدى ... أبناء درزة أسلموك وطاروا

الفصل الرابع: في البنات

ابنة الجبل، ابنة الكرم، بنت المنية، بنت الفكر، بنت المطر، بنت نارين، بنات الدهر، بنات المنايا، بنات البطون، بنات الليل، بنات الصدر، بنات الماء، بنات الفلا، بنات مخر، بنات وردان، بنات الخدور، بنات التنانير، بنات اللهو، بنات العين، بنات الأرض، بنيات الطريق.

الاستشهاد

ابنة الجبل

من أمثال العرب: هو ابنة الجبل؛ ومعناه الصدى يجيب المتكلم بين الجبال؛ يقول: هو مع كل صوتٍ، كما أن الصدى يجيب كل ذي صوتٍ بمثل كلامه.

ويقال: كبنت الجبل، مهما تقل تقل؛ يضرب مثلًا للإمعة المتابع.

ويقال: إن ابنة الجبل الحية أيضًا؛ وقال أبو عبيدة: إذا اشتد الأمر قيل: صمي صمام، وصمي ابنة الجبل.

قال امرؤ القيس:

بُدِّلْتُ مِن وَائِلٍ وَكِنْدَةَ عَدْ   وَانَ وَفَهْمًا صَمِّي ابنةَ الجَبلِ

أراد: حية لا تجيب الراقي، فشبه الحرب التي لا يقبل فيها الصلح بهذه الحية.

ابنة الكرم

هي الخمر؛ قال أبو نواس:

صفة الطلول بلاغة الفدم   فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقال آخر:

بنات الكروم تسلي الهموم   وتحيي السرور وتنفي العدم
وتبسط بالجود كف البخيـ   ـل وتذهب من حشمة المحتشم

ويقال لها أيضًا: ابنة العنقود؛ قال أبو الفتح كُشاجِم:

حبي الحمد كان أكثر أسبا   ب ذهابي بطارفي وتليدي
واعتياضي من الغنى بالغواني   واعتقادي هوى ابنة العنقود

وقد ظرف الصنوبري في قوله وهو يصف الديك:

مغرد الليل ما يألوك تغريدا   ملَّ الكرى فهو يدعو الفتية الصيدا
مذكرًا بابنة العنقود حين حكت   له الثريا قبيل الصبح عنقودا

وأحسن من هذا كله قول أبي محمد الفياضي:

نحن الشهود وخفق العود خاطبنا　　　نزوج ابن سحابٍ بنت عنقود

وليس بالبارد قول الآخر، وهو متنازع فيه:

ما لابن هَمٍّ سوى شرب ابنة العنب　　　فهاتها قهوةً فراجةَ الكُرَبِ

بنت المنية

هي الحمى، ويقال: إن أبلغ ما قيل في وصفها قول عبد الصمد بن المعذل من قصيدة أولها:

هجرت الهوى أيما هجرة　　　وعفت الغواني والخمرة
طوتني عن وصلها سكرة　　　بكأس الضنا بعدها سكرة
وبنت المنية تنتابني　　　هدوًا وتطرقني سحرة
إذا وردت لم يزع وردها　　　عن القلب حجب ولا سترة
لها قدرة في جسوم الأنام　　　حباها بها الله ذو القدرة
فقد سلبت أعظمي نحضها　　　ولم تترك من دمي قطرة

وهي طويلة لا يسقط منها بيت. وله أيضًا من قصيدةٍ ضادية:

بنت المنية بي موكلة　　　عقب النهار كمقتضٍ قرضا
ألفت وفاءً ليس تسأمه　　　فترى مواصلتي به فرضا
عرقت بنافضها وصالبها　　　لحمي ورضت أعظمي رضًا
ولو أنها ترمي بشكتها　　　نيقًا أشم لذاب وارفضا

ولم يزل شعر بن المعذل أمير ما قيل في الحمى حتى جاءت ميمية أبي الطيب فأربت عليه؛ وقد جعلها بنت الدهر في قوله:

أبنت الدهر عندي كل بنتٍ　　　فكيف وصلت أنت من الزحام!

يقول: عندي كل حادثةٍ من حوادث الدهر ونوائبه، فكيف خلصت إلى جسمي من زحمة النوائب!

ولبعض أهل العصر:

سئمت العيش حين رأيـ ـت صرف الدهر يرهقني
صعودًا والصعود إليـ ـه يعجزني فيقلقني
وبنت الموت بالآلا م والأوجاع تطرقني
تؤرقني تحرقني تعرقني تغرقني

بنت الفكر

هي الرأي والشعر.

قال بعض العصريين:

ودونك البكر بنت الفكر قد برزت من خدرها تخدم الأستاذ سيدنا

بنت المطر

قال حمزة الأصبهاني: هي دويبة حمراء ترى غب المطر؛ والعرب تضرب بها المثل فتقول: أشد حمرةً من بنت المطر.

بنت نارين

هي المرقة المسخنة، لأنها قد عرضت على نارين؛ وكان بعض المترفين يقول: جنبوا مائدتي بنت نارين.

وأنشدني أبو طالب المأموني لنفسه قصيدةً في وصف مائدةٍ تجمع أطايب الطعام وبدائع الألوان، فمنها:

لم يرضَ طاهيها بِنَقص وَلَ شقق في شيءٍ ولا موه
لا ابنة نارين أرانا ولا مصنوعةً بالرفع مأسوه

بنات الدهر

حوادثه ومصائبه ونوائبه.

قال الشاعر:

ألا ما لبنات الدهـ ـر ترميني ولا أرمي

وقال آخر:

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس برام

وقال آخر:

نكحت بنات الدهر من غير خطبةٍ فما برحت حتى سلبن سواديا

وأراد الأخطل بقوله:

وما تبقى على الأيام إلا بنات الدهر والكلم العقور

الليالي والأيام؛ وأراد بالكلم العقود: الهجاء الموجع.

وأحسن البحتري في قوله:

متى ما نسبت الحادثات وجدتها بنات زمان أرصدت لبنيه

بنات المنايا

هي السهام.

قال ابن الرومي في وصف الأتراك:

لهم عدة تكفيهم كل عدةٍ بنات المنايا والحني الموتر

بنات البطون

هي الأمعاء؛ يقال للجائع: سكن بنات بطنك، إذا أمر بالأكل.

بنات الليل

هي الأحلام؛ ويقال أيضًا: هي النساء؛ ويقال: بنات الليل: أهواله، ويقال: هي المنى؛ وبكلها جاء الشعر.

بنات الصدر

هي ما يضمره الإنسان من الخير والشر.

قال الشاعر:

أخو ثقةٍ يسر بحسن حالي وإن لم تدنه مني قرابة
أحب إلي من ألفي قريبٍ بنات صدورهم لي مسترابة

وقد ظرف من قال:

بنفسي من هواه أخي وتربي وحبيبه رضاع بنات قلبي

وللصاحب من رسالةٍ: زوج بنات صدرك من بني علمي، وأفرغ صوب عقلك في قمع أذني.

بنات الماء

هي ما يألف الماء من السمك والطير والضفادع.

وقد أحسن سيدوك الواسطي في قوله:

أراح الله نفسي من فؤادٍ أقام على اللجاجة والخلاف
ومن مملوكةٍ ملكت رقاها ذوي الألباب بالخدع اللطاف
كأن جوانحي شوقًا إليها بنات الماء ترقص في جفاف

وجعل ابن الرومي السمك بنات دجلة في قوله:

وبنات دجلة في بيوتكم مأسورة في كل معترك

بنات الفلا

هي الإبل يقطع بها الفلا.

قال الشاعر:

إليك أمين الله جابت بنا الفلا بنات الفلا في كل بر وفدفد

فأما بنات القفر فالوحوش.

بنات مخر

هي سحائب تنشأ من بخار البحر فتجوز إلى البر؛ وبنات بحرٍ سحائب لا تجوز إلى البر، ولذلك قيل: بنات مخرٍ خير من بنات بحرٍ.

بنات وردان

هي دويبات تلزم الكنف.

وأنشد الصاحب ذات ليلةٍ في مجلس النظر وقد تأذى برائحةٍ كريهةٍ وجدها، هذا البيت لابن الحجاج:

فما عدمنا من الكنيف كما قعدت إلَّا بنات وردان

بنات الخدور

هي العذارى؛ ويقال لهن أيضًا: بنات الحِجَالِ.

بنات التنانير

هي الرغفان.

وقيل لأعرابي قدم الحضر فأضافه بعض المياسير: أين كنت اليوم؟ وبم اشتغلت؟ فقال: كنت والله عند كريمٍ خطيرٍ، أطعمني بنات التنانير، وأمهات الأبازير، وحلواء الطناجير، ثم سقاني رعناء القوارير، من يد غزالٍ غريرٍ.

بنات اللهو

وهي الأوتار. قال البحتري:

تلقينا الشتاء به وزرنا بنات اللهو إذ قرب المزار

وقال ابن الرومي:

يهنيك أن الفطر حين بدا نشر السرور به من الرمس
نطقت بنات اللهو فيه معًا من بعد بعد الصوت والهمس

بنات العين

هي الدموع.

قال ابن الرومي يرثي الشباب:

تذكرته والشيب قد حال دونه فظلت بنات العين مني تحدر

بنات الأرض

هي الأجواف التي تحتجب عنك، وقيل: بل عروق الأرطى يقطر منها الماء ويصير إليها الوحش في القيظ فيترشفها ويقتصر عليها دون ورود الماء. قال ثعلب: بنات الأرض هي الأنهار الصغار.

بنيات الطريق

هي الصعاب والمعاسف؛ يقال للرجل إذا وعظ: الزم الجادة، ودع بنيات الطريق.

وقال محمود الوراق:

تنكب بنيات الطريق وجورها فإنك في الدنيا غريب مسافر

الباب التاسع عشر

فيما يضاف إلى الأذواء والذوات

أذواء اليمن، ذو الأوتاد، ذو القرنين، ذو الكفل، ذو النورين، ذو الشهادتين، ذو العينين، ذو الرأي، ذو اليدين، ذو المشهرة، ذو النور، ذو العمامة، ذو الثدية، ذو اليمينين، ذو الثفنات، ذو القلمين، ذو الرياستين، ذو الوزارتين، ذو الكفايتين، ذات النحيين، ذات النطاقين، ذات الخمار، ذات الأنواط.

الاستشهاد

أذواء اليمن

هم ملوكها؛ وإياهم عنى أبو نواس بقوله:

ودان أذواؤنا البرية من معتزها رغبةً وراهبها

فمنهم ذو شناتر؛ ولم يكن من أهل الملك، ولكنه من أبناء المقاول، وكان فظًّا غليظ القلب؛ وكان مع ذلك لا يسمع بغلام ينشأ من أبناء المقاول إلَّا بعث إليه واستحضره فعبث به وأفسده.

ويقال: إنه بعث إلى غلام منهم يقال له ذو نواس، لأنه كانت له ذؤابتان تنوسان على عاتقيه، وبهما سمي ذا نواس، فأدخل عليه ومعه سكين لطيفة قد خبأها، فلما دنا منه وعلم أنه يريد منه الفاحشة شق بها

بطنه، واحتز رأسه؛ فلما بلغ حمير ما فعل ذو نواس قالوا: ما نرى أحدًا أحق بالملك ممن أراحنا منه؛ فملكوا ذا نواس.

وهو صاحب الأخدود الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز؛ وهو الذي لما تهود تهود معه أمم من الناس.

ومنهم ذو المنار، وقيل له ذو المنار لأنه أول من ضرب المنار على طرقه في غزواته ليهتدي بها في مرجعه.

ومنهم ذو رعين، يضرب به المثل في النعمة، كما قال العلوي الحماني:

ويومٍ قد ظللت قرير عينٍ ... به في مثل نعمة ذي رعين
تفكهني أحاديث الندامى ... وتطربني مثقفة اليدين
فلولا خوف ما تجني الليالي ... قبضت على الفتوة باليدين

ومنهم ذو مرحب، سمي بذلك لأنه أول من رحب به كل من رآه، وكان رحيب الصدر والباع، هشًّا بشًّا.

ومنهم ذو يزن، وابنه سيف الذي انتزع الملك من الحبشة؛ وقد تمثل به من قال لعبد الله بن طاهر:

اشرب هنيئًا عليك التاج مرتفقًا ... بشاذ مهر ودع غمدان لليمن
وأنت أولى بتاج الملك تلبسه ... من هوذة بن علي وابن ذي يزن

ذو الأوتاد

هو من ذكره الله تعالى في كتابه العزيز. وكان يأمر بمن يغضب عليه فيوتد في الأرض بأربعة أوتادٍ؛ وهو أول من سن ذلك.

ذو القرنين

قال الجاحظ في كتاب التدوير والتربيع:

ولقد سألت عن ذي القرنين أهو الإسكندر؟ ومن أبوه؟ ومن قِيرَى وعِيرى؟

فقال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني في الجواب عن ذلك وشرحه، قال:

أكثر من بحث عن سالف الأمور، وتصفح ما حدث منها في متقادم العصور أن التسمية بذي القرنين لا تعرف في غير هذه اللغة، ولا يوجد منها علم إلَّا عند هذه الأمة؛ ومتى سمعنا غيرهم ينطق بها، ووجدنا بعض الأمم يذكرها، فبحثنا عن أصلها ومأخذها، وسألناهم عن معناها وتأويلها، أصبناها راجعةً إليهم، وأحلنا في الإسناد عليهم.

قالوا: ولم نعثر على كثرة التفتيش والتكشيف وشدة الطلب والتنقير من ملوك الأمم وأولياء الدول وقادة الجيوش وساسة الجنود ممن ارتفع فشهر، أو خمل فغمر، بمن لزمه هذا الاسم أو حصل له معناه، أو استحقه بلازم خلقةٍ، أو مستجد صفةٍ.

فأما نحن فقد وجدنا في التواريخ القديمة المأخوذة عن السريانية واليونانية أن ضاميرس، وهو الثالث من ملوك بابل، خرج عليه أطركسركس فحاربه وظفر به، فقتله ونزع قرني رأسه فجعلها إكليلًا يلبسه، فسمي ذا القرنين؛ فهذا كما تراه تسمية مأخوذة عن الأمم السالفة، منقولة عن تلك اللغة إلى هذه.

على أن العرب قد سمت بها ملوكهم نفرًا، وخصت بها هذا الملك السائح الذي ورد القرآن بذكره، واجتمعت الألسن على تفخيم قدره؛ وسنذكر ما حفظناه في سبب هذه التسمية، ونستوفي ما عندنا في صاحبها، وما انتهى إلينا في حقيقة المسمى بها، ونقول فيه على تفصيل الاختلاف والتمييز بين تلك الأقوال قولًا إن لم يكن شافيًا، فعساه أن يكون كافيًا؛ وما علينا إلَّا الجهد، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾، الآية المتضمنة خبره؛ فوصف هذه الجملة من أحواله، في تقلبه وانتقاله، ومنتهى مسيره في الشرق ظاعنًا، وغاية مبلغه من الغرب واغلًا، ودل على عظم ملكه، وشدة وطأته، وعلو كلمته، وانبساط قدرته، بما عد من آثاره، وقص علينا من أخباره، وأكد ذلك وحققه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

وحسبك بمن شهد الله له بالتمكين والاقتدار، وناهيك بمن آتاه الله جوامع الأسباب، ووطأ له أباعد الأقطار!

وقد روي في تفسير هذه الآية: أن المشركين من قريشٍ أوفدوا وفدًا إلى يهود يثرب يستمدونهم مسائل يمتحنون بها النبي صلى الله عليه وسلم، واعتمدوا من المسائل على قصص الأنبياء وأخبار الملوك، لعلمهم بأنه لاحظ للعقل والذكاء وحدة الفطنة وقوة الفكر وتمثيل الاعتبار، والمقايسة وإنعام النظر والتأمل في استدراك خبرٍ تقدم زمانه بساعةٍ، بل سبق وقته بلحظةٍ؛ وإنما هي أمور تؤخذ روايةً وسماعًا، وتدرك قراءةً وكتابًا؛ وقد رأوه — عليه السلام — ولد بمكة في أمةٍ أميةٍ، وبين قبائل جاهليةٍ، فعرفوه طفلًا راضعًا، وناشئًا ويافعًا، وشاهدوه غلامًا ومجتمعًا، وكهلًا ومحتنكًا، يدرج بين أبياتهم، ويتصرف نصب ألحاظهم؛ ويتكلم بما عرفوه من ألفاظهم؛ وأن هذه أحوال تحجز بينه وبين التهمة، وتباعده عن مواقع الظنة، وتحقق عند من له العقل بلغة، وفيه من التحصيل مسكة أنه عليه الصلاة والسلام إن عرف ذلك على حقه، وأخبر عما علمت الرواة من غيبه، فإنما تلقاه عن الله وحيًا، أو ألقاه الملك في روعه نفثًا؛ وذلك علامة النبوة التي لا تجهل، وأمارة الرسالة التي لا تنكر.

فزودتهم يهود يثرب مسائل منها خبر رجلٍ سار مشرقًا حتى بلغ مطلع الشمس حيث تبزغ، وتوجه مغربًا حتى بلغ مغربها حيث تجب وتسقط؛ هكذا ذكره الرواة، وإنما المراد بها منتهى العمارة من طرفي الأرض.

وسألوه عن قصة يوسف، وعن فتيةٍ أووا إلى الكهف فأميتوا ثم أحيوا، فأتاه الجواب من قبل الله تعالى في كل ذلك بما أقام به علم صدقه، ورد الكائد بأخيب ظنه.

وقد روى المفسرون والقصاص في تأويل هذه الآيات أخبارًا لم نجد في نقلها طائلًا، إذ كانت النفس لا تثق بخبرهم ولا تسكن إلى صحة نقلهم، وكان اختلافهم يدل على اختلاطهم؛ وهي على ذلك مشهورة، يمكن أخذها عن قربٍ.

وقد روى المحدثون عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا أدري أذو القرنين كان نبيًا أم لا!».

ورووا عنه صلى الله عليه وسلم أنه ملك الأرض أربعة: «مؤمنان وكافران؛ فأما المؤمنان فسليمان وذو القرنين، وأما الكافران فنمروذ وبخت نصر».

ورووا عن علي وقد سئل عن ذي القرنين فقال: ذلك الملك الأمرط، بلغ قرن الشمس من مطلعها وقرنها من مغربها.

وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلًا ينادي: يا ذا القرنين، فقال: فرغتم من أسماء الأنبياء، وارتفعتم إلى أسماء الملائكة!

فتناوله قوم وزعموا: أن ذا القرنين كان من نتاج ما بين الملائكة والإنس، وأنا أباه عيرى ملك أهبط إلى الأرض فسلخ جناحه وأعيد في صورة ولد أدم، فنكح امرأة من الآدميات تدعى قيرى فأولدها ذا القرنين؛ وقد ادعوا مثل ذلك في هاروت وماروت وأبي جرهم. وهي من حماقات العوام غير مستنكرٍ.

وروي عن الحسن أنه قال: كان له غديرتان من شعرٍ، فبهما سمي ذا القرنين.

وعن محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم أنه قال: الأنبياء الملوك أربعة: يوسف ملك مصر، وداود وسليمان ملكا ما بين الشام إلى إصطخر، وذو القرنين ملك ما بين المغرب والمشرق.

وروي عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: حج ذو القرنين فلقي إبراهيم؛ وهذا يدل على تقادم عهده.

وقد روي من جهات كثيرة أن ذا القرنين كان في زمن إبراهيم عليه السلام، ولهذه الرواية زعم بعض من لا علم له أن ذا القرنين هو أفريدون لما رأى تواريخ الفرس تدل على كون إبراهيم عليه السلام، في عصر أفريدون؛ وتلك تواريخ لا يوثق بها؛ والذي نقل إلينا في التواريخ اليونانية والسريانية وهي أقرب إلى الثقة يقتضي أن بينهما زمانًا طويلًا يزيد على ألف سنة.

وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن ذا القرنين هو عبد الله بن الضحاك؛ وهذه رواية مهجورة لا يلتفت العقلاء إليها.

ولسنا ننكر أن عبد الله بن الضحاك هذا يدعى ذا القرنين، فهو اسم مشترك ولقب منقول، وقد سمي أحد ملوك الحيرة من بني نصرٍ ذا القرنين لضفيرتين من شعرٍ كانتا له، وهو المنذر بن ماء السماء، وفي ملوك حمير ملكان كانا يدعى كل واحدٍ منهما ذا القرنين، وإنما ننكر أن يكون ملكًا مسلطًا، إذ كنا نجد أخبار الأمم تكذبه؛ وكان هذا الأمر النبيه لا يخمل فيخفى على العرب شأنه، وهي ألهج أمةٍ بحفظ المآثر، وأحرصها على إحصاء المفاخر.

وزعم بعض الفرس أن ذا القرنين هو الضحاك المسمى بيوراسف، وأن قرنيه هما السلعتان اللتان تسميهما العامة حيتين، وكانتا ناشزتين في فروع كتفيه؛ وهذا أبعد شيء عن الصواب.

ولكن الآراء والألسن واللغات والفرق مطبقة على أن ذا القرنين هذا هو الإسكندر الرومي قاتل دارا. وقد نجد فيما نقل إلينا من أخباره بعض المطابقة لما اقتص الله تعالى في كتابه، والذي يقوي هذا الرأي إجماع رواة الأمم على أن السد الذي يدعى ردم يأجوج ومأجوج من صنع الإسكندر، وأنه لم ينقل إلينا خبر ملكٍ جمع بين الإيغال في المشرق والإبعاد في المغرب سواه.

وهذه جملة من سيره مأخوذة من تواريخ يونان وفارس؛ وأما روايات القصاص وأهل المبتدأ فمرفوضة عند أهل التحصيل.

زعمت يونان أنه لما ولد الإسكندر عرض مولده على المنجمين، فحكموا له بما آل إليه أمره؛ وترعرع الإسكندر، فهجس في نفسه صدق ما حكموا له به، وهلك أبوه فيلفس وللإسكندر عشرون سنةً، فخلفه على ملكه، فركب البحر يوم المغرب، فوطئها حتى انتهى إلى أقاصيها، ثم رجع على طريق إفريقية ومصر والشام متوجهًا إلى المشرق حتى قتل دارا، واستولى على ممالكه، وسار حتى أوغل في المشرق، فقتل فورا ملك الهند، وأقام ببلاده مدةً، ثم سار حتى أتى تبت فدان له ملكها، وأهدى له شيئًا كثيرًا من الذهب والمسك، ثم سار حتى أتى الصين، فتلقاه ملكها بالطاعة، وأهدى له هدايا عظيمة من الذهب والحرير والوبر وأنواع العطر وآلات الصين؛ وعدل إلى نواحي يأجوج ومأجوج فبنى السد، ودخل الظلمات من ناحية القطب الشمالي في أربعمائة رجلٍ؛ فسار فيها ثمانية عشر يومًا، وخرج إلى طريق خراسان، ولما انتهى إلى نهر بلخٍ عقد عليه جسرًا من ثلاثمائة سفينةٍ، وبنى على غربيه قصرًا شديدًا كالجبال بأركانه، وسار فاغتاله بعض أصحابه فسقاه سمًّا، فمرض بقومس، وتحامل حتى أتى شهرزور، وثقل بها وهلك ببابل العتيقة.

وكان أشقر أبرش، قصيرًا أحنف.

وابتدأ اليونانيون تاريخ ملكه من أول سنة سبعٍ وعشرين من عمره، وهو وقت ابتداء جولانه.

وكانت مدته في ذلك الوقت إحدى عشرة سنةً وثلاثمائة وستة وعشرون يومًا؛ ولم يكن يدعو إلى دينٍ وإنما كان يأمر بالتناصف وترك التظالم.

إلى هنا انتهى كلام القاضي.

وقال حمزة الأصبهاني في كتابه تواريخ الأمم:

ومما ولده القصاص من الأخبار أن الإسكندر بنى بإيران شهر مدنًا، منها أصبهان، ومرو وهراة، وسمرقند؛ وليس للحديث أصل، لأن الرجل كان مخربًا لا عامرًا.

قال مؤلف الكتاب: وفي أصبهان — وكونها من بناء ذي القرنين — يقول ابن طباطبا لأبي علي بن رستم وقد هدم سور أصبهان ليزيد به في داره:

وقد كان ذو القرنين يبني مدينةً	فأصبح ذو القرنين يهدم سورها
على أنه لو كان في صحن داره	بقرن له سيناء زعزع طورها

وقال آخر:

أيها الهادم سورًا	هدمه عين الجنون
ليس يوهي سور ذي القر	نين إلَّا ذو قرون

وقد ضرب المثل بمسير ذي القرنين في الظلمات ابن لَنْكك حيث قال:

تولى شباب كنت فيه منعمًا	تروح وتغدو دائم الفرحات
فلست تلاقيه ولو سرت خلفه	كما سار ذو القرنين في الظلمات

ذو الكفل

هو الذي نطق القرآن بذكر نبوته؛ وهو من بني إسرائيل؛ بعث إلى ملكٍ منهم يقال له كنعان، فدعاه إلى الإيمان، وكفل له بالجنة وكتب له كتابًا بالكفالة، فآمن به الملك، وسمي ذا الكفل بالكفالة.

ذو النورين

هو عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه؛ سمي بذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم زوجه ابنته رقية، فكانا أحسن زوجين في الإسلام.

ويروى أنه بعث عليه السلام بلطفٍ مع رجل إلى عثمان، فاحتبس، فلما رجع قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن شئت أخبرتك ما حبسك»، قال: نعم يا رسول الله، قال: «كنت تنظر إلى عثمان ورقية تعجبًا من حسنهما»، قال: صدقت يا رسول الله.

ولما توفيت رقية زوجه عليه السلام أم كلثوم؛ ثم لما توفيت قال: «لو كانت لنا ثالثةً لزوجناكها».

فهو ذو النورين لهذه القصة.

ودخل يومًا أبو الحسن بن طباطبا دار أبي علي بن رستم فرأى على بابه عثمانيين أسودين قد لبسا عمامتين حمراوين، فامتحنهما فوجدهما من الأدب خاليين؛ فلما تمكن في مجلس ابن رستم دعا بالدواة والقرطاس وكتب:

أرى بباب الدار أسودين ... ذوي عمامتين حمراوين
كجمرتين فوق فحمتين ... قد غادرا الرفض قريري عين
جدكما عثمان ذو النورين ... فما له أنسل ظلمتين!
يا قبح شينٍ صادرٍ عن زين ... حدائد تطبع من لجين
ما أنتما إلَّا غرابا بين ... طيرا فقد وقعتما للحين
المظهرين الحب للشيخين ... ذرا ذوي السنة في المصرين
وخليا الشيعة للسبطين ... للحسن الطيب والحسين
ستعطيان في مدى عامين ... صكًا بخفين إلى حنين

فاستظرفها ابن رستم وسارت وحفظها الناس.

ذو الشهادتين

خزيمة بن ثابت الأنصاري؛ سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا الشهادتين.

وذلك أن يهوديًا أتاه فقال: يا محمد اقضني ديني، فقال عليه السلام: «أوَلم أقضك!» قال: لا، إن كانت لك بينة فهاتها؛ فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أيكم يشهد أني قضيت اليهودي ماله؟» فأمسكوا

جميعًا؟ فقال خزيمة: أنا يا رسول الله، أشهدك أنك قضيته، قال: «وكيف تشهد بذلك ولم تحضره ولم تعلمه؟» فقال: يا رسول الله نحن نصدقك على الوحي من السماء، فكيف لا نصدقك على أنك قضيته؟ فأنفذ عليه السلام شهادته، وسماه ذا الشهادتين لأنه عليه السلام صير شهادته شهادة رجلين.

ذو العينين

قتادة بن النعمان الأنصاري.

شهد بدرًا والعقبة، وأصيبت عينه يوم أحدٍ فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده بعد ما سقطت على خده، فكانت أحسن وأصحَّ من عينه الأخرى، وكان لا يشتكيها إذا اشتكى أختها، وليس هكذا عيون الناس.

ذو الرأي

هو حباب بن المنذر بن الجموح صاحب المشورة يوم بدر؛ أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأيه، ونزل جبريل عليه السلام فقال: الرأي ما قال حباب؛ وكانت له في الجاهلية آراء مشهورة.

ذو اليدين

هو عمير بن عبد عمرو من خزاعة؛ وكان يعمل بيديه جميعًا، فقيل له: ذو اليدين؛ وكان يدعى ذا الشمالين.

وهو الذي ذكر في الحديث الذي يروون فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الظهر فسلم في الركعة الثانية، فقال ذو اليدين: يا رسول الله، أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال: «ما كان ذاك». فقال: بلى يا رسول الله، فالتفت إلى أصحابه فقال: «أحق ما يقول ذو اليدين؟» قالوا: صدق يا رسول الله، فنهض فأتم، ثم قال: «إني لأَنسَى — أو أُنسَّى — لَأَسُنَّ».

قال ابن قتيبة: هو ذو اليدين، وليس هو بذي الشمالين الذي استشهد يوم بدر.

وقال الجاحظ: كان يقال له ذو الشمالين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم: «ذا اليمينين».

ذو المشهرة

هو أبو دجانة الأنصاري، وكانت له مشهرة؛ إذا لبسها وبرز يتمايل بين الصفين لم يبق ولم يذر، وأرضى الله ورسوله.

ذو النور

هو عبد الله بن الطفيل الأزدي ثم الدوسي. ويقال: بل طفيل بن عمرو بن طريف.

أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نورًا في جبينه ليدعو به قومه، فقال: يا رسول الله، هذه مثلة أو قال: شهرة؛ فجعله في طرف سوطه، فكان كالمصباح يضيء له الطريق بالليل؛ ولما رجع إلى قومه دوسٍ ليعلمهم جعلوا يقولون: إن الجبل ليلتهب.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه ممن اهتدى بذلك النور في بعض الحديث.

ذو العمامة

هو سعيد بن العاص بن أمية، أبو أحيحة.

كان يقال له ذو العمامة لأنه كان في الجاهلية إذا لبس عمامته لم يلبس قرشي عمامةً حتى ينزعها.

كما أن حرب بن أمية إذا حضر ميتًا لم يبكه أهله حتى يقوم.

وكما أن أبا طالبٍ إذا أطعم لم يطعم أحد يومه غيره.

وكما أن أسيد بن أبي العيص إذا شرب الخمر لم يشربها أحد حتى يتركها.

وزعم بعض أصحاب المعاني أن هذا اللقب إنما لزم سعيدًا كنايةً عن السؤدد؛ وذلك أن العرب تقول للسيد: فلان معمم؛ يريدون أن كل جنايةٍ يجنيها الجاني من تلك القبيلة أو العشيرة فهي معصوبة برأسه، وإلى هذا المعنى ذهبوا في تسميتهم سعيد بن العاص: ذا العمامة وذا العصابة.

ولما طلق خالد بن يزيد بن معاوية آمنة بنت سعيد بن العاص وتزوجها الوليد بن عبد الملك قال في ذلك خالد:

فتاة أبوها ذو العصابة وابنه أخوها فما أكفاؤها بكثير

وكان خالد شريف المنكح؛ تزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وآمنة بنت سعيد بن العاص، ورملة بنت الزبير؛ ففي ذلك يقول بعض الشعراء يغري به عبد الملك بن مروان:

عليك أمير المؤمنين بخالدٍ ففي خالدٍ عما تحب صدود
إذا ما نظرنا في مناكح خالدٍ عرفنا الذي ينوي وأين يريد

ذو الثدية

ويقال له: ذو اليدية، لأن إحدى يديه كانت مخدجةً؛ وذو الثدية، لأن تلك اليد المخدجة كانت كالثدي، وعليها شعرات كشارب السنور؛ وهو شيخ الخوارج وكبيرهم الذي علمهم الضلال.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتله وهو في الصلاة، فكع عنه أبو بكرٍ وعمر رضي الله عنهما، فلما قصده علي رضي الله عنه لم يره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أما إنك لو قتلته لكان أول فتنةٍ وآخرها».

ذو اليمينين

هو أبو الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب، الذي ينسب إليه الطاهرية.

كتب إليه بعض أصحابه كتابًا عنونه بهذين البيتين:

للأمير المهذب المكنى بطيب
ذي اليمينين طاهر بـ ـن الحسين بن مصعب

وسأل المعتصم جماعةً من خواصه عن معنى سبب تسمية طاهرٍ ذا اليمينين فلم يعلموا، فقال محمد بن عبد الملك: ذو الاستحقاقين، استحقاق ما لجده زريق في الدولة، واستحقاق ماله في دولة المأمون؛ قال تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾، أي: بالاستحقاق؛ وقال الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجدٍ تلقاها عرابة باليمين

أي: بالاستحقاق؛ واليمين بمعنى الاستحقاق.

وقال غيره: إنما سمي ذا اليمينين لأن المأمون كتب إليه لما فرغ من أمر المخلوع: يا أبا الطيب، يمينك يمين أمير المؤمنين، وشمالك يمين فبايع بيمينك يمين أمير المؤمنين، ففعل، فلزمه هذا الاسم.

ذو الثَّفِنات

كان يقال لكلٍّ مِن علي بن الحسين بن علي، وعلي بن عبد الله بن العباس: ذو الثفنات، لما على أعضاء السجود منهما من السجادات الشبيهة بثفنات الإبل، وذلك لكثرة صلاتهما؛ قال دعبل:

مدارس آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزل وحيٍ مقفر العرصات
ديار علي والحسين وجعفرٍ وحمزة والسجاد ذي الثفنات

قال المبرد: وكانت لعلي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم خمسمائة أصل زيتونٍ، يصلي كل يومٍ عند كل أصلٍ ركعتين.

ذو القلمين

علي بن أبي سعيد بن كنداجيق؛ كان يسمى ذا القلمين لأنه كان يتولى ديواني الخراج والجيش للمأمون بن الرشيد.

ذو الرياستين

هو الفضل بن سهل، سماه المأمون ذا الرياستين لأنه دبر له أمر السيف والقلم، وولي رياسة الجيوش والدواوين.

وقد أوردت نكت أخباره في كتاب: فَضلُ مَن اسمه (الفضلُ).

ذو الوزارتين

كانوا قد عزموا على أن يسموا صاعد بن مخلد ذا التدبيرين؛ فقال لهم عبيد الله بن عبد الله بن طاهر: لا تسموه بشيءٍ ينفرد به عنكم، فسموه ذا الوزارتين، يعنون وزارة المعتمد ووزارة الموفق.

ومدح ابن الرومي بني نوبخت، وكانوا مختصين بصاعدٍ، فأراد أن يذكر ذا الوزارتين واجتباءه إياهم؛ فلم يستقم له ذكر ذي الوزارتين، فسماه ذا الغناءين حيث قال:

ولما اجتباهم ذو الغناءين صاعد غدا وهو مسرور بهم غير نادم

ذو الكفايتين

هو أبو الفتح بن أبي الفضل بن العميد؛ سمي ذا الكفايتين لكفايته ركن الدولة أبا علي أمور الدواوين والجيوش.

وقد أوردت نكت أخباره وغرر أشعاره في كتاب: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر.

ذات النِّحْيين

هذلية جرى بها المثل في الشغل والشح، فقيل: أشغل من ذات النحيين وأشح من ذات النحيين.

ومن حديثها أن خوَّات بن جبير الأنصاري في الجاهلية حضر سوق عكاظ، فانتهى إلى هذه المرأة وهي تبيع السمن، فأخذ نحيًا من أنحائها، ففتحه ثم ذاقه ودفع النحي في إحدى يديها، ثم فتح نحيًا آخر ودفع فمه في يدها الأخرى، ثم كشف ذيلها وواقعها وهي غير ممانعته لحفظ فم النحيين، ولم تدفعه خوفًا على السمن حتى قضى حاجته؛ فلما قام عنها قالت له: لا هنَّأك الله؛ فرفع خوات عقيرته وقال:

وأم عيالٍ واثقين بكسبها خلجت لها جار استها خلجات
وأخرجته ريان يقطر رأسه من الرامك المخلوط بالمغرات
شغلت يديها إذ أردْت خلاطها بنحيين من سمنٍ ذوي عجرات
فكان لها الويلات من ترك نحيها وويل لها من شدة الطعنات
فشدت على النحيين كفي شحيحةٍ على سمنها والفتك من فعلاتي

فضربت العرب بها المثل فقالوا: أنكح وأغلم من خواتٍ، وأشغل وأشح من ذات النحيين.

والرامَك: ضرب من الطيب، والمَغرة: ضرب من الطيب تتضايق بها نساء العرب كما يتضايقن بعجم الزبيب.

ذات النطاقين

هي أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكانت تحت الزبير رضي الله عنه، ومنها عبد الله والمنذر وعروة وعاصم.

وإنما سميت ذات النطاقين لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تجهز مهاجرًا ومعه أبو بكرٍ، أتاهما عبد الله بن أبي بكرٍ وهما في الغار ليلًا بسفرتهما ومعه أسماء، وليس للسفرة شناق فشقت له أسماء من نطاقها فشنقتها به، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد أبدلك الله بنطاقك هذا نطاقين في الجنة» فقيل لها: ذات النطاقين.

ولما قاتل أهل الشام عبد الله بن الزبير بمكة كانوا يصيحون به: يابن ذات النطاقين؛ وهو يقول: ابنها أنا والله، ثم ينشد:

وعيرها الواشون أني أحبها وتلك شكاة ظاهر عنك عارها
فإن أعتذر عنها فإني مكذب وإن تعتذر يردد عليها اعتذارها

وكان يقال: لو أن أبناء أبي بكر كبناته لعز على عمر نيل الخلافة، لأن عائشة صاحبة يوم الجمل؛ وأسماء هي التي حضت ابنها عبد الله بن الزبير على صدق القتال والجد في المكافحة والتحصن بالكعبة.

ولما قال لها عبد الله وقد اشتد به الأمر في محاصرة الحجاج إياه: يا أم، إني لا أخاف القتل ولكني أخاف المثلة، فقالت: يا بني إن الشاة المذبوحة لا تألم للسلخ؛ فسار قولها مثلًا.

ولما قتل عبد الله وصلب تقدمت أسماء إلى الحجاج فقالت له: يا حجاج أما آن لراكبك أن ينزل! فأمر بإنزاله وكان آلى على نفسه ألا ينزله أو تتكلم أمه في شأنه.

وكان عبد الله يسمى العائذ، لأنه عاذ بالبيت؛ ولما حبس عبد الله ابن الحنفية في خمسة عشر رجلًا من بني هاشم وقال: لتبايعني أو لأحرقنكم؛ قال كثير فيه:

تخبر من تلقاه أنك عائذ بل العائذ المحبوس في سجن عارم
وأنك آل المصطفى وابن عمه وفكاك أغلالٍ وقاضي مغارم

وسجن عارم الذي حبسهم فيه سمي بذلك.

وقال ابن الرقيات في مكة:

بلد يأمن الحمائم فيه حيث عاذ الخليفة المظلوم

وكان عبد الله يدعى المُحِلُّ، لإحلاله القتال في الحرم؛ وقال شاعر في رثاء صاحبه:

ألا من لقلبٍ معنًى غزل بحب المحلة أخت المحل

ذات الخمار

هنيدة بنت صعصعة، عمة الفرزدق.

وكانت تقول: من جاءت من نساء العرب بأربعةٍ يحل لها أن تضع خمارها عندهم كأربعتي فصرمتي لها: أبي صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع بن حابس، وزوجي الزبرقان بن بدر، فسميت ذات الخمار لذلك.

قال الزبير بن بكار: كان هند بن أبي هالة ربيب النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أن أكرم الناس أربعةً: أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمي خديجة، وأختي فاطمة، وأخي القاسم.

قال الزبير: فهؤلاء الأربعة لا أربعتها.

ذات الأنواط

شجرة عظيمة خضراء كانت قريش ومن سواهم من الكفار من العرب يأتونها كل سنةٍ، فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها، ويعكفون عندها يومًا.

حدث وهب بن جبير بإسناده عن أبي واقد الليثي قال: لما فصلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين مررنا بها، فلما رأينا السدرة ونحن يومئذ حديثو عهدٍ بالجاهلية، فسار بنا من جانب الطريق، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الله أكبر، هذا والله كما قال قوم موسى لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾؛ أما إنكم لتركبن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل». ومضى على وجهه؛ والله أعلم.

الباب العشرون

في ذكر النساء المضافات والمنسوبات يُتَمثَّل بهن

بنات طارق، بنات الحارث بن هشام، بنات نصيب، بنت الحارث بن عباد، زرقاء اليمامة، عجائز الجنة، عجوز اليمن، حمالة الحطب، خضراء الدمن، زواني الهند، صواحب يوسف، ضرائر الحسناء.

الاستشهاد

بنات طارق

ذكر الزبير بن بكار بإسناد له أنهن بنات العلاء بن طارق بن الحارث بن أمية بن عبد شمس بن المرفع؛ من كنانة؛ يضرب بهن المثل في الحسن والشرف.

وعن محمد بن يحيى، عن غسان بن عبد الحميد، قال: رأت عائشة رضي الله عنها بنات طارق اللاتي يقلن:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق

فقالت: أخطأ من يقول: إن الخيل أحسن من النساء.

وقالت هند بنت عتبة لمشركي قريش يوم أحد:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
والدر في المخانق والمسك في المفارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وعن يحيى بن عبد الملك قال: جلست ليلة وراء الضحاك بن عثمان الحزامي في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا متقنع، فذكر الضحاك وأصحابه قول هند يوم أُحد: نحن بنات طارق، فقالوا: ما طارق؟ فقلت لهم: النجم؛ فالتفت الضحاك فقال: يا أبا زكريا، وكيف بذلك، فقلت: قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، وإنما قالت: نحن بنات النجم، لشرفه وعلوه، فقال: أحسنت.

بنات الحارث بن هشام

يضرب بهن المثل في الحسن والشرف وغلاء المهر؛ وأبوهن الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي.

قال الجاحظ: بنو مخزوم ضرب بهم المثل، ووصفوا في كل غاية، فقيل: أتيه من مخزومي.

وكانت قريش وكنانة ومن والاهم يؤرخون بثلاثة أشياء، كانوا يقولون: كان ذلك زمن بناء الكعبة؛ وكان ذلك عام الفيل؛ وكان ذلك عام موت هشام.

قال عبد الله بن ثور الخفاجي:

فأصبح بطن مكة مقشعرًا كأن الأرض ليس بها هشام

قال الجاحظ: وهذا مثل وفوق المثل.

وقال مسافر بن أبي عمرو:

تقول لنا الركبان في كل منزلٍ أمات هشام أم أصابكم جدب

فجعل موته وفقد الغيث سواء.

وكانت بنو مخزوم تسمى ريحانة قريش لحظوة نسائها عند الرجال؛ وكانت الجارية تولد لأحد آل الحارث بن هشام فتتباشر النساء بها، ويرى أهلها أنهم أغنياء لرغبة الخطاب فيها؛ ولذلك قال ابن هرمة من قصيدةٍ:

ومن لم يرد مدحي فإن قصائدي نوافق عند الأكرمين سوام

نوافق عند المشتري الحمد بالندى نفاق بنات الحارث بن هشام

ولما زوج الوليد بن عبد الملك ابنه عبد العزيز بأم حكيم بنت يحيى بن الحكم؛ وأمها بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وكان يقال لها: الواصلة؛ لأنها وصلت الشرف بالجمال؛ أمهرها بأربعين ألف دينار، وقال لجرير وعدي بن الرقاع: اغدوا علي فقولا في عبد العزيز وأم حكيم، فغدوا عليه، وأنشده جرير قصيدةً منها:

ضم الإمام إليه أكرم حرةٍ في كل حالات من الأحوال

حكيمة علت الحرائر كلها بمفاخر الأعمام والأخوال

فإذا النساء تفاضلت ببعولةٍ فضلتهم بالسيد المفضال

ثم قام عدي فأنشد:

قمر السماء وشمسها اجتمعا بالسعد ما غابا وما طلعا

ما وارت الأستار مثلهما فيمن رأى منهم ومن سمعا

دام السرور له بها ولها وتهنأا طول الحياة معا

فقال له الوليد: لئن أقللت فلقد أحسنت؛ وأمر له بضعف ما أمر لجرير.

وعدي هذا أول من شبه الزوجين بالشمس والقمر، ومنه أخذ الشعراء هذا التشبيه وأكثروا.

بنات نصيب

قد تقدم ذكرهن في الباب الخامس عشر، وضرب الناس المثل بهن للبنت يضن بها أبوها على من يخطبها، ولا يرغب فيها من يرضاه لها فتبقى معنسةً.

بنت الحارث بن عباد

ممن يتمثل بها من النساء في الشرف والجمال بنت الحارث بن عباد؛ وأنشد الجاحظ لامرأة من بني مرة بن عباد:

جاؤوا بحارشة الضباب كأنما   جاؤوا ببنت الحارث بن عباد

زرقاء اليمامة

العرب تضرب المثل بها في جودة البصر وحدة النظر.

ويقال: إن اليمامة اسمها، وبها سميت بلدها اليمامة، ثم أضيفت إلى البلدة فقيل: زرقاء اليمامة؛ واسم البلدة جو، وربما قيل: زرقاء الجو، كما قال أبو الطيب المتنبي:

وأصر من زرقاء جو لأنني   إذا نظرت عيناي شاءهما علمي

وهي امرأة من جديسٍ كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيامٍ، فلما قتلت جديس طسمًا خرج رجل من طسمٍ إلى حسان بن تبعٍ فاستجاشه وأرغبه، فخرج في جيشٍ جرار، فلما كانوا من جو على مسافة ثلاثة أيامٍ صعدت الزرقاء السطح فنظرت إلى الجيش، وقد أمروا أن يحمل كل رجلٍ منهم شجرةً يستتر بها ليلبسوا عليها، فقالت: يا قوم، قد أتتكم الشجر، أو أتتكم حمير، قد أخذت أشياء تجرر؛ فلم يصدقوها؛ فقالت: أحلف بالله لقد أرى رجلًا ينهش كتفًا، أو يخصف نعلًا؛ فلم يصدقوها؛ ولم يستعدوا، حتى صبحهم حسان فاجتاحهم، وأخذ الزرقاء فشق عينيها، فإذا فيها عروق سود من الإثمد؛ وقد ذكرها الأعشى فقال:

ما نظرت ذات أشفارٍ كنظرتها   حقًا كما نظر الذئبي إذ سجعا

قالت: أرى رجلًا في كفه كتف   أو يخصف النعل لهفي أيةً صنعا

وإياها عنى النابغة بقوله:

واحكم كحكم فتاة الحي إذ نظرت   إلى حمامٍ سراعٍ وارد الثمد
قالت: ألا ليتما هذا الحمام لنا   إلى حمامتنا أو نصفه فقد

ولها قصة معروفة سائرة.

عجائز الجنة

روى الزبير بن بكار بإسنادٍ له قال: كان عروة بن الزبير عند عبد الملك بن مروان، فذكر أخاه عبد الله، فقال: قال أبو بكرٍ كذا، وفعل أبو بكرٍ كذا؛ فقال له بعض الحاضرين: أتكنيه عند أمير المؤمنين! لا أم لك! فقال له عروة: ألي يقال: لا أم لك، وأنا ابن عجائز الجنة؟ يعني صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أم الزبير؛ وخديجة بنت خويلد سيدة نساء العالمين، وهي عمة الزبير؛ وعائشة أم المؤمنين، وهي خالة ابن الزبير؛ وأسماء ذات النطاقين، وهي أمه.

عجوز اليمن

قال وهب بن منبه: استعمل علينا عبد الله بن الزبير رجلًا منا، وكان دميمًا يلقب عجوز اليمن، فقدمت على ابن الزبير في وفد اليمن وعنده عبد الله بن خالد بن أسيد، فقال لي: يا أبا عبد الله، كيف عجوز اليمن؟ فلم أجبه؛ فأعادها مرارًا، فلما أكثر قلت: ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فما فعلت عجوز قريش؟ قال: وما عجوز قريش؟ قلت: أم جميلٍ ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، فضحك ابن الزبير، وقال لابن خالد: أسأت المسألة، وأحسن الجواب.

حمالة الحطب

هي أم جميل بنت حرب، وأخت أبي سفيان التي ذكرها الله تعالى في سورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾.

يضرب بها المثل في الخسران؛ فيقال: أخسر من حمالة الحطب؛ قال الشاعر:

جمعت شيئًا ولم تحرز له بدلًا لأنت أخسر من حمالة الحطب

ولقي الفضل بن العباس بن أبي لهب الأحوص الأنصاري الشاعر، فأنشده الأحوص من شعره، فقال له الفضل: إنك لشاعر، ولكنك لا تحسن أن تؤبد، فقال: بلى، والله إني لأحسن أن أوبد حيث أقول وقال مكانه:

ما ذات حبلٍ يراها الناس كلهم وسط الجحيم ولا تخفى على أحد
ترى حبال جميع الناس من شعرٍ وحبلها وسط أهل النار من مسد

فأجابه الفضل بن العباس فقال:

ماذا تريد إلى شتمي ومنقصتي أم ما تعير من حمالة الحطب
غراء سائلة في المجد غرتها كانت سلالة شيخٍ ثاقب الحسب

خضراء الدمن

هذه من جوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم القليلة الألفاظ، الكثيرة المعاني، التي لم تسبقه العرب إليها؛ ولما قال صلى الله عليه وسلم: «إياكم وخضراء الدمن» قيل: يا رسول الله، وما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء في منبت السوء».

وحكى الهمذاني عن أبي الفتح الإسكندري في إحدى مقاماته: علقت خضراء دمنةٍ، وشقيت منها بابنة.

زواني الهند

قال الجاحظ: إنما صار الزنا وطلب الرجال في نساء الهند أعم لأن شهوتهن للرجال أشد، فلذلك اتخذ الهند دورًا للزواني.

قال: ومن إحدى علل حبهن للزنا، وفارة البظر والقلفة؛ فإن البظراء تجد من اللذة ما لا تجده المختونة؛ وأصل ختان النساء لم يحاول به الحسن دون التماس نقصان الشهوة، ليكون العفاف مقصورًا عليهن؛

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لأم عطية الخاتنة: «أشميه ولا تنهكيه؛ فإنه أسرى للوجه، وأحظى عند البعل»، كأنه أراد أنه ينقص من شهوتها بقدر ما يردها إلى الاعتدال، فإن شهوتها إذا قلت ذهب التمتع، ونقص حب الأزواج، وحب الزوج قيد دون الفجور.

وذكر صاحب كتاب المسالك والممالك أن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحًا، خلا ملك قمار.

قال: وقد دخلت مدينته وأقمت بها سنتين فلم أر ملكًا أغير ولا أشد في الأشربة منه، فإنه يعاقب على الزنا والشرب بالقتل؛ فأما غيره من ملوك الهند فإنهم جميعًا يرون الزنا مباحًا، ولا يتحاشون عنه، غير أن من أحصن منهم امرأةً فعرض لها عارض فزنيا جميعًا قتل الرجل والمرأة قتلًا ذريعًا.

صواحب يوسف

يقال للنساء عند شكايتهن وذم أخلاقهن.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لبعض نسائه وهو يعاتبها: «إنكن صواحبات يوسف».

وقال أبو تمام:

فهن عوادي يوسف وصواحبه

ضرائر الحسناء

يضرب مثلًا لحساد الأفاضل؛ قال الشاعر:

سدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدًا وبغضًا: إنه لدميم

الباب الحادي والعشرون

فيما يضاف وينسب إلى النساء

كيد النساء، رأي النساء، نخلة مريم، عرش بلقيس، ذنب صحر، شؤم البسوس، عطر منشم، حمق دغة، رغيف الحولاء، عزة أم قرفة، قوة الزباء، يوم حليمة، نكاح أم خارجة، برد العجوز، غلمة سجاح، بيت عاتكة، حمام منجاب، سوق العروس، مرآة الغريبة، سوداء العروس، بكاء الثكلى، ليلة العروس، أصابع زينب، فحش مومسة، داء الضرائر.

الاستشهاد

كيد النساء

يضرب به المثل في كل زمان.

قال بعض السلف: إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، ويقول: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾. فإن قيل: إن هذا الكلام لم يحكه الله عن نفسه، وإنما حكاه عن غيره حيث قال: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، قيل: قد صدقتم، والصفة على ما ذكرتم، إلَّا أن الكلام لو كان منكرًا لأنكره الله تعالى، ولو كان معيبًا لعابه الله تعالى، وقد حكاه الله تعالى

ولم يعبه، وجعله قرآنًا وعظمه بذلك، والمعنى مما لا ينكر في العقل ولا في اللغة ولا في الكلام، إذا كان على هذه الصفة فهو مثله إذا كان هو المنشئ له.

ومما قيل في كيد النساء:

كادني المازني عند أبي العبْـ ـبَاس والفضل ما علمت كريم
شبهًا بالنساء في كل أمرٍ إن كيد النساء كيد عظيم

وقال يحيى بن علي المنجم:

رب يومٍ عاشرته فتقضى بعد حمدٍ عن آخرٍ مذموم
يا لقومي لضعفه ولكيدٍ مثل كيد النساء منه عظيم!

رأي النساء

يضرب به المثل في الوهن والخطأ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «شاوروهن وخالفوهن». وقال: «ذل من أسند أمره إلى رأي امرأةٍ».

وقال الشاعر:

شيئان يعجز ذو الرياضة عنهما رأي النساء وإمرة الصبيان
أما النساء فميلهن إلى الهوى وأخو الصبا يجري بغير عنان

نخلة مريم

قال ابن سمكة: من أمثالهم: أعظم بركةً من نخلة مريم؛ قال: وكانت نخلة مريم: العجوة؛ وقال الله تعالى في قصتها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

وقال صاحب كتاب المسالك والممالك: هي في بيت المقدس؛ ويقال: إنها غرست منذ أكثر من ألفي سنة، وهي منحنية.

ومن بارع التمثل بها قول الشاعر:

ألم تر أن الله أوحى لمريمٍ وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزة جنته ولكن كل رزق له سبب

عرش بلقيس

يضرب به المثل كما قال الشاعر:

مطبخ داود في نظافته أشبه شيءٍ بعرش بلقيس
ثياب طباخه إذا اتسخت أنقى بياضًا من القراطيس

وكما قال السري الموصلي في وصف قوادٍ حاذقٍ:

من ذم إدريس في قيادته فإنني حامد لإدريس
كلم لي عاصيًا فكان له أطوع من آدم لإبليس
وكان في سرعة المجيء به آصف في حمل عرش بلقيس

ذنب صحر

صحر امرأة، وهي بنت لقمان بن عاد.

وكان أبوها لقمان وأخوها لقيم خرجا مغيرين، فأصابا إبلًا كثيرة، فسبق لقيم إلى منزله؛ وعمدت صحر إلى جزورٍ مما قدم به لقيم، وصنعت منه طعامًا يكون معدًّا لأبيها لقمان إذا قدم؛ وقد كان لقمان حسد لقيمًا في تبريزه عليه؛ فلما قدمت صحر إليه الطعام، وعلم أنه من غنيمة لقيمٍ، لطمها لطمةً قضت عليها؛ فصارت عقوبتها مثلًا لكل من لا ذنب له ويعاقب.

وفيها يقول خفاف بن ندبة:

وعباس يدب لي المنايا وما أذنبت إلَّا ذنب صحر

شؤم البسوس

هي بنت منقذ التميمية، زارت أختها أم جساس بن مرة، ومع البسوس جار لها من جرم، يقال له سعد بن شمس، ومعه ناقة له، فرماها كُلَيْب وَائِل لما رآها في مرعى قد حماه، فأقبلت الناقة إلى صاحبها وهي ترغو، وضرعها يشخب لبنًا ودمًا؛ فلما رأى ما بها انطلق إلى البسوس فأخبرها بالقصة، فقالت: وا ذُلَّاه! وا غرُبتاه! وأنشأت تقول أبياتًا تسميها العرب أبيات الفناء، وهي:

لعمري لو أصبحت في دار منقذٍ لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غربةٍ متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل فإنك في قومٍ عن الجار أموات
ودونك أذوادي فخذها وإنني لراحلة لا تغدروا ببنياتي

فسمعها ابن أختها جساس فقال لها: أيتها الحرة، اهدئي، فوالله لأقتلن بلقحة جارك كليبًا، ثم ركب فخرج إلى كليبٍ فطعنه طعنةً أثقلته فمات منها.

ووقت الحرب بين بكرٍ وتغلب فدامت أربعين سنةً، وجرت خطوب يطول بذكرها الخطاب.

وسار شؤم البسوس مثلًا، ونسبت الحرب إليها لكونها سببها، فقيل: حرب البسوس؛ وهي من أشهر حروب العرب، والمثل بها سائر جدًّا.

ومن أملح ما قيل فيها قول المغلسي من قصيدةٍ:

وكأن بين يمينه وتراثه حرب البسوس
وكأنه في زهده وعفافه بشر المريسي

عطر منشم

الأقاويل فيه كثيرة.

قال ابن قتيبة: أحسن ما سمعت فيه أن منشم امرأة كانت تبيع العطر والحنوط في الجاهلية فقيل للقوم إذا تحاربوا وتفانوا: دقوا بينهم عطر منشم.

وقال حمزة بن الحسن: كانت منشم عطارة تبيع الطيب، فكانوا إذا قصدوا حربًا غمسوا أيديهم في طيبها، وتحالفوا عليه بأن يستميتوا في الحرب ولا يولوا أو يقتلوا؛ فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول الناس: قد دقوا بينهم عطر منشمٍ؛ فلما كثر منهم هذا القول صار مثلًا.

فممن تمثل به زهير حيث قال:

تداركتما عبسًا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

حمق دغة

هي بنت منعج، زوجت وهي صغيرة في بني العنبر، فحملت، فلما ضربها المخاض ظنت أنها تحتاج إلى الخلاء، فبرزت إلى بعض الغيطان ووضعت ذا بطنها، فاستهل الوليد، فجاءت منصرفةً وهي لا تظن إلَّا إنها أحدثت فقالت لأمها: يا أماه، هل يفتح الجعر فاه؟ قالت: نعم، ويدعو أباه؛ فسب بها بنو العنبر، فسموا بني الجعراء.

ولها حماقات كثيرة، والمثل بحمقها مشهور سائر.

أنشدني الخوارزمي لبعض أهل عصره في أبي منصور الأزهري الهروي:

الأزهري وزغة وحمقه حمق دغة
ويدعي من جهله كتاب تهذيب اللغة
وهو كتاب العين إلْـ ـلَا أنه قد صبغه

قال: وإنما نسج على منوال من قال في ابن دريد:

ابن دريدٍ بقرة وفيه عي وشره

ويدعي من قحةٍ وضع كتاب الجمهرة
وهو كتاب العين إلْــ ــلَا أنه قد غيره

رغيف الحولاء

من أمثال العرب: أشأم من رغيف الحولاء.

وكانت خبازةً في بني سعد بن زيد مناة، فمرت وعلى رأسها كارة خبزٍ، فتناول رجل من رأسها رغيفًا، فقالت: والله مالك علي حق، ولا استطعمتني، فبم أخذت رغيفي؟! أما إنك ما أردت بهذا إلَّا فلانًا، تعني رجلًا كانت في جواره، فمرت إليه شاكيةً، فثار وثار معه قومه إلى الرجل الذي أخذ الرغيف وقومه، فقتل بينهم ألف نفس، وسار رغيف الحولاء مثلًا في الشؤم، والشيء اليسير يجلب الخطب الكبير.

وفي رسالة ابن العميد إلى أبي العلاء السروي التي ينكر فيها تعصبه للعجم على العرب:

> اقبل وصية خليلك، وامتثل مشورة نصيحك، ولا تتماد في ميدان الجهل ينضك، ولا تتهافت في لجاج يغريك، واخش يا سيدي أن يقال: التحمت حرب البسوس من ضرع دمي، واشتبكت حرب غطفان من أجل بعيرٍ قرع، وقتل ألف فارسٍ برغيف الحولاء، وصب الله على العجم سوط عذابٍ بمزاح أبي العلاء.

عزة أم قرفة

قال الأصمعي: من أمثالهم إذا أرادوا العز والمنعة قالوا: إنه لأمنع من أم قرفة، وهي بنت مالك بن حذيفة بن بدر، وكان يعلق في بيتها خمسون سيفًا لخمسين فارسًا، كلهم لها محرم.

وقال غير الأصمعي: هي بنت ربيعة بن بدر.

قوة الزباء

هي امرأة من العماليق، وأمها من الروم، ملكت الجزيرة وعظم شأنها؛ فكانت تغزو بالجيوش، وهي التي غزت ماردًا والأبلق، وهما حصنان في نهاية الوثاقة، فاستصعبا عليها، فقالت: تمرد مارد وعز الأبلق، فذهبت مثلًا.

وهي التي فتكت بجذيمة الأبرش حتى أخذ ثأره منها قصير وقتلها، والقصة معروفة سائرة.

يوم حليمة

هو من أشهر أيام العرب، ولذلك قيل: ما يوم حليمة بسر، وفيه يقول النابغة:

تخيرن من أزمان يوم حليمةٍ إلى اليوم قد جربن كل التجارب

وحليمة بنت الحارث بن أبي شمرٍ، وإنما نسب اليوم إليها لأن أباها وجه جيشًا إلى المنذر بن ماء السماء، فحضرت حليمة المعركة محرضةً لعسكر أبيها على القتال؛ وقيل: إنها أخرجت لهم طيبًا في مركنٍ فطيبتهم به.

ويزعم العرب أن الغبار ارتفع في ذلك اليوم حتى غطى عين الشمس، فظهرت الكواكب؛ فسار المثل بذلك، وقيل: لأرينك الكواكب ظهرًا؛ كما قال طرفة:

إن تنوله فقد تمنعه وتريه النجم يجري بالظهر

نكاح أم خارجة

يضرب به المثل في السرعة، فيقال: أسرع من نكاح أم خارجة؛ وهي عمرة بنت سعد بن عبد الله من بجيلة، كان يأتيها الخاطب فيقول: خطب، فتقول نكح.

ويروى أنها كانت تسير يومًا ومعها ابن لها يقود جملها، فرفع لها شخص فقالت لابنها: من ترى ذلك الشخص؟ قال: أراه خاطبًا، فقالت: يا بني تراه يعجلنا عن أن نحل؟ ما له؟ أل وغل.

أل: أي طعن بالألة، وهي الحربة؛ وغل: وضع في عنقه الغل.

قال المبرد: ولدت أم خارجة للعرب في نيفٍ وعشرين حيًا من آباء متفرقين؛ وكانت هي إحدى النساء اللاتي إذا تزوج منهن الرجل فأصبحت عنده كان أمرها إليها، إن شاءت أقامت، وإن شاءت ذهبت؛ وكانت علامة ارتضائها للزوج أن تصنع له طعامًا كما تصبح.

وروى الصولي عن مشايخه، عن إسماعيل الساحر، قال: خرجت مع السيد الحميري وقت المغرب، وقد شربنا عند نصر بن مسعود، فلقيتنا فرحة بنت الفجاءة بن عمرو بن قطري بن الفجاءة الخارجي راكبةً فرسًا، وكانت برزةً ظريفةً جميلةً فصيحةً جزلةً فهمةً؛ فرافقها السيد وأحسن خطابها وهي لا تعرفه، فتحاورا أحسن حوار؛ إلى أن خطب إليها نفسها، فقالت: أعلى ظهر الطريق! فقال: ألم يكن نكاح أم خارجة أسرع من هذا! فاستضحكت وقالت: نصبح وننظر من الرجل وممن؟ فأنشد:

إن تسأليني بقومي تسألي رجلًا　　　في ذروة العز من أحياء ذي يمن
إني امرؤ حميري حين تنسبني　　　جدي رعين وأخوالي ذوو يزن

فعرفته فقالت: يماني وتميمية، ورافضي وحرورية، كيف يجتمعان! قال: على أن لا نذكر سلفًا ولا مذهبًا؛ فتزوجته سرًا، فأقاما معًا في عيشة راضيةٍ، ولم ينكر أحدهما من صاحبه شيئًا حتى فرق بينهما الموت.

قال مؤلف الكتاب: وممن جمعتهم الصداقة على اختلاف المذاهب؛ الكُمَيت والطِّرِمّاح، فإن الكُمَيت كان رافضيًا غاليًا، والطِّرِمّاح كان خارجيًا حروريًا، وكان بينهما أحسن وألطف ما يكون بين صديقين شقيقين، فإذا قيل لهما في ذلك قالا: اجتمعنا على بغض العامة.

ومما ينخرط في سلك هذه الحكاية والحديث شجون ما حدث به ابن عائشة، قال: كان للحسن بن قيس بن حصين ابن شيعي وابنة حرورية وامرأة معتزلية، وأخت مرجئية، وهو سني جماعي، فقال لهم ذات يوم: أراني وإياكم طرائق قِددًا!

معنى الحديث؛ كما يقول إسحاق الموصلي في كتاب الأغاني.

برد العجوز

فيه أقوال مختلفة.

فمنها أن عجوزًا دهريةً كاهنةً من العرب كانت تخبر قومها ببردٍ يقع في أواخر الشتاء وأوائل الربيع فيسوء أثره على المواشي، فلم يكترثوا لقولها وجزوا أغنامهم واثقين بإقبال الربيع، فلم يلبثوا إلَّا مديدةً حتى وقع برد شديد أهلك الزرع والضرع، فقالوا: هذا برد العجوز، يعنون العجوز التي كانت تنذر به.

ومنها أن عجوزًا كانت بالجاهلية ولها سبعة بنين، فسألتهم أن يزوجوها وألحت عليهم، فتآمروا بينهم، وقالوا: إن قتلناها لم نأمن عشيرتها، ولكن نكلفها البروز للهواء سبع ليالٍ، لكل واحد منا ليلة؛ فقالوا لها: إن كنت تزعمين أنك شابة فابرزي للهواء سبع ليالٍ، فإننا نزوجك بعدها؛ فوعدت ذلك، وتعرت تلك الليلة والزمان شتاء كلب، وبرزت للهواء فلما أصبحت قالت:

إيهًا بني إنني لناكحة وإن أبيتم إنني لجامحة
هان عليكم ما لقيت البارحة

فقالوا لها: لا بد أن تنجزي وعدك في الليالي السبع؛ ففعلت، وماتت في الليلة السابعة.

ونسب العرب إليها برد الأيام الثمانية؛ وأسماؤها: الصن، والصنبر، والوبر، وآمر، ومؤتمر، ومعلل، ومطفئ الجمر، ومكفئ الظعن، وفيها شعر مصنوع:

كسع الشتاء بسبعةٍ غبر أيام شهلتنا من الشهر
فإذا انقضت أيام شهلتنا بالصن والصنبر والوبر
وبآمر وأخيه مؤتمرٍ ومعللٍ وبمطفئ الجمر
ذهب الشتاء موليًا عجلًا وأتتك وافدة من الحر

وزعم بعض المفسرين أنها الأيام التي أهلك الله تعالى فيها عادًا، فقال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ❁ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ❁ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾.

وقد ظرف ابن المعتز في هجاء عجوزٍ نسب إليها البرد، وأوهم أنه يعني برد العجوز المذكورة، وهو يعني برد عجوز أخرى هجاها، فقال:

جمد برد العجوز في كوزها الـ ـماء وأطفئ نيران مجمرها

فليت برد العجوز في فمها وحر فيها يكون في حرها

وقال ابن الرومي وهو يضرب المثل ببرد العجوز:

كنت عند الأمير، أيده اللـ ـه، لأمرٍ وذاك في تموز
فتغنى فهزني البرد حتى خلت أني في وسط برد العجوز

غلمة سجاح

سجاح بنت عقفان التميمية، أوقح امرأة وأكذبها.

وذلك أنها كانت كاهنةً زمانًا، تزعم أن رئيها ورئي سطيح واحد، ثم جعلت ذلك الرئي ملكًا حتى ادعت النبوة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تجهزت في قومها إلى مسيلمة الكذاب، فقال قيس بن عاصم:

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الله ذكرانا
يا لعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن بالإفك أغرانا
أعني مسيلمة الكذاب لا سقيت أصداؤه ماء مزنٍ حيثما كانا

ولما آمنت به بعد جحدها لنبوته، وبعد مناقضتها إياه وهبت نفسها له، فقال لها:

ألا قومي إلى المخدع فقد هيِّئ لك المضجع
فإن شئت سلقناك وإن شئت على أربع
وإن شئت بثلثيه وإن شئت به أجمع

فقالت: بل به أجمع؛ فهو أجمع للشمل؛ فجرى المثل بغلمتها حتى قيل: أغلم من سجاح.

قال الجاحظ: لم نعلم أحد قط ادعى أن الله أرسله إلى قومٍ وآمنوا به ثم زعم أنه كاذب سوى طليحة وسجاح؛ فإنهما تنبئآ ثم أظهرا التوبة، وجلسا يحدثان من كان مؤمنًا بهما وصدقهما، ويخبرانهم بأنهما

كانا فيما يدعيان مبطلين كاذبين؛ وإذا لم تستح فاصنع ما شئت!

بيت عاتكة

يضرب مثلًا في الموضع الذي تعرض عنه بوجهك، وتميل إليه بقلبك، وهو من قول الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنني قسمًا إليك، مع الصدود، لأميل

ويحكى أن كلًا من يحيى بن خالد وابن المقفع مر ببيت النار، فأنشد البيتين.

وهما من قصيدة طويلة أنشدنيها الأمير السيد — أدام الله تأييده — يومًا من أولها إلى آخرها، وأنا أسايره، وهو يكسوها أحسن معرضٍ من عبارته، وجودة إنشاده، فسقط سوطي من يدي وأنا لا أشعر به، لاشتغال خاطري بها، وانصراف فكري كله إلى جزالتها وبراعتها وشرف منشدها، فلما انتهى إلى هذا البيت:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق الحديث يقول ما لا يفعل

قال لي: إن لهذا البيت قصة من المنصور، واستمر في إنشاد تمام القصيدة، فانتهت مسافة الطريق قبل أن أسأله عن تلك القصة؛ وعرضت موانع عن مذاكرته فيها عند النزول والتمكن، ثم وجدتها في أخبار المنصور.

وهي أنه لما توفيت امرأة أبي بكر الهذلي وكانت أم ولده والقيمة بأمور منزله جزع عليها جزعًا شديدًا، وبلغ ذلك المنصور، فأمر الربيع بأن يأتيه ويعزيه ثم يقول له: إن أمير المؤمنين موجه إليك بجاريةٍ نفيسةٍ، لها أدب وظرف، تسليك عن زوجك، وتقوم بأمور دارك، أمر لك معها بفرشٍ وكسوةٍ وصلةٍ؛ فلم يزل الهذلي يتوقعها، ونسيها المنصور.

ثم إن المنصور حج ومعه الهذلي، فقال له وهو بالمدينة: إني أحب أن أطوف الليلة في المدينة، فاطلب لي رجلًا يعرف منازلها ومساكنها ورباعها، وطرقها وأخبارها وأحوالها، ليكون معي فيعرفني جميعها؛ فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين.

فلما أرخى الليل سدوله خرج المنصور على حمار يطوف مع الهذلي في سكك المدينة، وهو يسأله عن ربعٍ ربعٍ، وسكةٍ سكةٍ، وموضعٍ موضعٍ، فيخبره لمن هو ولمن كان، ويقص عليه قصته والحال فيه، ثم قال: وهذا يا أمير المؤمنين بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص:

يا بيت عاتكة الذي أتغزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل

فأنكر المنصور ابتداءه بذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه، فلما رجع إلى منزله أمر القصيدة كلها على قلبه فإذا فيها:

أراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق الحديث يقول ما لا يفعل

فعلم المنصور أنه لم يصل إلى الهذلي ما وعده إياه من الجارية والكسوة والفرش، فحمل إليه واعتذر له.

حمام منجاب

منجاب امرأة كان لها حمام بالبصرة لم ير مثله، وكان يغل غلةً كثيرة، وكانت تأتي إليه وجوه الناس، وفيه يقول الشاعر:

يا رب قائلةٍ يومًا وقد لغبت كيف الطريق إلى حمام منجاب!

وكان بالبصرة حمام آخر لامرأة تدعى طيبة، فكسد عليها فقال شاعر لطيبة: ما الذي تجعلينه لي إن حولت وجوه الناس إلى حمامك ونفقته لك، وتركت حمام منجاب مهجورًا لا يغشى؟ قالت: ألف درهم، قال: فعدليه وأنا أوفي لك بما ضمنته، فعدلت الألف، فقال الشاعر:

حمام طيبة لا حمام منجاب حمام طيبة سخن واسع الباب

فترك الناس حمام منجاب، وأقبلوا على حمام طيبة، فوفت للشاعر بالألف.

وحمام بوران ببغداد كحمام منجاب بالبصرة.

سوق العروس

يضرب به المثل في الحسن، فيقال: أحسن من سوق العروس؛ وهو مجمع الطرائف ببغداد؛ وما ظنك بأحسن الأسواق في أحسن البلاد!

وكان الخوارزمي إذا وصف جاريةً بالحسن قال: كأنها سوق العروس، وكأنها العافية في البدن، وكأنها مائة ألف دينار.

وسمعت السيد أبا جعفر الموسوي، يقول: إنما يضاف إلى العروس كل شيء يجمع المحاسن، كما يقال: سفينة العروس: للسفينة الكبيرة التي تشتمل على نفائس الأمتعة للتجارة؛ وخزانة العروس: للخزانة الخاصة من خزائن الملوك؛ وسوق العروس: لأحسن الأسواق وأجمعها لأحاسن الطرائف؛ لأن العادة جارية باحتفال الناس لتجهيز العرائس بالطرائف والنفائس.

مرآة الغريبة

يضرب بها المثل، فيقال: أنقى من مرآة الغريبة؛ لأن المرأة الغريبة تتعهد مرآتها من الجلاء بما لا يتعهده غيرها، وتتفقد من محاسن وجهها ما لا يتفقده سواها، فمرآتها أبدًا مجلوة نقية؛ قال ذو الرمة:

وخذ كمرآة الغريبة أسجح

سوداء العروس

هي جارية سوداء تبرز أمام العروس الحسناء، وتوقف بإزائها لتكون أظهر لمحاسنها:

فأحسن مرأى للكواكب أن ترى　　طوالع في داج من الليل غيهب

والشيء يظهر حسنه الضد ولتكون كالعوذة لجمالها وكمالها؛ وإياها عنى أبو إسحاق الصابي بقوله في غلامٍ حسن الوجه بيديه نبيذ أسود:

بنفسي مقبل يهدي فتونًا　　إلى الشرب الكرام بحسن قده

وفي يده من التمري كأس   كسوداء العروس أمام خده

بكاء الثكلى

يشبه به البكاء الشديد؛ قال الشاعر:

ولأبكين على الحسيـ   ـن بدمع جم الدمع ساهر
ولأبكين بكاء ثكـ   ـلى تسعةً فجعت بعاشر

ليلة العروس

يشبه بها ما يوصف بالحسن، كما قال الصاحب:

وشادنٍ في الحسن كالطاوس   أخلاقه كليلة العروس
قد نال باللحظ من النفوس   ما لم تنله الروم من طرسوس

أصابع زينب

ضرب من الحلواء ببغداد يدعى أصابع زينب؛ وفيه يقول أبو طالب المأموني:

وضرب من الحلوى أكني عن اسمه   لوجدي بمن يعزى إليه وينسب
يصدق معناه اسمه فكأنه   بنان وأطراف البنان مخضب

وفيها أيضًا يقول:

أحب من الحلواء ما كان مشبهًا   بنان عروسٍ في حبيرٍ معصب
فما حملت كف الفتى متطعمًا   ألذ وأشهى من أصابع زينب

وكان ابن المطرز شاعر العصر ببغداد عند صديق له فأحضر له أصابع زينب، فأهوى إلى واحدةٍ منها ليأخذها، فقبض الصديق على يده وغمزها غمزةً آلمته، فقال:

يا مسكري بمدامةٍ ومن الحلاوة مانعي
حاولت إصبع زينبٍ فكسرت خمس أصابع

فحش مومسةٍ

أنشد الجاحظ:

أقسمت أنك أنت ألأم من مشى في فحش مومسةٍ وزهو غراب

داء الضرائر

من أمثال العرب قولهم: بينهم داء الضرائر؛ إذا كان بينهم شر دائم وحسد وبغض، لأن الضرائر يبغض بعضهن بعضًا ولا يكدن يخلون من مماحكةٍ ومشاجرةٍ.

الباب الثاني والعشرون

في أعضاء الحيوان وما يضاف وينسب إليها ويستعار منها

رأس لقمان، رأس الجالوت، رأس المال، رأس العصا، وجه النهار، عين الرضا، عين العقل، عين الكمال، عين العلا، عين القلب، إنسان العين، عبد العين، أنف الكرم، فم الفتنة، لسان الحال، جرح اللسان، أسنان المشط، سن القلم، سن النادم، ناب النوائب، أذن الحائط، أذنا عناق، أذن العود، جريعاء الذقن، أعناق الرياح، أيدي سبا، أنامل الحساب، أصابع الأيتام، ظفر الزمان، كلكل الدهر، صدر الأمر وعجزه، ثمار النحور، ثدي اللؤم، سويداء القلب، ثمرة القلب، قلب العسكر، طلائع القلوب، داء البطن، كبد السماء، ذكر الخصي، شريان الغمام، حبل الوريد، عرق الخال.

الاستشهاد

رأس لقمان

العرب كما تصف لقمان بن عاد بالقوة وطول العمر، كذلك تصف رأسه بالعظم، وتضرب به المثل، كما قال الشاعر:

تراه يطوف في الآفاق حرصًا   ليأكل رأس لقمان بن عاد

رأس الجالوت

الجالوت: رئيس اليهود؛ كما أن الأسقف رئيس النصارى؛ والموبذ رئيس المجوس.

رأس المال

العرب تستعير الرأس لكثير من الأشياء، فتقول: رأس المال ورأس الليل، ورأس الجبل، ورأس الزمان، ورأس القوم، ورأس الجريدة، ورأس الأمر، ورأس العقل، ورأس الدين، ورأس كذا وكذا.

قال الخليل بن أحمد: اجعل ما في كتبك رأس المال، وما في قلبك للنفقة.

ومن أمثال التجار: رأس المال أحد الربحين؛ قال ابن الرومي:

كطالب ربحٍ في سبيلٍ مخوفةٍ فأهلك رأس المال والحرص قد يردي

وقال أبو الشيص في رأس الليل:

سقاني بها والليل قد شاب رأسه غزال بحناء الزجاجة مختضب

وقال ابن المعتز وهو يصف ناقته:

وباتت تفلي هامة الليل مثلما تغلغل مدرًى في قرون كعاب

وقال أبو محمد الخازن الأصبهاني:

وركابي تطوي البسيطة بالوخـ ـد وتفلي مفارق الفلوات

وقال الخزرجي في رأس الزمان:

قد شاب رأس الزمان واكتهل الدْ دَهر وأثواب عمره جدد

وقال الأعشى في رأس الناس:

لما رأيت زماني كالحًا سمجًا قد صار فيه رؤوس الناس أذنابا
يممت خير فتًى في الناس أعلمه الشاهدين به أعني ومن غابا

وقال إبراهيم بن المهدي في رأس الحرص:

قد شاب رأسي ورأس الحرص لم يشب إن الحريص على الدنيا لفي تعب

وقال أبو تمام في رأس الروض، وهو يصف ديمةً:

كشف الروض رأسه واستسر الـ ـمحل منها كما استسر المريب

وقال ابن المعتز في رأس الخمر:

معتقة صاغ المزاج لرأسها أكاليل در ما لمنظومها سلك

وقال الصاحب لفخر الدولة:

يا بانيًا للقصر بل للعلا همك والفرقد تربان
لم تبن هذا القصر بل صغته تاجًا على مفرق جرجان

وقال بعض السلف: رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس.

وقال آخر: رأس الدين، صحة اليقين.

وقال آخر: رأس المآثم الكذب. وعمود الكذب البهتان.

وقال ابن المعتز: رأس السخاء أداء الأمانة.

رأس العصا

يقال للصغير الرأس: رأس العصا.

وكان عمر بن هبيرة صغير الرأس جدًّا، فقال فيه سويد بن الحارث:

من مبلغ رأس العصا أن بيننا ضغائن لا تنسى وإن قدم الدهر

وقال آخر:

فمن مبلغ رأس العصا أن بيننا ضغائن لا تنسى وإن هي سلت
رضيت لقيسٍ بالقليل ولم تكن أخًا راضيًا لو أن نعلك زلت

وجه النهار

وجه النهار: أوله، وقد نطق القرآن بذلك، ويقال: بقل وجه النهار وطر شاربه، إذا ابتدأت الظلمة فيه.

ومن استعارات الوجه قولهم: وجه الدهر، ووجه الأرض، ووجه الأمر، ووجه القوم للرئيس، ووجه التخت للثوب النفيس.

ومن استعارات أبي العتاهية للوجه قوله:

يا عاشق الدنيا يغرك وجهها ولتندمن إذا رأيت قفاها

ومن استعارات أبي تمام لذلك قوله وهو يعاتب:

فما بال وجه الشعر أغبر قاتمًا وأنف العلا من عطلة الشعر راغم

وقوله:

كم ماجدٍ سمحٍ تناول جوده مطل فأصبح وجه نائله قفا

وقوله وهو يمدح بدرًا:

بدر إذا الإحسان قنع لم يزل وجه الصنيعة عنده مكشوفا

وإذا غدا المعروف مجهولًا غدا معروف كفك عنده معروفا

ومن استعارات أبي الفتح كُشاجِم للوجه قوله:

يا معرضًا عني بوجهٍ مدبرٍ ووجوه دنياه عليه مقبلة
هل بعد حالك هذه من حالةٍ أو غايةٍ إلَّا انحطاط المنزلة!

ولم أجد الشعراء أحسن تصرفًا في استعارة الوجه من ابن المعتز، فإنه جاء بالسحر الحلال حيث قال:

تفقد مساقط لحظ المريب فإن العيون وجوه القلوب
وطالع بوادره في الكلام فإنك تجني ثمار الغيوب

وقال آخر:

ألم تستحي من وجه المشيب وقد ناداك بالوعظ المنيب
أراك تعد للآمال ذخرًا فما أعددت للأجل القريب!

وقال:

قد، لَعَمْري، أطال عنا صدودا وجه دهرٍ قاسٍ قليل الحياء
رفع الجهل ثم قال اجهدوا جهدكم يا معاشر العقلاء

وقال:

دع الناس قد طالما أتعبوك ورد إلى الله وجه الأمل
ولا تطلب الرزق من طالبيـ ـه واطلبه ممن به قد كفل

وقال:

ولقد أخضب سيفي ورمحي ووجوه الموت سود وحمر

وقال في الخيل:

زينتها غرر ضاحكات كبدورٍ في وجوه الليالي

وقال في فصوله القصار: لا تشن وجه العفو بالتأنيب.

وقال: ما أبين وجوه الخير والشر في مرآة العقل إن لم يصدئها الهوى!

فأما قول البحتري:

فسلام على جنابك والمنــ ـهل فيه وربعك المأنوس
حيث فعل الأيام ليس بمذمو مٍ ووجه الزمان غير عبوس

فهو من أحسن هذه الوجوه كلها وآخذها بمجامع القلوب.

ولم يقصر من قال:

لا تألمن شحوب وجهك بعدما بيضت للسلطان وجه المشرق

عين الرضا

أول من ذكر عين الرضا في شعره عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب حيث قال في الفضيل بن السائب، وأرسل البيت الرابع مثلًا:

رأيت فضيلًا كان شيئًا ملففًا فكشفه التمحيص حتى بدا ليا
وأنت أخي ما لم تكن لي حاجة فإن عرضت أيقنت أن لا أخا ليا
ولست براءٍ عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

ثم تبعه من قال:

وعين البغض تبرز كل عيبٍ وعين الحب لا تجد العيوبا

عين العقل

رأى المأمون في يد بعض ولده دفترًا، فقال: ما هذا يا بني؟ فقال: ما يشحذ الفطنة، ويؤنس الوحدة؛ فقال: الحمد لله الذي أراني من ولدي من ينظر بعين عقله.

ولابن المعتز من فصوله القصار: من لم يتأمل الأمر بعين عقله، لم يقع سيف حيلته إلَّا على مقتله.

وله: الأماني تعمي أعين البصائر.

عين الكمال

إذا انتهى الشيء إلى منتهاه، وبلغ غايته، ووافق ذلك إعجاب من يراه، ثم عرض له بعض أعراض الدنيا قيل: قد أصابته عين الكمال.

وفي الدعاء: صرف الله عنك عين الكمال.

قال مؤلف الكتاب:

أقول لمولانا خوارزم شاه: لا تزل بنداك الغمر للناس مالكا
هل المجد إلَّا خلة من خلالكا أو البدر إلَّا نقطة من جمالكا
جمعت العالي والمحاسن كلها وقاك إله الناس عين كمالكا

عين العلا

أحسن ما سمعت في استعارة العين للعلا قول أبي تمام يرثي، وهو من أحسن مراثيه، ومراثيه خير شعره:

ألا إن في ظفر المنية مهجةً   تظل لها عين العلا وهي تدمع
هي النفس إن تبك المكارم فقدها   فمن بين أحشاء المكارم تنزع

كما أن أحسن ما سمعت في عين القصائد قول القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز من قصيدةٍ في الصاحب:

ولي فيك ما لو أنصف الشعر صيرت   قوافيه كحلًا في عيون القصائد

ومن العيون المستعارة: عين الشمس، وعين السماء، وعين الماء، وعين الميزان، وعين المتاع، وعين النرجس، وعين الزمان، وعين المنية، وبكلها نطقت الأشعار.

عين القلب

من ألطف ما قيل فيها قول أبي عثمان الناجم:

لئن راح عن عيني أحمد غائبًا   فما هو عن عين الفؤاد بغائب

ومن أشهر ما في ذلك قول أبي تمام:

ولذاك قيل من الظنون جلية   صدق وفي بعض القلوب عيون

ولأبي فراس الحمداني في معناه:

من السلوة في عينيـ   ـك آيات وآثار
أراها منك بالقلب   ولي بالقلب إبصار
إذا ما برد القلب   فما تسخنه النار

إنسان العين

هو ناظر العين الذي به يبصر الإنسان، وإنما سمي إنسان العين لأن الإنسان يتراءى فيه؛ قال ذو الرمة:

وإنسان عيني يحسر الماء تارةً   فيبدو، وتاراتٍ يجم فيغرق

وقد ظرف ابن الحجاج في قوله:

إنك إنسان له موقع   من ناظري في جوف إنسانه

وقد ظرف أبو الفضل الميكالي في قوله:

أعددت محتفلًا ليوم فراغي   روضًا غدا إنسان عين الباغ
روض يروض هموم قلبي حسنه   فيه لكأس الأنس أي مساغ
وإذا بدت قضبان ريحانٍ به   حيت بمثل سلاسل الأصداغ

وفي ناظر العين يقول منصور الفقيه:

قالوا: خذ العين من كل، فقلت لهم: في العين فضل ولكن ناظر العين
حرفان من ألف طومارٍ مسودةٍ   وربما لم تجد في الألف حرفين

عبد العين

هو الذي يخدمك ما دامت عينك تراه، فإذا زال عن عينك زال عن خدمتك.

قال الجاحظ: يقال للمرائي وهو الذي إذا رأى صاحبه تحرك له وأراه السرعة في طاعته، فإذا غاب عن عينه خالف ذلك: عبد عينٍ؛ قال الشاعر:

ومولى كعبد العين أما لقاؤه   فيرضي وأما غيبه فظنين

أنف الكرم

قد تصرف الناس في استعارة الأنف بين الإصابة والمقاربة؛ وأحسن وأبلغ ما سمعت فيها قول النبي صلى الله عليه وسلم: «جدع الحلال أنف الغيرة».

فأما أنف الكرم فأحسب أن أول من قاله بشار بن بردٍ في افتخاره ببيته في العجم، وكان يدعي أنه من نسل بهمن بن دارا، وهو قوله:

ألا أيها السائلي جاهلًا ليخبرني أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بني عامرٍ فروعي وأصلي قريش العجم

وقال لعمر بن العلاء:

أنت أنف الجود إن زايلته عطس الجود بأنفٍ مصطلم

ثم تبعه ابن الرومي، وزاد عليه وأحسن في قوله:

لوكنت عين المجد كنت سوادها أو كنت أنف الجود كنت المارنا

ومن استعارات الأنف قولهم: أنف الجبل، وأنف الباب، وخيشوم الربوة؛ وليس يعجبني قول سهل بن هارون: القلم أنف الضمير؛ إذا رعف أعلن أسراره وأبان آثاره.

ولا قول بعضهم في وصف القلم:

أنف البلاغة في البياض رعافه أحوى وأحمر في سواد الجحفل
يمسي ويصبح لاقحًا من فكرةٍ وضموره أبدًا ضمور الحيل

ولا قول بعض المؤدبين حيث قال:

لأنت أبرد من ثلجٍ على جمدٍ ومن خشيفٍ على خيشوم مزراب

ولا قول أبي تمام:

لنا أيام لم تدم الليالي بذكر البين عرنين الصفاء

بل يعجبني قول أبي الحسن الموسوي النقيب في الطائع:

ملك سما حتى تلحق في العلا وأذل عرنين الزمان السامي

فم الفتنة

قال بعض الحكماء: من سد فم الفتنة كفي شرها، ومن أضرم نارها صار طعامًا لها.

وفي الكتاب المبهج: إذا كانت البلدة شاغرة، كانت أفواه الفتن فاغرةً. واستعارات الفم أكثر من أن تحصى.

ووصف أعرابي قومًا فقال: كانوا إذا اصطفوا سفرت بينهم السهام، وإذا تصافحوا بالسيوف فغرت المنايا أفواهها.

وقال بعض شعراء الرشيد يرثيه:

يا ساكنًا جدثًا في غير منزله ويا فريسة دهرٍ غير مفروس
لا يوم أولى بتخريق الجيوب ولا لطم الخدود ولا جدع المعاطيس
من يوم طوس الذي نادت بمصرعه على المنابر أفواه القراطيس

وقال ابن المعتز:

لوت بأفواه النوائب بعده فما تشبع الأيام والدهر من أكلي

وقال أيضًا:

وألسنة من العذبات حمرٍ تخاطبنا بأفواه الرماح
فجادت ليلها سحًا وهطلًا وتسكابًا كأفواه الجراح

وقال أبو فراس الحمداني:

رأى الثغر مثغورًا فسد بسيفه   فم الدهر عنه وهو ثعبان فاغر

وقال أبو الطيب المتنبي:

لقد حسنت بك الأيام حتى   كأنك في فم الدنيا ابتسام

وقال السلامي:

يحلو بأفواه الأنامل صفعه   حتى كأن قذاله من سكر

لسان الحال

قال بعض بلغاء الحكماء: لسان الحال أنطق من لسان المقال.

وإلى هذا المعنى أشار البحتري بقوله:

هل تصغين لأخٍ يقول بحاله   مستغنيًا عن قوله بلسانه
نزلت بعقوته الخطوب طوارقًا   فتخونته وأنت من إخوانه

وأنشدني أبو نصر محمد بن عبد الجبار العتبي لنفسه:

لا تحسبن بشاشتي لك عن رضًا   فوحق فضلك إنني أتملق
وإذا نطقت بشكر برك مفصحًا   فلسان حالي بالشكاية أنطق

ومن الاستعارات الحسنة للسان قول بعضهم: لكل شيءٍ لسان، ولسان الزمان الشعر.

وقول الآخر: الاستطالة لسان الجهل.

وقول بعض الفلاسفة: الخط لسان اليد.

وكان يقال لابن العميد: لسان المشرق.

ولابن المعتز من رسالةٍ:

يعز علي أن يكثر دون تلاقينا عدد الأيام، وتعبر عن ضمائرنا ألسن الأقلام.

وللصاحب: وقفت الشمس للغبار، وشافه الليل لسان النهار.

ولأبي نصر العتبي: لسان التقصير قصير.

وقال بعض الشعراء في وصف الميزان:

ولقد نظرت إلى حكومة حاكمٍ بلسانه يقضي ولا يتكلم

وقال آخر:

لسان الدمع أفصح من لساني فلا تسأل سواه بعلم شاني

وقال آخر في وصف شمعةٍ:

إذا غازلتها الصبا حركت لسانًا من الذهب الأملس

وقال السري في وصف ليلةٍ باردةٍ:

وقد سفر البرق عن شدةٍ لسان السماء بها ناطق

وقال بعضهم في وصف الفقاع:

شيخ يسيل له لسان طارد بالبرد حر حماره المتوهج

جرح اللسان

قال امرؤ القيس: وجرح اللسان كجرح اليد وقال بعض الحكماء: جرح اليد يجبر، وجرح اللسان لا يبقي ولا يذر.

وقال الشاعر في معناه:

جراحات السيوف لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

وفي الحديث: «وهل يكب الناس على مناخرهم إلَّا حصائد ألسنتهم».

أسنان المشط

يضرب بها المثل في التساوي والتشاكل.

وفي الحديث: «الناس كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعافية».

وقال كُشاجِم أبو الفتح:

تشاكلوا فأشكلوا فهم كأسنان المشط

وقال ابن المعتز:

ونحن بنو عم كما انفرج المشط

وقال الصنوبري وأحسن:

أناس هم المشط استواءً لدى الوغى إذا اختلف الناس اختلاف المشاجب

سن القلم

قال بعض البلغاء: في إحدى سني القلم أري، وفي الأخرى شري.

وهو معنى قول القائل:

وبين ثلاث من أنامل كفه قضيب به تحيا النفوس وتقتل

سن النادم

من أمثال العرب في الندامة قولهم: قرع فلان سن نادم.

وقال جرير:

إذا ركبت قيس خيولًا مغيرةً على القين يقرع سن خزيان نادم

وقال آخر:

لتقرعن علي السن من ندمٍ إذا تذكرت يومًا بعض أخلاقي

ناب النوائب

قال ابن المعتز:

قد عضني ناب النوائب ورأيت آمالي كواذب
والمرء يعشق لذة الدْ دُنيا فيغتفر المصائب

وسمعت الخوارزمي يقول في ذكر بعض المنكوبين: قد عضه ناب النائبة العظمى، ورمي بسهم الحادثة الجلى، وحصل في أسر الطامة الكبرى.

وأحسن ما سمعت في ناب الدهر قول الأمير أبي الفضل الميكالي في أبيه:

ولما تتابع صرف الزمان فزعنا إلى سيدٍ نابه
إذا كشر الدهر عن نابه كشفنا الحوادث عنا به

أذن الحائط

من أمثالهم: للحيطان آذان؛ أي: خلفها من يسمع ما تقول.

قال الظريفي الأبيوردي:

سر الفتى من دمه إن فشا فأوله حفظًا وكتمانا
واحتط على السر بإخفائه فإن للحيطان آذانا

وأنشدني أبو حفص عمر بن علي لنفسه:

وبارد الطلعة حاذانا واسترق السمع فآذانا
فقلت للجُلَّاس: لا تنبسوا فإن للحيطان آذانا

ومن الآذان المستعارة قول أبي علي البصير:

إذا ما شال شوال عكفنا على زق وباطيةٍ رذوم
وإن هم أطاف بنا عركنا بأيدي الكأس آذان الهموم

وقال آخر في أذن العود:

كأنه في حجرها ولد لها ضمته بين ترائب ولبان
طورًا تدغدغ بطنه فإذا هفا عركت له أذنًا من الآذان

ولم أسمع في استعارة الآذان أحسن وأبلغ من قول السيد الأمير أدام الله علوه في رسالةٍ له:

والله يمتعه بما منحه من خصائص هي في آذان الزمان شنوف، وفي جيده عقد مرصوف.

أذنا عناق

من أمثال العرب: جاء بأذني عناق، وجاء بأذني عناق الأرض؛ إذا جاء بالكذب والباطل.

ويقال أيضًا: إنها من أوصاف الدواهي؛ نعوذ بالله منها!

جريعاء الذقن

من أمثال العرب عن أبي عبيدة والأصمعي: أفلت فلان بجريعة الذقن، وجريعاء الذقن، أي: أفلت وقد بلغت نفسه موضع الذقن، وهذا مثل للمفلت من الهلاك بعد قربه منه؛ وأنشد:

حملنا على وائلٍ وأفلتنا أخو عدي جريعة الذقن

أعناق الرياح

يضرب مثلًا للمسرع المجد، فيقال: ركب أعناق الرياح؛ أي: من سرعة سيره؛ قال أبو فراس:

عدتني عن زيارته عوادٍ أقل مخوفها سمر الرماح
ولو أني أطعت رسيس شوقي ركبت إليه أعناق الرياح

أيدي سبا

من أمثال العرب في التفرق: ذهبوا أيدي سبا، أي: متفرقين؛ وأصله من قصة سبأ والسيل العرم الذي خربها وفرق أهلها؛ ولهم يقول الله عز ذكره: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

ومن أمثالهم: يد الدهر، أي: الأبد.

وللشعراء في استعارة اليد تصرف كثير؛ ومن أحسن ذلك قول لبيدٍ:

وغداة ريحٍ قد كشفت وقرةٍ قد أصبحت بيد الشمال زمامها

وقول ابن المعتز:

سقاها بعاناتٍ خليج كأنه إذا صافحته راحة الريح مبرد

وقوله:

كيف يسقى على الحوادث حي   بيد الدهر عوده منحوت!

وقال سعيد بن حميد:

كلما أحرزت يداي نفيسًا   أسرعت نحوه يد الحدثان

وقال السري:

مقدودة خرطت أيدي الشباب لها   حقين دون مجال العقد من عاج

وقوله:

يقول خذها فكف الصبح قد أخذت   في حل جيبٍ من الظلماء مزرور

أنامل الحساب

يشبه بها ما يوصف بالسرعة، كما قال ابن المعتز في وصف فرسٍ له:

وله أربع تراها إذا همـ   ـلج تحكي أنامل الحساب

وقال غيره في وصف البرق:

أرقت لبرقٍ سرى موهنًا   خفيًا كغمزك بالحاجب
كأن تألقه في السما   يدا كاتبٍ أو يدا حاسب

أصابع الأيتام

قال بعض السلف: احذروا أصابع الأيتام يعني رفعهم إياها في الدعاء على الظالم وهذا كما قيل: احذروا مجانيق الضعفاء، أي: دعواتهم.

وفي أصابع الأيتام يقول أبو فراس:

أبذل الحق للخصوم إذا ما … عجزت عنه قدرة الحكام
رب أمرٍ عففت عنه اختيارًا … حذرًا من أصابع الأيتام

ظفر الزمان

قد أكثروا في ذلك، ومن محاسنه قول ابن الرومي:

أنا بين أظفار الزمان وخائف … منه شبا الأنياب والأضراس

كلكل الدهر

يستعار كلكل البعير للدهر إذا أخنى على الإنسان، فيقال: قد ألقى عليه الدهر كلكله؛ كما قال ابن الرومي:

أما ترى الدهر قد ألقى كلاكله … على فتًى بينكم ملقٍ كلاكله!

وكما قال الآخر:

إذا ما الدهر جر على أناسٍ … كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا … سيلقى الشامتون كما لقينا

صدر الأمر وعجزه

قال أبو تمام:

لأمر عليهم أن تتم صدوره … وليس عليهم أن تتم عواقبه

وقال الشاعر:

لو أن صدور الأمر تبدو إلى الفتى كأعجازه لم تلقه يتندم

وقال ابن الرومي:

كن في مدى المجد للأمجاد كلهم صدرًا وكن في مدى أعمارهم كفلا

ومن الصدور المستعارة: صدر النهار، وصدر المجلس، وصدر الإسلام.

ثمار النحور

هي الثدي؛ من قول مسلم بن الوليد وهو من استعاراته الحسنة:

فغطت بأيديها ثمار نحورها كأيدي الأسارى أثقلتها الجوامع

وأخذه ديك الجن الحمصي فقال:

ظللت بها أجني ثمار نحورها فتوسعني سبًّا وأوسعها صبرا

وأخذه كُشاجِم فقال:

غذتها نعمة ولذيذ عيشٍ فأنبت صدرها ثمر الشباب

وما أملح قول ابن المعتز:

لا ورمان النهود فوق أغصان القدود

وقول الصابي من أبيات:

فقال: شفاؤه الرمان مما تضمنه حشاه من السعير

فقلت: له أصبت بغير قصدٍ ولكن ذاك رمان الصدور

ثدي اللؤم

أول من استعار ذلك أوس بن مغراء حيث قال:

يشيب على لؤم الفعال كبيرها ويغذى بثدي اللؤم منها وليدها

وأخذ القاضي أبو الحسن هذه الاستعارة، فنقلها إلى المدح، وزاد فيها أحسن زيادة، فقال للصاحب:

مسترضع بثدي المجد مفترش حجر المكارم مفطوم على البخل

سويداء القلب

يضرب مثلًا لتفضيل بعض الشيء على كله، فيقال: سويداء القلب، وإنسان العين، وبيت القصيدة، وواسطة القلادة.

ويضرب أيضًا مثلًا لمن يعز ويلطف موقعه، فيقال: هو مني في سوداء عيني، وسويداء قلبي؛ وربما قيل: هو في سوادي عيني وقلبي.

ثمرة القلب

كل ما يحبه الإنسان فهو ثمرة قلبه على طريق الاستعارة.

ويقال للولد: ثمرة القلب؛ وفي الخبر: ثمرة القلب الولد.

ولما غضب معاوية رضي الله عنه على ابنه يزيد فهجره قال له الأحنف: يا أمير المؤمنين، أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، إن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، ولا تكن عليهم قفلًا فيملوا حياتك، ويتمنوا موتك.

ودخل عمرو بن العاص على معاوية رضي الله عنه وعنده ابنته عائشة، فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تفاحة القلب؛ قال: انبذها عنك يا أمير المؤمنين، فإنهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن. قال: لا تقل هذا يا عمرو، فوالله ما مرَّض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الأحزان إلَّا هن، وإنك لواجد خالًا قد نفعه بنو أخته. فقال عمرو: ما أراك يا أمير المؤمنين إلَّا وقد حببتهن إلي بعد بغضي لهن.

قلب العسكر

من القلوب المستعارة: قلب العسكر وقلب النخلة، وقلب الشتاء.

واستعار بشار القلب للدن حيث قال:

شربنا من فؤاد الدن حتى ... تركنا الدن ليس له فؤاد

واستعار اللحام القلب للسماحة، فقال:

يا مهجة المجد يا قلب السماحة يا ... روح المعالي وعين الظرف والأدب
اليوم يرهبني من كنت أرهبه ... واليوم أطلب دهرًا كان في طلبي

طلائع القلوب

قال ابن المعتز في الفصول القصار: العيون طلائع القلوب.

وقال فيها: اللحظ طرف الضمير.

وجعل أبو تمام القلوب طلائع الأجساد، فقال:

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرْ ... ـرَأس إلَّا من فضل شيب الفؤاد
وكذاك القلوب في كل بؤسٍ ... ونعيمٍ طلائع الأجساد

داء البطن

يضرب مثلًا للشر المستور الذي لا يقدر على مداواته؛ قال بعض السلف في فتنة عثمان بن عفان رضي الله عنه: إن هذه الفتنة كداء البطن الذي لا يدرى من أين يؤتى له!

وقال الهيثم بن الأسود النخعي:

بني عمنا إن العداوة شرها ضغائن تبقى في صدور الأقارب
تكون كداء البطن ليس بظاهرٍ فيشفى وداء البطن من شر صاحب

وقال آخر:

وبعض خلائق الأقوام داء كداء البطن ليس له دواء

ومن البطون المستعارة: بطن الوادي، وبطن القرطاس، وبطن الكف، وظهر الأمر وبطنه.

كبد السماء

يستعار الكبد للسماء، فيقال: كبد السماء، كما يقال: عين السماء، وأديم السماء، وجلدة السماء، ودمع السماء، قال الشاعر:

كالشمس في كبد السماء محلها وشعاعها في سائر الآفاق

ذكر الخصي

يضرب مثلًا للضعيف الفاتر، كما قال الشاعر:

أوَما رأيت الحادثات بأسرها أخنت علي بكلكلٍ وجران
وفترت بعد مزونةٍ فكأنني ذكر الخصي وفقحة السكران

وقد استعار ابن المعتز للسحاب زُبًّا، ولا أعرف له أردأ من هذه الاستعارة حيث قال:

أنا لا أشتهي سماءً كبطن الـ ـعير، والشرب تحتها في خراب
تحت ماء الطوفان أو بحر موسى كل يومٍ يبول زب السحاب

شريان الغمام

كتب جحظة إلى ابن المعتز:

كنت عزمت على المصير إلى الأمير أيده الله، فانقطع شريان الغمام، فقطعني عن خدمته.

فكتب إليه:

لئن فاتني السرور بك، لم يفتني بكلامك. والسلام.

حبل الوريد

يضرب به المثل في القرب، وهو من قول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.

ويقال للمحكم في مناه: ما تريدُ أقربُ من حبل الوريد.

عرق الخال

العرب تقول: عرق الخال لا ينام.

قال الجاحظ: زعم كثير من العلماء أن عرق الخال أنزع من عرق العم.

قالوا: والدليل على أن نصيب الأمهات في الأولاد أكثر، وأنها على الشبه أغلب أن أكثر ما تلد الأمهات الإناث، وكذلك الناس وجميع الحيوانات، فإذا أردْت أن تعرف حق ذلك من باطله، فأحص سكان عشر دور من يمينك، وعشرٍ من شمالك، وعشرٍ من خلفك، وعشرٍ من أمامك، فانظر أيها أكثر، رجالهم أو نساؤهم؟ واعتبر ذلك في الإبل والبقر والشياه.

والعرب تكره الأذكار، لأن الهجمة يكفيها فحل أو فحلان، والناقة تقوم مقام الجمل، والجمل لا يسقي اللبن، وإذا احتيج منه إلى لحمٍ أو سفرٍ كانا سواءً.

وكذلك الحجور في المروج، وعانات الحمير في الفيافي، ليس في كل عانةٍ إلَّا فحل واحد؛ وكذلك الدجاج إنما فيها ديك واحد.

والأم والخال عند العرب أنزع وأشد جذبًا للولد، لأن الأم والأب قد يستويان في وجوهٍ، ثم تفضل الأم الأب في وجوه بعد ذلك؛ لأن الولد ليس يخلق من ماء الأب دون ماء الأم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، والأب إنما يقذف مثل المخطة أو البصقة ثم يعتزل أو يغيب أو يموت أو يكون حاضرًا؛ والأم منها الرحم، وهو القالب الذي ينطبع عليه الولد، وتفرغ فيه النطفة كما يفرغ الرصاص المذاب في القالب، فإذا وقع ماء الرجل وماء المرأة في القالب وفي قرار الرحم فامتزجا تشعب خلق الولد على قدر تشعب الرحم، ثم لا يغتذي إلَّا من دم الأم، ولا يمتص إلَّا من قواها، ولا يجذب إلَّا من الأجزاء التي فيها لطائف الأغذية، فله ذلك ما دام في جوفها، فإذا ظهر غذته بلبنها؛ ولا يشك الأطباء أن اللبن دم استحال عند خروجه، فهي تغذوه بدمها مرتين، وتزيد في خلقه من أجزائها دفعتين، ولذلك صار حب النساء للأولاد أشد من حب الرجال.

ومن الدليل على غلبة عرق الخال قول عبيد الله بن قيس الرقيات، وهو يهجو حبيب بن المهلب بن أبي صفرة:

غلبت أمه عليه أباه ... فهو كالكابلي أشبه خاله

وقول الآخر:

وأدركنه خالاته فخذلنه ... ألا إن عرق السوء لا بد مدرك

وأنشد الأصمعي لبعض الأنصار:

سرى عرقه في القوم حتى أصابهم ... وللخال عرق لا ينام ولا يكدي

وأنشد أبو عبيدة لمكي بن سوادة:

وخالك أصهب السبلات علج وعرق الخال ينمي بعد دهر

وأنشد أبو اليقظان لرجلٍ من كنانة، وذكر امرأته وولده:

تخيرتها للنسل وهي غريبة فجاءت به كالبدر خرقًا معمما
فلو شاتم الفتيان في الحي ظالمًا لما وجدوا غير التكذب مشتما

وقال الأبيرد وهو يهجو طلبة بن قيس بن عاصم:

قضى الله حقًّا يابن قيس بن عاصمٍ وكان قضاء الله لا يتبدل
بأنك يا طلب بن قيس بن عاصمٍ مقيم بدار الذل لا تترحل
أبت لك أعراق وأم لئيمة وخال قصير الباع وغد مفسكل

قالوا: ورأينا الناس يتباهون بأخوالهم؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أخذ بيد سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «هذا خالي، فليأت كل امرئٍ بخاله».

وقال عمرو بن الأهتم حين سب الزبرقان: لئيم الخال، ضيق العطن، زمر المروءة، حديث الغنى.

وافتخر امرؤ القيس بن حجرٍ بخاله حيث قال:

خالي بن كبشة لو علمت مكانه وأبو يزيد ورهطه أعمامي

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الخال والد».

والعرب إذا مدحت رجلًا قالت: ذاك المعم المخول.

وقال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾، وإنما كان أبوه وخالته.

الباب الثالث والعشرون

في الإبل وما يضاف وينسب إليها

حمر النعم، حنين الإبل، غرائب الإبل، أسلحة الإبل، يوم الجمل، بول الجمل، صولة الجمل، سلى الجمل، ركبتا البعير، ناقة صالح، غدة البعير، راغية البكر، بكر هبنقة، حمل الدهيم، أنف الناقة، خبط عشواء، لطم المنتقش، جمل السقاية، سير السواني، سفن البر.

الاستشهاد

حمر النعم

هي كرائم الإبل، يضرب بها المثل في الرغائب والنفائس، فيقال: ما يسرني به حمر النعم؛ قال أبو الطيب المتنبي:

حمر الحلى والمطايا والجلابيب

فوصفهن بالأخذ بأطراف الحسن، لأن الذهب أحمر وهو حليهن؛ ومطاياهن حمر، وهي كرائم الإبل؛ وأثوابهن حمر، والحسن أحمر؛ قال بشار:

وإذا دخلت تقنعي بالحسن إن الحسن أحمر

وقلت في كتاب المبهج: قول نعم، أحسن من حمر النعم، تحمل بيض النعم.

حنين الإبل

العرب تقول: لا أفعل ذلك ما حنت الإبل، وما أطت الإبل.

ومن أمثالهم: أحن من شارفٍ؛ وهي الناقة المسنة، لأنها أشد حنينًا إلى ولدها من غيرها.

ومن العرب من يصف الإبل بالرقة والحنين، كما قال متمم بن نويرة:

فما وجد أظآرٍ ثلاثٍ روائمٍ رأين مجرًا من حوارٍ ومصرعا
يذكرن ذا البث الحزين ببثه إذا حنت الأولى سجعن لها معا
وإن شارف منهن قامت فرجعت حنينًا يبكي شجوه البرك أجمعا
بأوجع مني يوم فارقت مالكًا وقام به الناعي الرفيع فأسمعا

ومنهم من يصفها بالحقد وغلظ الأكباد؛ كما قال بلعاء بن قيس الكناني:

يبكى علينا ولا نبكي على أحدٍ لنحن أغلظ أكبادًا من الإبل

ومن أمثالهم: أحقد من جملٍ.

وللبديع الهمذاني من فصلٍ: إن الإبل على غلظ أكبادها لتحن إلى أعطانها، وإن من الطير لتقطع عرض البحر إلى مظانها.

غرائب الإبل

من أمثال العرب: ضرب ضرب غرائب الإبل، وذلك أن رب الإبل إذا أوردها ذاد عنها الغرائب؛ بالضرب؛ فيضرب مثلًا للرجل يظلم فيقال: ادفع عنك الظلم بالضرب، وبأشد ما تقدر عليه؛ قال الكُمَيت:

وردت مياههم صائمًا بحائمة ورد مستعذب

فما حلأتني عصي السقا ة ولا قيل: أبعد ولا أغرب

وقال الحجاج على منبر الكوفة: والله لأعصبنكم عصب السلمة، ولألحونكم لحو العود، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، ولآخذن البريء بالسقيم، والمطيع بالعاصي، والبعيد بالقريب، حتى تستقيم لي قناتكم.

أسلحة الإبل

من أمثال العرب عن أبي عمرٍو والأصمعي قولهم: أخذت الإبل أسلحتها وتترست بتروسها — ويقال: رماحها — وذلك أن يأتيها الرجل فيريد أن ينحرها أو يحلبها فتروقه، فلا تنحر ولا تحلب لسمنها، فكأن سمنها وحسنها أسلحة لها تحول بينها وبين من يريد أن ينحرها أو يحلبها؛ قالت ليلى الأخيلية:

ولا تأخذ البدن الصفايا سلاحها لتوبة في نحس الشتاء الصنابر

وقال النمر بن تولب:

أيام لم تأخذ إلي سلاحها إبلي بجلتها ولا أعشارها

يوم الجمل

حكى الجاحظ في كتاب البغال، قال: وقع شر بين قوم بالمدينة، فقالت عائشة رضي الله عنها: أسرجوا لي بغلي، فقال ابن أبي عتيق: يا أم المؤمنين، نحن لم نغسل بعد رؤوسنا من يوم الجمل، أفتريدين أن يقال: يوم البغل! قري في بيتك رحمك الله.

وأنشد الصولي لابن مهران الدقاق:

إذا نزلت منزلًا للطالبين فقل:
يا زائدين في الندا: حي على خير العمل
والضاربين أمهم بالسيف في يوم الجمل
فعالكم من صبرٍ وقولكم مثل العسل

ما إن رأينا أحدًا منكم تولى فعدل
ولا نهى عن نفلٍ إلا رعى ذاك النفل

بول الجمل

يضرب به المثل في الإدبار، لأنه من بين الأبوال إلى وراء؛ والعرب تقول: أخلف من بول الجمل؛ لأنه يبول إلى خلف؛ قال الشاعر:

وأخلف من بول البعير لأنه إذا هو للإقبال وجه أدبرا

وقال ابن الحجاج:

أنت كما قلت ولكن كما يزرق البختي إلى خلف

صولة الجمل

تقول العرب في أمثالها: أصول من جمل؛ ومعناه أعض، يقال: صال الجمل، وعض الكلب، وعقر أفصح.

وفي الحديث: «إن العرف لينفع عند الجمل الصؤول والكلب العقور».

قال الجاحظ: أوما علمت أن الإنسان الذي خلق له ما في السموات والأرض وما بينهما كما قال عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ إنما سموه العالم الصغير، سليل العالم الكبير، حين وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدوا له الحواس الخمس، ووجدوه يأكل اللحم والحب، ويجمع بين ما يقتاته السبع والبهيمة، ووجدوا له صولة الجمل، ووثوب الأسد، وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجبن الصفرد، وجمع الذرة، وصنعة السرفة، وجود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام؛ وربما وجدوا فيه من كل نوع من البهائم والسباع خلتين أو ثلاثًا، ولا يبلغ أن يكون جملًا بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصولته وحقده وصبره على حمل الثقل، ولا يلزمه شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل مكره وغدره واسترواحه وتوحشه وشدة قلبه؛ كما أن الرجل يصيب الرأي الغامض المرة

والمرتين والثلاث، ولا يبلغ بذلك المقدار أن يقال له: داهية وذو مكرٍ وصاحب خدعةٍ، كما يخطئ الرجل فيفحش خطؤه في المرة والمرتين والثلاث، ولا يبلغ الأمر به أن يقال له: غبي وأبله ومنقوص.

سلى الجمل

العرب تقول في بلوغ الشدة منتهى غايتها: وقع القوم في سلى جملٍ: أي: في شر لا مثل له، لأن السلى إنما يكون للناقة ولا يكون للجمل.

قال اللحياني: السلى: ما تلقيه الناقة إذا وضعت. والولد يتشحط في السلى، أي: يضطرب؛ قال النابغة:

ويقذفن بالأولاد في كل منزلٍ تشحط في أسلائها كالوصائل

الوصائل: البرود الحمر.

وقال غيره: سلى الجمل، كما يقال: لبن الطير، ومخ الذر، وحلم العصفور، وابن الخصي؛ كل هذا يضرب مثلًا لما لا يكون ولا يوجد.

ركبتا البعير

يضرب بهما المثل في الشيئين المتساويين، والرجلين المتكافئين اللذين لا يفضل أحدهما على الآخر.

ولما تنافر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة إلى هرم بن قطبة، لم يرد أن ينفر أحدهما على الآخر، فقال لهما: أنتما كركبتي البعير الأدرم، تقعان على الأرض جميعًا، وما منكما إلَّا سيد كريم؛ فانصرفا راضيين.

ناقة صالح

هي ناقة الله التي سبق ذكرها في الباب الأول، ويقال لها: ناقة صالح، ويقول من ينبه على براءة ساحته: إني لم أعقر ناقة صالح.

٩ -

غَدَّة البعير

غدة البعير بمنزلة طاعون الإنسان.

ولما انصرف عامر بن الطفيل من عند النبي صلى الله عليه وسلم وقد آذاه بلسانه، وانطوى على غير الجميل، نزل ديار بني سلول بن صعصعة فغد، فجعل يقول: أغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية! حتى مات.

فصار قوله مثلًا في اجتماع خلتين مكروهتين.

راغية البكر

من أمثال العرب، عن أبي عمرو، قولهم: كانت عليهم كراغية البكر، أي: استؤصلوا استئصالًا.

ويقال أيضًا: كانت عليهم كراغية السَّقْب — وهو ولد الناقة — يعنون رغاء بكر ثمود حين عقر الناقة قدار بن سالف، وهو أحمر ثمود؛ قال علقمة بن عبدة في السقب:

رغا فوقهم سقب السماء فداحص

والداحص، والفاحص، والماحص سواء؛ يقال للشاة إذا ذبحت: دحصت برجلها؛ أي: ضربت بها.

وقال الجعدي:

رأيت البكر بكر بني ثمودٍ وأنت أراك بكر الأشعرينا

قاله لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وقال أيضًا:

ورغا لهم سقب السماء وخنقت مهج النفوس بكاربٍ متزلف

كارب: يملأ النفوس كربًا. ومتزلف: دانٍ.

وقال أوس بن حجر:

رغا البكر فيهم رغوةً حين أدبروا   فما كان عنهم رغوة البكر تقلع

وإنما ضرب البكر مثلًا للحرب.

بكر هبنقة

من أمثالهم: هو أروى من بكر هبنقة.

وهو يزيد بن ثروان المضروب به المثل في الحمق؛ كان له بكر يصدر مع الصادر وقد روي، ثم يرد مع الوارد قبل أن يصل إلى الكلأ؛ فسار ذكره مثلًا في الري.

حمل الدهيم

يضرب به المثل، فيقال: أثقل من حمل الدهيم.

والدهيم: الناقة التي حمل عليها كثيف التغلبي رؤوس أبناء زبان الذهلي حين قتلهم، فجعلت العرب حمل الدهيم مثلًا في الدواهي العظام؛ قال الشاعر:

يقودهم سعد إلى بيت أمه   ألا إنما تزجى الدهيم وما تدري

أنف الناقة

هو جعفر بن قريع؛ وإنما سمي أنف الناقة، لأن قريعًا نحر جزورًا فقسمه بين نسائه، فقالت أم جعفر بن قريع وهي الشموس من بني وائل بن سعد هذيم: انطلق إلى أبيك فانظر هل بقي عنده شيء؟ فأتاه، فلم يجد عنده إلَّا رأس الجزور فأدخل جعفر — وهو غلام — يده في أنف الناقة، وجر الرأس إلى أمه، فسمي به؛ ومن ولده بغيض بن عامر بن شماس بن لأي بن أنف الناقة، الذي مدحه وقومه الحطيئة فقال:

قوم هم الأنف، والأذناب غيرهم ... ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

وكانوا يغضبون إذا نودوا بهذا اللقب، فلما قال فيهم الحطيئة هذا البيت جعلوا يتبجحون به.

ومنه أخذ ابن الرومي قوله:

لا بل هم الأنف، والأذناب غيرهم ... ومن يمثل بين الأنف والذنب!

خبط عشواء

يضرب مثلًا لمن أصحابه منه بين معافى ومبتلى، ولمن يصيب مرةً ويخطئ أخرى.

والعشواء: الناقة التي لا تبصر بالليل، فهي تطأ كل شيءٍ؛ قال زهير:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

ومن كلام الجاحظ: وهو منحرف عن الجادة؛ يخبط خبط العشواء، ويحكم حكم الورهاء، ويناسب أخلاق النساء.

لطم المنتقش

من أمثال العرب: لطمه لطم المنتقش، وهو البعير إذا شاكته الشوكة لا يزال يضرب بيده على الأرض يروم انتقاشها.

جمل السقاية

يضرب مثلًا في الامتهان، فيقال: ما هو إلَّا جمل السقاية، وحمار الحوائج؛ وقال نصر الخبزأرزي:

ولو جمل السقاية لقبوه ... بمعشوقٍ تحرى أخذ روحي

سير السواني

يضرب مثلًا فيما يدوم ولا يكاد ينقضي، فيقال: سير السواني سفر لا ينقطع.

والسانية: اسم الغرب آلاته وأدواته؛ والسواني: الإبل التي يستقى عليها بالسواني، سميت بأسمائها.

ومن أمثالهم: أذل من بعير سانية؛ وهو الذي يدير السانية؛ قال الطِّرِمّاح:

قبيلة أذل من السواني وأعرف للهوان من الخصاف

وقال بعض المحدثين:

أقلا من اللوم يا عاذلان فحب الغواني كسير السواني

سفن البَرِّ

يقال للجمال: سفن البر، وهي من قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

وقال بعض العرب في وصف ناقة: ما هي إلَّا سفينة برية.

وقال آخر في فصلٍ: الإبل سفن البر، وجلودها قرب، ولحومها نشب، وبعرها حطب، وأثمانها ذهب.

الباب الرابع والعشرون

في الخيل والبغال

نواصي الخيل، خيلاء الخيل، جري المذكيات، طلق الجموح، خاصي خصاف، شبديز كسرى، أشقر مروان، فارس الأبلق، شؤم داحس، فرسا رهان، فريق الخيل، فحل السوء، بغلة أبي دلامة، أخلاق البغال.

الاستشهاد

نواصي الخيل

تضرب مثلًا للعز والرفعة لأن معالي الأمور إنما تحصل بها، فقد يقال: العز في نواصي الخيل، والذل في أذناب البقر.

قال بعض أهل العصر:

قلت لما أدنت الدنيا لنا نفرًا ذقنا بهم حر سقر:
فاتنا عز نواصي الخيل فلـ ـيبق فينا ذل أذناب البقر

خيلاء الخيل

عير بعضهم بركوب البغل، فقال: هذا مركب تطأطأ عن خيلاء الخيل، وارتفع عن ذلة العير؛ وخير الأمور أوسطها.

وقال بعض البلغاء: الخيل للاختيال، والبغل للإيغال، والجمل للأثقال.

قال السري لسيف الدولة:

لله سيفٌ تمنَّى السيفُ شِيمَته ودولةٌ حَسَدَتها فَخْرَها الدُّوَلُ
وعاشقٌ خُيَلاءَ الخيلِ مُبتَذِلٌ نَفسًا تُصانُ المعالي حينَ تُبتَذَلُ

جري المذكيات

من أمثال العرب: جري المذكيات غلاب.

قال الأصمعي: هذا في الخيل المسان، لأنها أقوى من الجذاع؛ فهي تحتمل أن تغالب الجري غلابًا.

ومن أمثالهم: جري المذكي حسرت عنه الحمر؛ يضرب مثلًا للرجل المتقدم المفضل على غيره ممن قصر سعيه ولم يدرك مناه.

والمذكي: هو الذي جاوز سن الفتى ولم يبلغ سن الهرم، وقد تكامل فيه نشاطه وأثره.

طلق الجموح: يضرب مثلًا للشاب يمعن في التصابي والخلاعة فيشبه بالفرس الجموح إذا عدا في حاجةٍ لم يثنه شيء.

قال أبو نواس:

جريت مع الصبا طلق الجموح وهان علي مأثور القبيح

خاصي خصاف

من أمثال العرب، عن أبي عمرو: وهو أجرأ من خاصي خصاف.

وخصاف: اسم فرس كان لرجلٍ من باهلة، فطلبه منه بعض الملوك للفحلة، فخصاه؛ فضرب به المثل في الجرأة على الملوك.

شبديز كسرى

من خصائص كسرى أبرويز أن الناس لم يروا أحدًا قط في زمانه أمد قامةً ولا أتم ألواحًا، ولا أوفر جسامةً ولا أبرع جمالًا منه، فكان لا يحمله إلَّا فرسه شبديز، وكان في الأفراس كهو في الناس؛ يضرب به المثل في عظم الخلق وكرم الخلق، وجمع شرائط العتق.

ولما مات شبديز لم يجسر أحد على نعيه، فضمن صاحب الدواب للفهليذ المغني مالًا، وسأله أن يعرض لأبرويز بموت شبديز، فقال وهو يغنيه في مجلسه:

شبديز لا يسعى ولا يرعى ولا ينام

فقال أبرويز: قد مات إذًا! فقال الفهليذ: من الملك سمعت.

ثم كان أبرويز بعد لا يحمله إلَّا فيل من فيلته، كان يجمع وطاءة ظهر الفيل وثبات قوائمه في الوحل، وأمن راكبه من العثار، ولين مشيه، وبعد خطوه.

وكان ألطفها بدنًا، وأعدلها جسمًا.

أشقر مروان

هذا فرس مشهور كان لمروان بن محمد آخر ملوك بني مروان، وكان يعدل بشبديز أبرويز في الحسن والكرم واستيفاء أقسام الجودة والعتق، ثم في اشتهار الذكر، حتى صار مثلًا لكل طرفٍ عتيقٍ، وفرسٍ كريم.

وأخبرني أبو نصر بن المَرْزُبان، قال: سمعت أبا حاتم الوراق، يقول: قرأت في بعض الكتب أن مروان كان يبتهج به كابتهاجه بعبد الحميد الكاتب والبعلبكي المؤذن، وسلام الحادي، وكوثر الخادم؛ وكل واحد

منهم في فنه فرد في جنسه، لم ير مثله؛ وكان يباهي بالأشقر فيقول: كالأشقر؛ ويقرب مربطه، ويبالغ في إكرامه.

والعرب تتشاءم بالأشقر فتقول: كالأشقر، إن تقدم نحر، وإن تأخر عقر.

ويقال: إن مروان أدركه شؤم الأشقر، كما أدرك لقيط بن زرارة يوم جبلة شؤم أشقر كان تحته.

وكان يقول له: أشقر، إن تتقدم تنحر، وإن تتأخر تعقر.

ولما زال أمر مروان صار الأشقر إلى السفاح، فحمل يحيى بن جعفر بن تمام بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب عليه وقد تحطم وهرم، وكان يركبه ويعجب به، وكان قد استفحل، فبلغ من كرمه على هرمه أنه كان يحمل في محفة عاجٍ وينقل من مرج إلى مرج، ولم يسمع له بنسل.

وقد ذكره أبو نخيلة حين دخل على السفاح في قوله:

أصبحت الأنبار دارًا تعمر وخربت من النفاق أدؤر
مص وقِنِّسْرينها وتدمر أين أبو الورد وأين الكوثر
وأين مروان وأين الأشقر

فارس الأبلق

يضرب به المثل في الشهرة، فيقال: أشهر من فارس الأبلق، وأشهر من الفرس الأبلق.

وكان الرئيس من رؤساء العساكر إذا أراد أن يشتهر في المعركة ركب فرسًا أبلق، ولبس مشهرةً.

شؤم داحس

يضرب به المثل. كان داحس فرسًا لقيس بن زهير العبسي، جرى به المثل في الشؤم، لأن الحرب من أجله دامت بين ذبيان وعبس أربعين سنة.

فرسا رهان

من أمثال العرب في الاثنين يستبقان إلى غايةٍ، فيقال: هما كفرسي رهانٍ.

وقال يحيى بن خالد للموصلي: بكر إلي غدًا، فقال: أنا والصبح كفرسي رهان.

وممن أحسن التمثل بهما ابن طباطبا حيث قال:

أتاني منك يا خلي كتاب ألذ إلي من نيل الأماني
كتاب حشوه شعر موشى بألفاظ تسابقها المعاني
إذا أصغى لها سمع وفهم حسبتهما معًا فرسي رهان

فريق الخيل

من أمثال العرب: هو أسرع من فريق الخيل؛ وهو السابق، لأنه يفارقها فينفرد عنها.

فحل السوء

يضرب مثلًا لمن يجسر على الأقرباء فيؤذيهم، ويجبن عن الأجانب فلا يتعرض لهم.

قال عيسى بن إدريس والد أبي دلف لأخيه يحيى بن إدريس:

تصول على الأدنى وتجتنب العدا وما هكذا تبنى المكارم يا يحيى!
فأنت كفحل السوء يبذل أمه ويترك باقي الخيل سائمةً ترعى

بغلة أبي دلامة

كان لأبي دلامة بغلة مشهورة يضرب بها المثل في كثرة العيوب، لأنه قال فيها قصيدةً طويلةً تشتمل على ذكر عيوبها، فيقال: ما هو إلَّا كبغلة أبي دلامة، وطيلسان ابن حرب، وأير أبي حكيمة، وحمار طياب،

وشاة سعيدٍ. والقصيدة هذه:

أبعد الخيل أركبها كرامًا … وبعد الغر من حضر البغال
رزئت ببغلةٍ فيها وكال … وليته لم يكن غير الوكال
رأيت عيوبها وعييت فيها … ولو أفنيت مجتهدًا مقالي
ليحصر منطقي، وكلام غيري … فخير خصالها شر الخصال
فأهون عيبها أني إذا ما … نزلت فقلت: أمشي لا تبالي
تقوم فما تسير هناك سيرًا … وترمحني وتأخذ في قتالي
وحين ركبتها آذيت نفسي … بضربٍ باليمين وبالشمال
وبالرجلين أركزها جميعًا … فيالك في الشقاء وفي الكلال
أتيت بها الكناسة مستبيعًا … أفكر دائبًا كيف احتيالي
فبينا فكرتي في السَّوم تسري … إذا ما سمت: أرخص أم أغالي!
أتاني خائب حمق شقي … قديم في الخسارة والضلال
فلما ابتاعها مني وصارت … له في البيع غير المستقال
أخذت بثوبه وبرئت مما … أعد عليك من شنع الخصال
برئت إليك من مشش قديمٍ … ومن جردٍ ومن بلل المخالي
ومن فرط الحران ومن جماحٍ … ومن ضعف الأسافل والأعالي
ومن عض اللسان ومن خراطٍ … إذا ما هم صحبك بارتحال
ومن كدم الغلام ومن بياضٍ … بناظرها ومن حل الحبال
تقطع جلدها جربًا وحكًا … إذا هزلت وفي غير الهزال
وألطف من فريخ الذر مشيًا … بها عرن وداء من سلال
وتكسر سرجها أبدًا شماسًا … وتسقط في الرمال وفي الوحال
ويهزلها الجمام إذا خصبنا … ويدمي ظهرها مس الجلال
وتحفى إن بسطت لها الحشايا … ولو تمشي على دمث الرمال

وتفزع من صياح الديك شهرًا ... وتنفر للصفير وللخيال
إذا استعجلتها عثرت وبالت ... وقامت ساعةً عند المبال
ومثفارٍ تقدم كل سرجٍ ... تصير دفتيه على القذال
وتضرط أربعين إذا وقفنا ... على أهل المجالس للسؤال
فتقطع منطقي وتحول بيني ... وبين حديثهم مما توالي
حرون حين تركبها لحضرٍ ... جموح حين تعزم للنزال
وألف عصًا وسوطٍ أصبَحِيٍّ ... ألذ لها من الشرب الزلال
وأما الاعتلاف فأدن تلًا ... من الأتبان أمثال الجبال
وأما القت فأت بألف وقرٍ ... كأعظم حمل أوساق الجمال
فإنك لست عالفها ثلاثًا ... وعندك منه عود للخلال
وإن عطشت فأوردها دجيلًا ... إذا أوردت أو نهري بلال
فذاك لريها سقيت حميمًا ... وإن مد الفرات فللنهال
وكانت قارحًا أيام كسرى ... وتذكر تبعًا عند الفعال
وتذكر إذ تشا بهرام جورٍ ... وذا الأكتاف في الحقب الخوالي
فقد مرت بقرنٍ بعد قرنٍ ... وآخر عهدها لَهلاك مالي
فأبدلني بها يا رب طرفًا ... يزين بحسن مركبه جمالي

وقد أورد الجاحظ قصيدة أبي دلامة هذه في قصائد البغال.

قال: والمثل في البغال بغلة أبي دلامة؛ وفي الحمير حمارا العبادي، وفي الغنم شاة منيع؛ وفي الكلاب كلبة أم حومل.

أخلاق البغال

قال الجاحظ: لما كان البغل من الخلق المركب، والطبائع المؤلفة، والأخلاق المختلفة، تلون في أخلاقه الكثيرة العيوب المتولدة عن مزاجه؛ وشر الطباع ما تجاذبته الأعراق المتضادة، والأخلاق المتفاوتة، والعناصر

المتباعدة.

وقال في موضع آخر: البغل كثير التلون، وبه يضرب المثل؛ قال ابن حازم الباهلي في تلون البغل:

مالي رأيتك لا تدوم على المودة للرجال
خلق جديد كل يومٍ مثل أخلاق البغال
متبرمًا أبدًا بمن آخيت، ودك في سفال

وقال آخر في تلون البغل:

ومتى سبرت أبا العلاء وجدته متلونًا كتلون البغل

وقال البحتري يهجو قومًا:

لهم حلل حَسُنَّ فهن بيض وأخلاق سمجْنَ فهن سود
وأخلاق البغال فكل يومٍ يعنُّ لبعضهم خلق جديد

وقال ابن بسام:

وجوه لا تهش إلى المعالي وأستاه تهش إلى الأيور
وأخلاق البغال إذا استميحوا وضرط في المجالس كالحمير

الباب الخامس والعشرون

في الحمير

حمار العزير، حمار أبي الهذيل، حمارا العبادي، حمار الحوائج، حمار القصار، حمار طياب، حمار قبان، عير أبي سيارة، أسنان الحمار، ظمء الحمار، صبر الحمار، ولد الحمار، ذنب الحمار، سنة الحمار، صوف الحمار، خاصي العير، عكما العير.

الاستشهاد

حمار العزير

قد تقدم.

حمار أبي الهذيل

يضرب مثلًا في الأمر الصغير يتكلم فيه الرجل الكبير.

ومن قصته أن أبا الهذيل دخل على المأمون فاحتبسه ليأكل معه، فلما وضعت المائدة وأخذوا في الأكل قال أبو الهذيل: يا أمير المؤمنين، إن الله لا يستحي من الحق، غلامي وحماري بالباب؛ فقال: صدقت يا أبا

الهذيل؛ ودعا بالحاجب، فقال له: اخرج إلى غلام أبي الهذيل وحماره، فتقدم بما يصلحهما؛ فخرج وفعل.

وكان محمد بن الجهم إذا تعذر عليه أمر يقول: إن الذي سخر المأمون لحمار أبي الهذيل وغلامه قادر على أن يسهل لنا هذا الأمر.

وفعل أبو الهذيل مثل ذلك مرةً على مائدة المعتصم، فقال المعتصم لإيتاخ: امض حتى تطرح لحمار أبي الهذيل علفًا، ومر بإطعام غلامه.

فقال أحمد بن أبي دواد: يا أمير المؤمنين: أما ترى إلى جلالة هذا الشيخ وتفقده ما يلزم من خواص أمره، لم يمنعه جلالة مجلسك عما يجب لله عليه ورسوله في غلامه وحماره!

فجعل أحمد ما قدره بعض من حضر من الحاجة إلى الاعتذار منه، الشهادة بالفضل له.

حمارا العبادي

من أمثال العرب في الشيئين الرديئين، ما أحدهما بأمثل من الآخر: هما كحماري العبادي؛ وهو الذي قيل له: أي حماريك شر؟ فقال: ذا ثم ذا.

وتحاكم نفر إلى الرقاشي في أيهما أنذل وأسفل؟ الكناس أو الحجام؟ فأنشد قول الشاعر:

حمارا العبادي الذي سيل عنهما   فكانا على حالٍ من الشر واحد

حمار الحوائج

يضرب مثلًا لمن يستذل ويمتهن.

ومن أمثال العرب: اتخذوا فلانًا حمار الحوائج.

ومن أمثال العامة: فلان قواد القرية، وجمل السقاية، وكلب الجماعة، وحمار الحوائج.

حمار طيَّاب

كان لطياب السقاء حمار قديم الصحبة، ضعيف الجملة، شديد الهزال، ظاهر الانخذال، كاسف البال، يستقى عليه، ويرتفق به، ويرتزق منه مدةً مديدةً من الدهر؛ وكان عرضةً لشعر أبي غلالة المخزومي، كما أن شاة سعيدٍ كانت عرضةً لشعر الحمدوني.

ولأبي غلالة في وصفه بالضعف، والتوجع له من الخسف، نيف وعشرون مقطوعة مضمنةً، أوردها كلها حمزة الأصبهاني في كتابه مضاحك الأشعار على حروف الهجاء.

وحكى محمد بن داود بن الجراح، عن جعفر رفيق طياب؛ أن حمار طياب نفق، فمات طياب على أثره بأسبوع، ثم مات أبو غلالة على أثر طياب بأسبوع، وكان ذلك من عجيب الاتفاقات.

وسار حمار طياب مثلًا كبغلة أبي دلامة في الضعف وكثرة العيب، وطيلسان ابن حربٍ، وشاة سعيد في كثرة ما قيل في كل منهما.

فمن ملح أبي غلالة في هذا الحمار ما أورده ابن أبي عون في كتاب التشبيهات — ولم يورد سوى المختار — قوله:

يا سائلي عن حمار طياب ذاك حمار حليف أوصاب
كأنه والذباب يأخذه من كل وجهٍ نفار دوشاب

ومما أورده حمزة قوله:

وحمارٍ بكت عليه الحمير دق حتى به الذباب يطير
كان فيما مضى يقوم بضعفٍ فهو اليوم واقف لا يسير
كيف يمشي وليس يعلف شيئًا وهو شيخ من الحمير كبير
يأكل التبن في الزمان ولكن أبعد الأبعدين عنه الشعير
عاين القت مرةً من بعيدٍ فتغنى في الفؤاد سعير:
ليس لي منك يا ظلوم نصير أنا عبد الهوى وأنت الأمير

وقوله:

أقسمت بالكأس والمدام وصحبة الفتية الكرام
أن لست أبكي على رسومٍ غيرها هاطل الغمام
لكن بكائي على حمارٍ موكل الجسم بالسقام
قد ذاب ضرًا ومات هزلًا فصار جلدًا على عظام
ومر يومًا به شعير مقدار كفين للحمام
وحبل قت لشاة قومٍ كلاهما في يدي غلام
فظل من فرحةٍ يغني وقال: قد جاءني طعامي
يا زائرينا من الخيام حياكم الله بالسلام
لم تطرقاني وبي حراك إلى حلالٍ ولا حرام

وقوله:

مار أناخ به ضره ودار عليه بذاك الفلك
يميل من الضعف من مشيه ويسقط في كل درب سلك
فأما الشعير فما ذاقه كما لا يذوق الطعام الملك
يغني على القت لما يراه وقد هزه الجوع حتى هلك:
أخذت فؤادي فعذبته وأسهرت عيني فما حل لك؟

وقوله:

لم أبك شجوًا لفقد حب ولا ابتلاني بذاك ربي
لكنني قد بكيت حزنًا على حمارٍ لجار جنب
لو شم ريح الشعير شمًا من غير أكلٍ لقال: حسبي
أو عاين القت من بعيدٍ يومًا لغنى بصوت صب:
ليس يزول الذي بقلبي يا من جفاني بغير ذنب

وقوله:

مار طياب لا تحصى مساويه ما فيه أكثر مما قلته فيه
قد ذاب حتى رأيت الخيط يشبهه من الهزال وعين الضر تبكيه
أقسمت بالله لولا التبن يأكله في كل شهرٍ لكان الجوع يفنيه
ما زال يطلب وصل القت مجتهدًا والقت يقتله بالصد والتيه
حتى تغنى له من طول جفوته صوتًا يبوح بما قد كان يخفيه:
النجم يرحمني مما أراعيه وأنت من غفلةٍ مما أقاسيه

حمار قَبَّان

من أمثال العرب: هو أذل من حمار قبان؛ وهو ضرب من الخنافس بين مكة والمدينة؛ قال الراجز:

يا عجبًا لقد رأيت عجبا حمار قبانٍ يسوق أرنبا

عير أبي سيارة

هذا غير مشهور يتمثل به، فيقال: أصح من عير أبي سيارة؛ للرجل الصحيح في بدنه.

وأبو سيارة رجل من عدوان، واسمه عميلة بن خالد بن الأعزل؛ وكان له حمار أسود، أجاز الناس عليه من مزدلفة إلى منى أربعين سنةً، وكان يقف فيقول شعرًا:

خلوا الطريق عن أبي سيارة وعن مواليه بني فزارةْ
حتى يجيز سالمًا حماره مستقبل القبلة يدعو جاره

قال الجاحظ: أعمار حمر الوحش تزيد على أعمار الحمر الأهلية، ولا يعرف حمار أهلي عاش أكثر وعمر أطول من عير أبي سيارة؛ فإنهم لا يشكون أنه دفع عليه بأهل الموسم أربعين عامًا.

وكان يقول: اللهم حبب بين نسائنا، وبغض بين رعائنا، واجعل المال في سمحائنا.

قال حمزة: وكان الفضل بن عيسى الرقاشي وخالد بن صفوان يختاران ركوب الحمير على البراذين، ويجعلان أبا سيارة قدوةً لهما.

فأما الفضل فإنه سئل عن ركوب الحمار، فقال: لأنه أقل الدواب مئونةً، وأكثر معونةً، وأسهلها جماحًا وصرعًا، وأخفضها مهوًى، وأقربها مرتقًى، يزهى راكبه وقد تواضع بركوبه؛ ويدعى مقتصدًا وقد أسرف في ثمنه، ولو شاء أبو سيارة أن يركب جملًا مهريًا، أو فرسًا عربيًا، لفعل؛ ولكنه امتطى عيرًا أربعين سنةً.

فأما خالد، فإن بعض أشراف البصرة تلقاه فرآه على حمارٍ، فقال: ما هذا المركب؟ فقال: عير من نسل الكداد، أصحر السربال، محملج القوائم، مفتول الأجلاد، يحمل الرحلة، ويبلغ العقبة، ويقل داؤه، ويخف دواؤه؛ ويمنعني أن أكون جبارًا على الأرض، أو أكون من المفسدين؛ ولولا ما في الحمار من المنفعة لما امتطى أبو سيارة عيره أربعين سنةً.

فسمع كلامه أعرابي، فعارضه بأن قال: الحمار إذا أوقفته أدلى، وإن تركته ولى، كثير الروث، قليل الغوث، سريع إلى الفرارة، بطيء إلى الغارة، لا ترقأ به الدماء، ولا تمهر به النساء، ولا يحلب في الإناء.

أسنان الحمار

يضرب بها المثل في التماثل والتساوي.

ومن أمثال العرب: سواسية كأسنان الحمار.

يقال: هو سِيُّك، أي: هو مثلك، وهما سواء وهم أسواء وسواسٍ وسواسية، إذا كانوا مستوين متساوين.

قال بعضهم: لا تكون السواسية إلَّا في الشر؛ قال ابن أحمر:

سواسٍ كأسنان الحمار فلا ترى لذي شيبةٍ منهم على ناشئٍ فضلا

وقال ذو الرمة:

لهم زمرة صهب السبال أذلة سواسية أحرارها وعبيدها

وقال:

سبينا منهم سبعين خودًا سواسٍ لم يفض لها ختام

وقال آخر:

شبابهم وشيبهم سواء هم في اللؤم أسنان الحمار

ظِمْء الحمار

من أمثال العرب قولهم: أقصر من ظمء الحمار، لأنه لا يصبر على العطش أكثر من يوم؛ والظمء: ما بين الشربتين؛ طويلًا كان أو قصيرًا؛ وأقصر الأظماء ظمء الحمار؛ والعرب تقول لمن أدبر وتولى، ولم يبق من عمره إلَّا اليسير: ما بقي منه إلَّا قدر ظمء الحمار.

ويروى أن مروان بن الحكم قال في الفتنة: الآن حين نفذ عمري، ولم يبق منه إلَّا مثل ظمء الحمار، صرت أضرب الجيوش بعضًا ببعض!

وقال سعيد بن العاص لعمار بن ياسر رضي الله عنهما: كنا نعدك من أفاضل الصحابة حتى إذا لم يبق من عمرك إلَّا ظمء الحمار فعلت وفعلت! فقال: أيما أحب إليك: مودة على دخنٍ، أو مصارمة جميلة؟ فقال: لله علي ألا أكلمك أبدًا.

صبر الحمار

قيل لبزرجمهر: بم أدركت ما أدركت من العلوم؟ قال: ببكورٍ كبكور الغراب، وصبرٍ كصبر الحمار، وحرصٍ كحرص الخنزير.

وإنما ضرب المثل في الصبر بالحمار لصبره على الخسف، وقلة التفقد، وهذا من أمثال العجم؛ وأما العرب فإنها تقول: أصبر من ذي حاجةٍ وأصبر من عودٍ بدفيه جلب.

ولد الحمار

من أمثال العرب عن أبي عمرو: أخلف من ولد الحمار؛ يريدون به البغل؛ لأنه لا يشبه أباه ولا أمه.

ذنب الحمار

يضرب مثلًا لما لا يزيد ولا ينقص، فيقال: ما هو إلَّا ذنب الحمار.

وكان أبو بكر الخوارزمي يقول: فلان كإيمان المرجئ، وذنب الحمار.

سنة الحمار

العرب تقول لسنة المائة من التاريخ: سنة الحمار. وأصلها من حديث حمار عزيرٍ وموته مع صاحبه مائة سنة، وإحياء الله تعالى إياهما، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾.

وإنما قيل لمروان بن محمد: مروان الحمار، لأن على رأسه استكمل ملك بني مروان مائة عامٍ.

وسمعت أبا النصر العتبي يقول: عرض على بعض الأدباء حمار أراد ابتياعه فوجده مسنًا، فقال: أرى هذا الحمار ولد قبل سنة الحمار.

صوف الحمار

يضرب به المثل في العسرة والنكد، فيقال: أنكد من صوف الحمار، كما يذكر صوف الكلب في القلة والعسرة: فيقال: أعسر من صوف الكلب.

خاصي العير

من أمثال العرب: جاء فلان كخاصي العير؛ إذا جاء مستحييًا، لأن خاصي العير تقع يداه على مذاكيره.

وقد ضرب أبو خراش الهذلي مثلًا به في شعرٍ له لست أستحضره.

عِكْما العير

من أمثال العرب: وقعا كعكمي عير؛ إذا وقعا متساويين؛ قال ذلك الأصمعي؛ وأصله أن يحل عن العير حباله فيسقط عكماه معًا.

ويقال: هما عكما عير مثلان؛ كما يقال: هما كركبتي البعير.

الباب السادس والعشرون

في البقر والغنم

بقرة بني إسرائيل، أذناب البقر، كعب البقر، لسان الثور، شاة سعيدٍ، شاة أشعب، عنز الأخفش، تيس بني حمان، لحية التيس، صنان التيس، حالب التيس، ضرطة عنز، يوم العنز، ذل النقد.

الاستشهاد

بقرة بني إسرائيل

يضرب بها المثل في الشيء يأمر به السيد أو الرئيس، فيلج المسود أو المرؤوس، ويحتج فيه، ويشدد الأمر فيه على نفسه، فيشدد عليه، كنحو أصحاب البقرة الذين قال لهم الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: اذبحوا بقرةً، واضربوا القتيل ببعضهما، فإني أحييهما جميعًا؛ فلو اعترضوا من جميع البقر بقرةً واحدةً فذبحوها كانوا غير مخالفين؛ فلما ذهبوا مذهب التشكك والتعلل، ثم التعرض والتعنت، صار ذلك سبب تغليظ الفرض.

وقيل لأبي العيناء: ما تقول في مالك بن طوقٍ؟ فقال: لو كان في زمن بني إسرائيل، ونزلت آية البقرة ما ذبحوا غيره.

وكتب أبو نصر العتبي إلى بعض من استماحه من أهل الأدب مع دينارٍ بعث به إليه:

قد بعثت إليك بمثل بقرة بني إسرائيل في الصفة، ولو ملكت ملء مسكها ذهبًا ومسكًا لما نفست به نفسي عليك؛ والسلام.

يريد قوله تعالى: ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.

أذناب البقر.

كعب البقر

كان داود بن عيسى بن موسى يلقب بأترجة، وعبد السميع بن محمد بن المنصور يلقب بشحم الحزين، ومحمد بن أحمد بن عيسى الهاشمي بكعب البقر، وكانوا كلهم مع المستعين، فلما صاروا إلى المعتز قال المعتز:

أتاني أترجة في الأمان ... وعبد السميع وكعب البقر
فأهلًا وسهلًا بمن جاءنا ... ويا ليت من لم يجئ في سقر

فقالوا: قد شرفنا أمير المؤمنين بذكره لنا، ولكنه ذكرنا باللقب؛ ولم يذكر عبد السميع بلقبه، فقال:

أتاني أترجة في الأمان ... وشحم الحزين وكعب البقر

لسان الثور

يشبه به اللسان الطويل العريض.

أنشد الصولي لبعض الشعراء في هجاء محمد بن أحمد بن الحسين بن حرب، وكان وكل ببيع الغلات ببغداد بأمر المعتمد:

ألا تعسًا ونكسًا لابن حرب ... وضربًا بالمقارع بعد صلب
لقد ملئت به بغداد جورًا ... وأفرغ بغضه في كل قلب
تبارك من حباه بوجه قردٍ ... ونكهة ضيغم وطباع كلب

وعيني فأرةٍ ولسان ثورٍ   وخلقة قنفذٍ وجبين دب

ولابن الرومي في هجاء عجوزٍ:

أدنت إلى شدقه لسانًا   ما هو إلَّا لسان ثور

شاة سعيد

كان المثل يضرب بشاة منيعٍ، ثم تحول المثل إلى شاة سعيدٍ لكثرة ما قال الحمدوني فيها، وتسييره الملح في وصف هزالها فمنها قوله:

ما أرى إن ذبحت شاة سعيدٍ   حاصلًا في يدي غير الإهاب
ليس إلَّا عظامها لو تراها   قلت هذي أرازن في جراب
كم تغنت بحرقةٍ حين لم تطـ   ـعم ولم تر غير محض التراب
رب لا صبر لي على ذا العذاب   بليت مهجتي وأودى شبابي!

وقوله:

صاح بي يومًا سعيد   من وراء الحجرات:
قرب الناس الأضاحي   وأنا قربت شاتي
شاة سوءٍ من جلودٍ   وعظامٍ نخرات
كلما أضجعتها للذْ   ذَبح قالت: بحياتي

وقوله:

جاد سعيد لي بشا   ةٍ ذات سقم ودنف
ناحلة الجسم إذا   ما هي مرت بالجيف
صاحت إليها: ها هنا   يا أختنا ذات العجف

تخنقها العبرة إن مرت بأصحاب العلف
ثم تغنى ولها شوق إليه ولهف:
وقد تقطعت إلى وجهك شوقًا وأسف

وقوله:

بشاة سعيدٍ وهي روح بلا جسم — تمثلت الأمثال في شدة السقم
يقول لي الإخوان حين طبختها: — أتطبخ شطرنجًا عظامًا بلا لحم!
فقلت: كلوا منها فقالوا تهزؤًا: — أتطعمنا ناووس قومٍ من العجم!
فقلت لهم: كانت لديهم أسيرةً — ترى القت من شأوٍ بعيدٍ وفي الحلم
وكم قد تغنت إذ تطاول جوعها — ولم تر عند القوم شيئًا من الطعم:
ألا أيها الغضبان بالله ما جرى — إليك فقد أبليت جلدي على عظمي!

شاة أشعب

يضرب بها المثل في الطمع.

وقيل لأشعب: هل رأيت أطمع منك؟ قال: نعم، شاة لي صعدت في السطح، فنظرت إلى قوس قزحٍ، فظنته حبل قت، فأهوت إليه واثبةً فسقطت من السطح إلى الأرض فاندقت عنقها.

وإلى هذا التمثيل أشار ابن الحجاج في قوله وقد سقطت زوجته من سطحٍ فماتت وهي من قصيدةٍ:

عفا الله عنها إنها يوم ودعت — أجل فقيدٍ في التراب مغيب
ولو أنها اعتلت لكان مصابها — أخف على قلب الحزين المعذب
ولكن رأت في الأرض أفعى مجدلًا — على قدر غرمول الحمار المشعب
فظنته أيرًا والظنون كواذب — إذا أخبرت عن علم ما في المغيب
وأهوت إليه من يفاعٍ ودونه — ثمانون باعًا من علو مصوب

فصارت حديثًا شاع بين مصدقٍ		يحققه علمًا وبين مكذب
سرى الطمع المردي إليها بحتفها		ومن يمتثل أمر المطامع يعطب
فأعظم يا هذا لك الله ربها		وربك أجر الثكل في شاة أشعب

تيس بني حمان

العرب تضرب به المثل في الغلمة، فتقول: أغلم من تيس بني حمان؛ وتزعم أنه قفط سبعين عنزًا بعد ما فريت أوداجه.

ويروى أن مالك بن مسمعٍ هازل الأحنف بن قيس: فقال: والله لأحمق بكر بن وائل يعني هبنقة القيسي أشهر من سيد بني تميم يعني الأحنف. فقال وكان لقاعةً حاضر الجواب: والله لتيس بني تميم أشهر من سيد بكر بن وائل؛ يعني تيس بن حمان، لأنهم من تميم، وعنى بسيد بكرٍ ابن مسمعٍ.

لحية التيس

يشبه بها اللحية الطويلة المستدقة؛ قال الشاعر:

ليس بطول اللحى يستوجبون القضا
إن كان هذا كذا فالتيس عدل رضا

وقال ابن بسام في مغن يقال له: لحية التيس وكان يغني بقفا نبك:

أقول إذا غنى بما ساءني		أقصر قليلًا لحية التيس
ودع قفا نبك وقوفًا بها		لا رحم الله امرأ القيس

صنان التيس

قال بعض نساء العرب:

نكحت المديني إذ جاءني فيا لك من نكحةٍ غالية
له ذفر كصنان التيو س أعيا على المسك والغالية

وقال بعض العصريين:

لي صاحب لا يسمى بين الورى إنسانا
لأنه التيس قرنًا ولحيةً وصنانا

حالب التيس

يضرب مثلًا لمن يطمع في غير مطمعٍ، ومن يرجو من لا يجدي؛ قال والبة بن الحباب:

أصبحت لا تعرف الجميل ولا تفرق بين القبيح والحسن
إن الذي يرتجي نداك كمن يحلب تيسًا من شهوة اللبن

وقال البحتري:

أيا صالحًا لا يجزك الله صالحًا فإنك مثل التيس أخفق حالبه

ضرطة عنزٍ

يضرب مثلًا لما يهون من الأمور.

ولما قتل ابن جرموز الزبير بن العوام، وجاء برأسه إلى علي بن أبي طالبٍ كرم الله وجهه، قال له: أبشر بالنار، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بشروا قاتل ابن صفية بالنار»؛ فانصرف ابن جرموز وهو يقول:

أتيت عليًا برأس الزبير وكنت أرجي به الزلفة
فبشر بالنار قبل العيان وبئست بشارة ذي التحفة

فسيان عندي قتل الزبير وضرطة عنزٍ بذي جحفة

ومما يشبه هذا من أمثالهم: لا تحبق في هذا الأمر عناق حولية، أي: لا يكون له تغيير، ولا يدرك له ثأر.

قاله عدي بن حاتم حين قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، فلما فقئت عينه يوم الجمل، وقتل بنوه بصفين، قيل له: يا أبا طريف، ألم تزعم أنه لا تحبق في هذا الأمر عناق حولية! قال: بلى والله، إن التيس الأعظم قد حبق فيه.

يوم العنز

يضرب مثلًا لمن يلقى ما يهلكه، فيقال: لقي فلان يوم العنز؛ فكأن يومها يوم ذبحها، كما قيل: يوم عبيدٍ، ليوم قتله؛ قال الفرزدق:

رأيت ابن دينار يزيد رمى به إلى الشام يوم العنز والله خاذله

يعني به المثل: كالباحث عن المدية، يقول: كالعنز التي بحثت عن المُدْية فذبحت بها.

ذل النقد

يضرب بها المثل؛ فيقال: أذل من النقد؛ وهي صغار الغنم.

قال رجل من بني تميم:

لو كنتم ماءً لكنتم زبدًا أو كنتم لحمًا لكنتم غددا
أو كنتم صوفًا لكنتم قردًا أو كنتم شاةً لكنتم نقدا

وقال جحظة البرمكي:

رب فقيرٍ أعز من أسد ورب مثرٍ أذل من نقد

الباب السابع والعشرون

في الأسد

أسد الله، ليث عريسة، ليث عفرين، ليث الغاب، جرأة الأسد، عريسة الأسد، زأر الأسد، خاسي الأسد، راكب الأسد، داء الأسد، نكهة الأسد، شره الأسد، فم الأسد، برثن الأسد، أخذ سبعة، وثبة الأسد.

الاستشهاد

أسد الله

حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد تقدم.

ليث عِرِّيسة

من أمثال العرب عن أبي عمرو: هو أشجع من ليث عريسة؛ وأنشد لحمزة بن بيض الحنفي:

ليث عريسةٍ أخو غمراتٍ   دونه في العرين عيص وزأر

ليث عِفِرِّين

من أمثالهم: أشجع من ليث عفرين؛ كذا قال أبو عمرو والأصمعي، واختلفا في التفسير؛ فقال أبو عمرو: هو الأسد؛ وقال الأصمعي: هو دويبة كالحرباء تتعرض للراكب وتضرب بذنبها.

وزعم الجاحظ: أنه ضرب من العناكب يصيب الذباب صيد الفهود، وله ست عيون، فإذا رأى الذباب لطئ بالأرض؛ وسكن أطرافه، فمتى سكن ووثب لم يخطئ.

قال ابن سمكة: وهو دويبة مأواها التراب السهل في أصول الحيطان، تدور دوارةً ثم تندس في جوفها، فإذا هيجت رمت بالتراب صعدًا.

ويقال للرجل ابن الخمسين: ليث عفرين، إذا كان كاملًا.

ليث الغاب

يضرب مثلًا للشجاع الذي يهاب وهو في منزله.

وأنشد أبو الفتح البستي لنفسه:

وليس يعدم كنًا يستكن به ومنعة بين أهليه وأصحابه
ومن نأى عنهم قلت مهابته كالليث يحقر إما غاب عن غابه

جرأة الأسد

يتمثل بها حتى النسوان والصبيان، لأن الأسد سيد السباع، كما أن العقاب سيد الطيور، والفرس سيد الدواب.

كما قال أبو الحسن المدائني: قال نصر بن سيار: كان عظماء الترك يقولون: ينبغي أن يكون في القائد العظيم القيادة عشر خصال من أخلاق الحيوان: جرأة الأسد، وختل الذئب، وروغان الثعلب، وحملة الخنزير، وصبر الكلب على الجراحة، وتحنن الدجاجة، وسخاء الديك، وحذر الغراب، وحراسة الكركي، وهداية الحمام.

عِرِّيسة الأسد

يضرب مثلًا للمكان الرفيع المنيع؛ قال الشاعر:

كمبتغي الصيد في عريسة الأسد

وفي أمثال الصاحب: لم يدر أن عريسة الأسد ليست من مرابض النقد.

وقال فيها: إن الثعالب لا تجسر على أخياس الأسود، والأرانب لا تحوم حول أغيال الليوث.

زأر الأسد

يضرب مثلًا لوعيد السلطان؛ وهو من قول النابغة للنعمان:

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأرٍ من الأسد

وتمثل به عدة من الكبراء، منهم الحجاج لما سخط عليه عبد الملك.

خاصي الأسد

يضرب مثلًا لمن يقدم على الأمر العظيم ويمد يده إلى الرجل الكبير، فيقال: أجرأ من خاصي الأسد؛ وهكذا قال محمد بن حبيب.

وعن أبي عمرو: أجرأ من خاسئ الأسد، وهو الذي يقول للأسد: اخسأ، من قوله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

راكب الأسد

يضرب مثلًا لمن يهاب وهو يهاب.

قال بعض الحكماء: صاحب السلطان كراكب الأسد، يهابه الناس، وهو لمركبه أهيب.

داء الأسد

هو الحمى لأنها كثيرًا ما تعرو الأسد حتى إنه قلما يخلو منها ساعةً؛ قال أبو تمام:

فإن تك قد نالتك أطراف وعكةٍ فلا عجب أن يوعك الأسد الورد

وقال البحتري:

وما الكلب محمومًا وإن طال عمره ألا إنما الحمى على الأسد الورد

وكتبت إلى عمر بن علي المطوعي رقعةً منها:

انصرفت البارحة بقلبٍ مهمومٍ، وجسمٍ محمومٍ، فما الظن بعلة الحسد، قارنتها علة الجسد، وداء الذئب خالطه داء الأسد.

وهذا سجع تطفل على قلمي من غير قصدٍ؛ إذ قد كفاني الله داء الذئب، وسيكفيني داء الأسد بصنعه القريب.

نكهة الأسد

الأسد موصوف بالبخر، وكذلك الصقر؛ قال الشاعر:

قد ولي فارس والأهـ ـواز داود بن بشر
وله لحية تيسٍ وله منقار نسر
وله نكهة ليثٍ خالطت نكهة صقر

قال سعيد بن حميد لأبي هفان يومًا: أنا الأسد؛ فقال: ليس فيك من الأسد إلَّا النكهة.

شره الأسد

تقول العرب في أمثالها: أشره من الأسد؛ وذلك أنه يبتلع البضعة العظيمة من غير مضغٍ، وكذلك الحية؛ لأنهما واثقان بسهولة المدخل وسعة المجرى.

فم الأسد

يضرب مثلًا للشيء الصعب المرام؛ قال الشاعر:

ومن يحاول شيئًا من فم الأسد

بُرْثُن الأسد

دخل أبو العميثل على عبد الله بن طاهر، فقبل يده، فقال عبد الله: قد آذت خشونة شاربك يدي! فقال: كلا أيها الأمير، إن شوك القنفذ لا يضر برثن الأسد.

وفي كتاب المبهج: من تحكك بناب الأسود، وبرثن الأسود، فقد سخنت عينه، وحان حينه.

أخذ سَبَّعة

من أمثال العرب: أخذه أخذ سبُعةٍ (بضمِّ الباء)، والسَّبْعة بتسكين الباء الموحدة: اللبؤة.

قال ابن الكلبي: سبعة: رجل وهو سبعة بن عوف بن ثعلبة بن سلامان، وكان رجلًا شديدًا، فضرب به المثل.

ومن الدليل على أن القول هو الأول قولهم: إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي، ويأخذ أخذ الأسد.

وثبة الأسد

قال عبد الله بن المعتز للمعتضد:

هنتك أمير المؤمنين سلامة برغم عدو في الحديد كظيم
وثبت إليه وثبة أسديةً وصلت به صول الظبا في الريم

الباب الثامن والعشرون

في الذئب

ذئب يوسف، ذئب أهبان، ذئب الغضى، ذئب الخمر، داء الذئب، بقلة الذئب، لؤم الذئب، خفة رأس الذئب، نوم الذئب، ظلم الذئب، عدو الذئب، مسترعي الذئب، ختل الذئب، حمق جهيزة.

الاستشهاد

ذئب يوسف

قد تقدم في الباب الثاني ذكره.

ذئب أهبان

يضرب مثلًا للشيء العجيب وكلام ما لا يتكلم. ومن قصته أن أهبان بن أوس السلمي كان في غنمٍ له، فشد الذئب على شاةٍ منها، فصاح به أهبان، فأقعى الذئب، وقال له: أتنزع مني رزقًا رزقنيه الله؟

قال أهبان: فصفقت بيدي تعجبًا، وقلت: والله ما رأيت ولا سمعت أعجب من هذا! فقال: أتعجب من هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين هذه النخلات وأومأ بيده إلى أبيات المدينة يحدث بما كان ويكون،

ويدعو إلى الله وعبادته! قال: فجئت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبرته بالقصة وأسلمت. فكان يقال لأهبان: مكلم الذئب، ولولده: بنو مكلم الذئب؛ قال الشاعر:

إلى ابن مكلم الذئب ابن أوسٍ رحلت على عذافرةٍ أمون

وقال رزين العروضي يهجو بعض ولد أهبان:

فكيف لو كلم الليث الهصور إذًا تركتم الناس مأكولًا ومشروبا
هذا السنيدي لا تخشى معرته يكلم الفيل تصعيدًا وتصويبا

قال الجاحظ في نقد شعرِ رزينٍ هذا والنضج عن ولد أهبان: لو كان ولد أهبان ادَّعَوا أن أباهم كلم الذئب كانوا مجانين، وإنما ادَّعَوا أن الذئب كلم أباهم، حتى سمي مكلم الذئب، وأنه ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم ذلك وأنه صدقه؛ والفيل ليس الذي يكلم السندي، ولم يدَّعِ ذلك سندي قط، وإنما السندي هو المكلم له، والفيل هو الفهم عنه، فذهب رزين العروضي من الغلط كل مذهبٍ. والناس قد يكلمون الطير والبهائم والكلاب والسنانير والمراكب، وكل ما تحت أيديهم من أصناف الحيوان التي قد خولوها وسخرت لهم؛ وربما رأيت القراد يكلم القرد بكل ضربٍ من الكلام، ويطيعه القرد في جميع ذلك، وكذلك ربما رأيت الإنسان يلقن الببغاء ضروبًا من الكلام والببغاء تحكيه، وإنما الشأن في تكليم ما لا يكلم الإنسان.

ذئب الغضى

من أمثال العرب: ذئب الغضى، وتيس حلب، وأرنب الحلة، وضب السحا، وقنفذ برقة، وشيطان الحماطة. قال الجاحظ: وذلك كله على قدر طبائع البلدان والأغذية الفاعلة في طبائع الحيوان، ألا تراهم يزعمون أن من دخل تبت لم يزل مسرورًا ضاحكًا من غير عجبٍ حتى يخرج منها؛ ومن أقام بالأهواز فتفقَّد عقلهَ — وكان ذا فراسةٍ — وجد النقصان فيه بينًا؛ ومن أقام بالموصل حولًا ثم تفقد قوته وجد فيها فضلًا.

داء الذئب

هو الجوع، والعرب تقول في الدعاء على العدو: رماه الإله بداء الذئب؛ لأنه دهره جائع.

قال ابن الرومي:

وشاعر أجوع من ذئبٍ معششٍ بين أعاريب

والأسد والذئب يختلفان في الجوع والصبر عليه، لأن الأسد شديد النهم رغيب حريص، وهو مع ذلك يحتمل أن يبقى أيامًا، فلا يأكل شيئًا، والذئب وإن كان أقفر منزلًا، وأقل خصبًا، وأكثر كدًا وإخفاقًا، فلا بد له من شيءٍ يلقيه في جوفه، فإن لم يجد شيئًا تبلغ النسيم وربما استف التراب.

بقلة الذئب

هي اللحم، لأن الذئب لا يحوم حول شيءٍ من البقول والنبات، وإنما بقله اللحم لا غير.

وقيل لأبي الحارث جمين: أي البقول أحب إليك؟ قال: بقلة الذئب؛ وقال الشاعر:

الخبز أفضل شيءٍ أنت آكله وأفضل البقل بقل الذئب يا صاح

لؤم الذئب

من تمام لؤم الذئب أنه لا يقتصر من الغنم على ما يشبعه، بل يعبث بها فلا يبقي ولا يذر؛ ومن ذلك أنه ربما تعرض للإنسان ذئبان فيتساندان ويقبلان عليه إقبالًا واحدًا، فإذا أدمى الإنسان أحدهما وثب الذئب الآخر على الذئب المدمى ومزقه، وربما تكون الذئبة مع ذئبها فيدمى الذئب، فإذا رأته قد دمي شدت عليه فأكلته؛ قال رؤبة:

ولا تكوني يا ابنة الأشم حمقاء أدمت ذئبها المدمى

يقول: قد أثر الوهن فيَّ أثرًا فلا يحملنك ما ترين من أثره فيَّ على أن تأكليني معه كما أكلني.

ويقال: إنه ليس في خلق الله تعالى ألأم من الذئب؛ إذ يحدث له عند رؤية الدم على مجانسه الطمع فيه، فيحدث له ذلك الطمع قوةً يعدو بها على الآخر.

ومن أمثال العرب: هو أعق من ذئبةٍ؛ قال الفرزدق:

وكنت كذئب السوء لما رأى دمًا بصاحبه يومًا أحال على الدم

أحال على الدم، أي: أقبل عليه. وقال طرفة:

أحلت عليها بالقطيع فأجذمت

وقال آخر:

فتًى ليس بابن العم كالذئب إن رأى بصاحبه يومًا دمًا فهو آكله

ولما فسرت العرب أخلاق ما عاينوا من السباع وغيرها، وعرفوا ما عابوا من عادتها، وصفوا الشيء الواحد منها بضروب من الأخلاق المختلفة، فقالوا في تعداد أخلاق الذئب: غدر الذئب، ختل الذئب، خيانة الذئب، خبث الذئب، ظلم الذئب، عدو الذئب، لؤم الذئب، جوع الذئب، صحة الذئب، وقاحة الذئب، حدة ناب الذئب، وبكل ذلك نطقت الأشعار.

خفة رأس الذئب

من أمثال العرب عن أبي عمرو: أخف رأسًا من الذئب؛ ومعناه خفة النوم، لأنه لا ينام كل نومه لشدة حذره.

نوم الذئب

ويبلغ من شدة احترازه واحتراسه أن يراوح بين عينيه إذا نام، فيجعل إحداهما مطبقةً نائمةً، والأخرى مفتوحةً حارسة؛ كما قال الشاعر وهو يصف تيقظه:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان هائج

والأرنب، وإن كان ينام مفتوح العينين، فليس من احترازٍ، ولكن خلقه الله كذا؛ قال المتنبي:

أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

ظلم الذئب

المثل سائر بظلم الذئب؛ والعرب تقول: أظلم من الذئب؛ قال الشاعر:

وأنت كجرو الذئب ليس بآلف ... أبى الذئب إلَّا أن يجور ويظلما

وقال أعرابي، وربَّى جروَ ذئبٍ، فلما شب افترس النعجة التي كانت ترضعه:

فرست شويهتي وفجعت طفلًا ... ونسوانًا وأنت لهم ربيب
نشأت مع السخال وأنت جرو ... فما أدراك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوءٍ ... فلا أدب يفيد ولا أديب

عدو الذئب

تقول العرب: أعدى من الذئب؛ من العدو والعدوان.

ومن أمثالهم: هو أبقى عدوًا من الذئب؛ وعسلان الذئب مشية له يختص بها.

قال بعض البلغاء في وصف إنسان مسرعٍ: مر بنا كأنه ظل ذئبٍ.

قال الراجز:

والله لولا وجع في العرقوب ... لكنت أبقى عسلًا من الذيب

وقال امرؤ القيس:

وإرخاء سرحانٍ وتقريب تنفل

مسترعي الذئب

يضرب مثلًا لمن يضع الشيء في غير موضعه، ويأتمن الخائن ويستعين بمن هو عليه، فيقال: مسترعي الذئب ظالم، ومستودع الذئب أظلم.

ختل الذئب

من أمثالهم: هو أختل من الذئب؛ يقال: ختل الذئب الصيد إذا تخفى له؛ وكل خادعٍ خاتل.

والذئب يأدو للغزال يأكله

وإنما يريدون أنه يختل ليدرك صيده.

حمق جهيزة

من أمثالهم: أحمق من جهيزة، وهي عرس الذئب، أي: أليفته؛ ومن حمقها أنها تدع ولدها وترضع ولد الضبع، كفعل النعامة ببيض غيرها.

قالوا: ومن هذا قول ابن جذل الطعان:

كمرضعةٍ أولاد أخرى وضيعت   بنيها فلم ترقع بذلك مرقعا

قالوا: ويشهد لما بين الضبع والذئب من الألفة أن الضبع إذا صيدت أو قتلت فإن الذئب يتكفل بأولادها ويأتيها باللحم؛ وأنشدوا قول الكُمَيت:

كما خامرت في حضنها أم عامرٍ   لدى الحبل حتى عال أوس عيالها

الباب التاسع والعشرون

في الكلب

كلب الله، كلب أصحاب الكهف، كلب طسم، كلبة حومل، كلاب الناس، كلاب النار، كلاب الجن، كلب الرفقة، كلب الحارس، مزجر الكلب، نعاس الكلب، صوف الكلب، ريح الكلب، بخل الكلب، حرص الكلب، إلف الكلب، لؤم الكلب، غسل الكلب، واقية الكلاب، قتيل الكلاب.

الاستشهاد

كلب الله

وقد تقدم ذكره في أول باب من الكتاب، فيما يضاف وينسب إلى لفظ الجلالة.

كلب أصحاب الكهف

يضرب مثلًا لمن يلازم ولا يفارق؛ كما كتب أبو دلامة إلى سعيد بن سلم يشكو غريمًا له قد لازمه:

إذا جئت الأمير فقل: سلام ... عليك ورحمة الله الرحيم

وأما بعد ذاك فلي غريم ... من الأعراب قبح من غريم

غريم لازم بفناء داري لزوم الكلب أصحاب الرقيم
له مائة علي ونصف هذا ونصف النصف في صك قديم
دراهم ما انتفعت بها ولكن وصلت بها شيوخ بني تميم

وقد ضربه دعبل مثلًا في هجاء المعتصم لما كان ثامن خلفاء بني العباس فقال:

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا في ثامنٍ لهم كتب
كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة كرام إذا عدوا وثامنهم كلب

كلب طَسْم

يضرب به المثل في مكافأة المحسن بالإساءة.

كان لطسمٍ كلب يحسنون إليه، فدل بنباحه عدوهم عليهم، حتى استباحوهم وقتلوهم كما فعلت براقش؛ وهي أيضًا كلبة كانت لقوم من العرب هربوا من عدو لهم ومعهم براقش، فاتبع العدو آثارهم بنباح براقش، فهجموا عليهم فاصطلموهم، وصار قولهم: على أهلها براقش تجني؛ كما قال حمزة بن بيض:

لم تكن عن جنايةٍ لحقتني لا يساري ولا يميني جنتني
بل جناها أخ علي كريم وعلى أهلها براقش تجني

ويروى في قصة كلب طسم؛ أن رجلًا منهم ارتبط كلبًا، فكان يطعمه ويسقيه رجاء أن يصيد به، فأبطأ عليه يومًا، ودخل عليه صاحبه، فوثب عليه فافترسه؛ فصار مثلًا في كفران النعمة، وفيه قيل: سمن كلبك يأكلك.

قال الشاعر:

ككلب طسمٍ وقد ترببه يعله بالحليب في الغلس
ظل عليه يومًا يفرفره إلَّا يَلَغْ في الدماء ينتهس

وقال مالك بن أسماء:

هم سمنوا كلبًا ليأكل بعضهم ولو ظفروا بالحزم لم يسمن الكلب

وقال آخر:

أراني وعوفًا كالمسمن كلبه فخدشه أنيابه وأظافره

كلبة حَوْمَل

يضرب بها المثل في الجوع، فيقال: أجوع من كلبة حومل.

وحومل امرأة من العرب كانت تربط كلبةً لها ليلًا للحراسة، وتجيعها وتطردها بالنهار، فرأت ليلة القمر طالعًا، فنبحت عليه تظنه رغيفًا لاستدارته، ولما طالت الشدة عليها أكلت ذنبها من شدة الجوع؛ قال الشاعر:

كما رضيت جوعًا وسوء رعايةٍ لكلبتها في سالف الدهر حومل

كلاب الناس

هم الأنذال والسفهاء.

قال بعض السلف: الغيبة إدام كلاب الناس، وفاكهة الجبناء؛ قال الشاعر:

لكلب الإنس إن فكرت فيه أشد عليك من كلب الكلاب

قال منصور الفقيه: ما الكلاب الكلاب، بل هم الناس، إذا استحسنوا صنيع الكلاب، كانوا شرًا من الكلاب.

كلاب النار

قال الجاحظ: يقال للخوارج والنوائح: كلاب النار.

كلب الرفقة

الرياشي، قال: أراد رجل سفرًا فقال له هشام أخو ذي الرمة: اعلم أن لكل رفقةٍ كلبًا يشركهم في فضل الزاد، ويميِّز دونهم، فإن قدرت ألا تكون كلب الرفقة فافعل.

كلب الحارس

يضرب مثلًا للساقط ينتسب إلى الساقط فيزداد ضعةً.

قال الشاعر:

من لم يذق مُرَّ الزمان وصرفه فَلْيمسِ معتبرًا بهذا البائس
هذا ربيعة فاعرفوه باسمه كان الأمير فصار كلب الحارس

مزجر الكلب

يقال: فلان بمزجر الكلب، وفي صف النعال؛ إذا كان بالبعد من مجلس الناس.

قال أبو سفيان بن حرب:

وما زال مهري مزجر الكلب منهم لدن غدوةً حتى دنت لغروب

وفي الكتاب المبهج: الكريم في مركز القلب، واللئيم بمزجر الكلب.

نعاس الكلب

العرب تضرب المثل بنعاس الكلب، كما قال رؤبة بن العجاج:

لاقيت مطلًا كنعاس الكلب وعدةً عجت عليها صحبي
كالشهد بالماء الزلال العذب

قال الجاحظ: الكلب أيقظ الحيوان عينًا في وقت حاجتهم إلى النوم، وإنما نومه نهارًا عند استغنائهم عن حراسته، ثم لا ينام إلَّا غرارًا وإلا غشاشًا.

وأغلب ما يكون النوم عليه وأشد ما يكون إسكارًا له أن يكون كما قال رؤبة:

لاقيت مطلًا كنعاس الكلب

يعني بذلك القرمطة في المواعيد؛ وكذلك الكلب فإنه أنوم ما يكون أن يفتح من عينه بقدر ما يكفيه للحراسة، وذلك ساعةً فساعةً؛ وهو في هذا كله أيقظ من ذئبٍ، وأسمع من فرس، وأحذر من عقعق.

وفي نعاس الكلب نهارًا وسهره ليلًا، يقول أبو أحمد النسفي، وهو يهجو رجلًا:

ينام إذا ما استيقظ الناس للعلا فإن جن ليل فهو يقظان حارس
كذلك كلب الناس ينعس يومه ويسهر طول الليل والليل دامس

صوف الكلب

يضرب مثلًا في العسرة والنكد، كما يقال: مخ الذر، ولبن الطير.

ويقال: احتاج إلى الصوف من جز كلبه؛ قال الشاعر:

من جز كلبًا لما في الكلب من وبرٍ أمسى، لَعَمْرُك، محتاجًا إلى الصوف

ريح الكلب

يضرب مثلًا في النتن؛ قال الشاعر وهو يهجو امرأةً:

ريحها ريح كلابٍ هارشت في يوم طل

ولها ريق كريه مثل صحناةٍ بخل

وقال آخر وهو يهجو رجلًا:

يزداد لؤمًا على المديح كما يزداد نتن الكلاب في المطر

وقالت المرأة التي سألها امرؤ القيس عما تكره النساء منه؛ وكان مفركًا: يكرهن منك أنك ثقيل الصدر، خفيف العجز، سريع الإراقة، بطيء الإفاقة، وأنك إذا عرقت عرقت بريح كلبةٍ. فقال امرؤ القيس: صدقت، إن أهلي كانوا أرضعوني مرةً لبن كلبةٍ.

بخل الكلب

يضرب مثلًا للبخيل؛ لأن الكلب إذا نال شيئًا لم يطعم منه، وإن رام إنسان انتزاع شيءٍ من يده هرشه؛ قال لشاعر:

وأبخل من كلبٍ عقورٍ على عرق

حرص الكلب

تقول العرب: فلان أحرص من كلبٍ على جيفةٍ، ومن كلبٍ على عرق.

ومما يتمثل به من أخلاقه: حراسة الكلب، لجاج الكلب، لؤم الكلب، نباح الكلب، حفاظ الكلب، إلف الكلب.

ويقال: إن الكلب آلف من الهر، لأن الكلب يألف الإنسان، والهر يألف المكان.

قال الشاعر يهجو رجلًا:

هو الكلب إلَّا أن فيه ملالةً وسوء مراعاةٍ وما ذاك في الكلب

غسل الكلب

يضرب مثلًا للئيم يتضع فلا يزداد إلَّا لؤمًا؛ قال ابن لَنْكك:

قل للوضيع أبي رياش: لا تبلْ تِهْ كلَّ تيهك بالولاية والعمل
ما ازددت حين وليت إلَّا خسةً كالكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل

واقية الكلب

يضرب مثلًا للخسيس إذا يكون موقًى، لأن الكلب من الحيوانات الطويلة الذماء.

قال دريد بن الصمة لما ضرب امرأته بالسيف فلم تمت:

أقر العين أن عصبت يداها وما إن يعصبان على خضاب
وأبقاهن أن لهن لؤمًا وواقيةً كواقية الكلاب

قتيل الكلاب

هو مسمع بن شهاب، أبو مالك بن مسمع، سمي بذلك لأنه لجأ في الردة إلى قومٍ من بني عبد القيس، فكان كلبهم ينبح عليه، فخاف أن يدل على مكانه، فقتله فقتل به. وكان مالك بن مسمع إذا نسب قيل له: ابن قتيل الكلاب.

الباب الثلاثون

في سائر السباع والوحوش

جلد النمر، است النمر، وثبة النمر، نوم الفهد، عيث الضبع، مجير أم عامر، خصلتا الضبع، حمق الضبع، حرص الخنزير، قبح الخنزير، روغان الثعلب، صيد ابن آوى، قبح القرد، حكاية القرد، كراع الأرنب، ظباء مكة، جآذر جاسم، داء الظبي، عين الظبي.

الاستشهاد

جلد النمر

من أمثال العرب في المكاشفة وإبراز صفحة العداوة، قولهم: لبس لهم جلد النمر؛ قال الشاعر:

إن أخوالي من كندة قد   لبسوا لي حمسًا جلد النمر

وكتبت إلى أبي نصرٍ سهل بن المَرْزُبان قصيدةً في الشكوى أولها:

كتبت من صومعةٍ تسمح بالقوت العسر
والدهر من جفائه يلبس لي جلد النمر

فماء عيشي كدر ونجم حالي منكدر

است النمر

يضرب مثلًا للرجل المنيع، فيقال: أمنع من أست النمر، وأعز من است النمر؛ ومعناه أن النمر لا يتعرض له لأنه مكروه القتال مصمم.

ويقال: إنه لا يرى شيئًا إلَّا طلبه ورام الاستعلاء عليه؛ وهو أشد السباع جرأةً إذا هيج.

وراود رجل غلامًا بدويًا عن نفسه فقال له الغلام: أما سمعت است النمر؟!

وثبة النمر

من كلام أبي العيناء الذي نحله الأعرابي في وصف رجال الحضرة: قلت: فما تقول في صالح بن شيرازاد؟ قال: يتعلل بخروف، ويتغدى بفصيل، ويتعشى بغريض، ويثب على فريسته وثبة النمر، ويروغ من خصمه روغان الثعلب.

نوم الفهد

قال الجاحظ: الفهد أنوم الخلق، وليس نومه كنوم الكلب؛ لأن الكلب نومه نعاس واختلاس، والفهد نومه مصمت. وليس شيء في مثل جسم الفهد إلَّا والفهد أثقل منه وأحطم لظهر الدابة التي يرقى على مؤخرها.

وممن ضرب المثل بنوم الفهد حميد بن ثور في قوله:

ونمت كنوم الفهد عن ذي حفيظةٍ أكلت طعامًا دونه وهو جائع

وابن الرومي في قوله:

وأما نومكم عن كل خيرٍ كنوم الفهد لا يقضى كراه

وقالت المرأة السابعة في حديث أم زرعٍ تصف زوجها: زوجي إذا دخل فهد، وإن خرج أسد، يأكل ما وجد ولا يسأل عما عهد، ولا يتفقد ما ذهب من البيت لطيبة نفسه بذلك؛ قال الراجز:

ليس بنوامٍ كنوم الفهد ولا بأكالٍ كأكل العبد

عيث الضبع

يقال ذلك لأن الضبع إذا وقعت في الغنم عاثت فيها ولم تكتف بما يشبعها، ولم تبق ولم تذر منها.

ومن عيثها وإفراطها في الفساد استعارت العرب اسمها للسنة المجدبة، فقالوا: أكلتنا الضبع.

قال ابن الأعرابي: ليس يريدون بالضبع السنة، وإنما هو أن الناس إذا أجدبوا ضعفوا عن الانبعاث وسقطت قواهم، فعاثت فيهم الضباع وأكلتهم؛ قال الشاعر:

أبا خراشة أما أنت ذا نفرٍ فإن قومي لم تأكلهم الضبع

مجير أم عامر

يضرب مثلًا للمحسن يكافأ بالإساءة.

وأصل هذا المثل أن قومًا خرجوا للصيد في يوم حار، فطردوا ضبعًا حتى ألجؤوها إلى خباء أعرابي، فاقتحمته، فأجارها الأعرابي، وحال بينها وبينهم؛ وجعل يطعمها ويسقيها من اللبن، وبقيت عنده بخير حالٍ، فبينما هو نائم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه، وشربت دمه، ومضت هاربةً.

وجاء ابن عم له يطلبه، فإذا هو بقير، والتفت إلى موضع الضبع فلم يرها، فقال: هي التي فعلتها، والله لأجدنها؛ وأخذ كنانته، واقتفى أثرها حتى أدركها ورماها فقتلها؛ وقال:

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاق الذي لاقى مجير أم عامر
أعد لها لما استجارت ببيته أحاليب ألبان اللقاح الدرائر
وأسمنها حتى إذا ما تمكنت فرته بأنياب لها وأظافر

فقل لذوي المعروف: هذا جزاء من يجود بمعروفٍ إلى غير شاكر

خصلتا الضبع

يضربان مثلًا في الأمرين المكروهين ليس فيهما حظ لمختارٍ، بل هما شيء واحد في الشر؛ والعرب تقول في أحاديثها: إن الضبع صادت ثعلبًا، فقال لها الثعلب وهو بين أنيابها: مُنِّي على أم عامرٍ؛ فقالت: أخيرك خصلتين فاختر أيهما شئت، فقال: ما هما؟ قالت: إما أن آكلك، وإما أن آكلك، فقال الثعلب: أما تذكرين يوم نكحتك؟ قالت: متى؟ وفتحت فاها فأفلت الثعلب؛ وضربت العرب المثل بخصلتي الضبع لما لا اختيار فيه.

حمق الضبع

يضرب به المثل فيقال: أحمق من ضبع.

ومن حمقها أن صائدها يقول لها وهي في وجارها: خامري أم عامر، أبشري بجرادٍ عظالٍ وكمر رجالٍ؛ فلا يزال يقول لها ذلك وهي تسكن وتنقاد له حتى يدخل عليها ويربط فمها ورجليها ثم يسحبها.

والجراد العظال: الذي قد ركب بعضه بعضًا، وأما كمر الرجال فإن الضبع إذا وجدت قتيلًا قد انتفخ جردانه ألقته على قفاه وركبته.

قال العباس بن مرداس:

ولو مات منهم من جرحنا لأصبحت ضباع بأعلى الرقمتين عرائسا

ويقال للرجل يأتي بما يستنكر: والله ما يخفى هذا على الضبع وذلك بحمقها.

ويروى أن عليًا رضي الله عنه قال في كلامٍ له: لا أكون مثل الضبع يخضعها القول فتخرج فتصاد.

حرص الخنزير

يضرب المثل بحرص الخنزير وقبحه وقذره وحملته، وصعوبة صيده، وشدة الخطر في طرده.

وكان ابن المقفع يقول: أخذت من كل شيءٍ أحسن ما فيه، حتى من الخنزير والكلب والهرة؛ أخذت من الخنزير حرصه على ما يصلحه، وبكوره في حوائجه؛ ومن الكلب نصحه لأهله وحسن محافظته على أوامر صاحبه؛ ومن الهرة لطف نغمتها، وحسن مسألتها، وانتهازها الفرصة في صيدها.

قبح الخنزير

قال الجاحظ: لو أن الكفر والإفلاس والغدر والكذب تجسدت ثم تصورت لما زادت على قبح الخنزير، وكان ذلك بعض الأسباب التي مسخ لها الإنسان خنزيرًا؛ فإن القرد سمج الوجه، قبيح في كل شيء، وكفاك به جري المثل المضروب به، ولكنه من وجه آخر مليح، فملحه يتعرض على قبحه فيمازجه ويصلح منه، والخنزير أقبح منه، إلَّا أن قبحه مصمت بهيم؛ فصار أسمج منه كثيرًا.

ولما قال حماد عجرد في بشار بن برد:

والله ما الخنزير في نتنه ... بربعه في النتن أو خمسه
بل ريحه أطيب من ريحه ... ومسه ألين من مسه
ووجهه أحسن من وجهه ... ونفسه أفضل من نفسه
وعوده أكرم من عوده ... وجنسه أكرم من جنسه

قال بشار: ويلاه على الزنديق! لقد نفث بما في صدره؛ قيل: وكيف ذاك يا أبا معاذ؟ قال: ما أراد إلَّا قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، فأخرج الجحود به مخرج الهجاء.

وقال الجماز:

لو يمسخ الخنزير مسخًا ثانيًا ... ما كان يمسخ فوق قبح الجاحظ
وإذا المرأة جلت له تمثاله ... لم تخل مقلته بها من واعظ

روغان الثعلب

يضرب المثل بروغان الثعلب، كما يضرب المثل بخبثه ومكره وحيلته ودهائه؛ قال طرفة:

كم من خليلٍ كنت خاللته لا ترك الله له واضحهْ
كلهم أروغ من ثعلبٍ ما أشبه الليلة بالبارحة!

وللصابي من رسالةٍ في وصف الصيد والمتصيد: ومعنا فهود أخطف من البروق، وأثقف من الليوث، أجرى من الغيوث، وأمكر من الثعالب، وأدبُّ من العقارب، وأنزى من الجنادب.

قال الجاحظ: الثعلب سبع جبان جدًّا مستضعف، ولكنه بفرط الخبث والحيلة، يجري مجرى كبار السباع.

قال: ومن خبثه ودهائه أن له حيلةً عجيبةً في طلب مقتل القنفذ، فإنه إذا لقيه فأمكنه من شوك فروته، واستدار حتى كأنه كرة، وأمكنه من ظهره بال عليه، فإذا فعل ذلك انبسط القنفذ فعندها يقبض على مراقِّ بطنه.

قال: ومن العجب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله؛ والثعلب يصيد القنفذ فيأكله؛ والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها؛ والحية تصيد الفأرة فتأكلها؛ والفأرة تصيد الفراخ وبيض كل شيءٍ في أفحوصته فتأكله؛ والعصفور يصيد الزنبور فيأكله، والزنبور يصيد النحلة فيأكلها؛ والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها؛ والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها؛ ولا بد للصائد من أن يصاد؛ وكل صغير فهو يأكل ما هو أصغر منه، وكل قوي فهو يأكل ما هو أقل منه، والناس في بعضهم بعضًا على شبهٍ بذلك، وإن قصروا على ذلك المقدار، وقد جعل الله بعضها حياةً لبعضٍ، وبعضها موتًا لبعض.

وذم رجل رجلًا فقال: اجتمعت فيه ثلاث: طبيعة العقعق، يعني السرقة؛ وروغان الثعلب، يعني الخبث؛ ولمعان برق الخلب، يعني الكذب.

صيد ابن آوى

يضرب مثلًا لما يشق طلبه، ويصعب الظفر به. فإذا وجد لم يكن له طائل؛ قال الشاعر:

كابن آوى وهو صعب فإذا صيد يومًا لا يساوي خردلهْ

ومثله — وفيه زيادة — لابن الرومي في الخنزير:

أصبحت كالخنزير في الطرائد ليس لمن يقتله من حاسد
وربما أتلف نفس الطارد

قبح القرد

يضرب به المثل؛ يقال: القرد قبيح ولكنه مليح.

وروي أن بشارًا لم يجزع من هجاءٍ قط كجزعه من بيت حماد عجرد فيه، حيث قال:

ويا أقبح من قردٍ إذا ما عمي القرد

ويحكى أن بشارًا لما سمع البيت بكى وقال: يراني فيصفني ولا أراه فأصفه! ويحكى أن رجلًا قبيح الصورة قال للحسين بن منصور الحلاج رحمه الله: إن كنت صادقًا فيما تدعيه فامسخني قردًا، فقال: أما لو هممت بذلك لكان نصف العمل مفروغًا منه.

وقال بعض الخلفاء لبعض ندمائه: عرفت أن في وجه بَخْتَيشُوع قرديةً؟ فقال: الغلط من غيرك يا أمير المؤمنين، بل في وجه القرد بَخْتَيشُوعية.

حكاية القرد

قال الجاحظ: وقد عرفت شبه ظاهر القرد بظاهر الإنسان؛ يرى ذلك في طرفه وتغميض عينه وفي ضحكه وحركته وحكايته، وفي كفه وأصابعه، وكيف يجهز اللقمة إلى فيه، وكيف يكسر الجوز، ويستخرج سره، وكيف يتقن كل ما أخذ به وأعيد عليه.

وقال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز: نحن نجد القرد أكثر شبهًا بالإنسان من سائر الحيوان، ولذلك سماه القائلون بالتناسخ بالصورة المكشوفة. ويزعم أهل التشريح أنهم لم يجدوا في ضروب الحيوان أشبه بالإنسان تركيبًا وأعضاء وجوارح، ولم يروا أقرب منه خلقةً وصورةً وأدنى إليه شبهًا ومشاكلةً من القرد؛ وإن من تقدم جالينوس من الأطباء لم يفصلوا قط إنسيًا ولم يشرحوا آدميًا، وإنما

عرفوا تلك الأمور الغامضة، والسرائر الكامنة، بما فصلوا من أجسام القرود؛ وثم انتدب جالينوس لتفصيل الإنس، ويمكن بكثرة من وجد من القتلى في بعض معارك الملوك، فلم يهجم من الاختلاف إلَّا على يسير لا يعتد به.

وقال غيره: لما أشبه القرد الإنسان أربى عليه في الحكاية، وضرب به المثل، وقيل: أحكى من قردٍ؛ وقيل: أولع من قرد، لولوعه بحكاية ما يراه.

وقد أحسن ابن الرومي في قوله يهجو قومًا:

ليتهم كانوا قرودًا فحكوا ... شيم الناس كما تحكي القرود

والتفت يومًا إلى أبي الحسن الأخفش وهو يختال في مشيته، فأنشأ يقول:

هنيئًا يا أبا حسنٍ هنيئًا ... بلغت من الفضائل كل غاية
شركت القرد في قبحٍ وسخفٍ ... وما قصرت عنه في الحكاية

كُراع الأرنب

يضرب مثلًا فيما قل وذل، ويشبه به ما صغر وهان؛ قال الشاعر يهجو حارثة بن بدر الغداني:

زعمت غدانة أن فيهم سيدًا ... ضخمًا يواريه جناح الجندب
يرويه ما يروي الذباب فينتشي ... سكرًا ويشبعه كراع الأرنب

قال الجاحظ: إنما ذكر كراع الأرنب؛ لأن يد الأرنب قصيرة، ولذلك تسرع في الصعود فلا يلحقها من الكلاب إلَّا كل كلبٍ قصير اليد، وذلك محمود في الكلب.

ظباء مكة

يضرب بها المثل في الأمن، لأنها لا تهاج ولا تصاد في الحرم لمجاورتها الحرم، فهي ترتع وتلعب آمنةً؛ وقد ضرب بها المثل عبد الله بن حسن بن حسن فأحسن في قوله وهو يصف نسوةً:

أنس غرائر ما هممن بريبةٍ كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام فواسقًا ويصدُّهن عن الخنا الإسلام

جآذر جاسم

يقال: جآذر جاسم، كما يقال: وحش وجرة.

وللقاضي أبي الحسن فصل في ذكرهما لم أر أحسن وأبلغ، ولا أكفى وأشفى منه، وهو قوله:

قد علمت أعزك الله أن الشعراء قد تداولوا ذكر عيون الجآذر، ونواظر الغزلان، حتى إنك لا تكاد تجد قصيدةً ذات نسيبٍ تخلو منه إلَّا النادر والفذ، ومتى جمعت ذلك ثم قرنت إليه قول امرئ القيس:

تصد فتبدي عن أسيلٍ وتتقي بناظرةٍ من وحش وجرة مطفل

وقابلته بقول عدي بن الرقاع:

فكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

رأيت إسراع القلب إلى قبول هذين البيتين، وتبينت قربهما منه، والمعنى واحد، وكلاهما خالٍ من الصنعة، بعيد عن البديع، إلَّا ما أحسن به من الاستعارة اللطيفة التي كسته هذه البهجة.

هذا وقد تخلل كل واحدٍ منهما من حشو الكلام ما لو حذف لاستغنى عنه، وما لا فائدة في ذكره؛ لأن امرأ القيس قال: من وحش وجرة وعديًا قال: من جآذر جاسم، ولم يذكرا هذين الموضعين إلَّا استعانةً بهما في إتمام النظم وإقامة القافية؛ ولا تلتفتن إلى ما يقوله المعنويون في وجرة وجاسم، فإنما يطلب به بعضهم الإغراب على بعضٍ؛ وقد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلَّا كغيرها؛ وسألت من لا أحصي من الأعراب عن وحش وجرة فلم يروا لها فضلًا على وحش ضرية وغزلان بسيطة.

وقد يختلف خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع، وأما العيون فقل أن تختلف لذلك؛ وأما ما تمم به عدي الوصف وأضافة إلى المعنى المبتذل بقوله على إثر هذا البيت:

وسْنان أقصده النعاس فرنَّقت   في عينه سِنة وليس بنائم

فقد زاد به على كل من تقدم، وسبق بفضله جميع من تأخر؛ ولو قلتُ: إنه اقتطع هذا المعنى فصار له، وحظر على الشعراء الشركة فيه، لم أرني بعدت عن الحق، ولا جانبت الصدق فيما قلته.

داء الظبي

من أمثال العرب عن أبي عمرو الشيباني في صحة الجسم قولهم: به داء الظبي؛ قال: ومعناه ليس به داء كما أنه لا داء بالظبي؛ قال أبو عبيدة: وهذا نحو قول النابغة:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

عين الظبي

تشبه بها العيون المستحسنة، ويشبه بها ما يوصف بشدة السواد؛ كما قال المتنبي:

لَقَى لَيْلٍ كَعَيْنِ الظَّبْيِ لَوْنًا   وَهَمٍّ كَالْحُمَيَّا فِي الْمُشَاشِ

وقال بعض أهل العصر في الجمع بين عين الظبي وعين الديك ولعله لم يسبق إليه في بيتٍ واحدٍ فقال:

وليلٍ كعين الظبي غيرت لونه   بكأسٍ كعين الديك بل هي ألمع
فلما مزجت الروح مني براحها   ترحل عني الغم والهم أجمع

الباب الحادي والثلاثون

في السِّنَّور والفأر

سنور عبد الله، فأرة العرم، فأرة المسك، فأرة البيش، فأرة الإبل.

الاستشهاد

سنور عبد الله

يضرب مثلًا لمن يكون مرجوًا في صغره؛ فإذا كبر تراجع ولم يفلح؛ وفيه يقول بشار بن برد الأعمى:

أبا مخلدٍ ما زلت سباح غمرةٍ صغيرًا فلما شبت خيمت بالشاطي
كسنور عبد الله بيع بدرهمٍ صغيرًا فلما شب بيع بقيراط

وقال قبله الفرزدق:

رأيت الناس يزدادون يومًا فيومًا في الجميل وأنت تنقص
كمثل الهر في صغرٍ يغالى به حتى إذا ما شب يرخص

فأرة العرم

تضرب مثلًا في الضعيف يقوى على الأمر الكبير، وفي المهين يجر الخطب الجليل، ويضر الضرر الكبير.

قال الجاحظ: لا يشك الناس في أن أرض سبأ وجنتيها إنما خربت حين دخلها سيل العرم، وأن الذي فجر المسناة فأرة، وكانت سببًا لدخول الماء الذي إذا دخل خرب بقدر قوته.

وقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾، والعرم: المسناة التي كانوا أحكموا عملها لتكون حجازًا بين ضياعهم وبين السيل، ففجرته فأرة ليكون أظهر في الأعجوبة؛ كما أفار الله ماء الطوفان من جوف تنور ليكون ذلك أثبت في العبرة، وأعجب في الآية.

ولذلك قال خالد بن صفوان لليماني الذي فخر عليه عند المهدي وهو ساكت، فقال له المهدي: ما لك لا تقول؟ قال: وما أقول في قومٍ ليس منهم إلَّا دابغ جلدٍ، أو ناسج بردٍ، أو قائد قرد، أو راكب عردٍ؛ غرقتهم فأرة، وملكتهم امرأة، ودل عليهم هدهد.

وفي هذه الفأرة يقول الحكم بن عمرو البهراني:

خرقت فأرة بأنفٍ ضئيلٍ عَرِمًا محكم الأساس بصخر
فجَّرته وكان جيلان عنه عاجزًا لو يرومه بعد دهر

وجيلان: فعلة الملوك وكانوا من أهل الجيل؛ يقول: فجرته فأرة ولو أن جيلان أرادت ذلك لامتنع عليها، لأن الفأرة إنما خرقته لما سخر الله تعالى لها من ذلك العرم.

وأنشدني الخوارزمي لنفسه من قصيدةٍ له من تاش الحاجب لما سعى في قتل أبي الحسين المزني:

لا تعجبوا من صيد صعوٍ بازيًا إن الأسود تصاد بالخرفان
قد غرقت أملاك حمير فأرة وبعوضة قتلت بني كنعان

يعني فأرة العرم، والبعوضة التي يروى أنها دخلت في أنف نمروذ بن كنعان، وكانت سبب حتفه.

فأرة المسك

قال الجاحظ: الناس يجدون ريح المسك في بيوتهم في بعض الأحايين، وهي ريح فأرةٍ يقال لها: فأرة المسك.

قال: والتي تكون في ناحية خراسان، ويقال لها فأرة المسك ليست بالفأرة، وهي بالخشف حين تضعه الظبية أشبه منها بالفأرة؛ وإنما يأخذون سرة فارةٍ وهي ملأى من دم عبيطٍ، فإذا يبس طاب؛ وإياها عنى الراجز بقوله:

كأن بين فكها والفك ... فأرة مسكٍ ذبحت في مَسْك

وربما وجد الناس في بيوتهم الجرذ يضرب إلى السواد، ويجدون من بدنه إذا عدا إلى حجره رائحةً تشبه المسك؛ وبعض الناس زعم أن هذا الجنس هو الذي يخبأ الدراهم والدنانير والحلي كما يصنع العقعق.

وقال غيره: وربما قيل للنوافج فأرة المسك، على طريق التشبيه والمقاربة.

فأرة البيش

قال الجاحظ: فأرة البيش دويبة تغتذي السموم فلا تضرها، وحكمها حكم الطائر الذي يقال له السمندل، فإنه يدخل في التنور ولا يحترق ريشه؛ قال بشر بن المعتمر في هذه الفأرة:

وفأرة البيش على بيشها ... أحرص من ضبٍ على حجر

فأرة الإبل

قال الجاحظ: تقول العرب في فأرة الإبل صادرةً: إنَّ أرَجَ ذلك العرق أطيب من المسك الأذفر، في ذلك الزمان، في ذلك الوقت من الليل والنهار؛ قال الشاعر وهو يصف إبلًا:

كأن فأرة مسكٍ في مباءتها ... إذا بدا من ضياء الصبح تبشير

وقال الراعي:

لها فأرة ذفراء كل عشيَّةٍ   كما فتق الكافور بالمسك فاتقه

الباب الثاني والثلاثون

في الضب والظربان والقنفذ والسرطان

ضب الكدية، ضب السحا، إبهام الضب، درج الضب، ذماء الضب، ري الضب، عقوق الضب، سن الحسل، فسو الظربان، سرى أنقد، ليلة أنقد، خشونة القنفذ، مشية السرطان، أنامل السرطان.

الاستشهاد

ضب الكدية

من أمثال العرب: ما هو إلَّا ضب كديةٍ؛ أي: لا يقدر عليه؛ والكدية: قطعة من الأرض غليظة، وإنما نسب الضب إليها لأنه لا يحفر أبدًا إلَّا في صلابةٍ خوفًا من انهيار الجحر عليه. قال كثير:

فإن شئت قلت له: صادقًا وجدتك بالقف ضبًا حجولًا

من اللاء يحفرن تحت الكدى ولا يبتغين الدماث السهولا

وقال الحصين بن قعقاع:

ترى الشر قد أفنى دوائر وجهه كضب الكدى أفنى براثنه الحفر

ضب السحا

قال الجاحظ: العرب تقول: ضب السحا، كما تقول: تيس الربل، وقنفذ برقة، وأرنب الخلة، وشيطان الحماطة، فيفرقون بينها وبين غيرها؛ إما في السمن، وإما في الخبث، وإما في القوة. والله أعلم.

إبهام الضب

يضرب به المثل في القصر، فيقال: أقصر من إبهام الضب؛ كما يقال: أقصر من إبهام القطا، وأقصر من إبهام الحُبارى؛ قال الشاعر:

وكف ككف الضب بل هي أقصر

والعرب تحمد سعة الكف وتذم ضيقها وضيق الراحة.

وفي صفة النبي صلى الله عليه وسلم: إنه كان رحب الراحة.

درج الضب

من أمثال العرب: خله درج الضب، أي: خل سبيله يذهب حيث شاء؛ ويضرب لمن يستغنى عنه.

ودرج الرياح: طريقها، ومدرجة الطريق: قارعته.

ذماء الضب

يضرب المثل في الطول بذماء الضب، كما يضرب بذماء الأفعى؛ والذماء: ما بين القتل وخروج النفس.

وقال آخر: الذماء حركة القتيل إلى أن يسكن.

وقال آخر: الذماء بقية النفس، وشدة انعقاد الحياة بعد الذبح، أو هشم الرأس، أو الطعن الجائف.

وقال آخر: هو دم القلب الذي ما بقى يبقى الإنسان.

قال الجاحظ: العرب تقول: الضب أطول شيءٍ ذماءً، والكلب في ذلك أعجب منه، وإنما عجبوا من الضب لأنه يصير ليلته مذبوحًا مفري الأوداج، ساكن الحركة، حتى إذا قرب من النار تحرك فيظن حيًا وإن كان ميتًا؛ والأفاعي تذبح فتبقى أيامًا وهي تتحرك.

قال: وقال لي أبو الفضل العنبري: يقولون: الضب أطول شيءٍ ذماءً، والخنفساء أطول ذماءً منه، وذلك أنه يغرز في ظهرها شوكة نافذة، وفيها ذبالة، تستوقد وتصبح لأهل الدار، وهي تدب بها وتجول حتى الصباح.

فأما الأفعى فربما قطع منها الثلث من قبل ذنبها فتعيش إن سلمت من الذر.

رِيُّ الضب

يضرب به المثل، فيقال: أروى من الضب، لأنه لا يشرب الماء أصلًا؛ وذلك أنه إذا عطش استقبل الريح فاتحًا لها فاه، فيكون ذلك ريه.

والعرب تقول في الشيء الممتنع: لا يكون ذلك حتى يرد الضب؛ وفي تبعيد ما بين الجنسين: حتى يؤلف بين الضب والنون.

لأن الضب لا يريد الماء ولا يرده، والنون لا يصبر عنه، ولا يعيش إلَّا فيه.

عقوق الضب

من عقوقها أنها تأكل أولادها، وذلك لأن الضبة إذا باضت حرست بيضها، فإذا أخرجت أولادها ظنتها شيئًا يريد بيضها، فوثبت عليها فقتلتها وأكلتها.

ومن العجائب أن الهرة تأكل أولادها فتنسب إلى البر، فيقال: أبر من هرة، والضب تأكل أولادها فتنسب إلى العقوق، فيقال: أعق من ضب، ولا يقال: أعق من هرة!

سِنُّ الحِسْل

من أمثالهم في التأبيد: لا أفعل ذلك سن الحسل؛ وهو ولد الضب، لا يسقط له سن؛ أي: لا أفعل ذلك أبدًا؛ قال رؤبة بن العجاج:

إنك لو عمرت سن الحسل — أو عمر نوحٍ زمن الفطحل
والصخر مبتل كطين الوحل — كنت رهين هرمٍ أو قتل

قال الأصمعي: سمعت خلفًا الأحمر يقول: كنت أسأل الأعراب عن زمن الفطحل، فتقول: هو أيام كان السِّلام رطبةً.

والعرب تضرب المثل في الطول بعمر الضب، وتعده في الحيوانات الطويلة الأعمار كالحية والنسر، فتقول: لا أفعل ذاك ولا يكون هذا عمر الضب وسن الحسل.

وتقول: فلان أعمر من الضب.

وحكى الزيادي عن الأصمعي أنه قال: يبلغ الحسل مائة سنة ثم يسقط سنه، فحينئذٍ يسمى ضبًا!

فسو الظربان

يضرب به المثل في النتن، والظربان دويبة فوق جرو الكلب، كريهة النتن، وأنتن خلق الله فسوًا، وقد عرف ذلك من نفسه فجعله سلاحه، كما عرفت الحُبارى ما في سلاحها من السلاح على الصقر، كذلك الظربان يدخل على الضب جحره وفيه بيضه وحسوله، فيأتي أضيق موضع في الجحر فيسده بيده، ويحول دبره إليه، فما يفسو ثلاث فسوات حتى يدار بالضب فيخر مغشيًا عليه، فيأكله، ثم يقيم في جحره حتى يأتي على آخر حسوله.

وتقول الأعراب: وربما أنه دخل في خلال الهجمة فيفسو فلا يتم له ثلاث فسوات حتى تتفرق الإبل وتنفر، كما تنفر عن مبركٍ فيه قردان، فلا يردها الراعي إلَّا بالجهد الشديد؛ فمن أجل هذا سمت العرب الظربان: مفرق النعم.

ويقال للرجلين يتشاتمان ويتفاحشان: إنهما ليتجاذبان جلد الظربان؛ وإنهما ليتماسان ظربانًا؛ وقالوا للقوم إذا وقع بينهم الشر فتفارقوا: فسا بينهم الظربان، فلا يلتقي منهم اثنان.

وقال الربيع بن أبي الحقيق يهجو قومًا:

وأنتم ظرابين إذا تجلسون وما إن لنا فيكم من نديد
وأنتم تيوس وقد تعرفون بريح التيوس ونتن الجلود

وقال الحكم بن عبدل:

لا تدن فاك من الأمير ونحه حتى يداوي ما بأنفك أهرن
إن كان للظربان جحر منتن فلَجحر أنفك يا محمد أنتن

ونظر صديقنا أبو عبد الله الغواص إلى قومٍ جيدي الأكل، خبيثي الريح، فقال:

أناس أكلهم يربي على أكل الثعابين
ونتن رياحهم يربي على نتن الظرابين

سرى أنقد

أنقد هو القنفذ، يضرب به المثل في السرى والسهر؛ لأنه لا ينام الليل كله، بل يجول طول الليل، كما وصف الصاحب في رسالة له مقصورةٍ عليه فقال:

> وهو أمضى من الأجل، وأرمى من بني ثعلٍ، إن رأته الأراقم رأت حينها، أو عاينته الأساود رأت حتفها، صعلوك ليلٍ لا يحجم عن دامسه، وفارس ظلام لا يجبن عن حنادسه.

فأتت به حوش الفؤاد مبطنًا سهدًا إذا ما نام ليل الهوجل

ليلة أنقد

من أمثال العرب في من لم يذق غماضًا: بات بليلة أنقد؛ أي: ساهرًا لم ينم، وقالوا: اجعلوا ليلتكم ليلة أنقد أي: في السرى والسهر؛ قال الطِّرِمّاح:

فبات يقاسي ليل أنقد دائبًا

وأنشدني إسماعيل بن محمد من قصيدةٍ للهمذاني:

وزوراء من كافي الكفاة على النوى وضعت لها يمناي في كف أسود
وعيد كصنع النار في يابس الغضى شددت على الأحشاء من حرة يدي
وظلت تصيح البوم منه مهابةً وبت له رعيًا بليلة أنقد

وأحسن ما سمعت في ليلة أنقد قول الأمير السيد:

يا من يبيت محبه منه بليلة أنقد
إن غبت عني سمتني وشك الردى وكأن قد

فانظر إلى رشاقة هذا الكلام، وكثرة رونقه وأخذه بطرفي الحسن والجودة في براعة الصنعة!

خشونة القنفذ

يضرب بها المثل، فيقال: أخشن من قنفذٍ.

وللصاحب في وصفه: يلقاك بأخشن من حد السيف، ويستتر بألين من مس متنه، متى حذر جمع أطرافه فتحسبه رابية قتادةٍ أو كرة حرشفٍ.

ولكُشاجِم في وصف البطيخ:

وطيبٍ أهدى لنا طيبًا فدلنا المهدى على المهدي
لم يأتنا حتى أتتنا له روائح أغنت عن الند
بظاهرٍ أخشن من قنفذٍ وباطنٍ ألين من زبد
كأنما تكشف منه المدى عن زعفرانٍ شيب بالشهد

مشية السرطان

يضرب به المثل في الإدبار ورجوع القهقرى.

وكان الخوارزمي إذا وصف راجعًا إلى وراء، قال: مشية السرطان، وبول الجمل، إذ يرجع إلى خلف.

وأنشدت لأبي منصور العبدوني الكاتب في أبي أحمد بن أبي بكر بن حامد الكتاب وكان يلقب بالعطواني لفرط ميله إلى شعر العطوي وحفظه إياه وكثرة تمثله به وذكره له:

أبا أحمد ضيعت بالخرق نعمةً أفادكها السلطان والأبوان
فقد صرت مهتوك الجوانب كلها ولقبت للإدبار بالعطواني
وأفكرت في عودٍ إلى ما أضعته وقد حيل بين العير والنزوان
فرأيك في الإدبار رأي أخذته وعلمته من مشية السرطان

أنامل السرطان

قرأت لبعض ظرفاء الكتاب فصلًا استملحته في وصف خط رديءٍ، وهو:

نظرت في خط منحط، كأرجل البط، على الشط، وأنامل السرطان على الحيطان.

الباب الثالث والثلاثون

في الحية والعقرب

حية الوادي، شيطان الحماطة، صل أصلال، ابنة الجبل، صماء الغبر، شجاع البطن، أفاعي سجستان، ثعابين مصر، ظلم الحية، عري الحية، رجلا الحية، رقية الحية، لسان الحية، إطراق الشجاع، رداء الشجاع، ضحك الأفاعي، عقارب شَهْرَزَوْر، خبث العقرب، ليلة العقرب، رقية العقرب، دبيب العقرب.

الاستشهاد

حية الوادي

يقال: حية الوادي قد حمته فلا يقربه شيء، يضرب مثلًا للرجل المنيع الجانب؛ قال الشاعر (من البسيط):

إذا وجدت بواد حية ذكرًا فاذهب ودعني أمارس حية الوادي

وقال أبو تمام: (من الخفيف):

ملئتك الأحساب أي حياء وحيا أزمة وحية واد

شيطان الحماطة

قال الجاحظ: من أمثال العرب: ما هو إلَّا شيطان الحماطة، إذا رأت منظرًا قبيحًا.

والشيطان: الحية، والحماطة من الشجر ومن العشب، يريدون حية تأوي الحماطة؛ كما يقولون: أيم الضال، وذئب الغضى، وتيس الربل؛ قال الراجز (من الرجز):

عنجرد تحلف حين أحلف   كمثل شيطان الحماط أعرف

والأعرف: الذي له عرف، وهو من أدهى الحيات.

صل أصلال

من أمثال العرب عن أبي زيد: إنه لصل أصلال، قال: وأصله من الحيات، يشبه بها الرجل المنيع الداهية؛ وفيه يقول الشاعر (من البسيط):

ماذا رزئنا به من حية ذكر   نضناضة بالزرايا صل أصلال!

ابنة الجبل

هي الحية الصماء التي لا يقرب أحد جبلها من خوفها؛ تنسب إلى الجبل، فيقال: ابنة الجبل، أي: صاحبته، لأنه لا يقربه شيء غيرها؛ كما يقال: حية الوادي، وابنة الجبل يضرب مثلًا للداهية.

ويقال: صمي صمام ابنة الجبل؛ إذا أبى الفريقان الصلح وأرادوا الحرب واختلف ما بينهم؛ كما قال الكُمَيت (من الطويل):

فإياكم إياكم وملمة   يقول لها الكانون: صمي ابنة الجبل

والكانون هو الذي يكنى عنه. وابنة الجبل أيضًا، هي الصدى، وقد تقدم ذكره آنفًا.

صماء الغبر

هي الحية، يضرب مثلًا للداهية العظيمة الشديدة؛ قال الشاعر (من الرجز):

يابن المعلى نزلت إحدى الكبر   داهية الدهر وصماء الغبر

وكثيرًا ما تستعار أسماء الحية للدواهي. وقولهم: إحدى بنات طبق منها.

شجاع البطن

كناية عن الجوع، لأن أذاه يشبه بمعرة الحية؛ والعرب تزعم أن في بطن الإنسان حية يقال لها الصَّفَر، وأنها تؤذيه إذا جاع؛ وإياها عنى من قال (من البسيط):

ولا يعض على شرسوفه الصفر

وقال أبو خراش الهذلي (من الطويل):

أرد شجاع البطن قد تعلمينه   وأوثر غيري من عيالك بالطعم

أي: أصبر على أذى الجوع وأحتمل مضضه.

أفاعي سجستان

يضرب بها المثل في الخبث وسوء الأثر، كما يضرب المثل بثعابين مصر، وجرارات الأهواز، وعقارب شَهْرَزَوْر.

ووصف شبيب بن شيبة أفاعي سجستان، فقال: كبارها حتوف، وصغارها سيوف.

وفي عهد أهل سجستان على العرب حين افتتحوها: ألا يقتلوا قنفذًا، ولا يصيدوه، لأنها بلاد أفاع.

قال الجاحظ: وأكثر ما يجلب أهل صنعة الترياق والحواؤون الأفاعي من سجستان؛ وذلك كسب لهم وحرفة ومتجر؛ ولولا كثرة قنافذها لما كان لهم بها قرار ولا إقامة.

والقنفذ لا يبالي أي موضع قبض من الأفعى، وذلك أنه إن قبض على رأسها أو على قفاها فهي مأكولة على أسهل الوجوه، وإن قبض على وسطها أو على ذنبها جذب ما قبض عليه فاستدار، وتجمع ومنحه سائر بدنه، فمتى فتحت فاها لتقبض على شيء منه لم تصل إلى جلده مع شوكه النابت فيه.

والأفعى تهرب منه، وطلبه لها وجرأته على قدر هربها منه وضعفها عنه.

وقال في موضع آخر وهو يصف إنسانًا بالطمع: لو أعطي أفاعي سجستان وجرارات الأهواز، وثعابين مصر، لأخذها، إذا كان اسم الأخذ واقعًا عليها.

ثعابين مصر

قال الجاحظ: الثعابين لا تكون إلَّا بمصر، وإليها حول الله تعالى عصا موسى عليه الصلاة والسلام؛ قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، يعني أنه حولها ثعبانًا، والثعبان عجيب الشأن في إهلاك بني آدم، فليس له عدو إلَّا النمس، وهي إحدى عجائب الدنيا؛ وذلك أنها دويبة متحركة قديرة، فإذا رأت الثعبان دنت منه، فينطوي الثعبان عليها يريد أن يعضها ويأكلها فتحتبس في بطنها ريحًا، وتزفر زفرة فتقد الثعبان قطعتين، ولولا النمس لأكلت الثعابين أهل مصر، وهي هناك أنفع لأهلها من القنافذ لأهل سجستان.

ظلم الحية

العرب تقول: ليس شيء أظلم من الحية، لأن الحية لا تتخذ لنفسها بيتًا، وكل بيت قصدت نحوه هرب منه أهله وخلوه لها فدخلته؛ واثقة بأن ذلك الساكن بين أمرين: إما أقام فصار طعامًا لها، وإما هرب فصار البيت لها، فأقامت فيه ساعة كان ذلك أو ليلة؛ قال الراجز (من الرجز):

فأنت كالأفعى التي لا تحتفر ثم تجي سادرة فتنجحر

عري الحية

يقال: أعرى من الحية، كما يقال: أكسى من الكعبة؛ ويقال: أعدى من الحية، لأنها تمشي على بطنها.

قال ابن الحجاج يمدح من وهب له دابة (من السريع):

فديت من صيرني راكبًا وكنت أعدى قبل من حيةْ
فديته إن فدائي له في قلب من يحسدني كيةْ

رقية الحية

يضرب مثلًا في شيئين متضادين:

- **أحدهما:** الكلام الطويل الذي لا يفهم؛ كما قال علي بن الجهم في وصف توقيعات محمد بن عبد الملك الزيات (من الرجز):

على ابن عبد الملك الزيات لعائن الله موقرات
يرمي الدواوين بتوقيعات مطولات ومعقدات
أشبه شيء برقى الحيات

- **والآخر:** الكلام الذي يسل السخيمة ويصلح ذات البين؛ وهو اللين اللطيف؛ كما قال أبو تمام في وصف قصيدة له (من الكامل):

خذها مثقفة القوافي ربها لسوابغ النعماء غير كنود
كالدر والمرجان ألف نظمهْ بالشذر في عنق الفتاة الرود
كشقيقة البرد المنمنم وشيهْ في أرض مهرة أو بلاد تزيد
كرقى الأساود والأراقم طالما نزعت حمات سخائم وحقود

روى أبو حاتم عن الأصمعي عن خلف الأحمر، قال: كنت أرى أنه ليس في الدنيا رقية أطول من رقية الحية، فإذا رقية الخبز أطول منها — يعني ما يتكلفه الإنسان من النظم والنثر والتآليف والخطب لطلب المال.

لسان الحية

يشبه به القدم اللطيفة؛ كما قال بعض البلغاء في وصف امرأة حسناء: لها صدغ كالعقرب، وعنق كإبريق الفضة، وسرة كمدهن العاج، وقدم كلسان الحية.

ويشبه به السنان، كما قال دعبل (من السريع):

وأسمر في رأسه أزرق مثل لسان الحية الصادي

إطراق الشجاع

من أمثال العرب: أطرق إطراق الشجاع، إذا سكن وسكت؛ قال المتلمس (من الطويل):

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى مساغًا لنابيه الشجاع لصمما

رداء الشجاع

هو قشر الحية، يضرب مثلًا في الرقة؛ ويشبه به الثوب الناعم الرقيق؛ كما قال أبو تمام في وصف خلعة خلعها عليه الحسن بن سهل، وهو أحسن ما قيل في معناه (من الخفيف):

قد كسانا من كسوة الصيف خرق مكتس من مكارم ومساع

حُلَّة سابرية ورداء كسحا القيض أو رداء الشجاع

كالسراب الرقراق في الحسن إلا أنه ليس مثله في الخداع

يطرد اليوم ذا الهجير ولو شُبْـ ـبِه في حره بيوم الوداع

سوف أكسوك ما يعفي عليها من ثناء كالبرد برد الصناع

حسن هاتيك في العيون وهذا حسنه في القلوب والأسماع

قال الجاحظ: الحية لا تسلخ جلدها، وإنما يخلق لها كل عام قشر وغلاف، فهي تسلخ القشور الناعمة والغلف التي على مقادير أجسادها، وإنما يستدل بالقشور؛ فأما الجلود فإن أبدانها لا تفارقها إلَّا بسلخ

السكين.

قال: وليس في الأرض قشر ولا ورقة ولا ثوب ولا جناح ولا ستر عنكبوت إلَّا وقشر الحية أحسن منه وأرق وأخف وأنعم، وأعجب تضليعًا وصنعة.

والحية تسلخ قشرها كما يسلخ الجنين المشيمة، وكذلك أكثر الحيوان، أما الطير فسلخها تحسيرها، وأما الحوافر فسلخها عقائقها، وسلخ الإبل طرد أوبارها، وسلخ الجراد انسلاخ جلودها، وسلخ الأيائل نصول قرونها، وسلخ الأشجار إلقاء ورقها؛ والسراطين تُسلَخ فتضعف عند ذلك عن المشي؛ والأَسْرُوع: دويبة تسلخ فتصير فراشة؛ والدُّعْموص تسلخ فتصير إما بعوضًا وإما فراشة، «فتبارك الله أحسن الخالقين».

وقد شبه محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي الدرع بسلخ الحية، حيث قال (من الكامل):

نهنهت أولها بضربة صادق　　هبر كما شق الرداء المعلم
وعلي مسبوغ الحديد كأنه　　سلخ كسانيه الشجاع الأرقم

ضحك الأفاعي

يضرب مثلًا للمغموم يضحك؛ ومن الشدائد ما يضحك، قال أبو فرعون (من الرجز):

إن أبا فرعون زين الكورة　　أحسن شيء طللًا وصورة
يضحك إن مرت به ممكورة　　ضحك الأفاعي في جراب النورة

ومثل ذلك قول أهل بغداد: ضحك الجوزة بين حجرين.

عقارب شَهْرَزَوْر

قال الجاحظ: العقارب القتالة تكون بموضعين: شَهْرَزَوْر وقرى الأهواز؛ إلَّا أن القواتل التي بالأهواز جرارات.

ولم نذكر عقارب نصيبين لأن أصلها فيما لا يشكون فيه من شهرزور، حين حوصر أهلها ورموا بالمجانيق بكيزان محشوة من عقارب شهرزور حتى توالدت هناك، فأعطى القوم بأيديهم.

وقال ابن الرومي في عقارب شهرزور وهو يهجو قينة اسمها شنطف (من الوافر):

إذا ما شنطف نكهت أماتت	فمن نكهاتها قتلى وصرعى
يلاقي الأنف من فمها عذابًا	وترعى العين منها شر مرعى
وإن سكوتها عندي لبشرى	وإن غناءها عندي لمنعى
فقرطها بعقرب شَهْرَزَوْر	إذا غنت وطوقها بأفعى

ومما يتمثل به من عقارب البلاد: عقارب قاشان — فإنها معروفة بالخبث — ما كتب به الصاحب:

> كتبت من قاشان وقد قاسيت من خوف عقاربها ما يقاسيه شيخنا أبو عبد الله من عقارب الأصداغ.

وعلى ذكر عقارب الأصداغ، قد كنت أظن الصاحب أبا عذرة قوله (من الطويل):

لئن هو لم يكفف عقارب صدغه	فقولوا له يسمح بترياق ريقه

حتى أنشدته يومًا للأمير السيد أدام الله تأييده، فقال: إنما أخذه ممن قال (من مجزوء الرمل):

ضربت عينك قلبي	إنما عينك عقرب
لكن المصة من ريـ	ـقك ترياق مجرب

خبث العقرب

يضرب به المثل، لأن العقرب تعرض لمن لا يعرض لها؛ وليس كذلك تفعل الحية.

وفي الحديث: إن عقربًا لسعت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «لعن الله العقرب، ما أخبثها! تلسع المؤمن والمشرك والنبي والذمي».

ليلة العقرب

يضرب بها المثل في الطول، لأن صاحبها لا ينامها، فهي تطول عليه جدًّا.

ويقال: إن أطول الليالي ثلاث: ليلة العقرب، وليلة الصد، وليلة الهريسة؛ وفي رواية مكان ليلة الصد: ليلة العاشق.

وأنشدني أبو الفتح كُشاجِم في كتابه كتاب حاجة النديم (من مجزوء الكامل):

ما ليلة المهجور با عدت النوى عنه أنيسه
أو ليلة الملدوغ حا ذر ميتة النفس النفيسهْ
بأمرَّ من ليل الظر يف إذا تجوع للهريسهْ

رقية العرب

يشبه بها ما لا يفهم من الكلام؛ كما تقدم ذكره في أحد وجهي ضرب المثل برقية الحية.

قال ابن الرومي في ذم شعر البحتري (من البسيط):

شعر كنافض حمى الخيبري له برد وكرب فمن يرويه من كرب
كأنه حين يصغي السامعون له ممن يميز بين النبع والغرب
رقى العقارب أو هذر البناة إذا أضحوا على شعف الجدران في صخب

دبيب العقرب

يستعار للنمام وما يجري مجراه من الشر، فيقال: دبت عقارب فلان، إذا بدت طلائع شره؛ قال الشاعر (من البسيط):

من نم في الناس لم تؤمن عقاربه على الصديق ولم تؤمن أفاعيه
كالسيل بالليل لا يدري به أحد من أين جاء ولا من أين يأتيه!

ومن فصل للصاحب: أخذت عواصف شره تهب، وعقارب ضره تدب.

الباب الرابع والثلاثون

في سائر الحشرات والهوام

بيت العنكبوت، نسج العنكبوت، دودة الخل، دودة القز، صنعة السرفة، لجاج الخنفساء، وادي النمل، أنمل النملة، قرية النمل، عض النملة، جناح النملة، كسب النملة، قوة النملة، شم الذرة، خيط النملة، جمع الذر، مخ الذر، مثقال ذرة، علم الحكل.

الاستشهاد

بيت العنكبوت

يضرب به المثل في الوهن والضعف؛ قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾، فدل بوهن بيته على وهن خلقه، ولا أوهن مما ذكر الله أنه أوهن البيوت.

وقد أشار الفرزدق إلى هذا المثل الذي نطق به القرآن حيث قال لجرير (من الكامل):

ضربت عليك العنكبوت بنسجها   وقضى عليك به الكتاب المنزل

وقال الأحنف (من البسيط):

العنكبوت بنت بيتًا على وهن　　تأوي إليه ومالي مثله وطن
والخنفساء لها من جنسها سكن　　وليس لي مثلها إلف ولا سكن

وقال آخر (من مجزوء الرمل):

إنما الدنيا عناء　　ليس للدنيا ثبوت
إنما الدنيا كبيت　　نسجته العنكبوت

نسج العنكبوت

قال الحمدوي في طيلسان ابن حرب، وهو يضرب المثل بنسج العناكب (من الخفيف):

يابن حرب كسوتني طيلسانًا　　مل من صحبة الزمان وصدا
فحسبنا نسج العناكب إن قيـ　　ـس إلى نسج طيلسانك قدا

ثم قال:

طال ترداده إلى الرفو حتى　　لو بعثناه وحده لتهدى

وقال بعض أهل العصر (من الطويل):

صديق لنا مذ ذقت طعم إخائه　　شهدت لقد أربى على الصاب شهده
فأضعف من نسج العناكب عقده　　وأضيع من نار الحباحب وده

دودة الخل

تضرب مثلًا للرجل الساقط يعيش في مكان السوء وفي حالة رذلة راضيًا بهما، إذ لم يعرف سواهما، ولم يتعود غيرهما.

وفي الحديث: «يعيشون كدود الخل في الخل».

ومن أمثال العرب: لا يصبر على الخل إلَّا دوده.

قال الجاحظ: كأنك لا ترى إلَّا في ديدان الخل والملح، والديدان التي تتولد في السموم إذا عتقت وعرض لها العفن — وهي بعد قواتل — عبرة وأعجوبة، ولأن في التفكر فيها مشحذة للأذهان، ومنبهة لذوي الغفلة، وتحليلًا لعقدة البلدة، وسببًا لاعتياد الروية، وانفساحًا في الصدور، وعزًّا في النفوس، وحلاوة تقتاتها الروح، وثمرة تغذو العقل، وترقيًا في العتبات الشريفة، وتشوقًا إلى معرفة الغايات البعيدة.

دودة القز

يضرب بها المثل فيمن يضر نفسه وينفع غيره، فيقال: ما فلان إلَّا دودة القز، وفتيلة المصباح، وعود الدخنة.

صَنْعة السُّرْفة

يضرب بها المثل في عجيب نظمها، وبديع تركيبها، وصنعة كفها، ونظرها في عواقب أمرها.

وقد اختلفوا في نعتها، ومن أظرف ما قرأته في ذلك قول محمد بن حبيب: هي دود تنسج على نفسها بيتًا، فهو ناووسها حقًّا؛ والدليل على ذلك أنه إذا نقض هذا البيت لم توجد الدودة فيه حية أصلًا.

وقال غيره: كان الناس يتعلمون الحيل من أفعال البهائم وصنوف الحيوان؛ فتعلموا من السرفة إحداث النواويس لموتاهم، واتخذوها في خرط وشكل بيت السرفة؛ وتعلموا الحقنة من الطائر الذي إذا حصر جاء إلى البحر، فأخذ منه ماء بمنقاره فصبه في دبره، فإذا فعل ذلك استطلق بطنه في ساعته؛ واستخرجوا آلات الحرب، فأخذوا الرمح من قرن الكركدن؛ والسيف من ناب الخنزير؛ والسهم من شوك القنفذ، والترس من ظهر السلحفاة.

لَجاج الخنفساء

يضرب به المثل، لأن الخنفساء إذا نحيت عادت، وكلما رمي بها رجعت مستمرة أدراجها، ولم تبق ولم تذر في اللجاج.

قال الشاعر (من المتقارب):

لنا صاحب مولع بالخلاف كثير المراء قليل الصواب
أشد لجاجًا من الخنفساء وأزهى إذا ما مشى من غراب

وادي النمل

يضرب مثلًا للمكان الكثير السكان.

قال الجاحظ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: فخبر أنهم بأجمعهم وقفوا على ذلك الوادي، وأن ذلك الوادي معروف بوادي النمل، فكأنه كان حمى، والنمل ربما أجلت أمة من الأمم عن بلادهم.

قرية النمل

يشبه بها المحلة أو الدار الكثيرة الأهل؛ وغير هذا المعنى أراد أبو تمام بقوله في وصف الخمر (من الطويل):

وكأس كمعسول الأماني شربتها ولكنها أجلت وقد شربت عقلي
إذا ما تحساها الفتى ظن قلبه لما دب فيه قرية من قرى النمل

فأما مدب النمل فإن فِرِنْد السيف يشبه به، كما قال امرؤ القيس (من الكامل):

متوسدًا عضبًا مضاربه في متنه كمدبة النمل
يدعى صقيلًا وهو ليس له عهد بتمويه ولا صقل

ثم تبعه الشعراء فأكثروا من هذا التشبيه؛ قال أبو فراس في صوف البازي (من الرجز):

كأن بين متنه والهادي آثار مشي الذر في الرماد

ووصف بعضهم الخبز، فقال: رغفان كأن في خللها مداب أرجل النمل.

لما سمع أبو الفتح بن العميد الشعراء يشبهون الشيء القصير الصغير بإبهام القطا والحُبارى وأظفور العصفور أراد أن يبدع عليهم في اللفظ والمعنى، فكتب إلى أبي الحسين ابن فارس رقعة صدرها:

وصلت رقعة الشيخ، فكانت أقصر من أنمل نملة، وأصغر من عنفقة بقة.

عض النملة

قال بعض العلماء وهو يضرب المثل بما يستهان ولا يبالى به ما عسى أن يكون عض النملة، وقرص القملة، ولسع النحلة، ووقوع البقة على النخلة، ونباح الكلبة على السحابة! وما الذباب وما مرقته!

جناح النملة

يضرب مثلًا لارتياش الضعيف واستغناء الفقير بما فيه هلاكهما، إذ من أقوى أسباب هلاك النمل نبات أجنحته.

ويقال: لم يرد الله بالنملة صلاحًا؛ إذ أنبت لها جناحًا.

قال أبو العتاهية (من الكامل):

أحببت دارًا همها أشب جم العروج كثيرة شعبه
إن استهانتها بمن صرعت لبقدر ما تعلو به رتبه
وإذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير، فقد دنا عطبه

وأنشدني الأمير السيد أدام الله تأييده لنفسه (من مجزوء الرمل):

ارض من دنياك بالقوت وإن كان يسيرا
فهلاك النمل أن يُكسَى جناحًا فيطيرا

كسب النملة

يضرب به المثل، لأن النمل والذر والفأر من الحيوانات الدائبة في الكسب والجمع.

قوة النملة

يضرب بها المثل، لأن النملة تجر نواة التمر وهي أضعافها زنة.

ودعا رجل لبعض الملوك فقال: جعل الله جرأتك جرأة ذبابة، وقوتك قوة نملة، وكيدك كيد امرأة؛ فغضب الملك من قوله، فقال له: على رسلك أيها الملك، إنه يبلغ من جرأة الذباب أنه يقع على أنوف الملوك، ويبلغ من قوة النملة أن تحمل أضعاف وزنها — والفيل لا يستقل ببعض ذلك — ويبلغ من كيد المرأة ما لا يبلغه دهاة الرجال. فسكن عن الملك الغضب.

شم الذَّرَّة

قال الجاحظ: للذرة مع لطافة شخصها وخفة وزنها من الشم والاسترواح ما ليس لشيء؛ وربما أكل الإنسان الجراد أو ما يشبهه فتسقط من يده واحدة أو رجل واحدة منها، وليس يرى بقربه ذرة ولا له بالذر عهد في ذلك المنزل، فلا يلبث أن تقبل ذرة قاصدة إلى تلك الجرادة فترومها، وتحتال لنقلها وسحبها وجرها، فإذا أعجزتها بعد أن تبلي عذرًا مضت إلى جحرها راجعة، فلا يلبث ذلك الإنسان أن يراها قد أقبلت وخلفها كالخيط الممدود من الذر حتى يتعاونَّ عليها فيحملنها.

فأول ذلك صدق الشم لما لا يشمه الإنسان الجائع، ثم بعد الهمة، والجرأة على محاولة نقل شيء في وزن جسمها مائة مرة أو أكثر، وليس شيء من الحيوان يحمل ضعف وزنه مرارًا غيرها، على أنها لا ترضى بأضعاف الأضعاف إلَّا بعد انقطاع الأنفاس.

جمع الذرة

قال الجاحظ: أما ترون إلى خلق الذرة وما فيها من بديع التأليف، ومن الإحساس الصادق، والتدابير الحسنة، ومن الروية والنظر في العاقبة، والاختيار لكل ما فيه صلاح المعيشة، ومع ما فيها من البرهانات النيرة، والحجج الظاهرة!

وقال في موضع آخر: قد علمنا أن الذرة تدخر في الصيف للشتاء، وتتقدم في حالة المهلة، ولا تضيع أوقات إمكان الفرصة؛ ثم تبلغ من نقدها، وصحة تمييزها والنظر في عواقبها أنها تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء أن تعفن وتسوس فتنقلها من بطن الأرض وتخرجها إلى ظهرها لتعيد إليها جفوفها، وليضربها النسيم وينفي عنها الفساد.

ثم ربما — بل في أكثر الأوقات — اختارت ذلك ليلًا، لأنه أخفى، وفي القمر، لأنها فيه أبصر، فإن كان مكانها نديًّا وخافت أن ينبت نقرت موضع القطمير من وسط الحبة، وهي تعلم أنها من ذلك الموضع تبتدئ تنبت وتصلب، وهي تفلق الحب كله أنصافًا، وإذا كان الحب من حب الكزبرة فلقته أرباعًا، لأن أنصاف حب الكزبرة تنبت من بين جميع الحب، فهي من هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان.

وفي وصية لقمان لابنه: يا بني لا تكن الذرة أكيس منك، تجمع في صيفها لشتائها.

وقال بعض الشعراء (من السريع):

تركت والله له عرضة كرامة للشعر لا للفتى
لأنه أحرض من ذرة على الذي يجمعه للشتا

وفي حديث عمرو بن معدي كرب حين سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن سعد بن أبي وقاص، قال: أسد في خيسه، أعرابي في شملته، نبطي في حبوته، ينقل إلينا نقل الذرة إلى جحرها.

قوله: نبطي في حبوته، لم يرد احتباء النبطي، لأن الاحتباء للعرب كما يقال: حباء العرب حيطانها، ولكن أراد أنه في حبوة العرب كالنبطي في علمه بالخراج وعمارة الأرض.

وقد يجمع بين النمل والذر في الوصف بالجمع؛ قال أبو دهبل الجمحي (من الرمل):

ولها بالماطرون إذا أكل النمل الذي جمعا

وقال الكُمَيت وهو يصف محلًا (من الطويل):

وأنفد حي النمل ما في بيوتهم وعلل بالسوف الوليد المؤدب

وقال آخر (من السريع):

يجمع للوارث جمعًا كما تجمع في قريتها النمل

وذكر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه زيادًا فقال: قاتل الله زيادًا! جمع لهم كما تجمع الذرة، وحاطهم كما تحوط الأم البَرَّة، وجبى العراق مائة ألف ألف درهم وثمانية عشر ألف ألف.

مخ الذر

يضرب به المثل في العزة والعسرة والنكد، فيقال: أنكد من مخ الذر، كما يقال: أنكد من صوف الكلب، وأعز من لبن الطير.

قال ابن الرومي في سليمان بن عبد الله بن طاهر (من السريع):

رمت نداكم يا بني طاهر فرمت مخ الذر في عسرته
أملت من رفد سليمانكم ما أمل المعتز من نصرته

مثقال ذرة

يضرب مثلًا في القلة والخفة؛ قال الجاحظ: قد ذكر الله الذرة فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، فكان في ذلك دليل على أنه من الغايات في الصغر، والخفة وقلة الرجحان.

قال الشاعر في بعض المعلمين (من الطويل):

معلم صبيان وحامل درة وليس له علم بمقدار ذرة

علم الحكل

قال الجاحظ: الحكل من الحيوان كله ما لم يكن له صوت يستبان باختلاف مخارجه عند جزعه وضجره وطلبه ما يغذوه.

يضرب مثلًا لإعظام التفرس وسمو التفكر، كما يتمثل به عند الجزع والضجر وطلب الأمر العزيز المنال.

قال رؤبة (من الرجز):

لو أنني علمت علم الحكل   علم سليمان وعلم النمل

وقال العماني (من الطويل):

ويفهم قول الحكل لو أن ذرة   تساود أخرى لم يفته سوادها

يقول: الذر الذي لا يسمع لمناجاته صوت، لو كان بينه وبين صاحبه سرار لفهمه؛ والسرار والسواد واحد؛ والله أعلم بالصواب.

الباب الخامس والثلاثون

في النعام

بيض النعام، عدو النعام، شراد النعام، ظل النعامة، جناحا النعامة، رجلا النعامة، شم النعامة، موق النعامة، صحة الظليم.

الاستشهاد

بيض النعام

يضرب بها المثل في الضياع، لأن النعام تضيع بيضها وتحضن بيض غيرها.

وتشبه بها النساء في البياض والبضاضة، والعذارى في الصحة والسلامة من الافتضاض؛ كما قال الفرزدق (من الوافر):

خرجن إلي لم يطمثن قبلي وهن أغض من بيض النعام

وللبيض باب في هذا الكتاب، آخذ بطرفي الصواب، إن شاء الله تعالى.

عدو النعام

يضرب به المثل، فيقال: أعدى من النعامة، وأعدى من ظليم؛ لأنه إذا عدا مد جناحيه، فكأنه يجمع في حضره بين العدو والطيران؛ لا سيما إذا نفر من شيء يخافه فإنه يسبق الريح.

ومن خفة النعام وسرعة هربها وطيرانها على وجهها وذهابها قالوا في المثل: شالت نعامتهم، وخف رألهم؛ وللمنهزمين: أضحوا نعامًا.

وكتب أبو إسحاق الصابي في وصف قوم هاربين: أجفلوا إجفال النعام، وأقشعوا إقشاع الغمام.

شراد النعام

قال الجاحظ: من أعاجيب النعام أنها لا تأنس بالطير المجانسة لها، ولا بالإبل لمشاكلتها لها، فهي نوافرُ شواردُ أبدًا.

ويضرب بنفارها وشرادها المثل، كما قال الشاعر (من الوافر):

وهم تركوك أحير من حبارى رأت صقرًا وأشرد من نعام

وقال عمران بن حطان للحجاج (من الكامل):

أسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تنفر من صفير الصافر

ظل النعامة

يقال للمفرط في الطول: ظل النعامة؛ كما يقال للضخم المتكبر: ظل الشيطان.

قال جرير في هجائه شبة بن عقال (من الكامل):

فضح المنابر يوم يسلح قائمًا ظل النعامة شبة بن عقال

وقال بشار بن برد:

وأعرج يأتينا كظل نعامة يقوم على الأبواب في السبرات

جناحا النعامة

يقال لمن شمر عن ساق الجد في أمره: قد ركب جناحي نعامة.

قال الشماخ في مرثية عمر بن الخطاب رضي الله عنه (من الطويل):

فمن يسع أو يركب جناحي نعامة ليدرك ما قدمت بالأمس يسبق

رجلا النعامة

يضرب مثلًا للاثنين لا يستغني أحدهما عن الآخر بحال من الأحوال.

قال الجاحظ: كل ذي رجلين وكل ذي أربع إذا اندقت إحدى قائمتيه أو إحدى قوائمه ظلع وتحامل، ومشى مشيًا، وإذا استكره نفسه فاحتاج إلى أن يستعين بالصحيحة فعل، إلَّا النعامة فإنها متى انكسرت إحدى رجليها فليس إلَّا السقوط والجثوم وفقدان الاستعانة بالصحيحة، وعدم التقرب بها إلى ما دنا من بعض الحاجة؛ وليس في الأرض ذو أربع ولا ذو رجلين كذلك.

وأنشد بعض الأعراب يخاطب امرأته (من الطويل):

قفي لا تزلي زلة ليس بعدها جبور وزلات النساء كثير
أدحية عني تطردين تبددت بلحمك طير طرن كل مطير!
وإني وإياه كرجلي نعامة على كل حال من غنى وفقير

وكانت امرأته تجفو أخاه دحية وتطرده، فأخبر أنه وأخاه كرجلي نعامة إن أصاب أحدهما شيء بطلت الأخرى.

ويقال للفرس: له ساقا نعامة؛ وذلك لقصر ساقيها، كما قال امرؤ القيس (من الطويل):

له أيطلا ظبي وساقا نعامة

وكما قال الآخر (من الهزج):

له ساقا ظليم خا ضب فوجئ بالذعر

ويقال: له جؤجؤ نعامة؛ وذلك لارتفاع جؤجؤها.

شم النعامة

هي موصوفة بصدق حاسة الشم وجودة الاسترواح، مضروب بها المثل كالذئب والذر.

ويقال: إن الهَيْق يشم ريح أبويه وريح السبع والإنسان من مكان بعيد.

ولذلك قال الراجز:

أشم من هيق وأهدى من جمل

وزعم أبو عمرو الشيباني أنه سأل الأعراب عن الظليم: هل يسمع؟ فقالوا: لا، ولكنه يعرف بأنفه ما لا يحتاج معه إلى سمع، قال: وإنما لقب بيهس بنعامة لأنه كان شديد الصمم.

وإذا دعا الرجل من العرب على صاحبه بالصمم قال: اللهم اصلخه صلخًا كصلخ النعامة. والصلخ: أشد الصمم.

موق النعامة

قال الجاحظ: النعام موصوف بالسخف والموق. وفي المثل: أموق من نعامة؛ ومن موقها أنها تخرج للطعم فربما رأت بيض نعامة أخرى قد خرجت لمثل ما خرجت له فتحضن بيضها وتدع بيض نفسها؛ وإياها أراد ابن هرمة بقوله (من المتقارب):

كتاركة بيضها بالعراء وملبسة بيض أخرى جناحا

صحة الظليم

يقال في المثل: أصح من ظليم؛ لأنه لا يشتكي؛ فإذا اشتكى لا يلبث أن يموت.

ويقال: إن الظبي أيضًا كذلك.

وفي فصل للصاحب من كتاب صدر جوابًا عن كتاب عيادة:

كني كتابك والظليم ينتسب إلى صحتي، بعد أمراض اكتنفت، وأسقام اختلفت.

الباب السادس والثلاثون

في الطير

عتاق الطير، بغاث الطير، قواطع الطير، خطباء الطير، لبن الطير، غناء الطير، مجير الطير، مخالب طائر، حسو طائر، جناح طائر، قادمة الجناح، عنقاء مغرب، طير النار، طير العراقيب.

الاستهشاد

عتاق الطير

أحرارها، وهي تصيد ولا تصاد، وتملك ولا تُملك؛ قال الشاعر (من الطويل):

ولا عيب فيها غير زرقة عينها كذاك عتاق الطير زرق عيونها

وقال معاوية رضي الله عنه لصعصعة: يا أحمر؛ فقال: الذهب أحمر؛ قال: يا أزرق؛ قال: البازي أزرق.

وقال خلف الأحمر: عتاق الطير هي الجوارح، وعتاق الخيل هي التي تفوت إذا طلبت، وتدرك إذا طلبت.

وقال الجاحظ: عتاق الطير كالعقبان والبزاة والصقور والشواهين، لا سيما العقبان؛ فإنها تبيت حيث لا ينالها سبع ولا ذو أربع، وتحيد عنها سباع الطير ولا تعاني الصيد إلَّا في الفرط، ولكنها تسلب كل ذي

صيد صيده، وإذا اجتمع صاحب الصقر وصاحب الشاهين وصاحب البازي وصاحب العقاب لم يرسلوا أطيارهم خوفًا من العقاب؛ وهي طويلة العمر، عاقة بولدها، وإن شاءت كانت فوق كل شيء، وإن شاءت تفوق كل شيء، تتغدى بالعراق، وتتعشى باليمن؛ وريشها الذي عليها هو فروتها في الشتاء، وخيشها في الصيف، وهي أبصر خلق الله.

بُغاث الطير

قال بعض اللغويين: بغاث الطير ما لا مخلب له، وكما أن البزاة والصقور والعقبان من عتاقها وسباعها؛ فالرخم والحدأ والغربان من بغاثها.

قال الجاحظ: بغاث الطير ضعافها وسفلتها من العظام الأبدان، والخشاش مثلها، إلَّا أنها من صغار الطير؛ قال الشاعر (من الوافر):

بغاث الطير أكثرها فراخًا وأم الصقر مقلاة نزور

قواطع الطير

قال الجاحظ: قال أبو زيد الأنصاري: إذا كان الشتاء قطعت إلينا الطير والغربان، أي: جاءت من بلادها، فهي قواطع، وإذا كان الصيف رجعت فهي رواجع، والطير التي تقيم بأرضنا شتاء وصيفًا فهي الأوابد.

خطباء الطير

هي الفواخت والقماري والوراشين والعنادب وما أشبهها.

وأظن أول من اخترع هذه الاستعارة المليحة أبو العلاء السروي في قوله (من البسيط):

أما ترى قضب الأشجاب لابسة حسنًا يبيح دم العنقود للحاسي
وغردت خطباء الطير ساجعة على منابر من ورد ومن آس

لبن الطير

تضرب به العجم مثلًا لما يعز أو يعوز؛ كما تضرب العرب المثل في ذلك بالأبلق العقوق ومخ البعوض، وسلى الجمل، وحلم العصفور.

غناء الطير: يضرب به المثل في الطيب.

ومن أحسن ما قيل في ذلك ما حكاه الجاحظ عن إبراهيم بن السندي بن شاهك قال: قلت في أيام ولايتي الكوفة لرجل من وجوهها كانت لا تجف كبده ولا يستريح قلمه، ولا تسكن حركته في طلب حوائج الناس وإدخال السرور والمرافق على الضعفاء، وكان عفيف الطعمة، وجيهًا مفوهًا: خبرني عن الشيء الذي هون عليك النصب، وقواك على هذا التعب، ما هو؟ ومن أي شكل هو؟ فقال: سمعت غناء الأطيار بالأسحار على الأشجار، وسمعت خفق الأوتار، وتجاوب العود والمزمار؛ وما طربت من صوت حسن كطربي من ثناء حسن على رجل قد أحسن، فقلت: لله أبوك! لقد حشيت كرمًا.

مجير الطير

كان ثوب بن شحمة سيدًا شريفًا قد أجار الطير، فكان لا يثار، ولا يصاد بأرضه، فسمي مجير الطير.

كما أجار مدلج بن سويد بن مرثد بن خيبري الجراد فسمي مجير الجراد.

مخالب طائر: يضرب مثلًا للمكان الذي يقلق فيه ساكنه؛ قال الشاعر (من الطويل):

كأن فؤادي في مخالب طائر　　　إذا ذكرتك النفس شد به قبضا

وقد يضرب مثلًا لما لا يرجى، فيقال: هو في مخالف الطير.

حسوة طائر

يضرب مثلًا في الخفة؛ فيقال: أخف من حسوة طائر؛ كما يقال: أخف من لمعة بارق.

ومن كلام أبي العيناء الذي نحله الأعرابي في وصف رجال الحضرة: قلت: فما تقول في نجاح بن سلمة، قال: لله دره من ناقض أوتار، ومدرك ثار، وموقد نار، يتلهب كأنه شعلة باتت على مدرجة الجائين؛ ينتظر إلى أن يردنا قدمه، فيحكم في ماله قلمه، له في الغيبة جلسة عند الخليفة كحسوة طائر، أو خلسة سارق، فيقوم وقد أفاد نعمًا، أو دفع نقمًا.

وذكر ابن الرومي عبة الطائر، فضربها مثلًا في القلة حيث قال في محمد بن عبد الله بن طاهر (من الطويل):

وما كانت الدنيا وأنت أميرها لتعدل عند الله عبة طائر

جناح الطائر

يقال: كأنه في جناح طائر؛ إذا كان قلقًا دهشًا؛ كما يقال: كأنه على قرن أعفر، وكأنه في كف طبطاب.

ويقال: ركب فلان جناح الطير، إذا فارق وطنه؛ وقد يضرب مثلًا لما لا يرجى؛ ويقال: هو في جناح الطير.

وقلت في باب الضياع من الكتاب المبهج: ارتفاع الضيعة العازبة، كالعقيان، في أجنحة العقبان.

ويقال في الإسراع: استعار جناح نسر، وترك الصبا في عقال أسر.

ومن الأجنحة المستعارة: جناح الرجل، وجناح الحائط، وجناح الطريق، وجناح الجناح.

وقد أحسن ابن المعتز في قوله (من الوافر):

شربنا بالصغير وبالكبير ولم نحفل بأحداث الدهور
وقد ركضت بنا خيل الملاهي وقد طرنا بأجنحة السرور

قادمة الجناح

يضرب مثلًا في تفضيل بعض الشيء على كله، كما يقال: وجه الخير، وأول الرزمة، وواسطة العقد، ودرة التاج.

قال ابن هرمة لعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك من قصيدة (من الوافر):

أعبد الواحد المرجو إني أغص حذار سخطك بالقراح
وجدنا غالبًا كانت جناحًا وكان أبوك قادمة الجناح

وأنشده إياها، وكان عنده عبد الله بن حسن بن حسن، فلما فرغ قال له: قبحك الله إذ قلت لعبد الواحد:

وكان أبوك قادمة الجناح

فما الذي تركت لنا! قال: يا ابن رسول الله، أما سمعت قولي في القصيدة:

وبعض القول يذهب في الرياح

فضحك منه، ورضي عنه.

عنقاء مُغْرِب

يقال: أعز من عنقاء مغرب، قال الجاحظ: الأمم كلها تضرب المثل بعنقاء مغرب في الشيء الذي يسمع به ولا يرى؛ كما قال أبو نواس (من الطويل):

وما خبزه إلَّا كعنقاء مغرب يصور في بسط الملوك وفي المثل
يحدث عنها الناس من غير رؤية سوى صورة ما إن تمر ولا تحلي

وما أكثر من ينكر أن يكون في الدنيا حيوان يسمى كركدن، ويزعمون أن هذا وعنقاء مغرب سواء، وإن كانوا يرون صورة العنقاء مصورة في بسط الملوك، وحيطان قصورهم، واسمها عندها بالفارسية سيمرك، كأنهم قالوا: هو وحده عندهم ثلاثون طائرًا لأنه قولهم بالفارسية سي، هو ثلاثون، ومرغ بالفارسية هو الطائر بالعربية، والعرب إذا أخبرت عن هلاك شيء وبطلانه قالت: حلقت به في الجو عنقاء مغرب؛ كما قال الكُمَيت (من الطويل):

محاسن من دنيا ودين كأنما بها حلقت في الجو عنقاء مغرب

وحكى الصولي عن بعض مشايخه، قال: قال عبيد الله بن سليمان: سمعت سيدنا المعتضد بالله يقول: عجائب الدنيا ثلاث: اثنتان لا تريان، وواحدة ترى، فأما اللتان لا تريان فعنقاء مغرب والكبريت الأحمر؛ وأما التي ترى فابن الجصاص.

وهو أبو عبد الله الحسين بن عبد الله ابن الجصاص الجوهري؛ كان يقال له قارون الأمة، لفرط يساره، وكثرة أمواله، وكان أجهل الناس إلَّا في الجوهر، فإنه كان باقعة في التبصر به.

ولما عرضت للمقتدر الضيقة التي كادت تهتك ستره لم يتسع إلَّا بما أخذ من أمواله.

قال الصولي: سمعت أبا الحسن بن عبد الحميد كاتب السر يقول: الذي صح مما قبض من مال ابن الجصاص من العين والورق والآنية والفرش والكراع والخدم والجوهر — ولا ضيعة في ذلك ولا عقار — ما قيمته ستة آلاف ألف دينار.

طير النار

هو طائر هندي يسمى السمندل. قال بعضهم: هو ناري، يعيش في النار، كما يعيش طير الماء في الماء.

وقال آخرون: هو طير إذا هرم دخل نار الأتون أو نارًا جاحمة غيرها، فيمكث ساعات فيعود شابًا؛ وإياه عنى البهراني بقوله (من السريع):

وطائر يسبح في جاحم كأنه يسبح في غمر

قال الجاحظ: وفي السمندل آية غريبة، وصفة عجيبة، وداعية إلى التفكر، وسبب للتعجب، وذلك أنه يدخل أتون النار فلا تحترق له ريشة.

وقال في مكان آخر: خبرت عن فأرة البيش واغتذائها السموم، وعن الطائر الذي يدعى السمندل وطيرانه في جاحم الأتون، فلا السم المجهز يحص من تلك الفأرة وبرة، ولا النار المضرمة تحرق من ذلك الطائر زغبة.

وقال في مكان آخر: كأن هذا الطائر في طباعه وفي طباع ريشه مزاج من طلاء النفاطين، وأظن هذا الطلاء من طلق وخطمي ومغرة.

وقد كنت رأيت عودًا يؤتى به من ناحية كرمان لا يحترق؛ وكان عندنا نصراني في عنقه صليب منه، وكان يقول لضعفاء الناس: هذا العود من الخشبة التي كان المسيح صلب عليها، والنار لا تعمل فيه؛ فكان يكتسب بذلك حتى فُطِنَ له، وعورض بهذا العود.

وزعم ثمامة أن المأمون قال: إذا أخذ الإنسان من هذا الطحلب الذي يكون على وجه الماء في مناقع المياه فجففه في الظل وأحرقه فإنه لا يحترق.

طير العراقيب

كل طير يتطير منه للإبل فهو طير العراقيب؛ كأنه يعقرها ويعرقبها؛ قال الفرزدق وهو يخاطب ناقته (من الطويل):

إذا قطنًا بلغتنيه ابن مدرك فلا قيت من طير العراقيب أخيلا

ومن أمثالهم إذا دعوا على المسافر: لاقيت أخيلًا؛ وهو شِقِرَّاق يتطير منه العرب للظهور، ولا تتطير منه لأنفسها، وإذا لقي المسافر منهم الأخيل أيقن بالعقر إن لم يك موت في الظهور؛ والله أعلم.

الباب السابع والثلاثون

في عتاق الطير

عقاب الجو، عقاب ملاع، قاب العقاب، شأو العقار، فرخ العقاب، خوافي العقاب، بازي البر، بازي جحا، صدر البازي، بخر الصقر.

الاستشهاد

عقاب الجو

يضرب به المثل في الرفعة والمنعة.

ولما حضَّ قصيرٌ بن سعد عمرَو بن عدي على الطلب بثأر خاله جذيمة بن الزباء وقال له: تهيأ واستعد ولا تُطِلَّنَّ دم خالك؛ قال له عمرو: وكيف لي بها، وهي أمنع من عقاب الجو! فصار قوله مثلًا.

عقاب ملاع

العرب تقول في أمثالها: أبصر من عقاب ملاع. قال محمد بن حبيب: ملاع اسم هضبة.

وقال غيره: ملاع اسم للصحراء، لأن عقاب الصحراء أبصر وأسرع من عقاب الجبل.

قال امرؤ القيس (من الطويل):

كأن دثارًا حلقت بلبونه عقاب ملاع لا عقاب القواعل

والقواعل: الجبال الصغار.

قاب العقاب

مقدار مطارها في الهواء علوًا وارتفاعًا.

قال ابن الرومي (من الخفيف):

طار قوم بخفة العقل حتى لحقوا رفعة بقاب العقاب
ورسا الراجحون من جلة النا س رسو الجبال ذات الهضاب
هكذا الصخر راجح الوزن راس وكذا الذر شائل الوزن هاب

ومن فصل للبديع الهمذاني: قبلت من يمناه مفتاح الأرزاق، وفتاح الآفاق، ولحقت منه بقاب العقاب.

شأو العقاب

شأو العقاب: مدى طيرانها، وهي تتغدى بالعراق، وتتعشى باليمن.

وفي الكتاب المبهج: أحسن الخيل ما كان بين الشهاري والعراب، وجمع مشية الغراب إلى شأو العقاب.

فرخ العقاب

العرب تضرب به المثل في الحزم، وكانت تقول: سنان أحزم من فرخ العقاب؛ تعني سنان بن أبي حارثة.

وذلك أن العقاب تتخذ أوكارها في رؤوس الجبال الشاهقة، فلو تحرك الفرخ إذا طلب الطعم وقد أقبل إليه أبواه، أو زاد في حركته شيئًا من موضع مجثمه لهوى من رأس الجبل إلى الحضيض، فهو يعرف مع

صغره وضعفه وقلة تجربته أن الصواب له في ترك الحركة.

وقال مسرور مولى حفصويه الكاتب المروزي وهو يرثي ابنه نصرًا (من مجزوء الكامل):

يا دار بالقفر الخراب والمنزل الوحش اليباب
بيدي فيك دفنت نصـ ـرًا بين أطباق التراب
كشبا المهند أو كجَرْ وِ الفهد أو فرخ العقاب

خوافي العقاب

يضرب بها المثل في السرعة؛ كما كتب الصاحب: المنهزمون نكصوا على الأعقاب، وطاروا بخوافي العقاب.

وفي الكتاب المبهج: إذا نبا بك بلدك فاستعر قادمة الغراب، في الاغتراب، وخافية العقاب في اقتحام العقاب، فربما أسفر السفر عن الظفر، وتعذر في الوطن قضاء الوطر.

ومن فصل لأبي محمد الخازن الأصفهاني:

> هذا ولو كنت عاقلًا — وهيهات — لكنت اليوم في مرموق الدرجات، فقد وردت ورأيت جماعة — لم أكن يومئذ دونها — قد صارت في منازل أحتاج إلى خافية العقاب حتى ألحق بها.

بازي البر

يقال بازي البر كما يقال: عقاب ملاع، لأن بازي البر أبصر وأطير وأصيد من بازي الجبل؛ قال الشاعر (من الطويل):

وكنت كبازي البر قص جناحه يرى حسرات كلما طار طائر
يرى طائرات الجو يصفقن حوله فيذكر إذ ريش الجناحين وافر

بازي جحا: كثيرًا ما أسمع العامة يتمثلون ببازي جحا، وكنت سمعت قصة، ما أنسانيها إلَّا الشيطان أن أذكرها في هذا المكان.

صدر البازي

يشبه به كل شيء حسن التخطيط، بديع التحبير؛ ويذكر في الحسن والملاحة مع سالفة الغزال، وطوق الحمامة، وجناح الطاووس.

قال بعض أهل العصر في وصف يوم من أيام الربيع (من الطويل):

ويوم عبيري النسيم سبى طرفي — وقلبي بما أبدى من الحسن والظرف
كأن موشى الغيم فيه مقابلًا — موشى الربا، والشمس تنظر من سجف
صدور البزاة البيض صفت وقابلت — ظهور طواويس تفوت مدى الوصف

ثم قال:

ولما وهى من صيب المزن عقده — وأقبل يروي غلة النبت بل يشفي
رأيت في الروض أعجب منظر — يدل على صنع المهيمن ذي اللطف
فضحك بلا ثغر، ونسج بلا يد — وحلي بلا صوغ، ودمع بلا طرف

وقال لأبي النصر سهل بن المَرْزُبان في معناه (من الطويل):

ألست ترى يا غرة الشهر والدهر — محاسن هذا الفصل ذي النور والزهر
سماء كصدر الباز والأرض تحتها — كأجنحة الطاووس فاشرب أبا نصر
عقار كعين الديك يحلو بمسمع — يؤدي غناء العندليب على قدر
ولا زلت بين البيض والصقر ناعمًا — يروقك غض العيش في الورق الخضر

بخر الصقر

الصقر والأسد بمنزلة في البخر؛ والمثل سائر بذلك، كما قال الشاعر (من مجزوء الرمل):

وله نكهة ليث — خالطت نكهة صقر

ووصف بعضهم رجلًا شريف الأصل، وضيع النفس؛ ولفق بين المحاسن والمساوئ، فقال: هو من الطاووس رجله، ومن الورد شوكه، ومن الماء زبده، ومن الباز شوكته، ومن الصقر بخره، ومن النار دخانها، ومن الخمر خمارها، ومن الدار كنيفها.

ومن كتاب البديع الهمذاني في حكاية مقامة:

والله، لقد صادفت من فمه صقرًا، ومن يده صخرًا، ومن صدره سم خياط، لا يرشح بقيراط.

الباب الثامن والثلاثون

في الغراب

غراب عقدة، غراب البين، غراب الليل، غراب الشباب، بكور الغراب، حذر الغراب، ثمرة الغراب، بازيار الغراب.

الاستشهاد

غراب عقدة

من أمثال العرب قولهم: آلف من غراب عقدة.

وإذا كثر النخل والخصب فهي عقدة يألفها الغراب ولا يبرحها لأنه يجد فيها كل ما يريد، فهو لا يفارقها.

قال ابن الأعرابي: كل أرض ذات خصب عقدة، وعقدة الدور والأرضين من ذلك.

وغراب عقدة: يضرب مثلًا للرجل يألف الأرض الخصب ومواطن الخير فلا يختار عليهما، ولا يبغي حولًا عنهما.

غراب البين

قال الجاحظ: غراب البين نوعان: أحدهما غربان صغار معروفة بالضعف واللؤم، والآخر كل غراب يتشاءم به؛ وإنما لزمه هذا الاسم لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنجعة وقع في مواضع بيوتهم يلتمس ويتقمم ما تركوا، فتشاءموا به، وتطيروا منه؛ إذ كان لا يعتري منازلهم إلَّا إذا بانوا، فسموه غراب البين، واشتقوا من اسمه الغرب والاغتراب.

وليس في الأرض بارح ولا نطيح، ولا قعيد ولا أعضب، ولا شيء مما يتشاءم به إلَّا والغراب عندهم أنكد منه.

وللبديع الهمذاني فصل في ذكره يليق بهذا الموضع وهو:

> ما أعرف لفلان مثلًا إلَّا الغراب الأبقع، مذموم على أي جنب وقع؛ إن طار فمقسم الضمير، وإن وقع فروعة النذير، وإن حجل فمشية الأسير، وإن شحج فصوت الحمير، وإن أكل فدبرة البعير، وإن شرق فبلغة الفقير.

قال مؤلف الكتاب: قد أكثر الشعراء في ذكر غراب البين؛ قال أبو نواس (من مجزوء الرمل):

يا غراب البين في الشؤ م وميزاب الجنابه
يا كتابًا بطلاق وعزاء بمصابه

وقال آخر في الغزل (من الراجز):

بت على رغم غراب البين أنا ومن أحب ناعمين
قرير عين بقرير عين فظن ما شئت بعاشقين

وقال أبو عثمان في وصف السمك وصياده (من الراجز):

أنعته أبيض كاللجين سماكه أشعث ذو طمرين
في اللون لا الطيب مُمَسَّكَيْن أشد شؤمًا من غراب البين

غراب الليل

يضرب مثلًا لمن لا يأنس بأشكاله.

قال الجاحظ: غراب الليل هو الذي ترك أخلاق الغربان وتشبه بالبوم وأخذ أخلاقها.

فأما قول ابن المعتز (من الوافر):

وكابدنا السرى حتى رأينا غراب الليل مقصوص الجناح

فإنما هو على الاستعارة لا الحقيقة، وليس هو غرابًا بعينه.

غراب الشباب

يذكر ذلك على وجه الاستعارة؛ وهو كثير في الألسنة نظمًا ونثرًا؛ كما يقال: برد الشباب، رداء الشباب.

قال مسلم بن الوليد (من الطويل):

وليل كغربان الشباب وصلته بيوم كأن الشمس تقبسه جمرا

وأنشد حمزة الأصبهاني لابن المعتز هذه الأبيات، ولم أجدها في النسخ العراقية من شعره (من الخفيف):

شعرات في الرأس بيض ودعج حل فيها جيشان روم وزنج
أيها الشيب لم حللت برأسي إن عمري عشر وعشر وبنج!
طار عن مفرقي غراب شبابي وعلاني من بعده شاهمرج

حنك الغراب

من أمثال العرب: هو أشد سوادًا من حنك الغراب، وحلك الغراب؛ فحنك الغراب منقاره، وحلكه سواده.

عين الغراب

يضرب بها المثل في الصفاء وحدة البصر؛ فيقال: أصفى من عين الغراب، كما يقال: أصفى من عين الديك؛ ويقال: أبصر من غراب؛ كما يقال: أبصر من عقاب.

وأنشد الجاحظ لابن ميادة (من الطويل):

ألا طرقتنا أم أوس ودونها حراج من الظلماء يعشى غرابها

يقول: إذا كان الغراب لا يبصر في حراج الظلماء مع حدة بصره فما ظنك بغيره! وواحدة الحراج حرجة، وهي ها هنا مثل، حيث جعل كل شيء التف وكثف من الظلام حراجًا، وإنما الحرجة من السدر وأشباه السدر.

قال أبو الطمحان القيني (من الطويل):

إذا شار راعيها استقى من وقيعة كعين الغراب صفوها لم يكدر

والوقيعة: كل مكان صلب يمسك الماء؛ والجمع وقائع.

وإنما يقال للغراب: أعور لأنه مغمض أبدًا إحدى عينيه مقتصر على الأخرى من قوة بصره.

ويقال: إنما سموه أعور على طريق التثاقل عليه؛ قال الشاعر (من الخفيف):

لقبوني الشحيح من سوء حالي مثل ما سمي الشواحج عورا
أنا في ضده كأسود قوم ظل يدعى بضده كافورا

زهو الغراب

يضرب به المثل، فيقال: أزهى من غراب؛ لأنه إذا مشى اختال ونظر في عطفيه؛ قال حسان (من الكامل):

في فحش مومسة وزهو غراب

وقال آخر (من المتقارب):

وأزهى إذا ما مشى من غراب

صحة الغراب

يضرب به المثل، كما يضرب بصحة الظليم؛ فيقال: أصح بدنًا من الغراب؛ وكأنه من الحيوان الذي لا يشتكي، ولا يعرف الأسقام والعلل إلَّا شكاة الموت.

شيب الغراب

يضرب مثلًا لما لا يكون أصلًا؛ فيقال: لا يكون ذلك حتى يشيب الغراب؛ كما يقال: حتى يبيض القار ويؤوب القارظ العنزي، ويلج الجمل في سم الخياط؛ أي: لا يكون ذلك أبدًا، وهذه من أمثال التأبيد؛ قال الجعدي (من الوافر):

فإنك سوف تحلم أو تناهى … إذا ما شبت أو شاب الغراب

وقال ساعدة بن جوية (من البسيط):

شاب الغراب ولا فؤادك تارك … ذكرى الغضوب ولا عتابك يعتب

بكور الغراب

المثل سائر بذلك معروف؛ قال بعض الحكماء: تعلموا من الغراب بكوره، وحذره، وإخفاءه للسفاد.

وقيل لبزرجمهر: بم أدركت ما أدركت من العلوم؟ قال: ببكور كبكور الغراب، وصبر كصبر الحمار، وحرص كحرص الخنزير.

قال الخوارزمي من قصيدة (من الكامل):

لبسوا الدجى لبس الغراب لريشه … وغدوا لحاجتهم بكور غراب

حذر الغراب

تقول العرب: أحذر من غراب.

قال الشاعر (من البسيط):

يحذر مما قضاه خالقه وليس ينجو الغراب من حذر

وفي رموز الأعراب: إن الغراب قال لابنه: إذا رميت فتلوص (أي: تلوَّ)؛ قال: يا أبت إني أتلوص قبل أن أرمى.

ثمرة الغراب

إذا أصاب الرجل عند صاحبه أفضل ما يريد من الخير والخصب قالوا: وجد ثمرة الغراب، وذلك أن الغراب إنما ينتقي من الثمر أجوده وأطيبه، لقرب متناوله عليه في رؤوس النخل.

ومن كلام الأمير السيد — أدام الله تأييده — في كتابه، كتاب المخزون، قوله في وصف الكتاب:

كتابك شهدة النحل، وثمرة الغراب، وثمرة الفؤاد، وبيضة العقر، وزبدة الأحقاب.

فانظر إلى حسن هذه التشبيهات وجودة هذه التلفيقات من نفائس المطعومات.

بازيار الغراب

يشبه به الكريم يلابس ما يصغر عن قدره، ويتعاطى عند الضرورة ما لا يليق به.

قال ابن المعتز في وصف نبيذ أسوم سئم شربه (من الخفيف):

علني أحمد من الدوشاب شربة نغصت سواد الشباب
لو تراني أعل من قدح الدو شاب أبصرت بازيار غراب

الباب التاسع والثلاثون

في الحمام

حمامة نوح، حمام الحرم، طوق الحمامة، خرق الحمامة، غناء الحمام، سجع الحمام، هداية الحمام.

الاستشهاد

حمامة نوح

ويقال لها أيضًا: حمامة السفينة، وسيمر ذكرها قريبًا؛ وهي التي أرسلها نوح عليه السلام مكان الغراب الذي لم يعد إليه لينظر: هل غاض الماء وبدا من الأرض شيء؟ فرجعت إليه بالبشارة.

حمام الحرم

يضرب بها المثل في الأمن والصيانة، كما يضرب بظباء مكة، وقد تقدم ذكرها، ويقال لها أيضًا: حمام مكة، كما قال الشاعر (من الطويل):

وأية أرض أنت فيها ابن معمر   كمكة لم يطرق بشر حمامها
إذا اخترت أرضًا للمقام رضيتها   لنفسي ولم يغلظ علي مقامها

وقال كثير في أمن الظبي والحمام بمكة (من الخفيف):

لعن الله من يسب عليًا وحسينًا من سوقة وإمام
يأمن الظبي والحمام ولا يأ من آل الرسول عند المقام!

وقال آخر وهو يضرب المثل بحمام مكة (من الطويل):

ليالي تمنى أن تكون حمامة بمكة يؤويك الستار المحرم

وقال ابن قيس الرقيات (من الخفيف):

بلد تأمن الحمامة فيه حيث عاذ الخليفة المظلوم

يعني به عبد الله بن الزبير.

ومن أمثال العرب: هو آمن من حمام مكة.

ومن أبلغ ما سمعت في التمثيل بحمام الحرم قول عبدان الأصبهاني، وقد أحسن على إساءته (من المتقارب):

رغيفك في الأمن يا سيدي يحل محل حمام الحرم
فلله دره من سيد حرام الرغيف حلال الحرم

طوق الحمامة

يضرب مثلًا لما يلزم ولا يبرح، ويقيم ولا يريم.

قال الجاحظ: قد أطبق العرب والأعراب والشعراء على أن الحمامة هي التي كانت دليل نوح ورائده، وهي التي استجعلت عليه الطوق الذي في عنقها، وعند ذلك أعطاها الله تلك الزينة، ومنحها تلك الحلية، بدعاء نوح عليه السلام، حين رجعت إليه ومعها من الكرم ما معها، وفي رجليها من الطين والحمأة ما فيهما، فعوضت من ذلك خضاب الرجلين، ومن حسن الدلالة والطاعة طوق العنق.

وفيها يقول أمية بن أبي الصلت (من الوافر):

وأرسلت الحمامة بعد سبع ... تدل على المهالك لا تهاب
فعادت بعدما ركضت بشيء ... من الأمواه والطين الكباب
فلما فتشوا الآيات صاغوا ... لها طوقًا كما عقد السخاب
إذا ماتت تورثه بنيها ... وإن تقتل فليس له استلاب

وهذا من أحسن ما وصف به الطوق.

وقال جهم بن خلف (من المتقارب):

وقد شاقني صوت قمرية ... طروب الغناء هتوف الضحى
مطوقة كسيت زينة ... بدعوة مرسلها إذا دعا

والعرب تسمي القماري واليمام والفواخت والدباسي والشفانين والوراشين وما جانسها كلها حمامًا، فجمعوها بالاسم العام، وفرقوها بالاسم الخاص؛ ورأينا صورها متشابهة وإن كان في الأجسام بعض الاختلاف، كذلك المناقير؛ ووجدناها تتشابه من طريق الزواج، ومن طريق الغناء والدعاء والنوح، وكذلك هي في القدود وصور الأعناق وقصب الريش وصبغة الرؤوس والأرجل والسوق والبراثن. إلى هنا كلام الجاحظ.

وقد أكثر الشعراء في ذكر طوق الحمام والتمثل به؛ قال الفرزدق (من الوافر):

ومن يك خائفًا لأذاة شعري ... فقد أمن الهجاء بنو حرام
هم منعوا سفيههم وخافوا ... قلائد مثل أطواق الحمام

وقال ابن هرمة (من البسيط):

إني امرؤ لا أصوغ الحلي تعمله ... كفَّاي لكن لساني صائغ الكلم
إني إذا ما امرؤ خفت نعامته ... في الجهل واستحصدت منه قوى الوذم

عقدت في ملتقى أوداج لبته طوق الحمامة لا يبلى على القدم

وقال الباهلي (من الوافر):

أبى لي أن أطيل الشعر قصدي إلى المعنى وعلمي بالصواب
فأبعثهن أربعة وخمسًا بألفاظ مثقفة عذاب
وهن إذا وسمت بهن قومًا كأطواق الحمائم في الرقاب

وقال أبو الطيب (من الوافر):

أقامت في الرقاب له أياد هي الأطواق والناس الحمام

ومن أمثال العرب: تقلدها طوق الحمامة، أي: تقلدها تقلدًا باقيًا بقاء طوق الحمامة، إلى يوم القيامة.

خُرْق الحمامة

يتمثل بذلك لأنها لا تحكم عشها، وربما جاءت إلى الغصن في الشجرة فتبني عليه عشها في الموضع الذي تذهب به الريح وتجيء، فبيضها أضيع شيء، وما ينكسر منه أكثر مما يسلم؛ قال عبيد بن الأبرص (من مجزوء الكامل):

عيوا بأمرهم كما عيت ببيضتها الحمامه
جعلت لها عودين من نشم وآخر من ثمامه

سجع الحمام

العرب تجعل صوت الحمام مرة سجعًا، ومرة غناءً، وأخرى نوحًا؛ وتضرب به المثل في الإطراب والشجى، وبكل ذلك جاء الشعر؛ قال البحتري (من الوافر):

إذا سجع الحمام هناك قالوا لفرط الشوق: أين ثوى الوليد!

وقال ابن الرومي (من الوافر):

رأيت الشعر حين يقال فيكم		يعود أرق من سجع الحمام

ومن ألفاظ الصاحب: كلام كصوب الغمام، وسجع كسجع الحمام.

وقال ابن القاشاني في غناء الحمامة (من البسيط):

يا ليلة جمعتني والمدام ومن		أهواه في روضة تحكي الجنان لنا
لأشكرنك ما غنت مطوقة		على الغصون كما طوقتني مننا

وقال أبو فراس في نوحها (من الطويل):

أقول وقد ناحت بقربي حمامة:		أيا جارتي هل تشعرين بحالي؟

هداية الحمام

يضرب بها المثل، والحمام الهدَّى معروف بأرض الشام والعراق، تشترى بالأثمان الغالية، وترسل من الغايات البعيدة، بكتب الأخبار فتؤديها وتعود بالأجوبة عنها.

قال الجاحظ: لولا الحمام الهدَّى التي تجعل بُرْدًا لما جاز أن يعلم أهل الرقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة، وحدث بالكوفة في بياض يوم واحد؛ حتى تكون الحادثة بالكوفة غدوة فيعلمها أهل البصرة عشية اليوم، وذلك مشهور متعارف.

الباب الأربعون

في سائر أصناف الطير

ديك العرش، ديك الجن، ديك مزبد، حسن الديك، سفاد الديك، سماحة الديك، بيضة الديك، عين الديك، دجاجة هلال، دجاجة أبي الهذيل، دراجة الحكم، نسر لقمان، مطمح النسر، حسن الطاووس، جناح الطاووس، رجل الطاووس، جيش الطواويس، حسن التدرج، سرق العقعق، صدق القطا، هداية القطا، إبهام القطا، وعيد الحُبارى، سلاح الحُبارى، كمد الحُبارى، طيران الحُبارى، جبن الصفرد، هدهد سليمان، سجود الهدهد، عذاب الهدهد، نتن الهدهد، كلام الببغاء، قهقهة القمري، غناء العندليب، بيضة الديك، مشية القبج، كذب الفاختة، حلم العصفور، سفاد العصفور، شؤم البوم، شؤم القز، حزم القرلى، اختطاف الخطاف.

الاستشهاد

ديك العرش

روى الجاحظ عن الحسن بن عمارة، عن عمرو بن مرة، عن سالم بن أبي الجعد، يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن مما خلق الله لديكًا عرفه تحت العرش، وبراثنه تحت الأرض السفلى، وجناحاه في الهواء، فإذا مضى ثلثا الليل وبقي ثلثه ضرب بجناحيه قائلًا: سبحان الملك القدوس، سبوح قدوس، رب الملائكة والروح؛ فعند ذلك تضرب الديكة بأجنحتها وتصيح».

وعن كعب: إن لله ديكًا عنقه تحت العرش، وبراثنه في أسفل الأرضين، فإذا صاح صاحت الديكة، يقول: سبحان الملك القدوس؛ لا إله غيره. قال: فالديكة أكيس منا.

وقد ضرب ابن طباطبا به المثل في قوله لأبي عمرو بن جعفر بن شريك يعاتبه على منعه إياه شعر ديك الجن، ويهزه لإنفاذه (من الخفيف):

يا جوادًا يمسي ويصبح فينا	واحدًا في الندى بغير شريك
أنت من أسمح الأنام بشعر النْـ	ـنَاس ماذا اللجاج في شعر ديك!
يا حليف السماح لو أن ديك الـ	ـجن من نسل ديك عرش المليك
لم يكن فيه طائل بعد أن يد	خله الذكر في عداد الديوك

ديك الجن

يضرب مثلًا للديك النجيب الحاذق الكثير السفاد، ومنه سمي ديك الجن الشاعر المشهور، وهو أحد شعراء سيف الدولة ابن حمدان؛ وقد تقدم بعض ذلك في الباب الثالث.

ديك مُزَبِّد

يضرب مثلًا للحقير يجلب النفع الكثير، والوضيع له شأن كبير.

وقصته أنه كان لمزبد ديك قديم الصحبة، نشأ في داره، وعرف بجواره، فأقبل عيد الأضحى؛ ووافق من مزبد رقة الحال، وخلو البيت من كل خير ومير، فلما أراد أن يغدو إلى المصلى، أوصى امرأته بذبح الديك، واتخاذ الطعام لإقامة رسم العيد، فعمدت المرأة لأخذه، فجعل يصيح ويثب من جدار إلى جدار ويسقط من دار إلى دار؛ حتى أسقط على هذا من الجيران لبنة، وكسر لذلك عضادة، وقلب للآخر قارورة، فسألوا المرأة عن القصة في تعرضها له، فأخبرتهم بها، فقالوا: والله ما نرضى أن يبلغ حال أبي إسحاق إلى ما نرى — وكانوا هاشميين مياسير أجوادًا — فبعث بعضهم إلى داره بشاة وبعضهم بشاتين، وأنفذ بعضهم بقرة، وتغالوا في الإهداء، حتى غصت الدار بالشياه والبقر، وذبحت المرأة ما شاءت، ونصبت القدور، وسجرت التنور؛ وكر مزبد راجعًا إلى منزله، فإذا هو مملوء ثغاء وخوارًا، وروائح الشواء والطبيخ قد امتزجت بالهواء، فقال للمرأة: أنى لك هذا الخير؟ فقصت عليه قصة الديك، وما ساق الله إليهم ببركته

من الخيرات، فامتلأ سرورًا، وقال لها: احتفظي بهذا العِلْق النفيس، وأكرمي مثواه؛ فإنه أكرم على الله تعالى من نبيه إسماعيل عليه السلام! قالت: وكيف؟ ولم؟ قال: لأن الله لم يفد إسماعيل إلَّا بذبح واحد، قال الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، وقد فدي هذا الديك بكل هذه الشياه والبقر!

حسن الديك

يضرب به المثل، كما يضرب بحسن الطاووس.

قال الجاحظ: كان جعفر بن سعيد يزعم أن الديك أحسن من الطاووس، وأنه مع حسنه وانتصابه واعتداله وتقلعه إذا مشى، سليم من مقابح الطاووس، ومن موقه وقبح صوته، ومن تشاؤم أهل الدار به، ومن قبح رجليه، ومن نذالة طروقته، وكان يزعم أنه لو ملك طاووسًا لألبسه خفًّا.

وكان يقول: وإنما يفخر له بالتلاوين وبتلك التعاريج والتهاويل التي لألوان ريشه، ولربما رأيت الديك النبطي وفيه شبه بذلك، إلَّا أن الديك أجمل من التدرج لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف، وأسلم من العيوب من الطاووس.

وكان يقول: ولو كان الطاووس أحسن من الديك النبطي في تلاوين ريشه فقط لكان فضل الديك عليه بفضل القد والخرط، وبفضل حسن الانتصاب، وجودة الإشراف أكثر من فضل حسن ألوانه على ألوان الديك، ولكان السليم من العيوب في العين أجمل، لاعتراض تلك الخصال القبيحة على حسن الطاووس في عين الناظر إليه؛ وأول منازل الحمد السلامة من الذم.

وكان يزعم أن قول الناس: فلانة أحسن من الطاووس، وما فلان إلَّا طاووس، وأن قول الشاعر (من الرجز):

خدودها مثل طواويس الذهب

وأنهم لما سموا جيش ابن الأشعث: الطواويس، لكثرة من كان يجتمع فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال، إنما قال ذلك لأن العامة لا تبصر الجمال؛ ولفرس رائع كريم أحسن من كل طاووس في الأرض، وكذلك الرجل والمرأة.

وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه، وتنصبه كحسن البازي وانتصابه، ولم يذهبوا إلى أعضائه وجوارحه وإلى الشيات والهيئة والرأس والوجه الذي فيه.

سفاد الديك

يضرب به المثل، كما قال الشاعر (من الرجز):

صيرني الدهر إلى تدليك بعد سفاد كسفاد الديك

وسئل بعضهم عن رجل، فقال: كالديك، يأكل ويشرب وينيك.

سماحة الديك

قولهم: أسمح من اللافظة، مختلف فيه؛ فبعضهم يقول: هي الحمامة، لأنها تخرج ما في حواصلها لفراخها.

وبعضهم يقول: هي الديك: لأنه يأخذ الحبة بمنقاره فلا يأكلها ولكن يلقيها إلى الدجاجة، والهاء فيها للمبالغة.

وبعضهم يقول: هي الرحا، لأنها تلفظ ما تطحنه، أي: تقذف به.

وبعضهم يقول: هي البحر، لأنه يلفظ الدرة التي لا قيمة لها؛ قال الشاعر (من المتقارب):

تجود فتجزل قبل السؤال وكفك أسمح من لافظة

عين الديك

يضرب بها المثل في الصفاء، ويشبه بها الشراب الصافي، فيقال: شراب أصفى من عين الديك، كما قال الأخطل (من الطويل):

عقَّار كعين الديك صرفًا كأنها   لعاب جراد في الفلاة يطير

وحكى الموصلي قال: سمعتني أعرابية وأنا أنشد (من الطويل):

وكأس مدام يحلف الديك أنها   لدى المزج من عينيه أصفى وأنور

فقالت: يا أبا محمد، بلغني أن الديك من صالح طيوركم، وما كان ليحلف بالله كاذبًا.

وقال بعض المحدثين (من المنسرح):

هات مدامًا كأن فيها   تصب أحداقها الديوك

دجاجة هلال

هي كديك مزبد في البركة وحسن الأثر على صاحبها.

ومن قصتها أن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، بينما هو يتعشى على مائدته، إذ قدمت له دجاجة فائقة مشوية، فاستطابها، وسأل عنها، فقالوا له: إن هلالًا أهداها للأمير، فقال: يا غلام، أخرج كتابًا من ثني فراشي؛ فأخرجه، فإذا هو كتاب الحجاج إليه يأمره بقتل هلال، والبعث إليه برأسه، فلما قرأه هلال تغير وارتعد، فقال له ابن الأشعث: لا عليك يا هلال! أقبل على طعامك، أترانا نأكل دجاجتك ونبعث إليه برأسك! والله لا يوصل إليك حتى يوصل إلي. فأنشأ هلال يقول (من الخفيف):

وا بنفسي دجاجة لم تخني   وضعت لي نفسي مكان الأنوق

فرجت كربة المنية عني   بعدما كدت أن أغص بريقي

يابن قيس ويابن خير بني كنـ   ـدة بين الأشج بل والصديق

إن شكري شكر الطليق من القتـ   ـل ووجدي عليك وجد الشفيق

دجاجة أبي الهذيل

تضرب مثلًا للشيء اليسير يستعظمه مهديه فيكثر ذكره.

قال الجاحظ: ومن البخلاء المذكورين أبو الهذيل، أهدى مرة إلى مويس بن عمران دجاجة، وكانت دون ما يتخذ لمويس، إلَّا أنه بكرمه وحسن خلقه أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها، فقال له: كيف رأيت يا أبا عمران تلك الدجاجة؟ قال: كانت عجبًا من العجب؛ قال: وتدري ما جنسها، وتدري ما سنها؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالجنس والسن، وتدري بأي شيء كنا نسمنها؟ وفي أي مكان كنا نعلفها؟ فلا يزال في هذا ومويس يضحك ضحكًا نعرفه نحن ولا يعرفه أبو الهذيل؛ وصار بعد ذلك إن ذكروا دجاجة قال: أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة! وإن ذكروا بطة أو عناقًا أو جزورًا أو بقرة قال: فأين كانت هذه الجزور في الجزر من تلك الدجاجة في الدجاج! وإن استسمنوا شيئًا من الطير والبهائم أو الدجاج قال: لا والله ولا تلك الدجاجة! وإن ذكروا عذوبة الشحم قال: عذوبة الشحم تصاب في البقر والبط وبطون السمك والدجاج، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج؛ وإن ذكروا ميلاد شيء أو قدوم إنسان قال: كان ذلك قبل أن أهدي إليك تلك الدجاجة بشهر، وكان بعد أن أهديتها لك بسنة، وما كان بين قدوم فلان وبين البعث بتلك الدجاجة إلَّا يوم. وكانت مثلًا في كل شيء، وتاريخًا لكل شيء.

دُرَّاجة الحكم

أمرها على الضد من دجاجة هلال، لأن تلك الدجاجة مثل في الشيء اليسير يجر النفع الكثير، وهذه الدراجة مثل في النفع القليل يجلب الضرر العظيم.

ومن قصتها أن بعض عمال الحكم بن أيوب الثقفي تغدى معه يومًا، فتناول من بين يديه دراجة مشوية، فاحتقدها عليه الحكم، فعزله عن عمله. فقال فيه الفرزدق (من البسيط):

قد كان بالعرض صيد لو قنعت به ... فيه غنى لك عن دراجة الحكم
وفي عوارض لا تنفك تأكلها ... لو كان يشفيك لحم الإبل من قرم

العوارض من الإبل: التي تعرض لها الآفات فتنحر من أجلها. والعُبُط: التي تعتبط اعتباطًا؛ وكان الشريف من العرب يأتي القوم وقد نحروا فيقول: أعبيط أم عارضة؟ فإن قالوا: عبيط، أصاب معهم من لحمه، وإن قالوا: عارضة، أنف من أكلها.

نسر لقمان

العرب تضرب المثل بطول عمر النسر، وتزعم أنه يعيش خمسمائة سنة.

وأن لقمان بن عاد خُيِّرَ فاختار عمرَ سبعة أنسر فأوتي سؤله، فكان يأخذ فرخ النسر فيجعله في خربة من الجبل الذي هو في أصله، فإذا استوفى عمره أخذ فرخًا فوضعه مكان الآخر، إلى آخر النسور.

وأطولها عمرًا لبد الذي يقال له: نسر لقمان، ويضرب مثلًا في طول العمر وفي البقاء، فيقال: أتى أبد على لبد؛ و(من البسيط):

أخنى عليه الذي أخنى على لبد

قال لبيد (من الكامل):

ولقد جرى لبد فأدرك جريه	ريب المنون وكان غير مثقل
لما رأى لبد النسور تطايرت	رفع القوادم كالكسير الأعزل
من تحته لقمان يرجو نهضةً	ولقد رأى لقمان ألا يأتلي

قال الجاحظ: إن أحسنت الأوائل في ذكر نسر لقمان فقد أحسن بعض المحدثين وهو الخزرجي، في ذكره وضرب المثل به وبصحة بدن الغراب حين ذكر طول عمر معاذ بن مسلم بن رجاء؛ مولى القعقاع بن شور، وكان من المعمرين، طعن في السن مائة وعشرين سنة، وهو قوله (من المنسرح):

إن معاذ بن مسلم رجل	ليس لميقات عمره أمد
قد شاب رأس الزمان واكتهل الدْ	دَهر وأثواب عمره جدد
قل لمعاذ إذا مررت به	قد ضج من طول عمرك الأبد
يا نسر لقمان كم تعيش وكم	تخلق ثوب الحياة يا لبد!
قد أصبحت دار آدم خربت	وأنت فيها كأنك الوتد
تسأل غربانها إذا نعقت	كيف يكون الصداع والرمد؟
مصححًا كالظليم ترفل في	برديك منك الجبين يتقد

صاحبت نوحًا ورضت بغلة ذي الـ ـقرنين شيخًا لولدك الولد
ما قصر الجد يا معاذ ولا زحزح عنك الثراء والعدد
فاشخص ودعنا فإن غايتك الـ ـموت وإن شد ركنك الجلد

وقد أحسن ابن طباطبا في قوله (من الكامل):

بأبي الذي أنا في لذاذة حبه مستقرض أعمار سبعة أنسر
مد الهوى بيني وبينك غاية أدنى مداها خلق يوم المحشر

مطمح النسر

ما أحسن ما جمع ابن الرومي بين بني مطمح النسر وبين مسبح النون في قوله (من البسيط):

انظر إلى الدهر هل فاتته بغيته في مطمح النسر أو في مسبح النون

وذلك أن سلطان النسر في الهواء، وسلطان الحوت في الماء، ولا يكادان ينجوان من غير الدهر.

حسن الطاووس

يضرب به المثل، فيقال: أحسن من الطاووس، وأزهى من الطاووس.

ويقال للإنسان الحسن: طاووس الحسن، كما يقال: يوسف الحسن.

ومن أحسن ما سمعت في ذلك قول البحتري في إسرائيل النخاس النصراني الأعور، وقد قوم غلامًا له فارسًا بثمن بخس، فقال فيه (من الوافر):

متى أرضى ودجال النصارى يقوم ما أبيع بفرد عين
وأعظم خطة طاووس حسن يحكم في شراه غراب بين!

فانظر إلى حسن ما جمع بين الطاووس والغراب في بيت واحد! ولما كان المهجو أعور شبهه بغراب البين، والغراب يقال له الأعور لتغميضه إحدى عينيه.

وما أحسن قول نصر الخبزأرزي (من الكامل):

طاووس حسن بل أتم محاسنًا   ضم الملاحة بل أعز وألطف
ما ضرَّه الأ يكون مقلَّدًا   سيفًا وفي عينيه سيف مرهف
سل ورد خدك أي جنس غرسه   إني أراه يعود ساعة يقطف

وقال غيره (من الهزج):

أيا طاووسة الحسن   ويا عصفورة الجنة
ويا من قبلة من فيـ   ـه لي أحلى من المنة

ومن بارع أوصاف الطاووس قول القائل (من الراجز):

سبحان من من خلقه الطاووس   طير على أشكاله رئيس
كأنه في نقشه عروس   كأنما يحلو به التعريس
ديباجة تنشر أو سدوس   في الريش منه ركبت فلوس
تشرق في داراتها شموس   في الرأس منه شجر مغروس
كأنه بنفسج يميس   أو زهر من حزم ينوس

ووصف علي بن عبيدة الريحاني الطاووس بكلام طويل، ثم قال في أواخره: وللعين من كثرة ما يروقها منه، أكثر مما يحكي اللسان عنه.

جناح الطاووس

بلغني عن الصاحب أنه كان إذا نظر في خط الأمير شمس المعالي، وهو نهاية في استيفاء أقسام الحسن، قال: هذا جناح طاووس أم خط قابوس!

وأنشدني أبو طالب المأموني لنفسه من قصيدة وصف فيها دار أبي نصر بن أبي زيد ببخارى (من الخفيف):

وكأن الأبواب صحب تلاقيـ ـن انغلاقًا ثم افترقن انفتاحا
وكأن الستور قد نشر الطا ووس منها في كل باب جناحا

وقد استعار للطاووس حلة من قال (من السريع):

طالع يومي غير منحوس فسقني يا طارد البوس
كأسًا كعين الديك في روضة قد ألبست حلة طاووس

رجلا الطاووس

يضرب مثلًا لما يستقبح من جملة حسنة، وللعوذة فيمن تكثر محاسنه، لأن رجلي الطاووس قبيحتان جدًّا، والطاووس هو ما هو في الحسن؛ قال الصاحب (من الوافر):

أبوك أبو علي ذو علاء إذا عد الكرام وأنت نجله
وإن أباك إذ تعزى إليه لكالطاووس تقبح منه رجله

كأنه قلب قول أبي الطيب في تفضيل بعض الشيء على كله (من الوافر):

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

ووصف علي بن عبيدة الطاووس ثم قال في آخر كلامه: وإنه ليفضي إلى رجل حمشة، وصيحة وحشة، وصوت هائل، وجسم غير طائل.

قال مؤلف الكتاب: قد يذكر في مقابح المحاسن وعوذ المناقب: رجل الطاووس، وكلف البدر، وأنف الظبي، وشوك الورد، ودخان النار، وخمار الخمر (من الطويل):

وأي نعيم لا يكدره الدهر

وللبديع الهمذاني من فصل إلى صديق له من طوس:

لك يا سيدي خلال خير وخصال فضل، لا يدفعك عنها أحد، ولك في أكثر المطارح، لسان صائح، ويد لائح، معها من تورية طوسية، ورجل طاووسية، لو عريت عنهما لكنت الإمام الذي تدعيه الشيعة، وتنكره الشريعة.

جيش الطواويس

كان يقال لجيش عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الخارج على الحجاج: جيش الطواويس؛ لكثرة من كان فيه من الحسان الوجوه الموصوفين.

حسن التُّدرُج

ذكر أبو الحسن بن الناصر العلوي أن حسن التدرج فوق حسن الطاووس في قوله، وهو يصفه (من الطويل):

صدور من الديباج نمق وشيها وصلت بأحناء اللجين السوارج
وأحداق تبر في خدود شقائق تلألأ حسنًا كاشتعال المسارج
وأذناب طلع في ظهور يلامق مجزعة الأعطاف صهب الدمالج
فإن فخر الطاووس يومًا بحسنه فلا حسن إلَّا دون حسن التدارج

ولم يقصر المأموني في وصفها حيث يقول (من الخفيف):

قد بعثنا بذات لون بديع كنبات الربيع أو هي أحسن
في قناع من جلنار وآس وقميص من ياسمين وسوسن
دبجت وهي بنت درة بحر كل عن وصف حسنها كل ملسن

سرق العقعق

يضرب به المثل؛ فيقال: أسرق من عقعق، لأن له حذقًا بالاستلاب وسرعة الخطف؛ ومن حذقه أنه لا يستعمل ذلك فيما ينتفع به، فكم من عقد ثمين خطير، وكم من قرط شريف نفيس، قد اختطفه من بين أيدي قوم، فإما رمى به بعد تحليقه في الهواء؛ وإما أحرزه ثم لم يلتفت إليه أبدًا.

وقد أحسن من قال يصف خَلقه وخُلقه (من المتقارب):

إذا بارك الله في طائر ... فلا بارك الله في العقعق
طويل الذنابى قصير الجناح ... متى ما يجد غفلة يسرق
يقلب عينين في رأسه ... كأنهما قطرتا زئبق

ومما يضرب به المثل من أخلاقه: حذره ولَفْته ومُوقه في تضييعه بيضه وفراخه.

قال الجاحظ: وأي شيء أعجب من العقعق وصدق حسه، وشدة حذره، وحسن معرفته، وليس في الأرض طائر أشد تضييعًا لبيضه وفراخه منه، وللحبارى — مع أنها أموق الطير — تحوط بيضها وفراخها أشد الحياطة.

قال: ومن الحيوان الذي يدرب فيستجيب ويكيس ويملح: العقعق، فإنه يستجيب من حيث يستجيب العصفور، ويدجن ويعرف ما يراد منه، ويَخْبأُ الحَلْي ويسأل عنه، ويصاح به، فيمضي حتى يقف بصاحبه على المكان الذي خبأه فيه، ولكنه لا يتولى البحث عنه، وهو مع هذا كله كثيرًا ما يضيع بيضه وفراخه.

صدق القطاة

يضرب بها المثل فيقال: أصدق من قطاة، لأن لها صوتًا واحدًا لا تغيره، وصوتها حكاية لاسمها، تقول: قَطَا قَطَا؛ قال الشاعر (من البسيط):

يا صدقها حين تدعوها فتنتسب

ويقال: أنسب من قطاة، لأنها تنتسب حين تصوت باسم نفسها.

هداية القطا

يضرب المثل بهداية القطا في المجاهل؛ قال الشاعر (من السريع):

وما القطا الكدري إلى الغدر ... أهدى من الفقر إلى الحر

وقال الطِّرِمّاح (من الطويل):

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت طرق المكارم ضلت

وقال ابن لَنْكك (من الطويل):

تعستم جميعًا من وجوه لبلدة ... تكنفهم جهل ولؤم فأفرطا
وإن زمانًا أنتم رؤساؤه ... لأهل بأن يخرى عليه ويضرطا
إلى كم تعيبون اللئام وإنني ... أراكم بطرق اللؤم أهدى من القطا!

إبهام القطا

من أمثالهم؛ أقصر من إبهام القطا، ومن إبهام الحُبارى؛ قال جرير (من الطويل):

ويوم كإبهام القطاة مزين ... إلي صباه غالب لي باطله

وفي رسالة للصاحب: أقصر من أباهيم القطا، وأنامل الحُبارى.

وفي رسائل الخوارزمي: أقصر من ليل السكارى، وإبهام الحُبارى.

وفي بعض شعر المولدين (من السريع):

أقصر من أظفور عصفور

وعيد الحُبَارى

يضرب مثلًا للضعيف يتوعد القوي.

ومن أمثال العرب؛ وعيد الحُبارى الصقر؛ وذلك أنها تثق وتحاربه؛ قال الشاعر (من الطويل):

أقل غناء عنك إيعاد بارق وعيد الحُبارى الصقر من شدة الرعب

سلاح الحُبارى

يضرب مثلًا للضعيف يستعين بالآلة اللئيمة على مقارعة من هو أقوى منه، فربما يغلبه بها، وذلك أن الحُبارى سلاحها سلاحها: إذا أراد الصقر أن يصيدها فهي ترميه بذرقها فيدبق جناحيه، ويعطل طيرانه، حتى تجتمع عليه الحباريات، فينتفن ريشه طاقة طاقة، فيموت الصقر؛ وإلى هذا المعنى أشار المتنبي بقوله (من البسيط):

فلا تنلك الليالي إن أيديها إذا ضربن كسرن النبع بالغرب
ولا تعن عدوًا أنت قاهره فإنهن يصدن الصقر بالخرب

وما أحسن ما قال أبو فراس في المعنى (من الطويل):

ولا خير في دفع الردى بمذلة كما ردها يومًا بسوءته عمرو

كمد الحُبارى

يضرب مثلًا لمن يموت كمدًا؛ فيقال: مات فلان كمد الحُبارى.

كما قال أبو الأسود (من الوافر):

وربة ميت كمد الحُبارى إذا ظعنت هنيدة أو تلم

وذلك أن الْحُبَارَى تلقي ريشها كلها مرة واحدة، وغيرها من الطير يلقي الواحد بعد الواحدة، فليست تلقي واحدة إلَّا بعد نبات الأخرى، والحُبارى إذا تحسرت فترت همتها، فإذا نظرت إلى صويحباتها يطرن ولا نهوض لها فربما ماتت كمدًا.

طيران الحُبارى

يضرب بها المثل، فيقال: أطير من حبارى، وليس في الطير أسرع طيرانًا منها، لأنها تصاد بظاهر البصرة فتوجد في حواصلها الحبة الخضراء غضة طرية، وبينها وبين بلادها بعد.

وقد يضرب أيضًا بطيران العقاب المثل لأنه يتغدى بالعراق، ويتعشى باليمن.

جبن الصفرد

يضرب مثلًا في جبن الضعيف.

وزعم أبو عبيدة أن هذا المثل مولد؛ والصفرد طائر من خشاش الطير، وقد تمثل به من قال (من السريع):

تراه كالليث لدى أمنه   وفي الوغى أجبن من صفرد

هدهد سليمان

يضرب مثلًا للإنسان الحقير يدل على الملك الخطير؛ قال بعض العلماء: للعلم دالة يعتز بها الصغير على الكبير، والمملوك على المالك، ألا ترى أن الهدهد — وهو من محقرات الطير — قال لسليمان عليه السلام — وهو الذي أوتي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

قال الجاحظ: هدهد سليمان هو الذي كان يدل سليمان على مواضع المياه في قعور الأرضين إذا أراد استنباط شيء منها.

ويروى أن نجدة الحروري قال لابن عباس: إنك تقول: إن هدهد سليمان كان إذا نقر الأرض عرف مسافة ما بينه وبين الماء، وهو لا يبصر الفخ دون التراب حتى إذا نقر الحبة انضم عليه الفخ! فقال ابن عباس:

أجل، إذا جاء القدر، عمي البصر.

وفي رواية أخرى: إذا جاء الحين، غطى العين. وقال: قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾؛ لما دخلت على الاسم الألف واللام جعلته معرفة، فدل بذلك على أنه لم يكن هدهدًا من عرض الهداهد، بل كان هدهدًا بعينه مخصوصًا بما لا يختص به غيره.

وقال: ولو أنكم حملتم جميع الهداهد على حكم هدهد سليمان، وجميع الغربان على حكم غراب نوح، وجميع الحمام على حكم حمامة السفينة، وجميع الذئاب على حكم ذئب أهبان بن أوس، وجميع الحمير على حكم حمار عزير، لكان ذلك حكمًا مردودًا.

وقد تعرض لخصائص الأمور أسباب في دهر الأنبياء ونزول الوحي، لا يعرض مثلها في غير زمانهم، عليهم الصلاة والسلام.

سجود الهدهد

يضرب مثلًا لمن يكثر السجود.

قال ابن المعتز في وصف سجود الهدهد (من المتقارب):

وصلت هداهدة كالمجوس ... متى تَرَ نيرانها تسجد

وقال ابن الرومي في ضرب المثل به وهو يهجو الأخفش (من المنسرح):

أسجد من هدهد إذا برزت ... فيشه فحل عظيمة العكدةْ

وسمعت البديع الهمذاني يقول: لما أدخلني أبي على الصاحب وأنا صبي أقمت رسم خدمته بتقبيل الأرض مرارًا؛ فقال لي: يا بني اقعد، كم تسجد، كأنك هدهد!

وقال بعض أهل العصر في وصف فتى حسن الصورة، مسترخي التكة (من السريع):

أرسلت في وصف صديق لنا ... ما حقه الكتبة بالعسجد
في الحسن طاووس ولكنه ... أسجد في الخلوة من هدهد

عذاب الهدهد

يضرب مثلًا لمن يسام سوء العذاب؛ لأن الله تعالى حكى عن سليمان قوله في الهدهد: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾.

وعن بعض المفسرين: أي: لأنتفن ريشه وألقينه في مدرجة النمل.

وعن بعضهم: لأفرقن بينه وبين إلفه.

وعن آخر: لأحشرنه مع غير أبناء جنسه.

نتن الهدهد

الهدهد طير منتن البدن من جوهره وذاته؛ ورب حيوان يكون منتنًا من نفسه من غير عرض كالتيوس والحيات والظربان.

وقد ضرب ابن المعتز به المثل في النتن، فقال (من المتقارب):

تشاغلت عنا أبا الطيب بغير شهي ولا طيب
بأنتن من هدهد ميت أصيب فكفن في جورب

فجعله نهاية في النتن، لأن الهدهد منتن في حال حياته، فإذا مات ازداد نتنًا بمماته؛ فإذا كفن في الجورب الذي سار المثل بنتن رائحته ازداد نتنًا على نتنه؛ كما قال الشاعر (من الكامل):

أثني علي بما علمت فإنني أثني عليك بمثل ريح الجورب

وما على ذلك مزيد في النتن، ولعمري إن هذا لهو الإبلاغ في الوصف والتشبيه.

كلام الببغاء

يضرب مثلًا لمن يقول ما يقوله عن غير علم ولا معرفة، وإنما يؤدي ما سمعه ويحكي ما يلقنه.

ولما غلب وصيف وبغا على أمر المستعين كله، حتى كان لا يصدر إلَّا عن رأيهما، قال في ذلك جنيد الكاتب الملقب بباذنجانة (من الرجز):

خلافة جائرة فاسدة ما تبتغى
صاحبها محتجب بفرق من خر الوغى
مقتسم معتبد بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

ومن ملح أوصاف الببغاء (من الرجز):

أنعتها صبيحة مليحة ناطقة باللغة الفصيحةْ
عدت من الأطيار، واللسان يوهمني بأنها إنسان
تنهي إلى صاحبها الأخبارا وتكشف الأستار والأسرارا
سكاء إلَّا أنها سميعة تعيد ما تسمعه مطيعةْ

قهقهة القُمْرِيِّ

لم أسمع أحدًا ضرب بها المثل إلَّا أبا عبد الله بن الحجاج، فإنه ظرف وملح حيث قال (من السريع):

وقينة تفخيمها في الغنا أملح من قهقهة القمري
غناؤها الممدود بي فاعل فعل الغنى المقصود بالعسر

غناء العندليب

يضرب به المثل في الملاحة والطيب؛ قال بعض أهل العصر (من الطويل):

سماء كصدر الباز والأرض تحتها كأجنحة الطاووس فاشرب أبا نصر

عقارًا كعين الديك يحلو بمسمع　　يؤدي غناء العندليب على قدر

وقال أيضًا في غلام مغن (من الوافر):

فديتك يا أتم الناس ظرفًا　　وأصلحهم لمتخذ حبيبا
فوجهك نزهة الألحاظ حسنًا　　وصوتك متعة الأسماع طيبا
وسائلة تسائل عنك قلنا　　لها في وصفك العجب العجيبا
رنا ظبيًا وغنى عندليبًا　　ولاح شقائقًا ومضى قضيبا

وفي الكتاب المبهج: ليس للبلابل، كخمر بابل، على غناء البلابل.

بيضة الديك

يضرب بها المثل للشيء يقع نادرًا ويحدث مرة، فيقال: هذا بيضة الديك، أي: لم يجر أكثر من مرة؛ قال الشاعر — وقد تلطف وبر بمحبوته (من البسيط):

يا أحسن الناس ريقًا غير مختبر　　إلا شهادة أطراف المساويك
قد زرتني مرة في العمر واحدة　　ثني ولا تجعليها بيضة الديك

وقد تقدم في غير هذا الباب ضمنًا، وإن كان أخص به الباب الآتي.

مشية القبج

يشبه بها العجم كل مشية ظريفة، قال شاعر أبيورد (من الطويل):

وكم عقعق قد رام مشية قبجة　　فأنسي ممشاه ولم يمش كالحجل

وقال بعض أهل العصر (من المتقارب):

لقاؤك يحكي قضاء الحوائج ووجهك للغم والهم فارج
وفيك لنا فتن أربع تسل علينا سيوف الخوارج
لحاظ الظباء ومشي القباج وطوق الحمام وزي التدارج

كذب الفاختة

يضرب بها المثل، كما قال الشاعر (من الرجز):

أكذب من فاختة تقول وسط الكرب
والطلع لم يبد لها: هذا أوان الرطب

وكما قال الآخر (من المتقارب):

وقول أبي جعفر كله كقول الفواخت: جاء الرطب
وهن وإن كن أشبهنه فلسن يدانينه في الكذب

وكما قال الآخر (من المتقارب):

وقد كنت تصدق صدق القطاة فأصبحت أكذب من فاختةْ

حلم العصفور

قال الجاحظ: العرب تضرب المثل بحلم العصفور لأحلام السخفاء؛ قال دريد بن الصمة (من البسيط):

يا آل شيبان ما بالي وبالكم أنتم كثير وفي أحلام عصفور

وقال حسان بن ثابت (من البسيط):

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافير

وقال ابن الرومي (من المنسرح):

أرى رجالًا قد خولوا نعمًا   في خفة الحلم كالعصافير
تبارك الله كيف يرزقهم!   لكنه رازق الخنازير

سفاد العصفور

قال الجاحظ: ليس في الطير أكثر عدد سفاد من العصافير، ولذلك قالوا: إنها الطير أعمارًا، ويقال: إنه ليس شيء مما يألف الناس ويعايشهم في دورهم أقصر عمرًا منها — يعنون من الخيل والبغال والحمير والإبل والبقر والغنم والكلاب والسنانير والخطاطيف والحمام والدجاج.

ويقال في المثل: أسفد من عصفور؛ قال بعض أهل العصر (من السريع):

سقيًا لأيام ذهبت إذ أنا   في طلب اللذة عفريت
أصيد كالبازي ولكنني   أسفد كالعصفور ما شيت

شؤم البوم

البوم يضرب به المثل في الشؤم والنكد واللؤم. لأنه يأوي الخراب ولا يأنس بأشكاله من ذوات الأجنحة؛ وإياه عنى أبو الطيب بقوله في المصراع الثاني من هذا البيت (من الكامل):

خير الطيور على القصور، وشرها   يأوي الخراب ويسكن الناووسا

وقال أبو عثمان الخالدي (من الطويل):

ولي صاحب نحس على كل صاحب   هو الداء أعيا أن يصيب دواء
أخف الورى عقلًا وأثقل طلعة   وأفحم إلَّا أن يقول خطاء
وأنكد من بوم يصرصر غدوة   وأشأم من ديك يصيح عشاء

شؤم القز

قال ابن الحجاج: القز طائر يتشاءم منه وإذا رآه أهل السفينة لم يشكوا في الغرق.

وكثيرًا ما يذكره ابن الحجاج متمثلًا به، كقوله (من السريع):

يا سيدي دعوة ذي حرقة أقدم في الشؤم من القز
عمامتي كانت أميرية مليحة الشربش والطرز
ولست بالباكي على فقدها فالخزي أولى بي من الخز

حزم القِرِلَّى وخطف القِرِلَّى

قال حمزة بن الحسن الأصفهاني: القِرِلَّى طير من بنات الماء، صغير الجرم، شديد الغوص، سريع الخطف، لا يرى إلَّا مرفرفًا على وجه الماء على جانب ما كطيران الحدأة يهوي بإحدى عينيه إلى قعر الماء طمعًا، ويرفع الأخرى إلى الهواء حذرًا؛ فإن أبصر في الماء ما يستقل بحمله من سمك أو غيره انقض عليه كالسهم المرسل، فأخرجه من قعر الماء؛ وإن أبصر في الهواء جارحًا مر في الأرض. فكما ضربوا به المثل في الخطف وكذلك ضربوا به المثل في الحزم والحذر.

وفي أسجاع ابنة الخس: كن حذرًا كالقرلى، إن رأى خيرًا تدلى، وإن رأى شرًا تولى.

وقد خالف رواة النسب هذا التفسير فقالوا: قرلى هو اسم رجل من العرب كان لا يتخلف عن طعام أحد، ولا يترك موضعًا إلَّا قصد إليه، فإن صادف في طريق يسلكه خصومة ترك ذلك الطريق ولم يمر فيه، فقالوا فيه: أطمع من قرلى.

وأقول أنا: خليق أن يكون هذا الرجل شبه بذلك الطير، وسمي باسمه؛ قال الشاعر (من المجتث):

يا من جفاني وملا نسيت أهلًا وسهلًا
ومات مرحب لما رأيت مالي قلا
إني أظنك تحكي بما فعلت قرلى

اختطاف الخطاف

يضرب المثل باختطاف الخطاف كما يضرب باستلاب الحدأة؛ وفيه يقول الصنوبري (من الخفيف):

ومواتي العناق غير مواتي ... مطمع اللفظ مؤيس اللحظات

لا ينيل التقبيل إلَّا اختطافًا ... كاختطاف الخطاف ماء الفرات

الباب الحادي والأربعون

في البيض

بيض الأنوق، بيض السماسم، بيض النعام، بيضة البلد، بيضة الديك، بيضة العقر، بيضة البقيلة، بيضة الإسلام، بيضة الذهب.

الاستشهاد

بيض الأَنُوق

العرب تضرب المثل ببيض الأنوق في الشيء الذي لا يوجد، فتقول: أعز من بيض الأنوق، وأبعد من بيض الأنوق. والأنوق: الرخم الذكر؛ وإنما البيضة للأنثى. هذا قول أبي عمرو.

وأما غيره من اللغويين والمعنويين فإنهم أجمعوا على أن الأنوق تلتمس لبيضها الأوكار البعيدة، والأماكن الوحشية، والجبال الشامخة، وصدوع الصخر الغامضة، فلا يصل إليها سبع ولا آدمي؛ كما قال الشاعر (من الطويل):

وكنت إذا استودعت سرًا كتمته ... كبيض الأنوق لا ينال له وكر

ويروى أن رجلًا من أهل الشام طلب إلى معاوية حاجة فأبى، وسأله أخرى، فتمثل معاوية بهذا البيت (من الخفيف):

طلب الأبلق العقوق فلما فاته ذاك رام بيض الأنوق

وقال بعض ولد عيينة بن حصن لعمر بن عبد العزيز (من الخفيف):

إن أولى بالحق في كل حق ثم أحرى بأن يكون حقيقا
من أبوه عبد العزيز بن مروا ن ومن كان جده الفاروقا
رد أموالنا علينا وكانت في ذرا شاهق يفوت الأنوقا

وأنشدني أبو بكر الخوارزمي لنفسه (من المتقارب):

تغربت أسأل من عن لي من الناس هل من صديق صدوق!
فقالوا: عزيزان لا يوجدان صديق صدوق وبيض الأنوق

وقرأت للصاحب من رسالة له إلى أبي سعد بن أبي بكر الإسماعيلي هذا الفصل:

> وهل غاية من أفنى الطوامير، واستقصى الأضابير، وكتب الكتب الطوال، وشحن الصحف العراض، يحاول أن يدل على حالك، حتى يخطر بباله أن يكشف عن بلبالك، إلَّا أن يقال له: أردت بيض الأنوق، كلا بل بيض النوق؛ وقد أبعد النجعة، ولم يطبق المفصل وأراد أن يجيء بفائدة، فجاء بآبدة، ولكل جواد كبوة، كما أن لكل صارم نبوة.

بيض السماسم

من أمثال العرب عن اللحياني: كلفتني بيض السمائم؛ وواحدة السمائم: سمامة؛ وكلفتني بيض السماسم، وهو أكثر والسمائم: طير مثل الخطاب لا يقدر على بيضه.

بيض النعام

قد تقدم القول في تشبيه العرب العذارى بها في الصحة والسلامة من الافتضاض؛ كما قال الفرزدق (من الوافر):

وهن أصح من بيض النعام

بيضة البلد

من أمثال العرب: فلان بيضة البلد، فيضعونها مرة في موضع المدح، وتارة في موضع الذم.

فأما التي يراد بها المدح فكما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا بيضة البلد.

وكما قالت عمرة ابنة عمرو بن عبد ود ترثي أباها وتذكر قتل علي إياه (من البسيط):

لو كان قاتل عمرو غير قاتله   بكيته ما أقام الروح في جسدي
لكن قاتله من لا يعاب به   وكان يدعى قديمًا بيضة البلد

وإنما يراد ببيضة البلد واحد البلد الذي تجتمع إليه وتقبل قوله.

وأما التي يراد بها الذم فهي كما قال الراعي (من البسيط):

تأبى قضاعة أن تعرف لكم نسبًا   وابنا نزار فأنتم بيضة البلد

وإنما نسبهم إلى سقم النسب، وشبههم ببيضة النعام التي تحضنها غير صاحبتها.

وقد يراد ببيضة البلد الانفراد والذل والضياع، لأن النعامة تقوم عنها وتتركها منفردة بدار مضيعة، كما تقدم ذكره؛ ولهذا المعنى أراد من قال (من البسيط):

لكنه حوض من أودى بإخوته   ريب المنون فأمسى بيضة البلد

بيضة الديك

يضرب المثل ببيضة الديك في الشيء يكون مرة واحدة لا ثانية لها، والذي يعطي عطية لا يعود لمثلها؛ وذلك أن الديك يبيض في عمره مرة واحدة لا يكون لها أخت؛ وقد تمثل بها بشار حيث قال:

قد زرتنا مرة في الدهر واحدة   ثني ولا تجعليها بيضة الديك

بيضة العقر

قد اختلفوا فيها؛ فمن قائل: إنها البيضة التي تستبرأ بها المرأة؛ أبكر هي أم ثيب.

ومن قائل: إنها بيضة الديك ولا ثانية لها قط.

ومن قائل: إنها آخر بيضة تكون للدجاجة، ولا بيضة لها بعدها.

فتضرب مثلًا للشيء لا يكون بعده شيء من جنسه؛ وهذا أسد الأقاويل وأقربها من الصواب.

ويحكى أن رجلًا أخذ من بين يدي بعض الملوك البخلاء بيضة، فقال: خذها فإنها بيضة العقر؛ ثم لم يدعه بعد ذلك إلى مائدته.

بيضة البُقَيلة

تذكر في عيون الأطعمة ولا يستحسن المبادرة إليها.

وهجا الحمدوني طفيليًا فقال (من الوافر):

ويبدرهم إلى بيض البقيلهْ

ويقال: ثلاثة ينتهي الحمق إليها، وهي أن يستظل الرجل بمظلة وهو في الظل، وأن يسابق إلى بيضة البقيلة، وأن يحتجم في غير داره.

وحكى الجاحظ عن الحارثي أنه قال: الوحدة خير من جليس السوء، وجليس السوء خير من أكيل السوء، وكل أكيل جليس، وليس كل جليس أكيلًا، فإن كان لا بد من المؤاكلة فمع من لا يستأثر بالمخ، ولا ينتهز بيضة البقيلة، ولا يلتهم كبد الدجاجة، ولا يبادر إلى دماغ السلافة، ولا يختطف كلية الجدي، ولا ينتزع

خاصرة الحمل، ولا يزدرد قانصة الكركي، ولا يعترض لعيون الرؤوس، ولا يستولي على صدور الدراج، ولا يسابق إلى أسقاط الفراخ.

وحُكِيَ عن محمد بن أبي المؤمل أنه قال في كلام: ولقد كانوا متحامين بيضة البقيلة، ويدعها كل امرئ لصاحبه، وأنت اليوم لو أردت أن تمتع عينيك بنظرة واحدة إليها لم تقدر عليها.

وسمعت السيد أبا جعفر الموسوي يقول: عاتب بعض الفتيان صديقًا له على إخلاله فإضافته بعد أن كان يدعوه كثيرًا، فقال: ما الذي أنكرت مني؟ هل ثنيت وسادتك؟ هل قلبت حملك؟ هل بعثرت أبزارك؟ هل أكلت بيضة بقيلتك؟ هل تفلت في طستك؟

بيضة الإسلام

هي مجتمعه وحوزته؛ ويقال للجند: حماة الحوزة ورعاة البيضة؛ قال الشاعر وهو يهجو بعض الحكام (من الكامل):

أبكي وأندب بيضة الإسلام إذ صرت تقعد مقعد الحكام
إن الحوادث ما علمت كثيرة وأراك بعض حوادث الأيام

ويقال أيضًا: بيضة العشيرة؛ ومنها قول أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: نحن عشيرة رسول الله وبيضتها التي منها تفقأت؛ وإنما دارت العرب عنا كما دارت الرحا عن قطبها.

ومن البيضة المستعارة: بيضة الحديد، وبيضة العنبر.

بيضة الذهب

تضرب مثلًا للشيء النفيس تنقطع مادته بعد أن تكون العادة جارية بها.

وأصلها أن الروم كانوا ينفذون إلى الأكاسرة في الإتاوة كل عام ألف بيضة ذهب، كل واحدة زنتها مائة مثقال، فلما ولي الإسكندر أتاه من قبل دارا بن دارا من يتقاضاه الإتاوة، فقال: قل له: إن الدجاجة التي

كانت تبيض بيضة الذهب قد ماتت؛ فسار قوله مثلًا، وكان ذلك سببًا لالتحام الشربين دارا والإسكندر حتى قتل فيه دارا.

وفي هذا المثل يقول بعض أهل العصر (من مجزوء الكامل):

من كان ينفعه الأدب ويحله أعلى الرتب
فلقد خسرت عليه ما ورثت من أم وأب
كم ضيعة كانت تصو ن الوجه عن ذل الطلب
أتلفتها لا في القيا ن ولا هوى بنت العنب
بل في الحوادث والجوا ئح والشوائب والنوب
كم قلت لما بعتها وحصلت في أسر الكرب:
ضاعت دجاجتنا التي كانت تبيض لنا الذهب

الباب الثاني والأربعون

في الذباب والبعوض وما يجانسهما

طيش الذباب، جرأة الذباب، زهو الذباب، لجاج الذباب، طنين الذباب، أير الذباب، منجى الذباب، بق البطائح، ضعف البقة، مخ البعوض، فراش النار، جهل الفراشة، خفة الفراشة، حلم الفراشة، لعاب النحل، كيس النحل، إبر النحل، آنية النحل، نحل الشكر، خصر زنبور.

الاستشهاد

طيش الذباب

يضرب به المثل فيقال: أطيش من ذباب؛ وأنشد الأصمعي (من الكامل):

ولأنت أطيش حين تغدو شاردًا ... رعش الجنان من القدوح الأقرح

قال: وكل ذباب أقرح يقدح بيديه؛ كما قال عنترة، ولم يسبق إليه، ولم يلحق فيه (من الكامل):

هزجًا يحك ذراعه بذراعه ... حك المكب على الزناد الأجذم

جرأة الذباب

يضرب بها المثل، لأن الذباب يقع على فم الأسد، وهو لا يبقي شيئًا، وهو مع ذلك يذاد ويذب ويعود.

زهو الذباب

قال الجاحظ: يقال: أزهى من ذباب، لأنه يسقط على أنف الملك الجبار وعلى موق عينيه ليأكله، ثم يطرد فلا ينطرد.

وحكي أن ذبابًا وقع على أنف المنصور وهو يخطب، فحرك رأسه ليطرده — وكان الخلفاء لا يحركون أيديهم على المنابر — فطار حتى سقط على رأسه، فحركها فطار حتى وقع على عينه، فحرك رأسه فطار حتى وقع على عينه الأخرى؛ حتى أضجره، فذبه بيده؛ فلما نزل سأل عمرو بن عبيد: لم خلق الله الذباب؟ فقال: ليذل به الجبابرة! ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

لجاج الذباب

حكى الجاحظ في لجاج الذباب ما هو نهاية الفصاحة والإمتاع قال: كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له: عبد الله بن سوار، لم ير الناس قط حاكمًا ولا زميتًا ذكيًا ولا وقورًا رزينًا ضبط من نفسه، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك. وكان يصلي الغداة في منزله، وهو قريب الدار من مسجده، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ، ويبقى منتصبًا لا يتحرك له عضو، ولا يلتفت، ولا يحل حبوته؛ ولا يحول رجلًا عن رجل، ولا يعتمد على أحد شقيه، حتى كأنه بناء مبني، أو صخرة منصوبة، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة الظهر، ثم يرجع إلى مجلسه؛ فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة العصر، ثم يرجع إلى مجلسه، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب، ثم ربما عاد إلى مجلسه؛ بل كثيرًا ما يكون ذلك إذا بقي عليه شيء من قراءة العهود والسجلات، ثم يصلي العشاء الأخيرة وينصرف. فالحق يقال لم يقم طول تلك المدة والولاية مرة واحدة من مجلسه إلى وضوء، ولا احتاج إليه، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وقصارها، وفي صيفها وشتائها، وكان مع ذلك لا يحرك يدًا ولا عضوًا، ولا يشير برأسه، وليس إلَّا أن يتكلم ثم يوجز، ويبلغ باليسير من الكلام المعاني الكثيرة.

فبينما هو ذات يوم في مجلسه، وأصحابه حواليه وفي السماطين بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب، فأطال المكث، ثم تحول إلى مُؤْق عينه، فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عضته ونفاذ خرطومه كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو بعض وجهه أو يذب بإصبعه؛ فلما طال ذلك عليه من الذباب، وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد مكانًا لا يحتمل التغافل، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل، فلم ينهض؛ فدعاه ذلك إلى أن والى بين الأطباق والفتح فتنحى، ريثما سكن جفنه ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه في مكان كان قد آذاه فيه قبل ذلك، وكان احتماله أقل، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى، فحرك أجفانه، وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين ومتابعة الفتح والإطباق؛ فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره، وبلغ مجهوده، فلم يجد بدًا من أن يذب عن عينه بيده، ففعل — وعيون القوم إليه ترمقه، وكأنهم لا يرونه — فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، فألجأه إلى أن ذب على وجهه بطرف كمه، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك، وعلم أنه كان بعين من حضر من أمنائه وجلسائه، فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألج من الخنفساء، وأزهى من الغراب، وأستغفر الله! فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله أن يعرفه من ضعفه ما كان مستورًا عنه؛ قد علمتم أني عند الناس من أزمت الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلق الله! ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

طنين الذباب

يضرب مثلًا للكلام يستهان ولا يبالى به؛ قال حضرمي بن عامر (من الطويل):

ما زال إهداء القصائد بيننا   شتم الصديق وكثرة الألقاب
حتى تركت كأن أمرك بينهم   في كل مجمعة طنين ذباب

وقال ابن عروس (من الكامل):

يا من يروعه طنين ذباب   ويفل عزمته صرير الباب

فجعله يرتاع مما لا يرتاع منه.

منجى الذباب

يضرب مثلًا للئيم الذليل يكون عليه واقية من لؤمه وذله، كما قال إبراهيم بن العباس الصولي (من المتقارب):

كن كيف شئت وقل ما تشا وأبرق يمينًا وأرعد شمالا
نجا بك لؤمك منجى الذباب حمته مقاذره أن ينالا

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول مسلم بن الوليد (من الكامل):

فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل

أير الذباب

يضرب مثلًا لما قل وذل؛ وأنشد الجاحظ:

لما رأيت القصر أغلق بابه وتعلقت همدان بالأسباب
أيقنت أن إمارة ابن مضرب لم يبق منها قيس أير ذباب

قال: ولم يرد مقدار أيره، إنما ذهب إلى مثل قول ابن أحمر في مخ البعوض، وقد تقدم ذكره، وسيأتي قريبًا.

بق البطائح

يضرب به المثل في الكثرة وسوء الأثر، ويذكر مع جرارات الأهواز، وعقارب شَهْرَزَوْر.

وبلغني أنها ربما ظفرت بالإنسان السكران النائم، فأكلت لحمه وشربت دمه ولم تبق منه إلَّا عظامًا عارية.

ضعف بقة

يضرب به المثل، كما قال الشاعر في رجل اسمه ليث (من الهزج):

أيا من اسمه ليث وهو أضعف من بقةْ
لقد باعد رب النا س بين الاسم والخلقةْ

ويضرب المثل بصغر البقة، كما قال الخوارزمي (من الطويل):

ضنيت فلو أدخلت في حلق بقة خريفية من دقتي لم تغص بي
وأصبح قلبي في يد الهم واغتدت أماني في أظفار عنقاء مغرب

جناح بعوضة

يضرب به المثل في القلة والصغر والخفة، كما يضرب بمثقال ذرة؛ وفي الحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء».

مخ البعوض

من أمثال العرب: كلفتني مخ البعوضة؛ أي: كلفتني ما لا أطيق ولا يوجد ولا يكون؛ ولم يذكر ذلك أحد من الشعراء إلَّا ابن أحمر، حيث قال (من السريع):

كلفتني مخ البعوض فقد أقصرت لا نجح ولا عذر

ثم تبعه ابن عروس فقال في ابن طفل له توفي (من الوافر):

ولو أيقنت أن ستموت قبلي صغير السن كالرشأ الغضيض
أبحتك كل ما تحويه كفي ولو كلفتني مخ البعوض

فراش النار

قال الجاحظ: يقال في موضع الذم والهجاء بالطيش والجهل والتهور: ما هم إلَّا فراش نار وذباب طمع؛ كما قال الشاعر (من الوافر):

كأن بني طهية رهط سلمى فراش حول نار مصطلينا
يطفن بحرها ويقعن فيها ولا يدرين ماذا يتقينا!

وقال: والفراش وأصناف الذباب أجهل خلق الله، لأنها تغشى النار من ذوات أنفسها حتى تحترق؛ قال الشاعر (من المتقارب):

ختمت الفؤاد على حبها كذاك الصحيفة بالخاتم
هوت بي إلى حبها نظرة هوي الفراشة في الجاحم

جهل الفراشة

يضرب به المثل، لأن الفراشة تطلب النار لتلقي نفسها فيها، كما قال الشاعر (من الطويل):

إذا ما دنا حتف الفراشة أقبلت إلى وهجان النار تطلب مخلصا

وهذا كما يقال: إذا جاء أجل البعير، حام حول البير.

وكتب أبو إسحاق الصابي: تهافت الفراش في الشهاب، وولوغ الذباب في الشراب.

وكتب مثله في مخالفة طرائق الحصفاء، وخلائق الحزماء: مثل الفراش المتهافت في الشهاب، والنقد المتهجم على ليوث الغاب.

خفة الفراشة

يضرب بها المثل، لأن الفراشة أكبر من الذباب الضخم، فإذا أخذتها بيدك صارت بين أصابعك كالدقيق.

وتقول العامة لمن تستخف روحه: ما أنت إلَّا من فراش الجنة.

حلم الفراشة

يقال ذلك كما يقال: حلم عصفور؛ قال الشاعر (من الطويل):

سفاهة سنور وحلم فراشة ... وإنك من كلب المهارش أجهل

لعاب النحل

هو العسل، يضرب المثل بحلاوته، ويقال أيضًا: ريق النحل.

وعاب بعض القراء الفالوذج عند الحسن، فقال الحسن: لعاب النحل، بلباب البر، بخالص السمن، ما عاب هذا مسلم؛ ثم قرأ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

ومن كلام الأمير السيد أدام الله تأييده في تشبيه الكلام بريق النحل: وصل كتابك فأذعنت القلوب لفضله بالاعتراف، واختلفت الألسن في تشبيهه ببدائع الأوصاف، فمن مُدَّعٍ أنه رقية الوصل وريقة النحل، ومنتحل أنه سلاف العنقود ونظم العقود؛ وقائل: هو نور خمائل وسحر بابل، فأما أنا فتركت التمثيل، وسلكت التحصيل، وقلت: هو سماء فضل جادت بصوب الحكم، ووشي طبع حاكته سن القلم، ونسيم خلق نفست عنه روضة الكرم.

كيس النحل

قال الجاحظ: من يقدر على نعت النحل وكيسها ووصف ما فيها من غريب الحكم وعجيب التدبير، ومن التقدم فيما يعيشها، والادخار ليوم العجز عن كيسها، وشمها ما لا يشم، ورؤيتها ما لا يرى، وحسن هدايتها والتدبير في التأمير عليها، وطاعة سادتها، وتقسيط أجناس الأعمال بينها على أقدار معارفها، وقوة أبدانها. ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾!

وكتب أبو الفرج يعقوب بن إبراهيم إلى ابنه أبي سعيد مع غلام تركي بعث به إليه من بخارى: قد أهديت إليك غلامًا يجمع اشتغال النار، وكيس النحل، ونمو الهلال؛ بورك لك فيه!

إبر النحل

تضرب مثلًا في الوصول إلى المحبوب بمقاساة المكروه، وهو يجري مجرى شوك التمر؛ قال أبو تمام (من الطويل):

ذريني أنل ما لا ينال من العلا
فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل
تريدين لقيان المعالي رخيصة		ولا بد دون الشهد من إبر النحل!

آنية النحل

ذكر الزبير بن بكار بإسناد له: أن مصعب بن الزبير كان يقال له: آنية النحل، من كرمه وجوده، وكان من أجمل الناس وأشجعهم وأجودهم؛ وذكره عبد الملك بن مروان فقال: كان رئيسًا نفيسًا بئيسًا.

وقال بعض الأشراف في قتل عبد الملك عمرو بن سعيد ومصعب بن الزبير (من الطويل):

فلا تحسب السلطان عارًا عقابه		ولا ذلة عند الحفائظ والأصل
فقد قتل السلطان عمرًا ومصعبًا		قريعي قريش واللذين هما مثلي
عماد بني العاص الرفيع عماده		وقرم بني العوام آنية النحل

نحل الشكر

سمعت أبا الفتح البستي يقول: الحر نحل الشكر، إن أجناه المرء من بره شكرًا، أجناه من شكره شهدًا؛ ثم أنشدني لنفسه (من البسيط):

لا تحقر المرء إن رأيت به دمامة أو رثاثة الحلل
فالنحل لا شيء في ضؤولته يشتار منه الفتى جنى العسل

خصر زنبور

يشبه به خصر الممشوق من الجواري والغلمان، كما قال عمر بن أبي ربيعة (من الخفيف):

وثلاث لقيت في الحج يومًا كظباء المها ملاح ظراف
يتقابلن كالبدور على الأغـ ـصان في مثقل من الأرداف
بخصور تحكي خصور الزنابيـ ـر دقاق هممن للانتصاف

الباب الثالث والأربعون

في الأرض وما يضاف وينسب إليها

خبايا الأرض، شحمة الأرض، سمع الأرض وبصرها، دابة الأرض، جنة الأرض، عرض الأرض، أمانة الأرض، كتمان الأرض، أوتاد الأرض، حلية الأرض، نبات الأرض، أديم الأرض، خد الأرض، سرة الأرض، ظهر الأرض وبطنها، ابن الأرض، جدري الأرض، بعل الأرض، سنام الأرض، حية الأرض.

الاستشهاد

خبايا الأرض

هي الزروع، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «التسموا الرزق في خبايا الأرض».

وعن مصعب بن الزبير، عن عبيد بن شهاب قال: كان عروة بن الزبير يقول لي: ازرع، أما لك أرض! أما سمعت قول الشاعر (من الطويل):

أقول لعبد الله لما لقيته ... يسير بأعلى الرَّقْمتين مشرِّقا:
تتبع خبايا الأرض وادْعُ مليكها ... لعلك يومًا أن تجاب فترزقا

شحمة الأرض

هي الموضع المريع منها.

ولما بلغ عمر رضي الله عنه أن نازلة البصرة اتخذوا الضياع وعمروا الأرضين، كتب إليهم: لا تنهكوا وجه الأرض، فإن شحمتها في وجهها.

قال الجاحظ: شحمة الأرض هي ما يغوص في الرمل ويسبح فيه سباحة السمك في الماء، وهي دود صغار، يشبه بها كف المرأة؛ قال ذو الرمة في تشبيه بنان النساء بها (من الطويل):

خراعيب أملود كأن بنانها بنات النقا تخفى مرارًا وتظهر

قال أبو سليمان الغنوي: هي أعرض من العظاية، بيضاء حسنة منقطة بحمرة وصفرة، وهي أحسن دواب الأرض.

سمع الأرض وبصرها

من أمثال العرب: لقيته بين سمع الأرض وبصرها.

قال الأصمعي: كأن ذلك بالفلاة بموضع خال لا أحد فيه.

وقال غيره: أي: بين طول الأرض وعرضها، وقال: ووجه ذلك أنه في موضع لا يراه أحد ولا يسمع كلامه إلَّا الأرض.

وكتب الصاحب في وصف منهزم: طار بين سمع الأرض وبصرها، لا يدري ما يطأ من حجرها ومدرها.

دابة الأرض

هي الأرَضة التي ذكرها الله تعالى في قصة سليمان عليه السلام في قوله: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾.

وإياها عنى ابن المعتز بقوله وهو يشكوها ويذمها ويصف إفسادها دفاتره (من الرجز):

كنت امرأً دون الأنام معتزل | عليَّ سترٌ دون ديني منسدل
على الذي يملك رزقي متكل | لا راجيًا لدولة من الدول
ولا أخاف آجلًا على أمل | شغلي إذا ما كان للناس شغل
دفتر فقه أو حديث أو غزل | لا عائبي ولا يرى مني زلل
وإن مللت قربه مني اعتزل | أرقط ذو لون كشيب المكتهل
راكب كف أينما شئت رحل | ولا يحل موضعًا حتى يحل
ولا يمل صاحبًا حتى يمل | فدب فيهن دبيب قد أكل
عصا سليمان فظل منجدل | يبني أنابيب له فيها سبل
بالماء والطين وما فيها بلل | مثل العروق لا يرى فيها خلل
يأكل أثمار القلوب لا أكل | حتى يرى العالم مجهول المحل

يعود وقافًا وقد كان بطل

وشتم رجل الأرضة في مجلس بكر بن عبد الله المزني، فقال بكر: مَه! فهي التي أكلت الصحيفة التي تعاقد المشركون فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أكلتها إلَّا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وبها: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾، فبها تكشف أمرهم عند العوام بعد الفتنة العظيمة عليهم، وكان على الخاصة منهم أعظم المحن.

فهذه دابة الأرض التي هي الأرضة.

وأما دابة الأرض التي ذكرها الله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾؛ فهي تضرب مثلًا للمنتظر البطيء الحضور، وتذكر مع ظهور مهدي الشيعة، ونزول المسيح، وطلوع الشمس من مغربها.

وقد ذكرها أبو الفتح البستي في معنى آخر، فقال وهو يذم بعض الحكام (من مجزوء الرمل):

صح بالحاكم ما أو عده الله يقينا
وقع القول علينا إذ تولى الحكم فينا

جنة الأرض

يقال لبغداد: جنة الأرض، ومجتمع الرافدين: دجلة والفرات، وواسطة الدنيا، وقبة الإسلام؛ لأنها غرة البلاد ودار الخلافة، ومجمع المحاسن والطيبات، ومعدن الظرائف واللطائف؛ وبها أرباب النهايات في كل فن، وآحاد الدهر في كل نوع.

وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا، وما عداها بادية.

وكان أبو الفرج الببغاء يقول: هي مدينة السلام، بل مدينة الإسلام، فإن الدولة النبوية، والخلافة الإسلامية، بها عششتا وفرختا، وضربتا بعروقهما وسَمَتا بفروعهما، وإن هواءها أعدل من كل هواء، وماءها أعذب من كل ماء، ونسيمها أرق من كل نسيم، وهي من الأقاليم الاعتدالي بمنزلة المركز من الدائرة، ولم تزل موطن الأكاسرة في سالف الأزمان، ومنزل الخلفاء في دولة الإسلام.

وكان أبو الفضل بن العميد إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلم وأراد امتحان عقله، سأله عن بغداد، فإن فطن عن خواصها، وتنبه على محاسنها، وأثنى عليها خيرًا، جعل ذلك مقدمة فضله، وعنوان عقله؛ ثم سأله عن الجاحظ، فإن وجد عنده أثرًا بمطالعة كتبه، والاقتباس من ألفاظه، وبعض القياس بمسائله، قضى له بأنه غرة شادخة في أهل العلم، وإن وجده ذامًا لبغداد، غافلًا عما يجب أن يكون موسومًا به من الانتساب إلى المعارف التي يختص بها الجاحظ، لم ينفعه بعد ذلك عنده شيء من المحاسن.

ولما رجع الصاحب من بغداد وسأله ابن العميد عنها قال: بغداد في البلاد، كالأستاذ في العباد؛ فجعلها مثلًا في الغاية من الفضل والكمال.

وأنشدني أبو نصر سهل بن المَرْزُبان، قال: أنشدني أبو سليمان المنطقي، قال: أنشدني ابن زريق الكوفي الكاتب لنفسه (من البسيط):

سافرت أبغي لبغداد وساكنها مثلًا، قد اخترت شيئًا دونه الياس
هيهات بغداد الدنيا بأجمعها عندي وسكان بغداد هم الناس

قال: وأنشدني لغيره (من المتقارب):

سقى الله بغداد من جنة حوت كل ما تشتهي الأنفس
على أنها جنة الموسرين ولكنها حسرة المفلس

ومن عجيب شأنها — على أنها كونها الحضرة الكبرى لاستيطان الخلفاء إياها — لا يموت بها خليفة؛ كما قال عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير (من الطويل):

أعاينت في طول من الأرض والعرض كبغداد دارًا؟ إنها جنة الأرض
قضى ربها ألا يموت خليفة بها إنه ما شاء في خلقه يقضي

ولما فرغ المنصور من بنائها سنة ست وأربعين ومائة أمر نوبخت المنجم — وكان متقدمًا في علم النجوم — بأن يأخذ الطالع ويتعرف أحوالها، ففعل، ووجد المشتري في القوس — والقوس طالعها — فأخبره بما تدل عليه النجوم من طول ثباتها، وكثرة عمارتها، وانصباب الدنيا عليها، وفقر الملوك والسوقة إليها، فسر المنصور، وقرأ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، ثم قال له نوبخت: وخصلة أخرى يا أمير المؤمنين هي من أعجب خصائصها، قال: وما هي؟ قال: لا يموت بها خليفة أبدًا؛ فجرى الأمر فيه على حكمه إلى زماننا هذا بإذن الله تعالى.

وذلك أن المنصور مات بمكة، والمعدي بما سبذان، والهادي بعيسا آباد، والرشيد بطوس، وقتل الأمين، ومات المأمون بطرسوس والمعتصم بسُرَّ مَن رأى والواثق بها، وقتل المتوكل، ومات المنتصر بسُرَّ مَن رأى، وخلع المستعين وكذلك المعتز، وقتل المهتدي، ومات المعتمد بالحسنية، وكذلك المعتضد والمكتفي، وقتل المقتدر، وكحل القاهر، ومات الراضي بالحسنية، وكحل المتقي والمستكفي، ومات المطيع بدير العاقول، وخلع الطائع.

عرض الأرض: من أمثالهم: أوسع من عرض الأرض؛ والعرب إذا ذكرت عرض الشيء أرادت به الطول والعرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، فأراد الطول والعرض.

وقال الشاعر (من الطويل):

كأن بلاد الله وهي عريضة على الخائف المذعور كفة حابل

أي: طويلة عريضة.

أمانة الأرض

يتمثل بها فيقال: آمن من الأرض، لأنها تؤدي ما تستودع.

كتمان الأرض

يضرب به المثل؛ كما قال ابن المعتز في الفصول القصار: لا تذكر الميت بسوء فتكون الأرض أكتم عليه منك.

أوتاد الأرض

هي الجبال، من قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾.

وفي الخبر: إن الله عز وجل لما خلق الأرض مادت فأوتدها بالجبال فسكنت.

قال الفرزدق وهو يمدح سليمان بن عبد الملك (من الطويل):

وما أصبحت في الأرض نفس فقيرة ... ولا غيرها إلَّا سليمان مالها
وجدنا بني مروان أوتاد ديننا ... كما الأرض أوتادًا عليها جبالها

حلية الأرض

ذكر أبو عبيد الله المَرْزُباني بإسناد له عن بعض الرواة أنه قال: أدركت طبقة بالكوفة يقال لهم: حلية الأرض، ونقش الزمان، وهم حماد عجرد، ووالبة بن الحباب، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد، وشراعة بن الزندبوذ.

نبات الأرض

يضرب به المثل في الكثرة، كما قال ابن المعتز في الفصول القصار: مصائب الدنيا أكثر من نبات الأرض.

آديم الأرض

يدخل في باب الاستعارة، كما يقال: أديم السماء، وأديم الأرض؛ وما أحسن ما ذكر الأعشى أديم الأرض في قوله (من المنسرح):

والأرض حمالة لما حمل الـ ـله وما إن ترد ما فعلا
يومًا تراها كشبه أردية الـ ـعصب ويومًا أديمها نغلا

وفي استعارة الأديم لغير الأرض يقول بعض الكتاب: كثرة العتاب تنغل أديم المودة.

خد الأرض

لما استعير لها الوجه، استعار لها الخد ابن المعتز حيث قال (من البسيط):

ومزنة جار من أجفانها المطر فالروض منتظم والقطر منتشر
ما زال يلطم وجه الأرض وابلها حتى وقت خدها الغدران والخضر

سرة الأرض

يقال للإقليم الرابع وفارسية إيران شهر — وهو ما بين نهر بلخ إلى منتهى أذربيجان وأرمينية إلى القادسية إلى الفرات إلى بحر اليمن وبحر فارس إلى مكران إلى كابل وطبرستان: سرة الأرض، إذ هي واسطة الأرض، وفي خط الاعتدال منها لاعتدال أهلها، واستواء أجسامهم، أما تراهم قد سلموا من شقرة الروم والصقالبة وسواد الحبشة، واحتراق الزنج وثطاطة الترك وقصر الصين؟

قال الجاحظ: إقليم بابل موضع التميمة، وواسطة القلادة، ومكان السرة من الجسد، واللبة من المرأة، ومكان العذار من خد الفرس، والمحة من البيضة، والغرة من القرطاس.

ظهر الأرض وبطنها

هما من الاستعارات المشهورة المتداولة، قال ابن الرومي لأبي الصقر (من البسيط):

لاقيت أكرم من خب المطي به ومن مشى فوق ظهر الأرض مذ سطحا

وكتب الصاحب في وصف قتلى معركة: بطون الأرض أعمر بهم من ظهورها، وبطون السباع والطير أحصر من قبورها.

جدري الأرض

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على الصحابة رضوان الله عليهم وهم يذكرون الكمأة، وبعضهم يقول: هي جدري الأرض، فقال: «الكمأة من المن، وماؤها شفاء العين؛ والعجوة من الجنة، وهي شفاء من السم».

بعل الأرض

هو المطر؛ قال ابن عباس رضي الله عنهما: المطر بعل الأرض، أي: يلقحها؛ قال ابن المعتز (من السريع):

ومزنة مشعلة البارق تبكي على الأرض بكاء العاشق
تلقح بالقطر بطون الثرى والقطر بعل التربة العاتق

سنام الأرض

يستعار لما ارتفع منها؛ أنشدني أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني لأبي القاسم عبد الصمد بن بابك (من الوافر):

ألام وأتقي ولع الملام بحلم شاب في بردي غلام
أجر على سنام الأرض ذيلي وأعقد بردتي على شمام

حية الأرض

العرب تقول للرجل المنيع الجانب: حية الأرض، كما تقول: حية الوادي؛ وقد تقدم ذكرها؛ قال ذو الإصبع العدواني (من الهزج):

عذير الحي من عدوا ن كانوا حية الأرض

الباب الرابع والأربعون

في الدور والأبنية والأمكنة

دار الندوة، دار أبي سفيان، دار البطيخ، حصن تيماء، كعبة نجران، قصر غمدان، قبة أردشير، إيوان كسرى، أهرام مصر، منارة الإسكندرية، كنيسة الرها، مسجد دمشق، قنطرة سنجة، غوطة دمشق، وادي القصر، دير هِزْقل، جانبا هرشى.

الاستشهاد

دار الندوة

مشتقة من الندي والنادي وهو المجلس، يضرب بها المثل في انتياب الناس إياها واجتماعهم فيها.

وهي دار قصي بن كلاب بمكة، كانت توضع فيها الرفادة، ولا يزوج قرشي ولا قرشية، ولا يتشاورون في أمر، ولا يعقد لواء الحرب إلَّا فيها. ثم تنقلت بها الأملاك بعده حتى صارت في يد أسد بن عبد العزى بن قصي وولده.

وآخر من وليها منهم حكيم بن حزام، وكان ولد في الكعبة؛ وذلك أن أمه دخلت الكعبة مع نسوة من قريش وهي حامل بحكيم، فضربها المخاض في الكعبة وأعجلها عن الخروج، فأتيت بنطع فوضع تحتها،

فوضعت حكيمًا على النطع؛ ولم يكن يدخل دار الندوة أحد من قريش لمشورة حتى يبلغ أربعين سنة، إلَّا حكيم بن حزام فإنه دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة.

وجاء الإسلام ودار الندوة بيد حكيم، فباعها بعدُ من معاوية بمائة ألف درهم، فقال له عبد الله بن الزبير: بعت مكرمة قريش! فقال حكيم: ذهبت المكارم إلَّا من التقوى يا ابن أخي، إني اشتريت بها بيتًا في الجنة، أشهدك أني جعلت ثمنها في سبيل الله.

وكان حكيم أحد الأربعة الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بمكة أربعة من قريش أرغب بهم عن الشرك، وأرغب لهم في الإسلام» قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «عتاب بن أسيد، وجبير بن مطعم، وحكيم بن حزام، وسهيل بن عمرو»، فرزقوا كلهم الإسلام.

وكان حكيم يفعل المعروف، ويصل الرحم، ويحض على البر؛ عاش في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة.

دار أبي سفيان

يضرب بها المثل في الأمن والأمان.

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة ودخلها، أراد أن يتألف أبا سفيان ويريه كرم القدرة فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، فقال أبو سفيان: أداري يا رسول الله! قال: «نعم، دارك يا أبا سفيان»، فاستمر الأمر على ذلك.

ولما فتح الأمير الجليل صاحب الجيش أبو المظفر ناصر الدين — أدام الله تأييده — سرخس ودخلها قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن — يعني دار أبي سفيان السرخسي القاضي — فاستحسن الناس منه هذه المقالة.

دار البطيخ

يباع فيها جميع الفواكه والرياحين، وتنسب إلى البطيخ وحده، وقد ضربه ابن لَنْكك مثلًا فأبدع حيث قال وهو يهجو أبا الهيذام كلاب بن حمزة، الشاعر المقيم بديار ربيعة (من البسيط):

أنت ابن كل البرايا لكن اقتصروا ... على ابن حمزة وصفًا غير تشميخ
كدار بطيخ تحوي كل فاكهة ... وما اسمها الدهر إلَّا دار بطيخ

قال الجاحظ في كتاب الأمصار: أكثر الدور غلة ثلاث: دار البطيخ بسُرَّ مَن رأى، ودار الزبير بالبصرة، ودار القطن ببغداد.

وقال الصولي: كنت يومًا عند عبيد الله بن عبد الله بن طاهر، فجرى بين يديه ذكر قصيدة ابن الرومي النونية التي في أبي الصقر، فقال عبيد الله: هي دار البطيخ؛ فضحك الجماعة، فقال: اقرؤوا نسيبها فانظروا أهي كما قلت أم لا! وقد ملح عبيد الله وظرف لأن نسيبها قوله (من البسيط):

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فهن نوعان: تفاح ورمان
وفوق ذينك أعناب مهدلة ... سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به ... أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات كسر الطل يضربه ... وأقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شيء طيب حسن ... فهن فاكهة شتى وريحان
ثمار صدق إذا عاينت ظاهرها ... لكنها حين تبلو الطعم خطبان
بل حلوة مرة طورًا يقال لها: ... أري، وطورًا يقول الناس: ذيفان

وذكر أبو نصر سهل بن المَرْزُبان في كتابه كتاب أخبار ابن الرومي، الذي عمله لمؤلف هذا الكتاب، وكتب به إليه: أن ابن الرومي عمل قصيدته في أبي الصقر التي أولها:

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان

فبلغت الأخفس، فقال: إذًا يكون الوزير ملازمًا لدار البطيخ؛ فحكيت كلمته لابن الرومي، فهجاه بقصيدة أولها (من المنسرح):

رقاب أهل الحلوم معتبدة ... مقصودة بالهوان معتمدةْ

فانزجر زُمَينًا ثم عاود رُعونته، فمزق ابن الرومي عرضه بالهجاء في عدة قصائد.

حصن تيماء

بلدة بين الشام والحجاز، ولها حصن يتمثل به في الحصانة.

يقال: إن سليمان عليه السلام بناه بالحجارة والكلس؛ فسمته العرب الأبلق لما يشوبه من البياض والسواد؛ وكان ملكه عاديا اليهودي ثم ابنه السموأل، وفيه يقول الأعشى (من الطويل):

أرى عاديا لم يمنع الموت ماله … وفرد بتيماء اليهودي أبلق
بناه سليمانُ بنُ داودَ حِقْبَةً … له أَزَجٌ صَمٌّ وطِيءٌ مُوَثَّقُ
يوازي كبيداء السماء ودونه … ملاط ودارات وكلس وخندق

قوله: أزج صم، كما يقال: دار بلاقع؛ أي: مكبوسة الجوانب بالحجارة وغيرها، حتى استوت بالسطوح، وإنما قال: أزج صم، كما يقال: دار بلاقع، وبرمة أعشار، وثوب أسمال.

ومن أمثال العرب في العز والمنعة: تمرد مارد وعز الأبلق — يعني بالأبلق حصن تيماء؛ ويقال له: الأبلق الفرد؛ كما مر ذكره في شعر الأعشى.

كعبة نجران

نجران أقدم بلاد اليمن، وكانت لها كعبة تحج فخربت وبطلت وضرب بها المثل في الخراب وزوال الدولة.

قال الجاحظ: قال أبو عبيدة: أحبت العرب أن تشارك العجم بالبنيان، وتنفرد بالشعر، فبنوا غمدان، وكعبة نجران، وحصن مارد، والأبلق الفرد؛ وغير ذلك من البنيان.

قصر غُمْدان

أحد الأبنية الوثيقة للعرب؛ يتمثل به في الحصانة والوثاقة، وكان بصنعاء اليمن تسكنه ملوك حمير، ثم تنقلت به أحوال أدت إلى خرابه، وتحول الملك عنه إلى قلعة كحلان.

ويقال: إن غمدان أول بناء بني بعد الطوفان؛ قال الشاعر لعبد الله بن طاهر (من البسيط):

اشرب هنيئًا عليك التاج مرتفقًا بشاذ مهر ودع غمدان لليمن
فأنت أولى بتاج الملك تلبسه من هوذة بن علي وابن ذي يزن

قبة أردشير

بجوار فارس قبة عظيمة مشرفة على سائر البلاد يتمثل بها في العلو والإشراف والوثاقة؛ بناها أردشير من الحجارة، وقد فيها من الصخر ما تجاوز الحد في العد، وفي الصخرة منها نحو ألفَي مَنٍّ وأرجح.

ويحكى أن أردشير بعث بعد الفراغ من بنائها من يأتيه بخبرها، فأخبره أن فيها صبيانًا يتلاعبون ويتحاربون ويتضاربون. فتطير من ذلك، وقال: اجعلوها دار الاستخراج، فبقيت على ذلك إلى اليوم.

أهرام مصر

زعم أبو مَعْشَر المنجم البلخي أن الأوائل من الأمم السالفة قبل الطوفان لما علموا أن آفةً سماوية تصيب الناس من الغرق أو النيران فتأتي على كل شيء من الحيوان والنبات، بنوا في ناحية صعيد مصر أهرامًا كثيرة بالحجارة على رؤوس الجبال والمواضع المرتفعة، ليتحرزوا بها من الماء والنار، وجعلوا هرمين منها أرفعها كلها؛ كل هرم منهما أربعمائة ذراع طولًا، في أربعمائة ذراع عرضًا في سمك أربعمائة ذراع في الهواء، مبني بحجارة المرمر والرخام، غلظ كل حجر وطوله وعرضه ما بين عشرة أذرع إلى ثمان، مهندم لا يتبين هندامه إلَّا الحاد البصر، عليه منقور في الحجر بالكتاب المسند، يقرؤه كل من يقرأ القلم المسند، فيقرأ كل سحر وكل عجب من الطب والطِلَّسْم.

وقرئ على بعض الهرمين:

إني بنيتهما، فمن كان يدعي قوة في ملكه فليهدمهما، فإن الهدم أيسر من البناء.

فأراد المأمون هدمهما؛ فإذا خراج الدنيا لا يقوم له، فتركهما.

ويروى أن الطعام كان يجمع فيهما أيام يوسف عليه السلام.

وقد جرى المثل بهرمي مصر في الثبات والقدم والحصانة، وذكرهما أعرابي مع جبلي طيِّئ، فقال وهو يهجو امرأته بالقبح والبرودة والثقل (من الطويل):

ألام على بغضي لما بين حية وضبع وتمساح أتاك من البحر
تحاكي نعيمًا زال من قبح وجهها وصفحتها لما بدت سطوة الدهر
هي الضربان في المفاصل دائبًا وشعبة برسام ضممت إلى صدري
إذا سفرت كانت لعينك محنة وإن برقعت فالفقر في غاية الفقر
حديث كقلع الضرس أو نتف شارب وغنج كهشم الأنف عيل به صبري
وتفتر عن قلح عدمت حديثها وعن جبلي طي وعن هرمي مصر

منارة الإسكندرية

إحدى عجائب الدنيا؛ وأصلها مبني على زجاج، والزجاج منصوب في ظهر سرطان من نحاس في بطن أرض البحر، وبين المنارة إلى يابس الأرض قناطر من زجاج، وفي المنارة ثلاثمائة وخمسة وستون بيتًا، وكان في أعلاها مرآة كبيرة، ينظر الناظر فيها فيبصر مراكب الروم إذا أراد ملكهم أن يجهز جيشًا فيها إلى المسلمين، فإذا دفعت تلك المراكب في البحر ورفع الشراع أبصرها هذا الناظر في المرآة فينذر المسلمين حتى يستعدوا ويأخذوا حذرهم؛ فاشتد ذلك على ملك الروم، فلما صار بعض الخلفاء إلى الإسكندرية وجه إليه ملك الروم جاسوسًا يعلمه أن في تلك المنارة كنوزًا لذي القرنين! فأمر بهدمها، فلما هدمت وقلعت المرآة بطل الطلسم ولم يجدوا الكنوز، فتقرر عندهم أنها حيلة لقلع المرآة؛ وطلب الجاسوس فلم يُوجد، فأمر الخليفة ببناء ما هدم منها بالجص والآجُرِّ، وهو ثلث المنارة.

وكان طول هذه المنارة ثلاثمائة ذراع بذراع الملك، فيكون أربع مائة وخمسين ذراعًا، وهي غاية ما يرفع في الهواء من البناء.

وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: عجائب الدنيا أربع: منارة الإسكندرية، عليها مرآة إذا جلس الجالس تحتها رأى من بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر؛ وفرس من نحاس بأرض الأندلس عليه رجل من نحاس قائلًا بكفيه كذا، باسطًا يديه — أي: ليس خلفي مسلك — فلا يطأ ما خلفه أحد إلَّا ابتلعه الرمل؛ ومنارة من نحاس عليها فارس من نحاس بأرض عاد، فإذا كانت الأشهر الحرم هطل منها الماء فشرب منه الناس وسقوا دوابهم وصبوا في الحياض، فإذا انقضت الأشهر الحرم انقطع ذلك الماء؛ وشجرة من نحاس عليها زرزورة من نحاس بأرض أرمينية رومية، إذا كان أوان الزيتون صفرت الزرزورة النحاس فتجيء كل زرزورة من الطيارات بثلاث زيتونات: ثنتان في رجليها وواحدة في منقارها، فتلقيها عند تلك الزرزورة فيجتمع من الزيتون ما يعصر أهل الروم فيكفيهم لإدامهم وسرجهم إلى قابل.

ومن الشائع المستفيض أن عجائب الدنيا أربع: منارة الإسكندرية، وكنيسة الرها، ومسجد دمشق، وقنطرة سنجة.

وقد ضرب الصاحب المثل بمنارة الإسكندرية حيث قال (من مجزوء الكامل):

زادت قرونك يا عُمَيْـ ـرُ على مساويك الجليةْ
وأقل قرنٍ حُزْته كمنارة الإسكندريةْ

كنيسة الرها

إحدى عجائب الدنيا الأربع، والرها بلد من عمل حران، والكنيسة منسوبة إليه، وهي في جربان من الأرض متخذة على رؤوس أعمدة أربع من الرخام، بطيقان معقودة بينها، وفيها من العجائب والتصاوير والتزاويق والطلسمات والقناديل التي تتقد من غير اتقاد ما يطول ذكره، وقد تقدم كلام الجاحظ في تلك القناديل.

مسجد دمشق

هو أثر بني أمية المضروب به المثل في الحسن.

وكان كل من خلفائهم يزيد فيه زيادة، ويؤثر أثرًا حتى تناهى في حسنه وتكاملت جلالته، فصار من عجائب أبنية الدنيا الأربع.

وما رأى الراؤون، ولا سمع السامعون بأحسن ولا أجل منه، وهو منقش الحيطان والسقوف والأعمدة، مرصعة كلها بالجواهر، ملتهبة بالذهب، مشرقة بألوان الفصوص.

وقال الجاحظ وهو يمدح بعض الرؤساء: وأما قول الشاعر (من مجزوء الوافر):

يزيدك وجهها حسنًا إذا ما زدته نظرا

وقول الدمشقيين: ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقبة مصلانا إلَّا أثار لنا التأمل، واستخرج لنا التفرس غرائب حسن لم نعرفها، وعجائب صنعة لم نقف عليها، وما ندري أجوهر مقطعاته أكرم في الجواهر، أم تنضيد أجزائه في الأجزاء.

فإن ذلك معنى مسروق مني في وصفك، ومأخوذ من كتبي في مدحك.

وحكى السَّلامي قال: سمعت اللحام يقول: سمعت بعض مشايخ جيران مسجد دمشق يقول: لم تفتني صلاة فيه منذ عَقَلْت، ولم أدخله في وقت من الأوقات إلَّا وقعت عيني من نقوشه وتحاسينه، وتزايينه، وتزاويقه على شيء لم تقع عليه فيما تقدم. وهذه جملة كافية.

قنطرة سنجة

سنجة نهر عظيم لا يتهيأ خوضه، لأن قراره رمل سيال كلما وطئه إنسان برجله سال به فغرقه، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم — وهما من ديار مضر — وعلى هذا النهر القنطرة العجيبة التي هي إحدى العجائب الأربع، وهي طاق واحد من الشط إلى الشط والطاق يشتمل على مائتي خطوة، وهو متخذ من حجر مهندم، طول الحجر عشرة أذرع في ارتفاع خمسة أذرع، وله فرجان، وهما طاقان، صغيران في جنب الطاق الكبير، إلَّا أنهما كبيران إذا أضيفا إلى غيره.

غوطة دمشق

إحدى نزه الدنيا وهي الأربع: غوطة دمشق، ونهر الأُبُلَّة، وشِعْب بَوَّان، وصغد سمرقند؛ يضرب بكل منها المثل في الطيب.

وكان الخوارزمي يقول: قد رأيتها كلها، فكانت غوطة دمشق أطيبها وأحسنها، ولم أميز بين رياضها المزخرفة بالأنوار والأزاهير، وبين غدرانها المعمورة بطيور الماء التي هي أحسن من التدارج والطواويس، ولم أشبهها بالجنة وصورتها منقوشة على وجه الأرض! وأما نهر الأُبُلَّة فهو بالبصرة، وحواليه من ميادين النخل والأُتْرُجِّ والنارنج وسائر الأشجار، وفيها من أصناف الزروع وأنواع الخضر ما لا منظر أحسن منه، وعليه من القصور المتناظرة، والأبنية الرائقة ما تحار فيه العيون، وتهش له النفوس.

وفيه يقول ابن أبي عيينة (من الطويل):

ويا حبذا نهر الأُبُلَّة منتظرًا ... إذا مد في آنائه الماء أو جزر

وأما شعب بوان من فارس فهو الذي يقول فيه القائل (من الطويل):

إذا أشرف المكروب من رأس تلعة ... على شعب بوان أفاق من الكرب
وألهاه بطن كالحريرة مسه ... ومطرد يجري من البارد العذب
فبالله يا ريح الجنوب تحملي ... إلى شعب بوان سلام فتى صب

وفيه يقول المتنبي (من الوافر):

مغاني الشعب طيبًا في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان

ولما نزله عضد الدولة متوجهًا إلى العراق ومعه أبو الحسن السلامي قال له: قل في الشعب فقد سمعت ما قال المتنبي فيه؛ فعاد إلى خيمته وكتب (من البسيط):

اشرب على الشعب واحلل روضه الأنفا ... قد زاد في حسنه فازدد به شغفا
إذ ألبس الهيف من أغصانه حللًا ... ولقَّن العُجْمَ من أطياره نتفا
وثمرت حسنه الأغصان مثمرة ... من نازع قرطًا أو لابس شنفا
والماء يثني على أعطافها أزرًا ... والريح تعقد في أطرافه شرفا

والشمس تخرق من أشجارها طرفًا بنورها فترينا تحتها طرفا

وهي قصيدة طويلة.

وأما صُغد سمرقند، فإن قتيبة بن مسلم لما أشرف عليه من الجبل قال لأصحابه: شبهوه؛ فلم يأتوا بشيء؛ فقال قتيبة: كأنه السماء في الخضرة، وكأن قصوره النجوم الزاهرة، وكأن أنهاره المجرة؛ فاستحسنوا هذا التشبيه وتعجبوا من صدقه وإصابته.

وادي القصر

بالبصرة، وهو الذي يقول فيه الخليل (من البسيط):

زر وادي القصر نعم القصر والوادي لا بد من زورة من غير ميعاد
زره فليس له شبه يعادله في منزل حاضر إن شئت أبو باد
ترفى به السفن، والظلمان حاضرة والضب والنون والملاح والحادي

قال الجاحظ: من أتى هذا الوادي ورأى قصر أنس رأى أرضًا كالكافور، ورأى ضبًا يحترش وغزالًا يقتنص وسمكًا يصاد، ما بين صاحب شص وصاحب شبكة وصيادًا، وسمع غناء ملاح على سكانه وحداء جمال خلف بعيره.

وفي هذا المكان يقول الخليل أيضًا (من المنسرح):

يا جنة فاقت الجنان فما يبلغها قيمة ولا ثمن
ألفتها فاتخذتها وطنًا إن فؤادي لحبها وطن
زواج حيتانها الضباب بها فهذه كنة وذا ختن
انظر وفكر فيما نطقت به إن الأديب المفكر الفطن
من سفن كالنعام مقبلة ومن نعام كأنها سفن

دير هِزْقل

يضرب به المثل لمجتمع المجانين، ويقال للمجنون: كأنه من دير هزقل؛ وذلك أنه مأوى للمجانين بإحدى الديارات، يشدون هناك ويداوون.

قال دعبل في أبي عباد — وكان رمى بعض كتابه بدواة فشجه بها (من الكامل):

أولى الأمور بضيعة وفساد ... أمر يدبره أبو عباد
سمح على أصحابه بدواته ... فمزمل ومضمخ بمداد
وكأنه من دير هزقل مفلت ... حرد يجر سلاسل الأقياد

وقيل للمأمون: إن دعبلًا هجاك؛ فقال: من جسر أن يهجو أبا عباد على نزقه وعجلته جسر أن يهجوني مع أناتي وعفوي!

وكان أبو عباد إذا دخل على المأمون يقول له المأمون: ما أراد منك دعبل حيث قال لك:

وكأنه من دير هزقل مفلت

فيقول: أراد مني الذي أراده من أمير المؤمنين حيث قال فيه (من الكامل):

إني من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فيقول له المأمون: فإني قد عفوت عنه، فلا تعرض له، ولك في أسوة حسنة.

وكان المأمون إذا أنشد هذا الشعر الذي فيه يقول: سبحان الله! أما يستحي دعبل من الكذب! متى كنت خاملًا، وبدر الخلاف غذيت، وفي حجرها ربيت! خليفة وابن خليفة وأخو خليفة.

جانبا هَرْشَى

هرشى أكمة بتهامة يسلكها الحاج، ولها طريقان من جانبيها؛ أيهما سلك كان صوابًا، فيضرب بهما المثل للأمر له بابان، أيهما أتى لم يكن به بأس؛ وينشد (من الطويل):

خذوا جنب هرشى أو قفاها فإنما   كلا جانبي هرشى لهن طريق

الباب الخامس والأربعون

فيما يضاف وينسب إلى البلدان والأماكن من فنون شتى

خراج مصر، كتان مصر، حمير مصر، قراطيس مصر، تفاح الشام، زجاج الشام، زيت الشام، عود الهند، سيوف الهند، ياقوت سرنديب، برود اليمن، سيوف اليمن، ثياب الروم، عنبر الشحر، دجاج كسكر، شكر الأهواز، ورد جور، عسل أصفهان، بسط أرمينية، برود الري، طين نَيْسابور، سبج طوس، قشمش هراة، ثياب مرو، فلوس بخارى، كواغد سمرقند، طرائف الصين، مسك تبت.

الاستشهاد

خراج مصر

يضرب به المثل في الكثرة؛ قال الجاحظ: زعم أبو الخطاب: إن أرض مصر جبيت في بعض الأزمان أربعة آلاف ألف دينار.

وزعم غيره أنها جبيت ألف ألف دينار، سوى ما دفعت عليه من الخيل والدواب ودق الطرز.

كتان مصر

قال الجاحظ: قد علم الناس أن القطن لخراسان وأن الكتان لمصر، ثم للناس من ذلك في تفاريق البلدان ما لا يبلغ بعض بلاد هذين الموضعين. وربما بلغت قيمة الحمل من دق مصر الذي هو من الكتان لا غير مائة ألف دينار.

قراطيس مصر

قال بعض الشعراء (من المتقارب):

حملتُ إليك عروس الثناء على هودج ما له من بعير

على هودج من قراطيس مصر يلين على الطي لين الحرير

حمير مصر

موصوفة بحسن المنظر وكرم المخبر، وكذلك أفراسها، إلَّا أن بعض البلاد يشارك مصر في عتق الأفراس وكرمها.

وتختص مصر بالحمير التي لا تخرج البلدان أمثالها.

وقد تعد في نفائس الدواب حمير مصر، وبغال برذعة، وبراذين طبرستان.

وكان الخلفاء لا يركبون إلَّا حمير مصر في دورهم وبساتينهم؛ وكان المتوكل يصعد منارة سُرَّ مَن رأى على حمار مريسي؛ ودرج تلك المنارة من خارج، وأساسها على جريب من الأرض، وطولها تسع وتسعون ذراعًا.

ومريس: قرية بمصر إليها ينسب بشر المريسي.

تفاح الشام

يضرب به المثل في الحسن والطيب؛ قال الشاعر وهو يصفها (من الرجز):

تفاحة شامية من كف ظبي غزل
ما خلقت إذ خلقت تلك لغير القبل
كأنما حمرتها حمرة خد خجل

وقال الصنوبري (من المتقارب):

أرى الشام جاد بتفاحة لنا والعراق بأترجةْ

وكان المأمون يقول: اجتمعت في التفاح الحمرة الخمرية، والصفرة الدرية، مع شعاع الذهب، وبياض الفضة؛ يلتذه من الحواس ثلاث: العين للونه، والأنف لعرفه، والفم لطعمه.

وكان يحمل إلى الخلفاء من خراج حمص ودمشق كل سنة أربعمائة وعشرون ألف دينار، ومن خراج أجناد الشام ثلاثون ألف تفاحة.

زجاج الشام

يضرب به المثل في الرقة والصفاء؛ قال بعض الحكماء: ارفق بالعدو كما يرفق بزجاج الشام، إلى أن تجد الفرصة، فإما أن يضربه الحجر فيقضه وإما أن تضربه بالحجر فترضه.

زيت الشام

يضرب به المثل في الجودة والنظافة وإنما قيل له: الزيت الركابي لأنه كان يحمل على الإبل من الشام، وهي أكثر بلاد الله زيتونًا، وفيه ما فيه من البركة والمنفعة.

قال الأصمعي: حدثني شيخان من أهل البصرة؛ أحدهما هارون الأعور أن قتيبة بن مسلم قال: أرسلني أبي إلى ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة، وقال: قل له: أرسلني إليك أبي مسلم بن عمرو، وقال: إنه قد صارت في قومك دماء وجراح، وأحبوا أن تحضر الجامع فيمن يحضر.

قال قتيبة: فأتيت ضرارًا فأبلغته رسالة أبي، فقال: يا جارية! غدينا فجاءت بأرغفة خشن فثردهن في تمر ممروس وماء، ثم صب عليها زيتًا، وعرض علي الغداء معه، فتذكرت ما في منزلي مما أعد لنا من الجداء

والدجاج، فقلت: ما لي فيه من حاجة، وصغر شأنه في عيني، وأنا يومئذ غلام حدث، قال: فأكل ثم قال: يا جارية! اسقيني ماء، فجاءت بماء، فشرب ومسح بفضله يده ووجهه، ثم قال: الحمد لله، حنظة الأهواز، وماء الفرات، وتمر هجر، وزيت الشام، متى نؤدي شكر هذه النعمة! ثم قال: علي بردائي؛ فارتدى وانتعل، وانطلق معي حتى أتى المسجد فصلى ركعتين، ثم احتبى، فما بقيت حلقة إلَّا تقوضت إليه، واختصم القوم، فتحمل جميع ما كان عليهم في ماله، وضمن ذلك عنهم، وانصرف، وتقوض الناس راضين داعين.

عود الهند

يضرب به المثل ويذكر في أمهات الطيب المنسوبة، فيقال: عود الهند، ومسك التبت، وعنبر الشحر، كما قال ابن مطران وهو يستهدي الند (من مخلع البسيط):

يا أكرم الأكرمين سيرة فيهم، وأزكاهم سريرةْ
ومن بهماته العوالي أضحت عيون العلا قريرةْ
لترمني راحتاك شهبًا مضلعات ومستديرةْ
بلاد مجموعها ثلاث الهند والترك والجزيرةْ

يعني عود الهند، ومسك التبت، وعنبر الشِّحْر.

ووصف واصف الهند فقال: بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر.

وفي كتاب العطر: خير العود الهندي المندلي، وكلما كان أصلب فهو أجود، وامتحان جودته إذا كانت فيه رطوبة بأن يوضع عليه نقش الخاتم فينطبع، وإذا كان يابسًا فالنار تفصح عنه.

ومن خصائصه ثبات رائحته في الثوب أسبوعًا وأكثر، والثوب لا يقمل ما دامت فيه رائحة منه.

ولبلاد الهند من الخصائص ما لم يكن لغيرها، فمنها: الفيل، والكركدن، والبَبْر، والببغاء، والطاووس، والدجاج الهندي، والياقوت الأحمر، والصندل الأبيض، والعاج، والساج، والتوتيا، والقرنفل، والسنبل، والفلفل، وغيرها من العقاقير.

سيوف الهند

يضرب بها المثل في الجودة والصفاء، يقال: إن السيف إذا كان من قلع الهند ومن طبع اليمن فناهيك به!

وقد أكثر الشعراء من ذكر سيوف الهند؛ قال الفرزدق (من الطويل):

كذاك سيوف الهند تنبو ظباتها ويقطعن أحيانًا مناط القلائد

وقال الصاحب من أرجوزة (من الرجز):

أجفان هند كسيف الهند

وقال أبو محمد الخازن من نتفه ولطائف ظرفه (من الكامل):

هندٌ ترى بسيوف مقلتها ما لا ترى بسيوفها الهند

ياقوت سرنديب

زعم الجوهريون أن الياقوت لا يكون إلَّا من جبل سرنديب بالهند، وخيره الأحمر البهرماني ثم المورد، ثم الرماني، وإذا بلغ البهرماني نصف مثقال كانت قيمته خمسة آلاف دينار، وكان وزن الفص الذي يسمى الجبل مثقالين، قوم بمائة ألف دينار؛ فاشتراه المنصور بأربعين ألفًا.

وسأل المقتدر ابن الجصاص فقال: بم تعرف فضل الياقوت؟ قال: يا أمير المؤمنين، بحسنه وصفائه في العين، ورزانته في اليد، وبرودته في الفم، وصبره على النار، ونبو المبرد عنه؛ فاستحسن هذا من قوله.

برود اليمن

يقال له: وشي اليمن، وعصب اليمن. ويضرب بها المثل في الحسن، وتشبه بها الرياض والألفاظ؛ كما قال البحتري (من البسيط):

جئناك نحمل ألفاظًا مدبجة كأنما وشيها من يمنة اليمن

ويقال في نفائس الملابس: برود اليمن، وريط الشام، وأردية مصر، وأكسية الدامغان، وتكك أرمينية، وجوارب قزوين.

سيوف اليمن

يضرب بها المثل، كما يضرب بسيوف الهند، ونصل الردين، ورماح الخط، ونبال الترك؛ قال الشاعر (من الطويل):

مقاديم وصالون في الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يمان

وقال آخر (من الكامل):

ذكر على ذكر يصول بصارم ذكر يمان في يمين يمان

ولو لم يكن في سيوف اليمن إلَّا صمصامة عمرو السائر ذكرها الموصوف فضلها؛ لكفى بها وجهًا لضرب المثل؛ وسيمر ذكرها في باب السلاح.

ومن خصائص اليمن الزرافة، كما أن من خصائص الهند الكركدن.

وكان الأصمعي يقول: أربعة قد ملأت الدنيا ولا تكون إلَّا باليمن: الورس، والكندر، والخطر، والعقيق.

ثياب الروم

هي الدبابيج، يضرب بحسنها المثل، ويشبه بها ما يستحسن من آثار الربيع؛ كما قال الشاعر (من الكامل):

هذا الربيع كأنما أنواره أبناء فارس في ثياب الروم

وأظنه قال: في بنات الروم، ليجمع بين البنين والبنات، فيكون أحسن في صنعة الشعر، وإن كان لثياب الروم وجه من التشبيه حسن.

ومن خصائص الروم المذكورة مع ديباجها: المصطكى، والسقمونيا، والطين المختوم، والسندس الذي يقال له: البزيون.

عنبر الشِّحْر

يضرب به المثل، كما قال الشاعر (من الطويل):

ولو كنت عطرًا كنت من عنبر الشحر

قال صاحب كتاب المسالك والممالك: الشحر جزيرة من عمان على مائتي فرسخ.

ويقال: إن العنبر من زبد بحر سرنديب، ويقال: بل من معدن بها.

ومن الناس من يزعم أنه روث دابة في بحر الهند.

قالوا: وخيره الأشهب، ثم الأزرق، وأدونه الأسود.

وكان يحمل من مكة والمدينة والحجاز كل عام إلى السلطان من العنبر ثمانون رطلًا، ومن المتاع أربعة آلاف ثوب، ومن الزبيب ثلاثمائة راحلة.

دجاج كَسْكَر

كسكر: إحدى كور السواد من طساسيج دجلة والفرات، ودجاجها موصوف بالجودة وبالسمن، مذكور في أطايب النعمة، وربما بلغت الواحدة منها وزن الجدي والحمل؛ قال الشاعر وهو يصف أطعمة عنده لمن يدعوه (من الوافر):

لنا سمك نكببه مشبر وعند غلامنا جنب مبزر
وفروجان قد رعيا زمانًا لباب البر في أبيت كسكر

قال الجاحظ: ومما ينسب إلى كسكر: الجداء والسمك والصحناة.

سكر الأهواز

السكر من خواص الأهواز ومفاخرها ومتاجرها، ولا يكون إلَّا بها على كثرة قصب السكر في سائر النواحي؛ والمثل مضروب بسكر الأهواز، كما قال أبو الطيب المتنبي (من الخفيف):

تقضم الجمر والحديد الأعادي   دونه قضم سكر الأهواز

وكان يحمل إلى السلطان كل عام مع خراج الأهواز، وهو خسمة وعشرون ألف ألف درهم، من السكر ثلاثون ألف رطل.

ومما ينسب إلى الأهواز من النفائس ديباج تستر وخز السوس.

قال كُشاجِم وهو يصف الروض (من المتقارب):

كأن الذي دبجت تستر   وطرزت السوس فيه نشر

وحكى أبو النصر العتبي في فصوله القصار: للهم في وخز النفوس، أثر السوس، في خز السوس.

وقال بعض العصريين (من الكامل):

ومهفهف فتن الإله عباده   إذ ساق حسن العالمين إليه
وكأن بابل أصبحت في جفنه   وكأنما الأهواز في شفتيه

ورد جور

من كور فارس، مخصوصة بالورد الذي لا أطيب منه في سائر البلاد، ويضرب به المثل، ويعد مع بنفسج الكوفة، ومنثور بغداد، وزعفران قم، ونيلوفر السيروان، ونارنج الصيمرة، وأترج طبرستان، ونرجس جرجان.

وماء الورد الجوري موصوف مضروب به المثل في الطيب، مجلوب إلى أقاصي المشرق والمغرب، وقد أكثروا من ذكره، قال السري في وصف قوارير منه (من الرجز):

ومخطفات كالعذارى الحور مشمرات القمص كالمنثور
كل فتاة نشأت بجور تختال في دواجها القصير
حاسرة عن أرج العبير مثل نسيم الزهر الممطور
أشهى من الوصل إلى المهجور

وكان يحمل من فارس إلى الخلفاء كل عام من خراجها، وهو سبعة وعشرون ألف ألف درهم على الرسم في حمل خصائص البلدان إلى حضرة السلطان، من ماء الورد الجوري ثلاثون ألف قارورة، ومن الزبيب الأسود عشرون ألف رطل، ومن الأنبجات خمسة عشر ألف رطل، ومن الرمان والسفرجل مائة وخمسون ألفًا عددًا، ومن التين السيرافي خمسون ألف رطل، ومن الجلنجبين ألف رطل، ومن المومياي رطل واحد.

عسل أصفهان

يوصف بالجودة مع عسل الموصل.

وكان يحمل من أصبهان إلى حضرة السلطان كل سنة مع خراجها، وهو أحد وعشرون ألف ألف درهم، من العسل عشرون ألف رطل، ومن الشمع عشرون ألف رطل؛ ومن الموصل مع خراجها وهو أربعة وعشرون ألف ألف درهم، من العسل عشرون ألف رطل.

ويحكى أن الحجاج قال لعامله على أصبهان: قد وليتك بلدة حجرها الكحل، وذبابها النحل، وحشيشها الزعفران.

وذلك أن كحلها موصوف بالجودة، والزعفران بها كثير، وكذلك النحل.

وقرأت في رسالة لعلي بن حمزة بن عمارة الأصفهاني إلى أبي الحسن ابن طباطبا في وصف النحل والشهد:

> أفضل الأعسال كلها عسل أصفهان وخيره ما إذا قطر على الأرض منه استدار كالزئبق ولم يختلط بالأرض.

بسط أرمينية

يذكر في الفرش الفاخرة مع زلالي قاليقلا، ومطارح ميسان، وحصر بغداد، وستور الموصل ونصيبين.

وكان يحمل إلى حضرة السلطان كل عام مع خراج أرمينية وهو ثلاثة عشر ألف ألف درهم، من البسط المحفورة ثلاثون بسطاطًا، ومن الرقم خمسمائة وثمانون قطعة، ومن البزاة ثلاثون بازيًا.

برود الري

برود الري موصوفة كبرود اليمن، ويقال لها: العدنيات، تشبيهًا لها ببرود عدن من اليمن؛ قال المرادي وهو يصف شاهينًا (من الكامل):

وتخاله لما تنفض بالندى نثر الجمان فويق برد رازي

وقال الهزيمي (من المتقارب):

هب البرد بالري لم ينسج وفي سفط البز لم يدرج
رسولك ذاك الذي قال لي: أجيء مع الفحم لم لا يجي!

ومن خصائص الري: الثياب المنيرة، والمقاريض الرشيقة، والأمشاط الفائقة والرمان المعروف بالهبرج، والمعروف بالإمليس.

وكان يُحمَل إلى السلطان مع خراج الري، وهو اثنا عشر ألف ألف درهم، من الرمان مائة ألف، ومن الخوخ المقدد ألف رطل.

طين نَيْسابور

هو طين الأكل الذي لا يوجد مثله في الأرض، يحمل إلى أداني البلاد وأقاصيها، ويتحف به الملوك والسادة؛ وربما بيع الرطل منه بدينار.

وقد قصر محمد بن زكريا على ذكر منافعه — إذ استعمل منه — كتابًا؛ وفي وصفه يقول أبو طالب المأموني (من السريع):

جد لي من النقل بذاك الذي منه خلقنا وإليه نصير
ذاك الذي يحسب في شكله أحجار كافور عليها عبير

وكان عمرو بن الليث يقول في ذكر نَيْسابور ومناقبها وخصائصها: لم لا أقاتل عن بلدة ترابها نقل، وحجرها فَيْرُوزج!

وذلك أن الفَيْرُوزَج لا يكون إلَّا بها، وربما بلغت قيمة الفص منه إذا أربى على مثقال وجمع الخضرة وصُبِّرَ على النار، وصبر على النار، وامتنع على المبرد، ولم يتغير بالماء الحار مائتي دينار.

ومن محاسنه ما في اسمه من الفأل الحسن، وحسن موقعه عند الملوك لما يجمع من حسن المنظر وحميد الفأل.

ويقال: إنه له خاصية قوية في تقوية القلب.

وفيه يقول بعض العصريين من نيروزية (من الكامل):

يا من بطلعته الهلال تهللا ورآه من جحد الإله فهللا
وافاك بالنيروز طرف مسرة فاركبه هملاجًا أغر محجلا
نحو المُنى وأَعِرْ لحاظك كلما يحوي محلًا في الصدور مبجلا
فَيْرُوزج أهديته متبركًا لك باسمه متيمنًا متفائلا
ولرب فص قد أتى متدللًا فإذا وعى الألفاظ منه تذللا

وفَيْرُوزج نَيْسابور يعد في نفائس الجواهر مع ياقوت سرنديب، ولؤلؤ عمان، ولَعل بذخشان، وزبرجد مصر وعقيق اليمن، وبجادي بلخ.

ومن خصائص نَيْسابور: الثياب الحفية، والتاختج، والراختج، والمصمت؛ فأما الحلل، والعتابيات، والسقلاطونيات، فإن بغداد وأصبهان تشاركانها فيها؛ والسابري: وهو الرقيق الناعم من كل ثوب، والأصل فيه النسبة إلى نَيْسابور، وعُرِّب فقيل: سابري.

سبج طوس

السبج لا يكون إلَّا بطوس، ومنها يحمل إلى الآفاق، فهو من خصائص طوس؛ كما أن من خصائصها هذا الحجر الذي تتخذ منه القدور والمقالي والمجامر؛ وقد يتخذ منه كل ما يتخذ من الزجاج، كالأقداح والكيزان وغيرها.

وكثيرًا ما يقول السيد أبو جعفر الموسوي الطوسي: قد ألان الله لنا الحجارة، كما ألان لداود عليه السلام الحديد.

قشمش هَراة

القشمش من خصائص هراة، وكذا الزبيب المعروف بالطائفي، يحملان منها إلى الأداني والأقاصي، ويتخذ من القشمش الشراب والدبس.

وقد يعد من طرائف: ثمرات البلاد قشمش هراة، وتين حلوان، وعناب جرجان، وإجاص بست، ورمان الري، وتفاح قومس، وسفرجل نَيْسابور، ورطب بغداد.

وأنشدني المأموني لنفسه في وصف القشمش (من الرجز):

وقشمش كخرز منظم لم يثقب
تبلى به الكأس لما بينهما من نسب
يحظى به الشارب في النْـ ـنادي ومن لم يشرب
كأنه أوعية يحملن ذوب الضرب
أو لؤلؤ قد عل أعـ ـلاه بماء الذهب
خصت به هراة فاخـ ـتصت بأعلى الرتب

وأنشدني أيضًا في الزبيب الطائفي (من المنسرح):

وطائفي من الزبيب به ينتقل الشرب حين ينتقل
كأنه في الإناء أوعية من البجاذي ملؤها عسل

ومن خصائص هراة: الحواصل التي هي أجود من المصرية، والآبسكونية.

ومما يحمل منها إلى الآفاق: الكرابيس، والمبارم، والديابيج، وطرائف الصفريات.

ثياب مرو

كانت العرب تسمي كل ثوب صفيق يحمل من خراسان: المروي؛ وكل ثوب رقيق يجلب منها: الشاهجاني، لأن مرو عندهم أم خراسان.

ويقال لها مرو الشاهجان، وقد بقي إلى الآن اسم الشاهجان على الثياب الرقيقة.

ومما تختص به مرو من الثياب: الملحم.

وقال لي أبو الفتح البستي يومًا: هل تعرف بلدة أول اسمها ميم، يحمل منها برسم العراضة أربعة أسماء، وأول كل اسم منها ميم؟ فقلت: أما على البديهة فلا، ولعلي أتذكرها مع الروية، فقال: هي مرو، ويحمل منها الملحم، والملبن، والمري، والمكانس.

فلوس بخارى

أهل بخارى يتبايعون في المحقرات بالفلوس، وقد ضربها بشار بن برد مثلًا في قوله (من البسيط):

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته   فإنه عربي من قوارير
إن جاز آباؤه الأنذال من مضر   جازت فلوس بخارى في الدنانير

كواغيد سمرقند

هي من خصائصها التي عطلت قراطيس مصر، والجلود التي كان الأوائل يكتبون فيها، لأن الكواغيد أحسن وأنعم وأكثر وأرفق، ولا تكون إلَّا بسمرقند والصين.

وذكر صاحب المسالك والممالك أنه وقع من الصين إلى سمرقند في سبي سباهم زياد بن صالح في وقعة أطلح من اتخذ الكواغيد، ثم كثرت الصنعة واستمرت العادة حتى صارت متجرًا لأهل سمرقند، فعم خيرها، والارتفاق بها جميع البلدان في الآفاق.

ومن خصائص سمرقند: النوشادر، والثياب الوذارية.

ومن خصائص الصغد: الحجر الرهجي، والملح الكشي، وهو جوهر يقطع من الغيران في الجبال يكون أحمر، فإذا دق صار أشد بياضًا وأصلح من كل ملح.

طرائف الصين

كانت العرب تقول لكل طرفة من الأواني وما أشبهها: صينية، كائنة ما كانت؛ وقد بقي هذا الاسم إلى الآن على هذه الصواني المعروفة.

وأهل الصين مختصون بصناعة اليد، والحذق في عمل الطرف؛ يقولون: أهل الدنيا ما عدانا عمي، إلَّا أهل بابل فإنهم عور.

ولهم الإغراب في خرط التماثيل، والإبداع في عمل النقوش والتصاوير، حتى إن مصورهم يصور الإنسان ولا يغادر منه شيئًا، ثم لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكًا أو باكيًا، ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل، وبين المتبسم والمستغرب، وبين ضحك المسرور وضحك الهازئ، فيركب صورة وصورة في صورة.

ولهم الغضائر المستشفة يطبخ فيها الطبيخ فتكون الواحدة قدرًا مرة، وقصعة أخرى، وخيرها المشمشي اللون، الرقيق الصافي، الشديد الطنين، ثم الزبدي على هذا الوصف.

ولهم الفِرِنْد الفائق، والحرير المدقوق الذي تخفى فيه الصور وتظهر، ويقال له: الكيمخار، وهو في شعر لابن الرومي، ولهم المماطر المشمعة التي لا تبتل على الأمطار الكثيرة؛ ولهم مناديل الغمر التي إذا اتسخت ألقيت في النار فنقيت ولم يحترق منها شيء.

ولهم الحديد المصنوع يعمل منه المرائي والتعاويذ وغيرهما وربما اشتري بأضعاف وزنه فضة.

ولهم السنجاب الفارابي الذي هو من أنفس الأوبار.

ولهم اللبود التي تفضل على اللبود المغربية.

وذكر الجاحظ في كتاب التبصر بالتجارة: أن خير اللبود الصينية، ثم المغربية الحمر، ثم الطالقانية البيض.

وذكر غيره أن أجود الصوف صوف مصر، ثم صوف أرمينية، ثم صوف تكريت، ثم صوف الرويان.

مسك تبت

تبت مخصوصة من بين بلاد الترك بالمسك الأصهب المضروب به المثل في الطيب والجودة، كما أن خرخير منها مخصوصة بالسنجاب الفاخر، وكيماك بالسمور الفائق.

وبلاد الترك توازي بلاد الهند في كثرة الخصائص كالمسك، والسمور، والسنجاب، والقاقم، والفنك، والثعالب السود، والأرانب البيض، والختو، واليشم، والخدنك، والبزاة الأبيض، والخيل، والرقيق الفره والخشقاء الذي تتخذ من ذنبه وعرفه المذاب ورؤوس المطارد.

ولبسط الكلام في كل منها، وسائر خصائص البلدان، وتفصيل معادنها وتركيب أماكنها وتلخيص أحوالها، مكان من كتاب خصائص البلدان المستفتح أيضًا باسم الأمير السيد أدام الله تأييده؛ فأما هذا المكان فلا يتسع لأكثر مما أوردته، وهو يسير من كثير، وغيض من فيض.

الباب السادس والأربعون

فيما يضاف إلى البلدان وينسب من الأعراض

طاعة أهل الشام، طواعين الشام، طرب الزنج، ظرف الحجاز، نعمة المدينة، حمى خيبر، حمى الأهواز، دماميل الجزيرة، طحال البحرين، حساب الهند، لواط خراسان، هواء جرجان، برد همذان.

الاستشهاد

طاعة أهل الشام

أهل الشام مخصوصون بطاعة السلطان من بين جميع البلدان، وبهم يضرب المثل في الطاعة والمشايعة، وإنما وَرِيَتْ زِناد معاوية بهم.

وكثيرًا ما كان يقول: أعنت على علي بأربع: كنت رجلًا كتومًا، وكان ظهرة؛ وكنت في أطوع جند وأصلحه، يعني أهل الشام. وكان في أعصى جند وأخبثه، يعني أهل العراق؛ وتركته وأصحاب الجمل وقلت: إن ظفروا به كفيته، وإن ظفر بهم اعتددت بها عليه في ذنوبه؛ وكنت أشد تألفًا لقريش، وأكثر تحببًا إليها منه، فيا لك من جامع إلي ومفرق عنه، ومن عون لي وعون عليه!

وذكر عبد الملك بن مروان روح بن زنباع فمدحه وقال: لقد جمع أبو زرعة فقه الحجاز، ودهاء العراق، وطاعة الشام.

طواعين الشام

ذكر أبو الحسن المدائني عن أشياخه، عن الحجاج أنه كان يقول: لما تبوأت الأشياء منازلها قالت الطاعة: أنا أنزل الشام، فقال الطاعون: وأنا معك؛ وقال الخصب: أنا أنزل العراق، فقال النفاق: وأنا معك؛ وقالت الصحة: أنا أنزل البادية، فقال الشقاء: وأنا معك.

ولم تزل الشام كثيرة الطواعين حتى صارت تواريخ، وكانت تظهر بالشام ثم تمتد إلى العراق؛ وأول طاعون وقع بالشام في الإسلام طاعون عمواس، وذلك في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفيه مات معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما.

ثم الجارف، ثم طاعون العذارى، ثم طاعون الأشراف؛ ولم يقع بالمدينة ولا مكة طاعون قط.

ولما ولي بنو العباس انقطع الطاعون إلى أيام المقتدر كما تقدم ذكره عند ذكر رماح الجن.

وقال بعض بني المغيرة فيمن مات منها بطواعين الشام أيام تلك المغازي (من السريع):

من ينزل الشام ويعرس به	فالشام إن لم يفننا كارب
أفنى بني ريطة فرسانهم	عشرين لم يقصص لهم شارب
ومن بني أعمامهم مثلهم	لمثل هذا يعجب العاجب
طعن وطاعون مناياهم	ذلك ما خط لنا الكاتب

ولما قدم عبد الله بن حسن بن حسن على عمر بن عبد العزيز كره مكانه بالشام وعرف سنه وسمته وعقله ولسانه وفضله، فلم يكن شيء أحب إليه من ألا يراه أحد من أهل الشام، فقال: إني أخاف عليك طواعين الشام، وإنك لن تغنم أهلك خيرًا منك، فالحق بهم فإن حوائجك ستتبعك.

فكان ظاهر ما تكلم به حسنًا مذكورًا، وباطنه أجود التدبير في تسريحه سراحًا جميلًا.

طرب الزنج

هم مخصصون من بين الأمم بشدة الطرب وحب الملاهي والأغاني، وإيثار الخلاعة والتصابي، والمثل سائر بإطرابهم لا سيما إذا دب الشراب فيهم، وانضاف حره إلى حر أمزجتهم المكتسبة من حرارة أهويتهم.

ووصف بعض البلغاء رجلًا بالطرب، فقال: والله إنه لأطرب من زنجي عاشق سكران.

وقال أبو الشمقمق (من الطويل):

وليس على باب ابن إدريس حاجب وليس على باب ابن إدريس من قفل
طربت إلى معروفه فطلبته كما طربت زنج الحجاز إلى الطبل

ويحكى من طيب عرسهم وبلوغهم فيه كل مبلغ؛ من الأخذ بأطراف القصف والعزف، وإثارة الرهج في اللعب والرقص، ما تمثل به ابن طباطبا وهو يصف ليلة ممتعة في قوله (من السريع):

وليلة أطربني جنحها فخلتني في عرس الزنج
كأنما الجوزاء جنج الدجى طبالة تضرب بالصنج
قائمة قد حررت قصفها مائلة الرأس من الغنج

ظَرْف الحجاز

المثل بذلك جارٍ على الألسنة، كما قال الشاعر (من الخفيف):

شادن لم ير العراق وفيه مع ظرف الحجاز شكل العراق

نعمة المدينة

قال الجاحظ: سميت المدينة طيبة لطيبها، ولطيبها تنفي خبثها، ويتضوع طيبها في ريح ثراها، وعرف ترابها، ونسيم هوائها، والنعمة التي توجد في سككها وحيطانها دليل على أنها جعلت آية حين جعلت حرمًا؛ وبها للعطر والبخور والنضوح من الرائحة الطيبة أضعاف ما توجد روائحه في سائر البلدان، وإن كان العطر فيها أفخر والبخور أثمن.

وما رأيت بلدة يستحيل فيها العطر ويفسد وتذهب رائحته كقصبة الأهواز وأنطاكية.

وإن الجويرية السوداء بالمدينة تجعل في رأسها شيئًا من بلح وشيئًا من نضوح مما لا قيمة له لهوانه على أهله، فتجد لذلك خمرة وطيب رائحة لا يعدلها بيت عروس من ذوي الأقدار؛ حتى إن النوى المنقع الذي يكون عند أهل العراق في غاية النتن إذا طال إنقاعه يكون عندهم في غاية الطيب.

حمى خيبر

يضرب بها المثل، لأن خيبر مخصوصة بالحمى والوباء؛ قال أوس بن حجر (من الطويل):

كأن به إذ جئته خيبرية يعود عليه وردها وملالها

وقال الآخر (من الرجز):

كأن حمى خيبر تمله

وقال أعرابي كثرت عياله وقلَّ ماله: ما أراني إلَّا سأنتجع خيبر عسى أن يخفف عني ثقل هؤلاء. فارتحل إلى خيبر فلما شارفها أنشأ يقول (من الرجز):

قلت لحمى خيبر استعدي وباكري بصالب وورد
هاك عيالي فاجهدي وجدي أعانك الله على ذا الجند

فلما دخلها حم فحم حمامه، وعاش أيتامه.

وقال بعض المحدثين (من السريع):

يا فاتر الظل غليظ الهوى أنت على نفسك لي شاهد
ليست لحمى خيبر رقية تعرف إلَّا شعرك البارد

حمى الأهواز

قال الجاحظ: قصبة الأهواز مخصوص بالحمى الدائمة اللازمة؛ قتالة الغرباء، على أن حماها ليست إلى الغريب بأسرع منها إلى القريب.

وأخبرنا إبراهيم بن العباس، عن مشيخة من أهلها، عن القوابل أنهن ربما قبلن الطفل المولود فيجدنه في تلك الساعة محمومًا؛ يعرفن ذلك ويتحدثن به.

قال: ولم أربها وجنةً حمراء لصبي ولا لصبية، ولا دمًا ظاهرًا ولا قريبًا من ذلك، وإنما وباؤها وحُمَّاها في وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان.

ولقد قلبت كل من نزلها إلى كثير من طبائعهم وشمائلهم، ولا بد للهاشمي، قبيح الوجه كان أو حسنًا، ودميمًا كان أو بارعًا رائعًا من أن يكون لوجهه طبائع يتبين بها من جميع قريش، ومن جميع العرب؛ ولقد كادت البلدة تنقل ذلك وتبدله، ولقد تحيفته، وأدخلت الضنى عليه، وبينت أثرها فيه، فما ظنك بصنيعها في سائر الأجناس!

قال: وليس يؤتى أهلها والطارئون عليها من كثرة الحميات من قبل التخم، ومن قبل الحبط والإكثار، وإنما يؤتون من عين البلدة.

وكذلك جمعت سوق الأهواز الأفاعي في جبلها الطاعن في منازلها، المطل عليها، والجرارات في بيوتها ومقابرها؛ ولو كان في العالم شيء هو شر من الأفعى والجرارة لما قصرت قصبة الأهواز عن توليده وتلقيحه. وبليتها أن من ورائها سباخًا، ومناقع مياه غليظة، وفيها أنهار تشقا مسايل كنفهم، ومياه أمطارهم ومتوضآتهم، فإذا طلعت الشمس فطال مقامها وطالت مقابلتها لذلك الجبل قبل بالصخرية التي فيه تلك الجرارات، فإذا امتلأت يبسًا وحرارة، وعادت جمرة واحدة، قذفت ما قبلت من ذلك عليهم.

وقد تحدث تلك السباخ وتلك الأنهار بخارًا فاسدًا فإذا التقى عليهم ما تحدث السباخ، وما قذفه ذلك الجبل، فسد الهواء، وبفساد الهواء يفسد كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء.

دماميل الجزيرة

الدماميل بالجزيرة كالحمى بالأهواز؛ قال عبد الله بن همام (من الطويل):

به من دماميل الجزيرة ناخس

يقال: داء ناخس ونخيس إذا كان لا يبرأ منه.

قال الجاحظ: أخبرني أبو زرعة قال: مات ضرار بن عمرو وهو ابن تسعين سنة بالدماميل، فقلت له: إن هذا لعجب؛ فقال: كلا، إنما احتملها من الجزيرة.

طحال البحرين

قال الجاحظ في خصائص البلدان عن ثقاة التجار الذين نقبوا في البلاد: من أقام في البحرين مدة ربا طحاله، وانتفخ بطنه؛ كما قال الشاعر (من الطويل):

ومن يسكن البحرين يعظم طحاله ويُغبَط بما فيه بطنه وهو جائع

ومن أقام بقصبة تبت اعتراه سرور لا يدري ما سببه! ولا يزال متبسمًا ضاحكًا حتى يخرج منها.

ومن مشى واختلف في طرقات المدينة وجد فيها عرفًا طيبًا ورائحة عجيبة.

وشيراز من بين جميع بلاد فارس لها نعمة طيبة.

وأجمع أهل البحرين أن لهم بسرًا من فضخه وجعله نبيذًا ثم شربه وعليه ثوب أبيض صبغه عرقه حتى كأنه ثوب لاذ.

ومن أطال الصوم بالمصيصة في أيام الصيف هاج به المرار، وإن كثيرًا منهم قد جنوا من ذلك الاحتراق.

ومن أقام بالموصل حولًا ثم تفقد عقله وجد فيه فضلًا.

ولا بد لكل من قدم من شق العراق إلى بلاد الزنج أنه لا يزال جربًا ما أقام به، فإن أكثر من شراب النازجيل طمس الخُمار على عقله حتى لا يكون بينه وبين المعتوه إلَّا الشيء اليسير.

حساب الهند

قال الجاحظ: لولا خطوط الهند لضاع من الحساب البسيطُ والكثيرُ، ولبطلت معرفة التضاعيف، ولعدموا الإحاطة بالتَّنورات، وتنورات التنورات، ولو أدركوا ذلك لما أدركوه إلَّا بعد أن تغلظ المئونة وتنتقص المنة.

قال غيره: التنور مقدار من مقادير الهند يجمع الأُلف الكثيرة.

قال أبو إسحاق الصابي مهنئًا بالعيد (من الخفيف):

لم أطوِّل في دعوتي لمليك	طول الله في السلامة عمره
بل تلطفت في اختصار محيط	بالمعاني لمن تأمل أمره
فهو مثل الحروف من عدد الهنـ	ـد قليل قد انطوت فيه كثرةْ
جمع الله كل دعوة داع	مستجاب دعاؤه فيه صُبرةْ
وأعاد العيد الذي زاره العا	م بيمن يحوزه ومسرةْ
وأراه الآمال فيه ولقا	ه سعاداته ووفاه أجره

لواط خراسان

قال الجاحظ: كان السبب الذي أشاع في أهل خراسان اللواط وعودهم ذلك، كثرة خروجهم في البعوث، وكانوا لا يستطيعون إخراج النساء والجواري معهم، ولم يكن لهم بد من غلمان تهيئ مؤنهم؛ فلما طال مكث الغلام مع صاحب بالليل والنهار، وفي حال التبذل والتكشف، وفي حال اللباس والستر، وكانت الغلمة تهيج بهم، شغفوا بغلمانهم وهم فحول، والرجل يهيج فيواقع البهيمة ويخضخض بيده، ومن كان كذلك لم يميز بين غشيان البهائم والتدليك، وبين غنج الغلمان الحسان، فتعودوا ذلك في أسفارهم، ورجعوا إلى منازلهم وقد تمكنت تلك الشهوة فيهم مع الذي لهم فيه عند أنفسهم من خفة المؤونة والأمن من السلطان، ومن الحبل، وغير ذلك من المرافق.

ولو كانت هذه الشهوة شائعة في الأعراب لتعشقوا الغلمان، ولو تعشقوهم لنسبوا لهم، ولجاءهم فيه باب من النسيب، ولتهاجوا به وتفاخروا، ولتنافسوا في الغلمان؛ ويجري في ذلك من الشر ما لا يخفى، ولحدثت فيه أشعار وأخبار.

والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني، وإن كان هناك شيء من هذا فليس هو إلَّا في بعض من ينزل قارعة الطريق، أو يقرب الأسواق؛ وهؤلاء ليس فيهم من خصال الأعرابية إلَّا الجوهرية؛ فأما الأخلاق والفصاحة والأنفة والفروسية فهم على خلاف ذلك كله.

وقد ذكر الناس أن بالهند شيئًا من هذه الفاحشة ليس بالفاشي؛ وذكروا بعض أهل البلدان وبعض قبائل الجاهلية وبعض ملوك اليمن بهذا الشأن؛ ولكن لم نجد الأشعار بذلك متسقة، والأخبار به متفقة.

هواء جرجان

أنشدت للصاحب (من الخفيف):

نحن والله من هوائك يا جر — جان في حيرة وأمر شديد
رها ينضج الجلود فإن هبْـ — ـبت شمال تكدرت بركود
كحبيب مواصل كلما همْـ — ـمَ بوصل أحاله بصدود

وهواء جرجان موصوف بشدة تغيره، وفرط تفاوته، واختلافه في يوم واحد؛ كما قال بعض أهل العصر (من الطويل):

ألا رب يوم لي بجرجان أرعن — ضحكت له من خرقه أتعجب
وأخشى على نفسي اختلاف هوائها — وما للفتى مما قضى الله مهرب
وما خير يوم أخرق متلون — ببرد وحر بعده يتلهب
فأوله للقر والجمر يثقب — وآخره للثلج والخيش يضرب

وهواء البصرة أيضًا يوصف بما يوصف به هواء جرجان؛ قال ابن لَنْكك (من مجزوء الرمل):

نحن بالبصرة في لو — ن من العيش ظريف
نحن ما هبت شمال — بين جنات وريف
فإذا هبت جنوب — فكأنا في كنيف

برد همذان

همذان موصوفة من بين بلدان الجبل بشدة البرد؛ وما هي بأشد البلاد بردًا ولكن المثل سائر ببردها؛ وقد أكثر الشعراء في وصفها؛ قال أبو علي كاتب بكر (من السريع):

يا بلدة أسلمني بردها وبدر من يسكنها للقلق
لا يسلم الشاتي بها من أذى من زهق أو نتق أو زلق

وقال آخر (من الكامل):

همذان متلفة النفوس ببردها والزمهرير، وحرها مأمون
غلب الشتاء ربيعها وخريفها فكأنما تشرينها كانون

وقال ابن خالويه (من الطويل):

إذا همذان اعتادها القر وانقضى برغمك أيلول وأنت مقيم
فعينك عمشاء وأنفك سائل ووجهك مسود البياض بهيم
وأنت أسير البرد تمشي بعلة على السيف تحبو مرة وتقوم
بلاد إذا ما الصيف أقبل جنة ولكنها عند الشتاء جحيم

الباب السابع والأربعون

في الجبال والحجارة

ثقل أحد، ثالثة الأثافي، ابنة الجبل، قسوة الحجر، ظل الحجر، نقش الحجر، رشح الحجر، حجر المغناطيس، قالب الصخر.

الاستشهاد

ثقل أحد

من الجبال التي يتمثل بها في الثقل أحد، وهو جبل المدينة؛ وفيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أحد جبل يحبنا ونحبه».

ويروى: «جبل يعرفنا ونعرفه».

وقال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز من قصيدة (من البسيط):

وصرت في ثقل أحد عنده ورأى   في طلعتي رأي أهل الرفض في عمر

ومن الجبال التي يضرب بها المثل في الثقل ثهلان، وهو بالعالية؛ ويقال لها ثهلان الجوع ليبسه وقلة خيره؛ وفيه قيل (من البسيط):

ثهلان ذو الهضبات ما يتحلحل

ومنها عماية، وهي البحرين؛ ومنها أبو قبيس وهو بمكة شرفها الله تعالى.

ثالثة الأثافي

هي قطعة من الجبل، ومعناها أن يوضع أثفيتان إلى جانب قطعة من الجبل، ثم توضع القدر على الأثفيتين والقطعة من الجبل.

ومن أمثال العرب: رماه بثالثة الأثافي؛ أي: بما يهلكه.

ومن أحسن ما قيل في استعمال ثالثة الأثافي قول بديع الزمان من قصيدة (من الوافر):

خلقت كما ترى صعب الثقاف أرد يد الخليفة في الخلاف
ولي جسد كواحدة المثاني له كبد كثالثة الأثافي

يعني القطعة من الجبل.

فانظر إلى حسن ما لفق بين الواحدة وبين الثانية والثالثة، على بعد ما بين الجنسين من الكثافة والنحافة!

ابنة الجبل

يعني القطعة من الجبل، ضربت مثلًا في الثقل.

قسوة الحجر

يضرب بها المثل. كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

قال الأصمعي: ومن أمثالهم: هو أقسى من حجر.

وقال كثير (من الطويل):

كأني أنادي صخرة حين أعرضت | من الصم لو تمشي بها العصم زلت

ظل الحجر

يشبه به كل شيء أسود كثيف، لأن ظل كل شيء أسود، وظل الحجر أشد سوادًا، لأنه مصمت لا يتخلله خلل؛ قال الراجز (من الرجز):

كأنما وجهك ظل من حجر

وقال آخر (من الرجز):

سود غرابيب كأظلال الحجر | لا صغر أزرى بها ولا كبر

نقش الحجر

يضرب مثلًا لما يثبت ويبقي ولا يضمحل.

ومن أمثال المؤدبين: التعلم في الصغر كالنقش في الحجر، والتعلم في الكبر كالكتابة في الماء.

وسمع الأحنف بهذه الكلمة فقال: الكبير أكبر عقلًا لكنه أكثر شغلًا.

رشح الحجر

يضرب مثلًا للبخيل يجود بالشيء القليل على عسرة ونكد، والرشح أدنى ما يكون من السيلان؛ وكذلك البض.

ومنه قولهم: فلان ما يبض حجره ولا يثمر شجره.

وكان عبد الملك بن مروان يلقب: رشح الحجر، لبخله.

حجر المغناطيس

هو الذي يجذب الحديد بطبعه، فيضرب مثلًا للجاذب الشيء إلى نفسه؛ كما قال ابن طباطبا (من الكامل):

بأبي الذي نفسي عليه حبيس ما لي سواه من الأنام أنيس
لا تنكروا أبدًا مقاربتي له قلبي حديد وهو مغناطيس

قالب الصخرة

يضرب به المثل، فيقال: أطمع من قالب الصخرة.

وكان رجل من معد رأى صخرة عظيمة ببلاد اليمن مكتوبًا عليها بالمسند:

اقلبني أنفعك.

فاحتال في قلبها ولقي الأمرين من ذلك، فإذا على الجانب الآخر:

رب طمع هدى إلى طبع.

فما زال يضرب برأسه الحجر تلهفًا حتى انتثر دماغه ومات.

الباب الثامن والأربعون

في المياه وما يضاف إليها

ماء زمزم، ماء صداء، ماء مأرب، ماء المفاصل، ماء الغادية، ماء السماء، ماء طريق الحج، ماء عناق، ماء الوجه، ماء الشباب، ماء الحسن، ماء الندى، ماء النعيم، ماء الكرم، ماء الظرف، لاعق الماء، أديم الماء، جلدة الماء، سيل العرم، درج السيول، نيل مصر، عجائب البحر.

الاستشهاد

ماء زمزم

يتمثل بشرفه على سائر المياه لشرف مكانه، فيقال: كأنه ماء زمزم، وليس هذا ماء زمزم.

ويقال: إنه هزمة جبريل عليه السلام، وإنه لما شرب له؛ ومن يحصي فضائله!

فكم من مبتلى قد عوفي بالمقام عليه والشرب منه والاغتسال به، بعد أن لم يدع في الأرض حمة إلَّا أتاها واستنقع فيها!

وكم من متزود منه في القوارير إلى أقاصي البلاد لدوائه، وغاسل ثيابه بمائه؛ لما يرجوه من بركته وحسن عائدته!

قال الأعشى وهو يؤنب رجلًا ويخبره أنه مع شرفه لم يبلغ مبلغ قريش الذين هم سكان حرم الله، ولهم حظ الشرب من زمزم (من الطويل):

فما أنت من أهل الحجون ولا الصفا ولا لك حظ الشرب من ماء زمزم

وقال أبو هفان وهو يمدح رجلًا (من الرجز):

لو كنت نوءًا كنت نوء المرزم أو كنت ماء كنت ماء الزمزم

ماء صَدَّاء

صداء بئر ماؤها أعذب مياه العرب؛ وفيها يقول ضرار السعدي (من الكامل):

وإني وتهيامي بزينب كالذي يحاول من أحواض صداء مشربا

وقال غيره (من الطويل):

كصاحب صداء الذي ليس واجدًا كصداء ماء ذاقه الدهر شارب

ومن أمثال العرب: ماء ولا كصداء؛ أي: هذا ماء لا بأس به، ولكن ليس كماء صداء، يضرب لما يحمد بعض الحمد ويفضل عليه غيره؛ كما يقال: مرعى ولا كالسعدان.

ماء مأرب

مأرب اسم قصر ملك سبأ، ثم صار اسمًا للبلدة، وهي التي وصفها الله بالطيب، فقال: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ولا أطيب مما وصفه الله تعالى بالطيب ولا أعذب من مائه.

ومأرب هي التي أرسل الله تعالى عليها سيل العرم؛ والمثل مضروب بعذوبة ماء مأرب؛ قال جابر بن رالان في وصفه وأحسن كل الإحسان (من الطويل):

أيا لهف نفسي كلها التحت لوحة على شربة من ماء أحواض مأرب
بقايا نطاف أودع الغيم صفوها مصقلة الأرجاء زرق الجوانب
ترقرق دمع المزن فيهن والتقت عليهن أنفاس الرياح الجنائب

وللصاحب من فصل: أنا على حافة حوض ذي ماء أزرق، كصفاء مودتي لك، ورقة قولي في عتبك، ولو رأيته لأنسيت أحواض مأرب، ومشارع أم غالب.

ماء المفاصل

من أمثال العرب: أصفى من ماء المفاصل؛ والمفاصل: جمع المفصل بين الجبلين، وماؤه أصفى ما يكون وأرقه. قال الشاعر (من الكامل):

صفراء من حلب الكروم كأنها ماء المفاصل أو لعاب الجندب

وقال أبو ذؤيب (من الطويل):

يشاب بماء مثل ماء المفاصل

وزعم بعض الرواة أن ماء المفاصل هو ماء اللحم الطري؛ واحتج بقول كثير في الخمر (من الطويل):

وما قرقفٌ من أذرُعاتٍ كأنَّها إذا نزلت مِن دَنِّها ماءُ مفصِلِ

ويجوز أن يكون شبه الخمر بما تقدم ذكره من ماء المفاصل في رقته وصفائه لا بماء اللحم في حمرته.

ماء الغادية

من أمثال العرب عن أبي عمرو: أعذب من ماء الغادية، وأعذب من ماء البارق؛ والغادية: السحابة التي تغدو، والبارق: السحاب الذي يكون فيه البرق.

ماء السماء

المنذر بن ماء السماء، ينسب إلى أمه، وكانت تسمى ماء السماء تشبيهًا به في الحسن والصفاء والطهارة، وهو المنذر بن امرئ القيس بن النعمان بن امرئ القيس بن عدي؛ وأمه من النمر بن قاسط، وأبوها عوف بن جشم.

ماء طريق الحج

يضرب مثلًا لما يستعمل على علاته ويذم، كما يقال: خبز الشعير يؤكل ويذم؛ قال ابن المعتز (من الطويل):

وصاحب سوء وجهه لي أوجه	وفي فمه طبل بسري يضرب
ولا بد لي منه فحينًا يغصني	وينساغ لي طورًا ووجهي مقطب
فماء طريق الحج في كل منهل	يذم على ما كان منه ويشرب

ماء عناق

ماء عناق؛ من أمثال العرب؛ يضرب للداهية وللأمر الملتبس.

وكان من حديثه أن رجلًا بينا هو يستقي وبيته تلقاء وجهه إذ نظر فإذا برجل قد عانق امرأته يقبلها، فأخذ العصا وأقبل مسرعًا، فلما رأته المرأة أخفت الرجل فيما بين النضد، فنظر يمنة ويسرة فلم ير شيئًا، فنظر في الأرض فلم يبصر أحدًا، فكذب بصره وكر راجعًا، فلما كان الورد الثاني قالت المرأة: هل لك في أن أكفيك السقي وتتورع اليوم؟ قال: نعم، إن شئت؛ فأقام في البيت وانطلقت تسقي، وتحينت منه غفلة، فأخذت العصا ثم أقبلت حتى علت رأسه؛ فقال: ويلك! ويلك! وما دهاك! قالت: أين المرأة التي رأيتك معها معانقًا لها؟ فقال: والله ما كانت عندي امرأة، قالت: بل أنا نظرت إليها بعيني وأنا على الماء، فتحالفا، فلما أكثرت قال: إن تكوني صادقة فإن ماءكم هذا ماء عناق؛ فصار مثلًا يضرب في الدواهي.

ماء الوجه

العرب تستعير في كلامها الماء لكل ما يحسن موقعه ومنظره، ويعظم قدره ومحله، فتقول: ماء الوجه، وماء الشباب، وماء السيف، وماء الحيا، وماء النعيم؛ كما تستعير الاستقاء في طلب كل خير.

قال علقمة بن عبدة (من الطويل):

وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشأس من نداك ذنوب

وقال رؤبة (من الرجز):

يا أيها الماتح دلوي دونكما إني رأيت الناس يحمدونكا

وهما لم يستقيا ماء، وإنما طلب أحدهما مالًا، واستطلق الآخر أسيرًا، وكذلك سموا السائل والمجتدي مستميحًا، وإنما الميح جمع الماء في الدلو.

وغاية دعائهم للمرجو والمشكور أن يقولوا: سقاك الله؛ فإذا تذكروا أيامًا طابت لهم قالوا: سقى الله تلك الأيام.

وربما دعوا لديار المحبوب بالسقيا كما قال طرفة (من الكامل):

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

فأما قولهم: ماء الوجه، فهو عبارة عن الحياء الذي هو أفضل من الماء، وقد أحسن أبو تمام في قوله لأبي سعيد الطائي (من البسيط):

رددت رونق وجهي في صحيفته رد الصقال بماء الصارم الخذم
وما أبالي وخير القول أصدقه حقنت لي ماء وجهي أم حقنت دمي

وسرقه اللحام فقال (من البسيط):

ما إن أرقت بحرصي قطرة فجرت من ماء وجهي إلَّا خلت ذاك دمي

وربما أريد بماء الوجه: رونق الحسن، كما قال أبو تمام (من الكامل):

نكرت فتى أذرى بنضرة وجهه وبمائه نكد الخطوب ولومها

وكما قال أبو الطيب (من الكامل):

ولقد بكيت على الشباب ولِمَّتِي مسودة ولماء وجهي رونق

ولا مزيد على حسن قول ابن المعتز (من الخفيف):

لم ترد ماء وجهه العين إلا شرقت قبل ريها برقيب

ولأبي تمام استعارات في الماء أحسن في أكثرها، كقوله في وصف نساء ثكالى (من البسيط):

خاضت محاسنها مخاوف غادرت ماء الصبا والحسن غير زلال

وقوله في الأفشين (من البسيط):

قد كان بوأه الخليفة منزلًا من قلبه حرمًا على الأقدار
فسقاه ماء الخفض غير مصرد وأنامه في الأمن غير غرار

وقوله وهو يرثي من قصيدة أولها (من المتقارب):

نعاء إلى كل حي نعاء فتى العرب اختل ربع الفناء
ألا أيها الموت فجعتنا بماء الحياة وماء الحياء

وقد أغار السري الموصلي عليه في هذين الماءين ونقلهما إلى المدح حيث قال (من المتقارب):

وكف ترقرق ماء الحياة ووجه يرقرق ماء الحياء

وقوله — أعني أبا تمام — (من الوافر):

وكيف ولم يزل للشعر ماء يرف عليه ريحان القلوب

وقوله (من البسيط):

محمد بن حميد أخلقت رممه		أريق ماء المعالي مذ أريق دمه

فقد أحسن كما تراه في استعارة ماء الصبا والحسن، وماء الخفض، وماء الحياة، وماء الشعر، وماء المعالي.

وأما في استعارة ماء الملام حيث قال (من الكامل):

لا تسقني ماء الملام فإنني		صب قد استعذبت ماء بكائي

فإنما تحسن الاستعارة بما يحسن فيه التشبيه والتمثيل.

ولم يحسن في قوله ولم يسئ، إذ قال (من الوافر):

تمنت أن يعود لها حبيب		منى شططًا وأين لها حبيب!

ويستظرف قول الصنوبري في مرثية غلام (من الخفيف):

إن يرق ماء ذلك الوجه في التر		ب فإني لماء عيني مريق

ماء الشباب

قد أكثر الشعراء في ذكره، وأحسنوا التصرف فيه؛ قال أبو محمد الفياضي (من الوافر):

وما بقيت من اللذات إلا		محادثة الكرام على الشراب
ولثمك وجنتي قمر منير		يجول بخده ماء الشباب

وقال أبو الفتح بن العميد (من الكامل):

عودي وماء شبيبتي في عودي		لا تعمدي لمقاتل المعمود

وجمع ابن الرومي في مرثيته قينة بين ثلاثة مياه مستعارة، فقال (من المنسرح):

يا حر صدري على ثلاثة أمـ ـواه أريقت في الترب والمدر
ماءي شباب ونعمة مزجا بماء ذاك الحياء والخفر

ثم جاء بماء رابع فقال:

تبتل العود بعد فقدكم وازدجر اللهو أي مزدجر
وغاض ماء النعيم بعدكم وانهمر الدمع أي منهمر

ماء الحسن

من أحسن ما قيل فيه، قول ابن المعتز (من الرمل):

لي مولى لا أسميه كل شيء حسن فيه
تصف الأغصان قامته بتثن كتثنيه
ويكاد البدر يشبهه وتكاد الشمس تحكيه
كيف لا يخضر عارضه ومياه الحسن تسقيه!

ماء الندى

قال العتابي وأحسن (من الطويل):

أتتركني جدب المحلة ضنكها وكفاك من ماء الندى تكفان

وقال البحتري (من الطويل):

وما أنا إلَّا غرس نعمتك الذي أفضت له ماء النوال فأورقا

وقفت بآمالي عليك جميعها فرأيك في إمساكهن موفقا

وقال أيضًا وزاد في الإحسان (من الوافر):

ووجه جال ماء الجود فيه على العرنين والخد الأسيل
يريك تألف المعروف فيه شعاع الشمس في السيف الصقيل

ماء النعيم

من أحسن ما قيل فيه قول أبي الفتح كُشاجِم (من الخفيف):

ويح عين لم ترو من ماء وجه قد سقاه الشباب ماء النعيم
ما التقينا وأحمد الله إلا مثل ما تلتقي جفون السليم

وقال السري في مزين (من المتقارب):

إذا لمع البرق في كفه أفاض على الوجه ماء النعيم

ماء الكرم

قد أكثروا في ذكره، ومن أحسن ما قالوا فيه (من الوافر):

فإن الكرم من كرم وجود وماء الكرم للرجل الكريم

ماء الظرف

ظرف الصاحب في استعارة الماء للظرف حيث قال (من الرجز):

وشادن أحسن في إسعافه يقطر ماء الظرف من أعطافه

لاعق الماء

من أمثال العرب: أحمق من لاعق الماء، وأحمق من ماطخ الماء؛ قال الشاعر (من الطويل):

وأحمق ممن يلعق الماء قال لي: دع الخمر واشرب من قراح معنبر

أديم الماء

يستعار الأديم للماء كما يستعار للسماء؛ فأما استعارته للماء فكما قال كُشاجِم في وصف سمكة (من الرجز):

وابنة ماء في أديم ماء بيضاء مثل الفضة البيضاء

وأما استعارته للسماء فكما قال أبو عثمان الناجم في لابسة أزرق اسمها قتول (من الخفيف):

ما تعدت قتول أن لبست زِيْـ ـيًا شبيهًا بوجهها ذي البهاء
لبست أزرقًا فجاءت بوجه يشبه البدر في أديم السماء

جلدة الماء

استعار البحتري الجلدة للماء في قوله (من الكامل):

أبديت لي عن جلدة الماء الذي قد كنت أعهده كثير الطحلب

كما استعارها للسماء ابن المعتز في قوله (من الرجز):

يا ربما نازعته روح دنان صافيةْ
في روضة كأنها جلد سماء عاريةْ

سيل العَرِم

قد تقدم ذكره عند فأرة العرم، وفي هذا الباب عند ذكر مأرب.

وسيل العرم هو الذي خرب سبأ وأهلك أهلها، وذكره الله تعالى في قصة سبأ فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾.

وقد اختلفوا في العرم، فقال ابن عباس: هو اسم الوادي.

وقال مجاهد: هو اسم السد.

وقال أبو عبيدة والكسائي: هو المسناة.

وقال جعفر الصادق: هو اسم الجرذ الذي ثقب السد.

وسيل العرم مثل في الدواهي العظام التي تفرق الناس وتمزقهم.

كما يقال للقوم إذا تفرقوا بهلاك بعضهم وانتشار آخرين: ذهبوا أيدي سبأ.

درج السيول

من أمثال العرب: هم درج السيول؛ وله معنيان: أحدهما الإذلال، والآخر العود في موضع الذهاب والفناء، يقال: رجع فلان أدراجه، أي: من حيث جاء.

ومن أمثالهم: من يرد السيل على أدراجه! وأدراج السيول: مجاريها؛ قال الشاعر (من الوافر):

أنهب للمنية تعتريهم   رجالي أم هم درج السيول

نيل مصر

يضرب به المثل كما يضرب بالبحور، قال الأعشى (من الطويل):

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه   ولا بحر بانقيا إذا راح مفعما

بأجود منه نائلًا، إنَّ بعضهم إذا سئل المعروف صد وجمجما

قال الجاحظ: كفاك ما نيل مصر عليه من خلاف جميع الأودية، ونضوبه في وقت زيادة الأودية، وزيادته في وقت نقصان الأودية، وليست التماسيح في شيء من الأودية إلَّا فيه، ومضرتها معروفة بلا منفعة بوجه من الوجوه، ولم ير تمساح قط في دجلة والفرات ولا سيحان ولا جيحان ولا نهر بلخ.

عجائب البحر

في الخبر: «حدثوا عن البحر ولا حرج».

وقيل لبعض ركاب البحر: ما أعجب ما رأيت من عجائب البحر؟ قال: سلامتي منه!

قال الجاحظ: ما ظنك بماء إذا خبث وملح ولد الدر وأثمر العنبر.

وركب بعض الأعراب البحر مرة فرأى الأهوال من أمواجه، ثم أتاه مرة أخرى وهو ساكن، فقال: لا يغرني حلمك، فإن عندي من جهلك العجائب.

قال الجاحظ: وليس ذلك بأعجب من شيء قد عاينه جميع من يركب البحر، وذلك لأن الطائر من طيره يطير في الهواء فيعبث به طائر صغير، فإذا أضجره ذلك ذرق فتلقاه الطائر فابتلعه، فلا هو يخطئ بذلك الذرق حلق الطائر الصغير، ولا الطائر الصغير يجهل مكان ذرقه وما يعيشه من ذلك الطائر الكبير.

والدُّخَس من دواب البحر، ومما يعايش السمك وليس بسمك، وهو يعرض للغريق ويدنو منه حتى يضع الغريق يده على ظهره فيسبح به؛ والغريق يذهب معه ويستعين بالاعتماد عليه، والتعلق به حتى ينجيه، وهذا عند البحريين مشهور لا يتدافعونه.

الباب التاسع والأربعون

في النيران

نار الله، نار إبراهيم، نار موسى، نار القربان، نار الحرتين، نار الشجر، نار القرى، نار الحرب، نار الحلف، نار المسافر، نار المجوس، نار الاصطلاء، نار التهويل، نار الإنذار، نار الاستكثار، نار الاستمطار، نار الصيد، نار الزحفتين، نار الغضى، نار الحلفاء، نار الحباحب، نار البرق، نار المعدة، نار الحمى، نار الشوق، نار الشر، نار الحياة، نار الشراب، نار الشباب، نار الكي، نار الذبالة، قبسة العجلان، فراش النار، كلاب النار، سرادق النار، سعد النار، نافخ ضرمة.

الاستشهاد

نار الله

قد تقدم ذكرها فيما يضاف إلى اسم الله تعالى، وهي نار الله التي أوعدها عباده.

قال الجاحظ: معلوم أنه عز ذكره عذب الأمم في هذه الدنيا بالغرق، والرياح، وبالحاصب، والرجم، وبالخسف، والمسخ، وبالجوع، والنقص من الثمرات؛ ولم يبعث عليهم نارًا كما بعث عليهم ماء وريحًا وأحجارًا، وإنما جعلها في عقاب الآخرة وعذاب العقبى، ونهى عن أن يُعذَّب بها شيء من الحيوان؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تعذبوا بعذاب الله»، فقد عظمها كما ترى.

وخبر أنه تعالى بها ينتقم في الآخرة من جميع أعدائه، وليس يستوجبها بشر بصنيع ولا ظلم ولا جناية، ولا يستوجب النار إلَّا بعداوة الله، وبها يشفي صدور أوليائه من أعدائهم في الآخرة.

نار إبراهيم

قد تقدم ذكرها في باب ما يضاف إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهي مثل في البرد والسلامة.

وفي كتاب الأمثال المولدة؛ أنه يقال للمستعجل: ليس هذا نار إبراهيم.

وذكرها الخوارزمي في بيت له متمثلًا وهو يصف الانخزال وكسوف البال، فعدل بالمثل عن وجهه حيث قال (من الكامل):

فكأنني في سجن يوسف، أو أسى يعقوب، أو في نار إبراهيما

وإنما توصف نار إبراهيم بالبرد والسلامة لا بالحر والشدة، ولأنها إحدى المعجزات.

وفي الكتاب المبهج: خير الشراب ما يورد ريح الورد، ويحكي نار إبراهيم في اللون والبرد.

نار موسى

قد تقدم ذكرها، ووجه ضرب المثل بها للشيء اليسير يطلب فيتوصل بسببه إلى الشيء الخطير، والغنيمة الباردة.

وذلك أنه — كما نطق به القرآن في مواضع كثيرة — ذهب يقتبس نارًا فكلم الله تكليمًا.

نار القربان

هي التي جعلها الله آية لبني إسرائيل في موضع امتحان إخلاصهم، وتعرف نياتهم.

فكانوا يتقربون بالقربان، فمن كان مخلصًا نزلت نار من السماء حتى تحيط به فتأكله؛ ومتى لم يروها وبقي القربان على حاله قضوا بأنه مدخول القلب فاسد النية؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ

عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾.

والدليل على أن ذلك قد كان من شأنهم معلومًا قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال الجاحظ: ثم إن الله تعالى ستر على عباده، وجعل بيان ذلك في الآخرة، وكان ذلك التدبير مصلحة في ذلك الأمر، ووفق طبائعهم وعللهم، وقد كان القوم من المعاندة ومن الغباوة على مقدار لم يكن لينجع فيهم ويكمل لمصلحتهم إلَّا ما كان في هذا الوزن.

نار الحرتين

هي التي ذكرها الشاعر في قوله (من الوافر):

كنار الحرتين لها زفير يصم مسامع الرجل السميع

وهي نار خالد بن سنان أحد بني مخزوم من بني عبس، ولم يكن من ولد بني إسماعيل عليه السلام نبي قبله؛ وهو الذي أطفأ الله به نار الحرتين، وكانت حرة ببلاد عبس، إذا كان الليل فهي نار تسطع في السماء، وكانت طيئ تنفش بها إبلهم من مسيرة ثلاث ليال، وربما ندرت منها عنق فتأتي على كل شيء فتحرقه؛ وإذا كان النهار فإنما هي دخان يفور؛ فبعث الله خالد بن سنان، فحفر لها بئرًا، ثم أدخلها فيها والناس ينظرون، ثم اقتحم فيها حتى غيبها.

فلما حضرته الوفاة قال لقومه: إذا أنا مت ودفنتموني فاحضروا بعد ثلاث؛ فإنكم ترون عيرًا أبتر يطوف بقبري، فإذا رأيتم ذلك فانبشوني فإني مخبركم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

فاجتمعوا لذلك في اليوم الثالث من موته، فلما رأوا العير وذهبوا لينبشوا اختلفوا وصاروا فريقين؛ وابنه عبد الله في الفرقة التي أبت نبشه، وهو يقال: إذًا، أُدْعى ابن المنبوش! فتركوه.

ويروى أن ابنته قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبسط لها رداءه وقال: «هذه ابنة نبي ضيعه قومه».

وسمعت سورة الإخلاص فقالت: كان أبي يتلو هذه السورة.

قال الجاحظ: والمتكلمون لا يؤمنون بهذا، ويزعمون أن خالدًا هذا كان أعرابيًا وبريًا، ولم يبعث الله قط نبيًا من الأعراب ولا من أهل الوبر، وإنما بعثهم من أهل القرى وسكان المدن.

و﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

نار الشجر

هي التي ذكرها الله تعالى في كتابه، وامتن بها على عباده، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾، يريد عيدان الاستقداح؛ والمرخ والعفار أكثرها في ذلك وأسرعها قدحًا.

ومن أمثالهم: في كل شجر نار، واسمتجد المرخ والعفار.

وما أحسن ما قال أبو تمام في استجلاب بادرة الحليم المحرج (من البسيط):

أخرجتموه بكرهٍ من سجيته والنار قد تنتضى من ناضر السلم

أوطأتموه على جمر العقوق ولو لم يحرج الليث لم يبرح من الأجم

قال الجاحظ: قد ذكر الله نعمته في هذه النار التي هي من أكثر الماعون، وأعظم المنافع والمرافق في هذه الدنيا على عباده، فقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ❋ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ❋ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، فكم تحت قوله: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ من تبصرةٍ، بما فيها من مقادير النعم وتصاريف النقم.

ووجه آخر من امتنان الله تعالى على خلقه كقوله للثقلين: «يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران»؛ ثم قال على صلة الكلام: «فبأي آلاء ربكما تكذبان»؛ لا يريد أن إحراق الله العبد بالنار من آلائه ونعمائه، ولكنه أراد أن الوعيد الصادق، إذا كان في غاية الزجر عما يطغيه ويرديه، فهو من النعم السابغة والآلاء العظام.

نار القرى

هي مذكورة على الحقيقة لا على المثل، وهي من أعظم مفاخر العرب، وأشرف مآثرها؛ وهي النار التي كانت ترفع للسفر ولمن يلتمس القرى، فكلما كان موضعها أرفع كانت أفخر.

والأشعار فيها كثيرة، ومن أحاسنها قول الأعشى (من الطويل):

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة   إلى ضوء نار في يفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانا   وبات على النار الندى والمحلق

والمحلق: هو الذي مدحه.

قال الجاحظ: وأحسن من هذا الشعر في هذا المعنى ومن كل شعر في معناه قول الحطيئة (من الطويل):

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

قال: وما ينبغي أن يمدح بهذا البيت إلَّا خير أهل الأرض.

وأنشد عمر رضي الله عنه هذا البيت، فقال: ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن أحسن ما قيل في هذه النار قول الشاعر (من الوافر):

له نار تشب بكل واد   إذا النيران ألبست القناعا
ولم يكن أكثر الفتيان مالًا   ولكن كان أرحبهم ذراعًا

وما أكرم وأشرف من قال وهو يأمر غلامه بالإيقاد والاستجلاب للأضياف (من الرجز):

أوقد فإن الليل ليل قر   والريح ما تراه ريح صر
عسى يرى نارك من يمر   إن جلبت ضيفًا فأنت حر

وقد جمع ابن الرومي بين نار القرى ونار الحرب في قوله لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر، حيث قال (من الوافر):

له ناران نار قرى وحرب   ترى كلتيهما ذات التهاب

نار الحرب

هي على طريق المثل والاستعارة، لا على طريق الحقيقة، كما قال جل ذكره: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾.

وقد أكثر الشعراء والبلغاء من ذكرها؛ وجاء الصاحب فأربى على المغالين في وصفها، حيث كتب من رسالة له:

شبت الحرب واشتعلت نارها، واستطار شرارها، وثار عجاجها، وهال ارتجاجها.

ومن أخرى: حمي وطيسها، واعتبطت نفوسها.

ومن أخرى: قدحت نار القراع، وجالت قداح المصاع، وتكايل الشجعان صاعًا بصاع.

ومن أخرى: دارت رحى الحرب واستعرت جمرة الطعن والضرب.

ومن أخرى: اشتكت تصرف نابها، وتكشف ساقها؛ واستعر أوارها، فحمي وطيس المراس، ودنت التراس من التراس.

نار الحِلْف

هي التي كانت العرب توقدها عند التحالف، فلا يعقدون حلفهم إلَّا عندها، ويذكرون عند ذلك مرافقها، ويدعون الله على من ينقض العهد بالحرمان من منافعها؛ وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم، ويهولون الأمر فيها؛ قال أوس بن حجر يصف عيرًا على نشز (من الطويل):

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صدر عن نار المهوِّل حالف

نار المسافر

هذه نار توقدها العرب خلف المسافر الذي لا يحبون رجوعه.

وكان في الدعاء على الغائب: أبعده الله وأسحقه، وأوقد نارًا على أثره! وهو معنى قول بشار؛ وضربه مثلًا (من المتقارب):

صحوت وأوقدت للجهل نارًا ورد عليك الصبا ما استعارا

وقال آخر (من الطويل):

وجمة أقوام حملت ولم تكن لتوقد نارًا إثرهم للتندم

والجمة: الجماعة يمشون في الدم وفي الصلح.

يقول: لم تندم على ما أعطيت من الحمالة عند كلام الجماعة، فتوقد خلفهم نارًا لئلا يعودوا.

نار المجوس

قال الجاحظ: ما زال الناس كافة والأمم قاطبة — حتى جاء الله بالحق — مولعين بتعظيم النار، حتى ظن كثير من الناس لإفراطهم أنهم يعبدونها.

ويزعم أهل الكتاب أن الله أوصاهم بها، فقال: لا تطفئوا النيران من بيوتي، ولذلك لا تجد الكنائس والبيع وبيوت العبادات تخلو من نار أبدًا، ليلًا ونهارًا.

فأما المجوس فإنها لم ترض بمصابيح أهل الكتاب حتى اتخذت البيوت للنيران، وأقامت عليها السدنة، ووقفت عليها الغلات الكثيرة، وسجدت لها على جهة التعبد والمحبة وإيجاب الشكر على النعمة.

وقد ضرب المثل بنار المجوس من صحب قومًا فلم يرعوا حق صحبته بهم، وخدمته إياهم، فقال (من مجزوء الكامل):

عمري لقد جربتكم فوجدتكم نار المجوس

وذلك أنها لا تفرق بين من يعبدها ويسجد لها، وبين من يبزق فيها ويبول عليها، بل تعم الجميع بالإحراق إذا أمكنها.

نار الاصطلاء

يضرب بها المثل في الحسن والإمتاع.

كما قالت أعرابية: كنت أحسن من الصلاء في الشتاء.

وقالت أخرى: كنت في أيام شبابي أحسن من النار الموقدة.

وما أحسن ما قال ابن المعتز في وصفها (من الرجز):

وموقدات بتن يضرمن اللهب   يشبعنه من فحم ومن حطب
يرفعن نيرانًا كأشجار الذهب

ومن أبيات التمثيل والمحاضرة (من الكامل):

النار فاكهة الشتاء ومن يرد   أكل الفواكه شاتيًا فليصطل

ويحكى أن أعرابيًا اشتد عليه البرد، فأصاب نارًا، فدنا منها ليصطلي بها، وهو يقول: اللهم لا تحرمنيها في الدنيا والآخرة!

نار التهويل

قد يوقدون النيران يهولون بها على الأسود إذا خافوها. والأسد إذا عاين النار حدق إليها، وتأملها واستهالها، فما أكثر ما تشغله عن السابلة.

ومر أبو ثعلب الأعرج في رفقة بوادي السباع، فعرض لهم سبع؛ فقال له المكاري: لو أمرت غلمانك فأوقدوا نارًا وضربوا الطساس الذي معهم! ففعلوا، فأحجم عنهم الأسد؛ فقال في حبه النار والصوت الشديد بعد بغضه لهما (من الطويل):

فأحببتها حبًا هويت خلاطها   ولو في صميم النار نار جهنم
وصرت ألذ الصوت لو كان صاعقًا   وأطرب من صوت الحمار المرقم

نار الإنذار

كانوا إذا أرادوا حربًا وتوقعوا جيشًا عظيمًا، فأرادوا الاجتماع أوقدوا نارًا ليبلغ الخبر أصحابهم؛ قال عمرو بن كلثوم (من الوافر):

ونحن غداة أوقد في خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا

نار الاستكثار

كانوا إذا نزلوا منزلًا وهم جيش يريدون محاربة قوم، استكثروا من النيران، وأكثروا من الذبح مخافة أن يحزرهم حازر بقلة ذبحهم ونيرانهم، فيستدل على العورة منهم.

نار الاستمطار

كانت العرب في الجاهلية الجهلاء، إذا تتابعت عليهم الأزمات، وركد فيهم البلاء، واشتد الجدب، واحتاجوا إلى الاستمطار، استجمعوا وجمعوا ما قدروا عليه من البقر، وعقدوا في أذنابها وبين عراقيبها السلع والعشر، ثم صعدوا بها في جبل وعر، وأشعلوا فيها النار، وكانوا يرون ذلك من أسباب السقيا؛ وفيهم يقول الودك الطائي (من البسيط):

لا در در رجال خاب سعيهم يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجاعل أنت بيقورًا مسلعة ذريعة لك بين الله والمطر

نار الصيد

هي التي توقد للظباء وصيدها لتعشى إذا أدامت النظر إليها، وتختل من ورائها.

ويطلب بها أيضًا بيض النعام في أفاحيصها ومكانها. قال طفيل الغنوي (من الطويل):

عوازب لم تسمع نبوح مقامة ولم تر نارًا تم حول مجرم

سوى نار بيض أو غزال بقفرة أغن من الخنس المناخر توأم

وقد وصف السري صيد الليل بالطست والسراج والكلب، وذكر أنه يقال له: صيد الدالوية في أرجوزة هي مثبتة في ديوان شعره.

نار الزحفتين

هي نار أبي سريع، وأبو سريع هو العرفج.

قال قتيبة بن مسلم لعمرو بن عباد بن الحصين: والله للسؤدد أسرع إليك من النار في يبس العرفج.

وإنما قيل لنار العرفج: نار الزحفتين، لأن العرفج إذا التهبت فيه النار أسرعت فيه وعظمت وشاعت واستفاضت في أسرع من كل شيء، فمن كان قريبًا منها يزحف عنها، ثم لا تلبث أن تنطفئ من ساعتها، في مثل تلك السرعة؛ فيحتاج الذي يزحف عنها أن يزحف إليها من ساعته، فلا تزال للمصطلي كذلك، ولا يزال المصطلي بها كذلك؛ فمن أجله قيل لها: نار الزحفتين.

نار الغضى

يضرب بها المثل في الحرارة لأن نار الغضى أحر نار الجمر؛ والغضى من بين سائر العيدان لا يصلح إلَّا للوقود، فكأنه خلق للنار لا غير.

نار الحَلْفاء

يضرب بها المثل في سرعة الإيقاد، كما قال الشاعر (من الهزج):

فما ظنك بالحلفا إذا دبت بها النار

وفي سرعة الانطفاء أيضًا؛ فيقال: نار الحلفاء، سريعة الانطفاء.

نار الحباحب

هي نار الحباحب، ونار أبي حباحب، تضرب مثلًا للشيء يروق ولا طائل فيه؛ وفيها أقاويل مختلفة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الحباحب رجلًا بخيلًا، وكان لا يوقد نارًا بليل كراهية أن يلقاها من ينتفع بضوئها، وكان إذا احتاج إلى إيقادها أوقدها، وإذا أبصر مستضيئًا بها أطفأها؛ فضربت العرب المثل بها وذكروها عند كل شيء لا ينتفع به.

وقال غيره: هي النار التي توريها الخيل بسنابكها من الحجارة إذا وطئتها؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾.

وقال آخرون: هي طائر أحمر الريش، يظهر ما بين المغرب والعشاء فيخيل للناظر أن في جناحيه نارًا.

وقال الجاحظ: هي كل نار تراها العين ولا حقيقة لها عند التماسها، كقدح الخيل من حوافرها النار إذا وطئت المرو والصفا والجلاميد الكبار.

قال النابغة (من الطويل):

ويوقدن بالصفاح نار الحباحب

وقال القطامي (من الطويل):

ألا إنما نيران قيس إذا اشتووا   لطارق ليل مثل نار الحباحب

ويجوز أن تكون قد شبهت النار التي لا منفعة فيها ولا حاصل تحتها بنار الحباحب الذي اقتص ابن عباس رضي الله عنهما قصته.

ووصف بليغٌ انقضاض الكواكب فقال: وإن الفلك ليفتر عن شهب ثواقب، كنيران أبي الحباحب، منقدحة كشرر الرنود، وشعل شظايا الحديد، من كلام طويل.

وقال ابن المعتز (من الطويل):

وحين أخذنا ثأركم من عدوكم   قعدتم لنا تورون نار الحباحب

نار البرق

ما أحسن ما وصفها أعرابي، فقال (من البسيط):

نار تجدد للعيدان نضرتها والنار تشعل عيدانًا فتحترق

يقول: كل نار في الدنيا تحرق العيدان وتستهلكها، إلَّا نار البرق فإنها تجيء بالغيث، فإذا غشيت الأرض أحدث الله للعيدان جدة، وللأشجار أغصانًا لم تكن.

نار المعدة

حكى أبو العيناء، قال: اجتمعنا في مجلس ابن الأعرابي ومعنا الجاحظ والجماز، فأخذنا نتناشد الأشعار، ونتذاكر الأخبار، ووقع الجاحظ والجماز في كياد وملاحاة، فقال له الجماز: هات، كم تعرف في كلام العرب من نار؟ فقال: على الخبير سقطت: نار الحرب، ونار الشر، ونار أبي حباحب، ونار الله الموقدة، ونار المعدة، ونار الطبع، ونار الاصطلاء. فقال الجماز: تركت أبلغ النيران، وأوسعها في البلدان، وأصلحها لشبان الجيران. قال: وما هي؟ قال: نار حر أمك التي ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾. فقال الجاحظ: قد قضيت بأن لها حجابًا وخزانًا، ولكن الشأن في نار حر أمك التي يقال لها: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

نار الحمى

يقال: إن النيران ثلاث: فنار تأكل وتشرب، وهي نار الحمى، تأكل اللحم وتشرب الدم؛ ونار تأكل ولا تشرب، وهي نار الدنيا، قال الشاعر (من مجزوء الكامل):

النار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

ونار لا تأكل ولا تشرب، وهي نار جهنم.

نار الشوق

هي مذكورة على الاستعارة، وكذلك نار الوجد، ونار اللوعة، ونار الغرام، وما أشبهها؛ وقد أكثر الناس فيها نظمًا ونثرًا؛ قال أحمد بن أبي طاهر وهو يهجو المبرد (من الطويل):

ويوم كنار الشوق في قلب عاشق على أنه منها أحر وأوقد
ظللت به عند المبرد قائظًا فما زلت من ألفاظه أتبرد

وقال لي السيد أبو جعفر الموسوي يومًا، وأنا معه على المائدة، وقد قدم لي لون في غاية الحرارة: كأنها طبخت بنار شوقي إليك.

وقال البحتري في نار الوجد (من الوافر):

أما وهواك حلفة ذي اجتهاد يعد الغي فيك من الرشاد
لقد أذكى فراقك نار وجدي وألف بين عيني والسهاد

وقال ابن الرومي (من الكامل):

أترى عليل الوجد يطفئ ناره إلا رضاب الكاعب الغيداء!

وقال أبو تمام في نار اللوعة (من الكامل):

أجدر بجمرة لوعة إطفاؤها بالدمع أن تزداد طول وقود

وقال القاضي أبو الحسن في نار الغرام (من الطويل):

ولو كنت أدري ما أقاسي من الهوى لما حكمت للبين في وصلنا يد
فلا ينكر التخليد في النار عاقل فإني في نار الغرام مخلد

نار الشر

النار قد تستعار في الشر، كما قال بعض الحكماء: من قدح نار الفتنة صار طعامها.

وكما قال ابن الرومي من قصيدة يعزي بها ابن المسيب عن ابنة له (من الطويل):

تعزَّيتَ عمَّن أثمرتك حياته ووَشْك التسلِّي عن ثمارك أجدر
لأن احتيال المرء في ابنٍ وفي ابنة يرجى، وكرُّ الدهر شخصكَ أعسر
وكم من أخي حُرِّيَّة قد رأيته بنار ذوي الإصهار يكوى ويصهر
لعل الذي أعطاك ستر حياتها كساها من اللحد الذي هو أستر

وكما قال أبو القاسم النقيب الموسوي أخو أبي الحسن الموسوي (من الوافر):

ومولى علني صرفًا أجاجًا بما أسقيه من عذب زلال
أرى في وجهه ماء التصافي وفي أحشائه نار التقالي

نار الحياة

هي الحرارة الغريزية؛ وصاحب الجماع مقتبس من نار الحياة، فليكثر أو ليقل.

نار الشراب

قال الصنوبري (من الخفيف):

نار راح ونار خد ونار لحشا الصب في لظاها استعار
ما أبالي ما دام ذا الضيف عندي كيف كان الثلوج والأمطار

وقال كُشاجِم (من الخفيف):

يا خليلي جنباني الرحيقا إنني لست للرحيق مطيقا
قد تيقنت أنها تطرد الهمْـ ـمَ وتلقي إلى السرور طريقا
غير أني وجدت للراح نارًا تلهب الجسم والمزاج الرقيقا

فإذا ما جمعتها ومزاجي حرقتني بنارها تحريقا

وقال (من المتقارب):

فلا تجمعن عليك الضنى بنار المزاج ونار المدام
فإن تكن الراح تنفي الهموم فربتما عرضت للسقام

وأنشدني الخوارزمي لنفسه (من الطويل):

أعد الورى للبر جندًا من الصلا ولاقيته من بينهم بجنود
ثلاث من النيران: نار مدامة ونار صبابات ونار وقود

نار الشباب

أنشدني أبو الفتح البستي لنفسه (من المتقارب):

علي بها لا كنار الخليل فبرد المدام يزيد الفتورا
ولكن كنار الشباب التي تحيي النفوس وتحيي السرورا
إذا شرب المرء منها ثلاثًا رأى الناس من فوق خديه نورا

نار الكي

يضرب بها المثل للأمر يقدر فيه الخير فيكون على الضد؛ وذلك أن رجلًا رأى دخانًا فظنه من نار الطبيخ فتبعه، فإذا هو من نار الكي.

قال ابن المعتز (من السريع):

لا تتبعن كل دخان ترى فالنار قد توقد للكي

نار الذبالة

يشبه بها الحاسد الذي تضحك إليه، وهو يحترق حسدًا عليك، كما قال ابن المعتز (من الكامل):

كم حاسد حنق علي بلا جرم فلم يضررني الحنق
متضاحك نحوي كما ضحكت نار الذبالة وهي تحترق

ويشبه بها أيضًا من ينفع غيره ويضر نفسه، كما قال العباس بن الأحنف (من المنسرح):

أحرم منكم بما أقول وقد نال به العاشقون من عشقوا
صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق

وقال آخر (من الكامل):

وفتيلة المصباح تحرق نفسها وتضيء للساري وأنت كذاكا

ولأبي إسحاق الصابي من رسالة:

أنت ناصب نفسك بينهم منصب الذبال الذي يستضاء به وهو يحترق، والند ينفع الناس وهو ينمحق.

قَبْسة العَجْلان

تضرب مثلًا للمستعجل في الأمر؛ ويشبه بمن يدخل دارًا ليقبس نارًا، فلا يمكث فيها إلَّا ريثما يقتبس، ثم يخرج؛ ومثلها: عجالة الراكب؛ قال الشاعر (من السريع):

وزائر زار وما زارا كأنه مقتبس نارا

فراش النار

قد تقدم ذكرها في باب الذباب والبعوض وما جانسهما.

وفراش النار: ذباب النار؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل ذباب في النار إلَّا النحلة».

وحكى الجاحظ عن أشياخه: أن جميع ما خلق الله من السباع والبهائم والحشرات والهمج قبيح المنظر مؤلم، أو حسن المنظر ملذ، فما كان كالخيل والظباء والطواويس والتدارج فإنه يلذ في الجنة، ويلذ أولياء الله بالنظر إليه؛ وما كان قبيحًا في الدنيا مؤلم النظر، جعله الله عذابًا إلى عذاب أعدائه في النار؛ فإذا جاء في الأثر أن الذباب وغيره في النار فإنما يراد به هذا المعنى.

وذهب بعضهم إلى أنها تكون في النار وتلذها كما أن خزنة النار والذين يتولون من الملائكة التعذيب يلذون موضعهم من النار.

وذهب بعضهم إلى أن الله تعالى يطبعهم على استلذاذ النار والعيش فيها، كما طبع ديدان الخل والثلج على العيش في أماكنها.

كلاب النار

قد تقدم القول في كلاب النار، وأنهم الخوارج والنوائح على ما نطقت به الآثار.

وقد يقال للأنذال الأشرار كأعوان الشرط، ومن جانسهم أيضًا: كلاب النار.

سُرادِق النار

هو من الاستعارات في القرآن التي لا أفصح منها؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾.

وكان أبو الخطاب الكاتب يومًا في سرادق، فحميت عليه الشمس، ومنعته القيلولة، فقال (من البسيط):

من قائل لعبيد الله عن رجل ... في صدره من بقايا شوقه حرق
هل أنت منقذ نفس في حشاشتها ... بعض المنية مسدود بها الرمق!
إذ نحن في النار صرعى قد أحاط بنا ... سرادق النار إلَّا أنها خرق

سعد النار

كان بالمدينة رجل يقال له: سعد النار، واتهم سعد بن مصعب بن الزبير بامرأة في ليلة مناحة أو عرس، وكانت تحته ابنة حمزة بن عبد الله بن الزبير فقال فيه الأحوص (من الطويل):

وليس بسعد النار من تذكرونه ولكن سعد النار سعد بن مصعب
ألم تر أن القوم ليلة جمعهم بغوه فألفوه لدى شر مركب
وما يبتغي بالشر لا در دره وفي بيته مثل الغزال المربب

فدعا بالأحوص وأمر به فأوثق، وأراد ضربه، فقال الأحوص: دعني، ولا والله لا أهجو زبيريًا قط؛ فحله ثم قال له: إني والله ما لمتك على مزحك، ولكني أنكرت قولك:

وفي بيته مثل الغزال المربب

نافخ ضرمة: من أمثال العرب: ما بها نافخ ضرمة: كما يقال: ما بها ديار؛ والضرمة: ما أضرمت فيه النار كائنًا ما كان.

وفي حديث علي رضي الله عنه: لود معاوية أنه ما بقي من بني هاشم نافخ ضرمة إلَّا طعن في نيطه.

والنِّيط: نياط القلب، وهو علاقته التي يتعلق بها، فإذا طعن في ذلك المكان فقد مات.

الباب الخمسون

في الشجر والنبات

نخلتا حلوان، نخلة مريم، سَرْوة بست، شجر الأُتْرُجِّ، شجر الخلاف، سدرة المنتهى، نسيم الروض، برد الورد، خدود الورد، عيون النرجس، دمع الكرم، شق الأُبْلُمة، طرف الثمام، نقيع الحنظل، فقع قرقر، خرط القتاد، حسك السعدان، عصب السلمة، قلع الصمغة.

الاستشهاد

نخلتا حلوان

كانتا بعقبة حلوان من غرس الأكاسرة؛ فضرب بهما المثل في طول الصحبة وقدم المجاورة.

وقد أكثر الشعراء من ذكرهما؛ فمنهم مطيع بن إياس، حيث قال (من الخفيف):

أسعداني يا نخلتي حلوان وابكيا لي من ريب هذا الزمان
واعلما إن علمتما أن نحسًا سوف يلقاكما فتفترقان

وقال حماد عجرد (من الخفيف):

جعل الله سدرتي قصر شيريـ ـن فداء لنخلتي حلوان
جئت مستسعدًا فما أسعداني ومطيع بكت له النخلتان

وأنشد الصولي لحماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصل (من الخفيف):

أيها العاذلان لا تعذلاني ودعاني من البكاء دعاني
وابكيا لي فإنني مستحق منكما للبكاء أن تسعداني
وأنا منكما بذلك أولى من مطيع بنخلتي حلوان
فهما يجهلان ما كان يشكو من جواه وأنتما تعلمان!

ولما صار المهدي في شخوصه إلى الري بعقبة حلوان استطاب الموضع، فنزل به ونشط للشرب، فأنشد بيتي مطيع في نخلتي حلوان، فتطير منهما، وقال: لئن رجعت لأفرقن بينهما؛ فبلغ قوله المنصور، فكتب إليه: يا بني، أقسمت عليك ألا تكون ذلك النحس الذي يلقاهما.

ويقال: إن حسنة جاريته هي التي قالت له هذا المقال؛ فأمسك لهذا عن قطعهما.

ويروى أن الرشيد في مسيره الأول إلى الري احتاج إلى الجمار لحرارة ثارت به، فأخذت جمارة إحدى النخلتين لدوائه فجفت، ولم تلبث صاحبتها أن جفت أيضًا، وبطلتا جميعًا.

نخلة مريم

من أمثالهم: أعظم بركة من نخلة مريم؛ وقصتها معروفة؛ قال الشاعر (من الطويل):

ألم تر أن الله قال لمريم: وهزي إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جنته ولكن كل رزق له سبب

سَرْوة بُسْت

كانت بقرية كشمر من رستاق بست نَيْسابور، سَرْوة من السرو الضخم، من غرس يستاسف، لم ير مثلها طولًا وعرضًا واستواء وحسنًا ونضارة، وكانت من مفاخر خراسان، إذ لم يكن لها شبيه في الآفاق.

وكان المثل مضروبًا بها في الحسن والأعجوبة، وكانت ظلالها فرسخًا، فجرى ذكرها غير مرة في مجلس المتوكل، فأحب أن يراها؛ وحين لم يقدر له النهوض إلى خراسان كتب إلى طاهر بن عبد الله يأمره بقطعها، وتعبئة قطاع جذوعها وأغصانها كلها في اللبود، وحملها على الجمال إلى الحضرة، لينصبها النجارون بين يديه حتى لا يفقد منها إلَّا أوراقها؛ فأشار عليه جلساؤه بالإضراب عنها، وخوفوه عاقبة أمرها، وأخبروه بما في قطعها من الطيرة، فكأنهم أغروه بها، ولم ينفع السَرْوة شفاعة الشافعين؛ ولم يجد طاهر بدًا من امتثال الأمر فيها، وأنفذ النجارين لقطعها، والجمال لحملها.

ويحكى أن أهل الرستاق ضمنوا لطاهر مالًا جزيلًا على إعفائه إياها من القطع، فأبى، وقال: لو ضمنتم مكان كل درهم دينارًا لم أقدر على مخالفة أمر أمير المؤمنين.

ولما قطعت عظمت المصيبة بها على أهل الناحية، وارتفعت ضجاتهم بالبكاء عليها، وقالت شعراؤهم في مرثيتها، ثم عبئت في اللبود وحملت على ثلاثمائة جمل إلى الحضرة؛ فتفاءل بها علي بن الجهم على المتوكل فقال (من الكامل):

فأل سرى بسبيله المتوكل فالسرو يسري والمنية تنزل
ما سربلت إلَّا لأن إمامنا بالسيف من أولاده متسربل

فجرى الأمر على ما تفاءل به، وقتل المتوكل قبل وصول السَرْوة إلى حضرته؛ وتذاكر الناس هذين البيتين بعد قتله.

شجرة الأُتْرُجِّ

تضرب مثلًا لمن طاب أصله وفرعه وكل شيء منه؛ وأول من شبه به الممدوح ابن الرومي، فقال وأحسن (من البسيط):

كل الخلال التي فيكم محاسنكم تشابهت منكم الأخلاق والخلق
كأنكم شجر الأُتْرُجِّ طاب معًا حملًا ونورًا وطاب العود والورق

وقال بديع الزمان الهمذاني (من البسيط):

فإن يكن شجر الأُتْرُجِّ طاب معًا حملًا ونورًا وطاب العود والورق
فإن لون عصيب الكلب خس معًا قدًّا وقدرًا وخس اللحم والمرق

شجر الخلاف

يشبه به من يروق منظره ولا يحصل ثمره؛ قال ابن الرومي (من الخفيف):

فغدا كالخلاف يورق للعيـ ـن ويأبى الإثمار كل الإباء

وحلَّه من قال: وجدتك في الخلاف، كشجر الخلاف، يزهر للعين، ولا ثمر في البين. وهذا حل لطيف، لولا قوله: في البين؛ فإنه خطأ عند أهل اللغة.

وقصد ابن لَنْكك هذا المعنى فنقله إلى السرو، حيث قال (من المنسرح):

في شجر السرو منهم مثل له رواء وما له ثمر

سدرة المنتهى

قال الله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾، فجعلها النهاية في محل القربة والكرامة.

وتمثل بها الصاحب بحضرة عضد الدولة فقال: حضرة هي الغاية القصوى من المجد، وسدرة المنتهى بين أهل الأرض.

نسيم الروض

من أحسن ما قيل فيه على كثرته، قول البحتري (من الوافر):

يذكرنيك والذكرى عناء مشابه فيك طيبة الشكول
نسيم الروض في ريح شمال وصوب المزن في راح شمول

وهو القائل أيضًا نثرًا. وحكاه الصاحب عنه فقال: أنا أستحسن قول البحتري: الشكر نسيم النعم.

برد الورد

يقال للبرد المستطاب: برد الورد، وهو برد الربيع؛ كما يقال للبرد الكريه: برد العجوز؛ وشتان ما بينهما!

ويقال: إن برد الربيع مورق، وبرد الخريف موبق.

خدود الورد

لما شبهت الخدود المستحسنة بالورد استعيرت له الخدود؛ كما قال ابن الرومي (من الكامل):

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلًا تورّدها عليه شاهد

ومن أحسن ما قيل في ذلك قول محمد بن موسى الحدادي البلخي (من الكامل):

ما بال فرقة شملنا لا تجمع وإلى متى يصل الزمان ويقطع!
كم خلفت تلك الركاب وراءها من منزل فيه لنا مستمتع
فالورد يلطم خده وجدًا بنا وعيون نرجسه علينا تدمع

عيون النرجس

تشبيه العيون بالنرجس مشهور متعارف، واستعارة العيون له كذلك؛ قال ابن المعتز (من الطويل):

كأن عيون النرجس الغض حولنا مداهن در حشوهن عقيق

وقال الصنوبري (من الكامل):

أرأيت أحسن من عيون النرجس أم من تلاحظهن وسط المجلس!
در تشقق عن يواقيت على قضب الزمر فوق بسط السندس

دمع الكرْم

يشبه به كل شيء رقيق لطيف.

ومن أحسن ما قيل في ذلك قول ابن المعتز (من الطويل):

بكيتك حتى قيل قد عشق البكا ونحتك حتى قيل إلفُ حنين
ورقت دموع العين حتى كأنها دموع كروم لا دموع جفون

فأخذه الصابي وزاده حيث قال (من الكامل):

وكأن ما في العين من كأسي جرى وكأن ما في الكأس من أجفاني

شق الأُبْلُمة

من أمثال العرب قولهم: المال بيني وبينك شق الأُبْلُمة؛ والأُبْلُمة بالضمة والكسر، لأن الأُبْلُمة إذا شققتها طولًا انشقت نصفين سواء، من أولها إلى آخرها لا تزيد ولا تنقص.

وعن ابن الأعرابي: أنها بقلة تخرج لها قرون كالباقلاء، وليس لها أرومة؛ وليس شيء أبلغ في التنصيف منها، ولذلك قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للأنصار رضي الله عنهم يوم السقيفة: الأمر بيننا وبينكم شق الأُبْلُمة؛ فنحن الخلفاء وأنتم الوزراء.

وكان ذلك جوابًا عن قولهم: منا أمير ومنكم أمير.

طرف الثمام

يضرب مثلًا لتسهيل الحاجة وقرب متناولها، فيقال: على طرف الثمام، لأن الثمام شجرة لا تطول فيشق على متناوله.

نقيع الحنظل

يضرب مثلًا لما يوصف بالمرارة والكراهة؛ لأن الحنظل أمر شيء وأكرهه؛ قال عنترة (من الكامل):

والخيل ساهمة الوجوه كأنما سقيت سوابقها نقيع الحنظل

وكان سفيان بن عيينة يتمثل بهذين البيتين في ذم الدنيا (من الكامل):

دنيا تداولها العباد ذميمة شيبت بأكره من نقيع الحنظل
وبنات دهر لا تزل صروفه فيها وقائع مثل وقع الجندل

فَقْع قَرقر

يضرب بها المثل للذليل الضعيف الذي لا امتناع به على من يضيمه، والفقع ثخين الكمأة، وهو أبيض ضخم، سريع الفساد، قليل الصبر على الحياة.

يقال: أذل من فقع بقاع وبقرقر.

قال النابغة في النعمان (من الخفيف):

حَدِّثوني بني السقيفة ما يمـ ـنع فَقْعا بقرقرٍ أن يزولا

وقال آخر (من الطويل):

ولا تحسبني فقع قاع بقرقر

خرط القتاد

من أمثال العرب في الأمر من دونه مانع، قولهم: من دون ذلك خرط القتاد، لأن شوك القتاد مانع من خرط ورقه؛ وشوك القتاد مضروب به المثل في الخشونة والشدة؛ كما قال أبو تمام (من الوافر):

نَثَا خبر كأن القلب أمسى يجر به على شوك القتاد

وخطب علي رضي الله عنه يومًا، وحث على الجهاد فقام إليه رجل ومعه أخوه، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا وأخي كما قال الله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾، فمرنا بأمرك؛ فوالله لننتهين إليه ولو حال بيننا وبينه جمر الغضى وشوك القتاد. فدعا لهما بخير وقال: وأين تقعان مما أريد!

وفي خرط القتاد يقول كعب بن جعيل شاعر معاوية (من المتقارب):

أرى الشام تكره أهل العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا علي إمام لنا فقلنا: رضينا ابن هند رضينا
وقالوا: نرى أن تدينوا لنا فقلنا: ألا لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد وضرب وطعن يفض الشؤونا

حسك السعدان

يضرب به المثل في الخشونة؛ كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في كلام له عند موته: والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير، ولتألمن النوم على الصوف الأذربي، كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان.

عَصْب السَّلَمة

السلمة شجرة إذا أرادوا قطعها عصبوا أغصانها عصبًا شديدًا حتى يصلوا إلى أصلها فيقطعوه.

ومن أمثال العرب في الإلحاح على سؤال البخيل وإن كرهه: عصبه عصب السلمة؛ أي: فعل به كما يفعل بالسلمة في الإلحاح والتضييق عليها.

وقد روي هذا المثل عن الحجاج في خطبته لأهل العراق فيما كان يتوعدهم به من الشدة؛ إلَّا أنه لم يرد استخراج المال، وإنما أراد أخذهم بالتشديد عليهم في إلزامهم الطاعة.

قلع الصمغة

يضرب مثلًا في الاستئصال، لأن الصمغ إذا قلع انقلع كله؛ ولم يبق له أثر، وكذلك يقال: تركتهم على مثل مقلع الصمغة إذا لم يبق لهم شيء إلَّا ذهب.

ويروى أن الحجاج قال يومًا لأنس بن مالك رضي الله عنه: والله لأقلعنك قلع الصمغة، ولأعصبنك عصب السلمة.

ومثله قول العامة: كسره كسر الجوز، وقشره قشر اللوز، وأكله أكل الموز.

الباب الحادي والخمسون

في اللباس والثياب

ديباجة الوجه، برد الشباب، برود تزيد، رداء العز، قميص الشمس، سراويل قيس، طيلسان ابن حرب، كساء آل محمد، قطيفة المساكين، شعار الصالحين، حلة الأمن، خُفًّا حُنَين، صف النعال، ريح الجورب.

الاستشهاد

ديباجة الوجه

الديباجة تستعار للوجه في الوصف بالحسن، وفي الوصف بوفور الجاه والماء.

فأما عند الوصف بالحسن، فكما قال أبو صخر الهذلي؛ ووصف امرأة في الغزل والنسيب بما يمدح به سادة الرجال (من الطويل):

أبى القلب إلَّا حبها عامرية ... لها كنية عمرو وليس لها عمرو
ووجه له ديباجة قرشية ... بها تدفع البلوى ويستنزل النصر
تكاد يدي تندى إذا ما لمستها ... وينبت في أطرافها الورق الخضر

وكما قال الكُمَيت (من البسيط):

أغر كالبدر يستسقى الغمام به كأن ديباجتي خديه من ذهب

وكما قال البحتري (من الكامل):

واخضر موشي البرود وقد بدا منهن ديباج الخدود المذهب

وكما قال ابن المعتز (من الطويل):

ومالي أرى ديباج وجهك أصفرًا ونرجستي عينيك ذابلتين

وأما عند الوصف بالجاه والماء، فكما قال أبو تمام (من الطويل):

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

وكما قال أبو الفتح البستي (من السريع):

منزلتي يحفظها منزلي وباجتي تحفظ ديباجتي

بُرْد الشباب

قد أكثروا من هذه الاستعارة؛ ومن أحسن ما سمعت فيها ما أنشدنيه الأمير السيد — أدام الله تأييده — لابن الرومي في عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (من الوافر):

أيا برد الشباب لكنت عندي من الحسنات والقِسَم الرِّغاب
لبستك برهة لبس ابتذال على علمي بفضلك في الثياب
ولو ملكت صونك فاعلمنه لصنتك في الجديد من العياب
ولم ألبسك إلَّا يوم فخر ويوم زيارة الملك اللباب

وما أحسن ما قال ابن طباطبا (من المنسرح):

يا طيب ليل خلوت فيه بمن أقصر عن وصف كنه وجدي به
ليل كبرد الشباب حالكه نعمت في ظله وفي طيبه

وفي المثل: أحسن من برد الشباب، وأطيب من برد الشراب.

برود تزيد

يضرب بها المثل كما يضرب ببرود اليمن؛ والعرب تنسب البرود الفاخرة إلى تزيد، وتزعم أنها قبيلة للجن؛ كما قال أبو تمام وهو يصف شعره (من الكامل):

كشقيقة البرد المنمنم وشيه في أرض مهرة أو بلاد تزيد

وقال الصاحب (من الطويل):

تزيد على أبراد آل تزيد

رداء العز

قد أحسن البحتري في قوله، وأجراه مجرى المثل السائر (من الوافر):

أصاب الدهر دولة آل وهب ونال الليل منها والنهار
أعارهم رداء العز حتى تقاضاهم فردوا ما استعاروا

وللشعراء استعارات للرداء في نهاية الحسن، كقولهم: رداء الشمس، ورداء الشباب، ورداء الفتوة، ورداء النور، ورداء الجمال، ورداء اللهو؛ وغيرها.

قال طرفة (من الطويل):

ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقي اللون لم يتخدد

ولما أنشد النمري الرشيد قصيدته التي أولها (من البسيط):

ما تنقضي حسرة مني ولا جزع إذا ذكرت شبابًا ليس يرتجع
ما كنت أوفي شبابي كنه غرته حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع

بكى الرشيد، وقال: ما خير دنيا لا يخطر فيها برداء الشباب!

وقال البحتري (من الخفيف):

خلياه وجدة اللهو ما دا م رداء الشباب غضًّا جديدا
إن أيامه من البيض بيض ما رأين المفارق السود سودا

وقال أيضًا (من الخفيف):

رقة النور واهتزاز القضيب خبرا منك عن أغر نجيب
في رداء من الفتوة فضفا ض وعهد من التصابي قريب

وقال ابن المعتز (من الوافر):

خليلي اتركا قول النصيح وقوما فامزجا راحًا بروح
فقد نشر الصباح رداء نور وهبت للندى أنفاس ريح

وقال نصر الخبزأرزي (من الطويل):

نسيم عبير في غلالة ماء وتمثال نور في أديم هواء
تسربل سربالًا من الحسن وارتدى رداءي جمال طرزا ببهاء

وقال الصنوبري (من السريع):

ألقت رداء اللهو عن عاتقي خمس وخمسون مضت واثنتان

ولما قالت امرأة خالد بن صفوان له: إنك لجميل، قال: كيف؟ وما علي برنس الجمال، ولا عموده، ولا رداؤه! ولكن قولي: إنك لمليح؛ يعني ببرنس الجمال الشعر، وبعموده القد، وبردائه البياض.

قميص الشمس

قد تصرفوا في استعارة القميص، كما تصرفوا في استعارة الرداء.

ولم أسمع في استعارة القميص للشمس أحسن من قول الحسن بن وهب نثرًا: شربت البارحة على وجه السماء، وعقد الثريا، ونطاق الجوزاء، فلما انتبه الصبح نمت، فلم أستيقظ إلَّا بعد أن لبست قميص الشمس.

ولم أسمع في قميص الليل كقول ابن المعتز (من البسيط):

وجاءني في قميص الليل مستترًا يستعجل الخطو من خوف ومن حذر

وقوله (من السريع):

فلو ترانا في قميص الدجى حسبتنا في جسد واحد

وقوله (من الطويل):

لبسنا إلى الخمار والنجم غائر غلالة ليل طرزت بصباح

وأما قول ابن عروس (من الكامل):

خفض عليك فلو كساك قميصه تموز كنت فتى وحقك باردا

فهو كما تراه في حسن السبك وجودة الاستعارة.

وأنا أستملح قول الصنوبري (من الكامل):

نشرت على تلك الثرى حلل مما يحوك الرعد والبرق

قمصان خيري ملونة وغلائل من سوسن زرق

سراويل قيس

يضرب مثلًا لثوب الرجل الضخم الطويل.

وكان قيصر بعث إلى معاوية رضي الله عنه بعلج من علوج الروم، طويل جسيم، يعجبه من كمال خلقته، وامتداد قامته؛ فعلم معاوية أنه ليس لمطاولته ومعارضته إلَّا قيس بن سعد بن عبادة، فإنه كان أجسم الناس وأطولهم، فقال له يومًا وعنده العلج: إذا أتيت رحلك فابعث إلي بسراويلك؛ فعلم قيس مراده، فنزعها ورمى بها إلى العلج والناس ينظرون، فلبسها العلج فنالت ثندؤته؛ فعجب الناس؛ فأطرق الرومي مغلوبًا، وليم قيس على البذل بحضرة معاوية، فأنشد يقول (من الطويل):

أردت لكيما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود

وألا يقولوا غاب قيس وهذه سراويل عادي نمته ثمود

وإني من القوم اليمانين سيد وما الناس إلَّا سيد ومسود

وبذ جميع الناس أصلي ومنصبي وجسم به أعلو الرجال مديد

طيلسان ابن حرب

كان محمد بن حرب أهدى إلى الحمدي طيلسانًا خلقًا، وكان الحمدوي يحفظ قول أبي حمران السلمي في طيلسانه، وهو (من البسيط):

يا طيلسان أبي حمران قد برمت بك الحياة فما تلتذ بالعمر

في كل يومين رفاء يجدده هيهات ينفع تجديد مع الكبر

إذا ارتداه لعيد أو لجمعته تنكب الناس لا يبلى من النظر

فاحتذى حذوه، وانثالت عليه المعاني، حتى قال في وصف الطيلسان قرابة مائتي مقطوعة، ولا تخلو واحدة منها من معنى بديع؛ وصار الطيلسان عرضة لشعره، ومثلًا في البلى والخلوقة والانخراط في سلك

حمار طياب، وشاة سعيد، وضرطة وهب، وأير أبي حكيمة، وقد تقدم ذكر كل منهما.

فمن نوادر ما قال فيه مقتبسًا من القرآن (من الخفيف):

يا ابن حرب كسوتني طيلسانًا أمرضته الأوجاع فهو سقيم
وإذا ما رفوته قال: سُبحا نكَ محيي العظام هي رميم!

وقوله (من الخفيف):

طيلسان لو كان لفظًا إذا ما شك إنسان أنه بهتان
فهو كالطور إذ تجلى له اللـ ـه فدكت قواه والأركان
كم رفوناه إذ تمزق حتى بقي الرفو وانقضى الطيلسان

وقوله (من الكامل):

فيما كسانيه ابن حرب معتبر فانظر إليه فإنه إحدى الكبر
قد كان أبيض ثم ما زلنا به نرفوه حتى اسود من صدأ الإبر

وقوله (من الخفيف):

يا ابن حرب أطلت فقري برفوي طيلسانًا قد كنت عنه غنيا
فهو في الرفو آل فرعون في العر ض على النار بكرة وعشيا

ومما اقتبسه من قول النبي صلى الله عليه وسلم قوله (من السريع):

وطيلسان إن تأملته شققته بالطول والعرض
ولو أنه بعض بني آدم كان أسير الله في الأرض

لأن في الخبر: «إن المؤمن إذا بلغ تسعين سنة كتبت له الحسنات، وكفرت عنه السيئات، وسمي أسير الله في الأرض».

ومن ملح مضمنات الحمدوي قوله (من الطويل):

كساني ابن حرب طيلسانًا كأنه   فتى عاشق بال من الوجد كالشن

تغنى لإبراهيم حين لبسته   ذهبت من الدنيا وقد ذهب مني

وقوله (من البسيط):

يا طيلسان ابن حرب قد هممت بأن   تودي بجسمي كما أودى بك الزمن

فقد تراني لدى الرفاء مرتبطًا   كأنني في يديه الدهر مرتهن

غنيت حين رآني الناس ألزمه   كأنما لي في حانوته وطن:

من كان يسأل عنا أين منزلنا   فالأقحوانة منا منزل قمن

وقوله أيضًا (من الكامل):

قل لابن حرب طيلسانك قد   أوهى قواي بكثرة الغرم

متبين فيه لمبصره   آثار رفوا أوائل الأمم

فكأنه الخمر التي وصفت   في يا شقيق النفس من حكم

وإذا رممناه فقيل لنا: قد صح؛ قال له البلى: انهدم

مثل السقيم برا فراجعه   نكس وأسلمه إلى السقم

أنشدت حين طغى فأعجزني   ومن العناء رياضة الهرم

ومن بدائع معانيه قوله (من الخفيف):

يا ابن حرب كسوتني طيلسانًا   مل من صحبة الزمان وصدا

طال ترداده إلى الرفو حتى   لو بعثناه وحده لتهدى

والشأن في أن ابن الرومي تعقبه، فقال على لسانه ما لا يقصر عن إبداعه، كقوله (من الخفيف):

يا ابن حرب كسوتني طيلسانًا يزرع الرفو فيه وهو سباخ
نسر دهر، نسور لقمنا، والنســ ــران إن قستها إليه فراخ
مات رفاؤه ومات بنوه وبدا الشيب في بنيهم وشاخوا
تستطير الشقوق طولًا وعرضًا فيه حتى كأنهن رخاخ

وضرب ابن سكرة المثل بطيلسان ابن حرب، فقال يهجو أبا الطيب المتنبي من قصيدة (من المجتث):

هاجت بلابل قلبي وقام شعري يلبي
لما تبدى لعيني في زيه المتنبي
طوبى لمالك لو أنْــ ــتَهُ أعين بلب
يا ليت خصبك عندي وحل عندك جدبي
حتى أراك مردى بطيلسان ابن حرب

كساء آل محمد صلى الله عليه وسلم

هو الكساء الذي يضافون إليه، فيقال: آل الكساء، وأصحاب الكساء، كما قال ديك الجن في قوله (من البسيط):

والخمسة الغر أصحاب الكساء معًا خير البرية من عجم ومن عرب

وكما قال أبو عثمان الخالدي (من المتقارب):

أعاذل إن كساء التقى كسانيه حبي لأهل الكساء

ومن ظريف التمثيل به قول أبي علي البصير لمن وعده كساء فأخلف (من الكامل):

من غزل من هذا الكساء ونسج من؟ هل في عمان طرازه أم في عدن؟
ولأي وقت بعد ريح قرة هبت وأمطار ألحت يختزن؟

هبه الكساء كساء آل محمد هل مطلنا هذا الطويل به حسن!

ومن قصة هذا الكساء فيما روت الرواة من أن وفد نجران من النصارى قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، فكان مما جرى بينه وبينهم أن قالوا له: يا محمد، لم تعيب صاحبنا، وتسميه عبدًا؟ فقال: «أجل، عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم». قالوا: فأرنا مثله يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويخلق من الطين كهيئة الطير، وبايعنا على أنه ابن الله، ونحن نبايعك على أنك رسول الله؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «معاذ الله أن يكون له ولد أو شريك!» فما زالوا يحاجونه ويلاحونه حتى أنزل الله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾؛ فعرض عليهم المباهلة، وهي الملاعنة، فتواعدوا لها، وجمع إليها صلى الله عليه وسلم عليًا وفاطمة والحسن والحسين كرم الله أوجههم، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ويروى أن جبريل عليه السلام انضم إليهم واندس فيهم تقربًا إلى الله تعالى بمداخلتهم.

فعدل النصارى عن هذه المباهلة؛ وقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون نبيًا أو ملكًا، فإن كان نبيًا فإن الله لا يخالفه فينا، وإن كان ملكًا فليس إلَّا استئصالنا، والرأي أن نصالحه، ونعرض عن مباهلته؛ فجنحوا إلى مسالمته على ألا يغزوهم النبي صلى الله عليه وسلم، ولا يردهم عن دينهم؛ وعلى أن يؤدوا إليه في كل عام ألف حلة نجرانية، وثلاثين درعًا عادية.

وصالحهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: «لو باهلوني لما حال الحول على واحد منهم ولأهلك الله الكاذبين».

فمنذ ذلك الوقت سمي الخمسة أصحاب الكساء، وسادسهم جبريل عليه السلام؛ وفيهم قيل (من الرجز):

أفضل من تحت الفلك خمسة رهط وملك

قطيفة المساكين

هي الشمس، يسميها فقراء العرب في الشتاء: قطيفة المساكين؛ وفيها يقول قائلهم (من الرجز):

يا شمس يا قطيفة المساكين قربك الله كما تعودين

شعار الصالحين

في كتاب الكنايات لمؤلف هذا الكتاب: لبس فلان شعار الصالحين؛ إذا افتقر، لأن في الخبر: «الفقر شعار الصالحين».

حلة الأمن

قد استعار الناثرون للأمن حلة، ولم أسمع بمن ضمن ذلك قوله من الشعراء، إلَّا ابن الرومي، حيث قال (من الطويل):

أتنسين أيامًا لنا ولياليًا … محاسنها كالروض في صبحة الدجن
عهود مضت محمودة وكأنها … معانقة اللذات في حلة الأمن

خُفَّا حُنَين

من أمثال العرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة: رجع فلان بخُفَّي حُنَين.

وكان حنين رجلًا إسكافًا من أهل الحيرة، فسامه أعرابي بخفين، فاختلفا، حتى أغضبه الأعرابي، وأراد حنين غيظ الأعرابي؛ فلما ارتحل أخذ أحد خفيه، فطرحه في الطريق، ثم ألقى الآخر في مكان آخر، فلما مر الأعرابي بأحدهما، قال: ما أشبه هذا الخف بخُفَّي حُنَين! ولو كان معه الآخر لأخذته؛ ومضى، فلما انتهى إلى الآخر ندم على تركه الأول، فأناخ راحلته ورجع في طلب الأول؛ وقد كان حنين كمن له، فعمد إلى راحلته وما عليها فذهب بها، وأقبل الأعرابي وليس معه إلَّا خفان! فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك؟ قال: جئتكم بخُفَّي حُنَين. فذهبت كلمته مثلًا.

ويقال: جاء فلان بخُفَّي حُنَين، وخُصْيَيْ دُكَين، وسُخنة عين؛ ودُكَين: اسم خادم خصي.

وأنشدني أبو الفتح البستي، لنفسه (من الطويل):

أكتاب بست كم تناجزكم على … وزارة بست وهي سخنة عين
وخف حنين فوق ما تطلبونه … فكم بينكم في ذاك حرب حنين!

وقد أحسن في الجمع بين حرب حنين وخف حنين.

صف النعال

يضرب بها المثل لمكان الذليل، فيقال: هو في صف النعال، لا في صف الرجال، كما يقال: هو بمزجر الكلب؛ ويقال: أذل من النعل.

ريح الجورب

يضرب مثلًا في النتن؛ كما قال الشاعر (من الطويل):

غزا ابن عمير غزوة تركت له ... ثناء كريح الجورب المتمزق

وقال آخر (من الكامل):

أثني علي بما علمت فإنني ... أثني عليك بمثل ريح الجورب

الباب الثاني والخمسون

في الطعام وما يتصل به ويذكر معه

عجالة الراكب، لُهْنة الضيف، طعام يد، ثريدة غسان، جفان ابن جدعان، حِلْية الخِوان، كلب الخبز، قاضي الحلاوة، فالوذج السوق، حشو اللَّوْزِينَج، مخ الأطعمة، أكلة خيبر، شهوة المريض، قِدْر الرَّقاشي، غداء ابن أبي خالد، مواعيد الكمون، دعوة السنة.

الاستشهاد

عجالة الراكب

هي ما يتعجله الرجل من الطعام، أو ما يتزوده الراكب مما لا يتعبه؛ كالتمر والسويق وما أشبههما.

وفي أمثال العرب: الثيب عجالة الراكب؛ يضرب في الحث على الرضا بيسير الحاجة إذا أعوز جليلها.

لُهْنة الضيف

هي ما يقدم إلى الضيف ليتعلل به إلى أن يدرك الطعام، فيقولون: لهنوا ضيفكم؛ كأنه مثل في الاقتصار على اليسير إلى أن يلحقه الأكثر.

ومن أمثال العامة في هذا المعنى: كُسَيرة بملح إلى أن يدرك الشواء؛ قال أبو نواس (من المجتث):

نكنا رسول عنان والحزم ما قد فعلنا
فكان خبزًا بملح قبل الطعام أكلنا

طعام يد

لما كف بصر حسان بن ثابت رضي الله عنه كان إذا دعي إلى طعام قال: أطعام يد، أو طعام يدين؟ فإن قيل: طعام يد، مد إليه اليد، فأكل منه، وإذا قيل: طعام اليدين، أمسك؛ وتفسيره: أن الطعام إذا كان حيسًا، أو حريرة؛ مما يكتفى في تناوله بيد واحدة؛ فهو طعام يد، وإذا كان شواء أو غيره مما يحتاج فيه إلى استعمال اليدين، فهو طعام يدين.

جِفان ابن جُدْعان

كان عبد الله بن جدعان من مطعمي قريش، كهاشم بن عبد مناف؛ وهو أول من عمل الفالوذج للأضياف؛ وفيه يقول أمية بن أبي الصلت (من الوافر):

له داع بمكة مشمعل وآخر فوق دارته ينادي
إلى ردح من الشيزى ملاء لباب البر يلبك بالشهاد

وكانت له جفان يأكل منها القائم والراكب.

ويحكى أنه وقع في إحداها صبي فغرق، فجرى المثل بها في العظم.

وجفان سليمان عليه السلام أولى بأن يتمثل بها، لقول الله عز وجل في وصفها: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾.

حِلْية الخِوان

قال أبو علي السلامي في كتابه كتاب نتف الظرف حاكيًا عن بعض المشايخ أنه كان يقول: لكل شيء حلية، وحِلْية الخِوان السكرجات والبقول.

كلب الخبز

حكى السلامي، قال: كان بعض إخواننا لا يدخل بيته الجبن، ويقول: هو كلب الخبز، يؤكل به أضعاف ما يؤكل بغيره.

فالوذج السوق

يضرب مثلًا لمن يحسن منظره، ولا يطيب مخبره، كما قال الشاعر (من البسيط):

أعزز علي بأخلاق وسمت بها عند البرية يا فالوذج السوق

وقال ابن الحجاج (من مخلع البسيط):

كم من صديق يروق عيني في قالب الحسن واللباقةْ
ليس له في الجميل رأي ولا بفعل الجميل طاقةْ
كأنه في القميص يمشي فالوذج السوق في رقاقةْ

قاضي الحلاوة

كان أبو الحارث جمين يقول للوزينج: قاضي الحلاوة؛ وللخبيص: خاتمة الخير.

حشو اللَّوْزِينَج

يضرب مثلًا للشيء يكون حشوه أجود وأفضل منه؛ وذلك أن حشو اللَّوْزِينَج خير من خبزته؛ فيشبه به الحشو في الكلام يستغنى عنه، وهو أحسن منه.

وهو قليل نادر جدًّا في كلام العرب؛ ومن أشهر ذلك قول عوف بن محلم لعبد الله بن طاهر (من السريع):

إن الثمانين وبُلِّغْتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فقوله: وبُلِّغْتُها حشو مستغنى عنه، ومعنى الكلام يتم دونه، ولكنه أحسن من جملته.

سمعت أبا الفرج يعقوب بن إبراهيم، يقول: سمعت أبا سعد رجاء بن الوليد، يقول: دخلت يومًا على أبي الفضل بن العميد، فقال لي: امض إلى أبي الحسين بن سعد، فقل له: هل تعرف لقول عوف:

إن الثمانين وبُلِّغْتُها

ثانيًا في كون الحشو أحسن من المحشو به؟ قال: فصرت إليه وبلغته الرسالة، فقال: سألني عنه محمد بن علي بن الفرات، فسأله عنه أبا عمر غلام ثعلب، فقال: سألت عنه ثعلبًا فلم يأت بشيء؛ ثم بلغني أن عبد الله بن عبد الله سأل المبرد عنه، فأنشده قول عدي بن زيد لابنه زيد بن عدي، وعدي في حبس النعمان (من الوافر):

فلو كنت الأسير، ولا تكنه، إذًا علمت معد ما أقول

قوله: ولا تكنه، حشو مستغنى عنه، ولكنه في الحسن نظير قوله: وبلغتها».

قال مؤلف الكتاب: قد افتتحت أنا كتابًا صغير الجرم، لطيف الحجم، في نظائر هذين الحشوين، وترجمته بحشو اللَّوْزِينَج؛ فمما أودعته إياه: أن المأمون قال يومًا ليحيى بن أكثم: هل تغديت اليوم؟ فقال: لا، وأيد الله أمير المؤمنين؛ فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها! وذلك أنه لو قال: لا أيد الله أمير المؤمنين، لكان يشبه الدعاء عليه، لا له، ولكنه استظهر بالواو، وجعلها حاجزة بين لا، وأيد الله أمير المؤمنين، حذرًا من وقوع الشبهة.

وكان الصاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ في خدود المرد الملاح.

وقرأت في بعض الكتب أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سبق إلى هذه اللطيفة؛ وذلك أنه مر به رجل معه ثوب، فقال له أبو بكر: أتبيعه؟ فقال الرجل: لا، رحمك الله! فقال أبو بكر: قد قومت ألسنتكم لو تستقيمون! ألا قلت: لا ورحمك الله!

ومما عثرت عليه من حشو اللَّوْزِينَج في شعر البحتري، قوله للمتوكل (من الكامل):

وجزيت أعلى رتبة مأمولة   في جنة الفردوس غير معجل

فقد تم الكلام عند قوله: في جنة الفردوس، وقال: غير معجل، أي: بعد طول العمر؛ لأن الجنة إنما يوصل إليها بالموت.

وفي شعر لأبي الطيب (من الطويل):

وتحتقر الدنيا احتقار مجرب   يرى كل ما فيها، وحاشاك، فانيا

فقوله: وحاشاك حشو؛ فيه ما فيه من الحلاوة، وعليه ما عليه من الطلاوة.

وفي شعر الصاحب (من السريع):

قل لأبي القاسم إن جئته   هنيت ما أوتيت هنيته
كل جمال فائق رائق   أنت، برغم البدر، أوتيته

فقوله: برغم البدر حشو يتم الكلام دونه، ولكنه في نهاية الظرف والملاحة.

ومما أستجيده جدًّا لابن بابك، قوله (من الكامل):

لله همتك التي من شأنها   جر الرماح على السماك الرامح

لأن الرامح حشو، ولكنه بمجانسة الرماح كما تراه غاية في الحسن.

وفي ضد حشو اللَّوْزِينَج قولهم: حشو الأكر، لأنها تحشى بكل شيء ساقط لا خطر له.

قال جحظة: أنشدت لأبي الصقر شعرًا لي، فقال: يا أبا الحسن، لا تزال تأتينا بالغرر والدرر، إذا جاءنا غيرك بحشو الأكر.

مخ الأطعمة

يقال للسكباج: مخ الأطعمة، وسيد المرق.

ويقال: إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألقيت من المعدة ثلث المؤونة.

قال بعض الخلفاء لجارية له، يُعرِّض بها: إلى كم سكباج! فقالت: يا أمير المؤمنين، هو مخ الأطعمة، لا يكره بارده، ولا يمل حاره، بل يستطاب في الحضر، ويتزود منه في السفر؛ ولا يؤثر عليه الضيف، في الشتاء والصيف. فضحك وأمر لها بصلة.

أكلة خيبر

تضرب مثلًا للطعام الوخيم العاقبة؛ وأصلها من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني، فهذا أوان قطعت أبهري»؛ وذلك أنه عليه الصلاة والسلام قدمت إليه بخيبر شاة مسمومة، فتناول منها لقمة، ثم قال: «إن هذه الشاة تخبرني أنها مسمومة». فكان يمرض في كل سنة عند الوقت الذي أكل فيه تلك الأكلة إلى أن توفي عليه الصلاة والسلام شهيدًا بذلك السم.

شهوة المريض

تضرب مثلًا لما يحسن ويطيب من الطعام وغيره.

أنشدني أبو محمد العبد لكاني الزوزني لنفسه (من مخلع البسيط):

قريتكم يا بني البغيض كثيرة الخل والمخيض
والخبز في دور موسريها أعز من شهوة المريض

قِدْر الرَّقاشي

كان أبو نواس يتولع بالرقاشيين ويصف قدورهم بالبياض والنظافة والصغر؛ حتى صارت كالمثل؛ فمن ذلك قوله فيها (من الطويل):

رأيت قدور الناس سودًا من الصلا وقِدْر الرَّقاشيين زهراء كالبدر
يبيتها للمعتفي بفنائهم ثلاث كنقط الثاء من نقط الحبر
إذا ما تنادوا للرحيل سعى بها أمامهم الحولي من ولد الذر

غداء ابن أبي خالد

ويقال له أيضًا: غداء دينار؛ فإذا نسب إلى ابن أبي خالد؛ فهو مثل لمن يبيع الشيء الخطير بأكلة؛ وإذا أضيف إلى دينار فهو مثل لمن يطعم ويقري لاجتلاب المنفعة ودفع المضرة.

وقصته أن أحمد بن أبي خالد وزير المأمون، كان من الشره والنهم والتهاب المعدة — على كرم فيه — بحيث يضرب به المثل، فيقال: آكل من ابن أبي خالد، وأنهم من ابن أبي خالد.

ويحكى أنه ولى كورة جليلة لرجل بخوان فالوذج أهدي إليه.

وكان يقول إذا عوتب على قبول ما يهدى إليه من المأكول: ما أصنع بطعام يهديه إلي صديق لي، الله يعلم أني أستحيي من رده عليه!

ولما عرف المأمون شرهه وقبوله كل ما يهدى إليه، وإجابته كل من يدعوه، أجرى عليه كل يوم ألف درهم نزلًا؛ فلم يفارق مع ذلك شرهه.

وفيه يقول دعبل (من المتقارب):

شكرنا الخليفة إجراءه على ابن أبي خالد نزله
فكف أذاه عن المسلمين وصير في بيته أكله
وقد كان في الناس شغل به فأصبح في بيته شغله

وكان المأمون ولى دينار بن عبد الله الجبل ثم صرفه. ووافى المدائن، فأقام بها حولًا لا يؤذن له في دخول الحضرة للمَوْجِدة عليه. ثم إن أحمد بن أبي خالد كلم المأمون في أمره حتى رضي عنه، وأذن له في دخوله بغداد.

وقال يومًا لأحمد: صر إلى دينار، وقل له: فعلت كذا وكذا، وواقفه على ما بقي عليه من المال. فلما مضى أحمد إليه قال المأمون لياسر الخادم: اتبعه واسمع ما يجري بينهما وعرفنيه؛ فلما سبق خبر مجيء أحمد إلى دينار؛ أمر قَهْرَمانه بإعداد طعام كثير طيب — لما كان يعرفه من نهم أحمد وشرهه — ووافى أحمد، فبدأ بمناظرة دينار في أمر المال، فاعترف بسبعة آلاف ألف درهم، وواقفه على أن يحمل منها كل أسبوع ألف ألف درهم، ثم قطع دينار الكلام، ودعا بالطعام، وسأله عما يجب أن يبدأ به، فطلب فراريج حارة، فقدمت، فأكل منها عشرين فروجة كسكرية بماء الرمان وخبز الماء ثم قدم إليه الحار والبارد، والحلو والحامض، فأكل منها أكل من لم يأكل شيئًا، ثم غسل يده وقال لدينار: ينبغي أن تجدَّ في أمر المال؛ فقال: الذي علي ستة آلاف ألف درهم.

فقال ياسر لأحمد: إنه قد اعترف بسبعة آلاف ألف درهم؛ فقال: ما أحفظ ما قال، ولكن ليقل ما تقرر عنده الآن؛ ويطالب به، فتقرر الأمر بينهما على ستة آلاف ألف درهم.

وانصرف أحمد إلى المأمون — وكان قد تقدمه ياسر، فشرح له الخبر — فلما دخل قال: قد تقرر الأمر بيننا على خمسة آلاف ألف درهم؛ فقال المأمون وهو يضحك: قد ذهبت ألف ألف درهم بأكلة، وألف ألف أخرى بم ذهبت؟ وألزمه ستة آلاف ألف درهم، وقال: ما رأيت غداء أذهب ألف ألف درهم إلَّا غداء أحمد بن أبي خالد (أو قال: غداء دينار بن عبد الله)، وما رأيت أغلى منه!

مواعيد الكمون

يضرب مثلًا للمواعيد الكاذبة.

وذلك أن الكمون لا يسقى، بل يوعد السقي، فيقال: غدًا نسقيك، وبعد غد نكفيك؛ فهو ينمو بالتمنية على المواعيد الكاذبة؛ قال الشاعر (من البسيط):

لا تجعلني ككمون بمزرعة　　إن فاته الماء أغنته المواعيد

وقد أحسن ابن الرومي في الجمع بين الفلفل والكمون، حيث قال (من المنسرح):

كم شامخ باذخ بثروته　　أضله قبلي المضلونا
جعلته بالهجاء فلفلة　　إذ جعلتني مناه كمونا

دعوة السنة

يضرب مثلًا لما يكون في السنة مرة واحدة، ولدعوة البخيل التي يحتفل لها.

ويقال: أربعة أشياء مفرطة: دعوة البخيل، وعشق العفيف، وغضب الحليم، وضربة الجبان.

وفي دعوة السنة يقول الشاعر (من مجزوء الخفيف):

إنها دعوة السنة فكلوها مبطنة

لن تعودوا لمثلها إنها فتح خرشنة

الباب الثالث والخمسون

في الشراب وما يتصل به ويذكر معه

برد الشراب، قذاة الكوز، داعي اللبن، خمر بابل، نسيم الراح، رضاع الكأس، سكر الولاية، سكر الشباب، بُغض الخُمار.

الاستشهاد

برد الشراب

يتمثل به في كل محبوب، وعند كل مشتهى؛ قال عمر بن أبي ربيعة (من الخفيف):

قال لي صاحبي ليعلم ما بي: أتحب القتول أخت الرباب؟
قلت: وجدي بها كوجدي بالما ء إذا ما عدمت برد الشراب

يريد: عند الحاجة، وبذلك يصح المعنى.

ويروى أن عليًا رضي الله عنه سأله سائل، فقال: كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: كان — والله — أحب إلينا من أموالنا وآبائنا وأمهاتنا وأبنائنا، ومن برد الشراب على الظمأ.

وينشد لبعض الأعراب (من الطويل):

حديثك أشهى فاعلمي لو أناله إلى النفس من برد الشراب على الظما
لقد أكثر الواشون فيك ملامتي فكانوا بما أبدوا من اللوم ألوما

وللصاحب من رسالة: كلام كبرد الشراب على الأكباد الحرار، وبرد الشباب في خلع العذار.

قَذاة الكوز

يضرب مثلًا لما يؤذي على قلته وحقارته.

وقال بعض المكابدين في خلع العذار لمن سابه: يا قذاة الكوز، يا صوم تموز، يا برد العجوز، يا درهمًا لا يجوز.

وحكى الجاحظ عن جعفر بن سعيد أنه قال: الخلاف موكل بكل شيء حتى قذاة الكوز، إن أردت أن تشرب جاءت إلى فيك، وإن أردت أن تصب من رأس الكوز لتخرج رجعت.

داعي اللبن

من أمثال العرب: دع داعي اللبن؛ أي: أبق في الضراع بقية من لبن، ولا تستوعب كل ما فيه، فإن الذي تبقيه فيه يستدعي ما وراءه من اللبن.

خمر بابل

العرب تصف خمر بابل، وتراه أفضل الخمور.

وبابل سر العراق؛ ويقال: إن بغداد من أرضها.

فممن ذكر خمر بابل في شعره بعض المحدثين، حيث قال (من الرجز):

لما رأيت الدهر دهر الجاهل ولم أر المغبون غير العاقل
شربت خمرًا من خمور بابل فصرت من عقلي على مراحل

ويروى أنه قال:

رحلَّتُ عَيْسًا من خمور بابل

ليكون أذهب في طريق الاستعارة والصنعة.

وقال ابن الرومي (من الطويل):

ألا نسيا نفسي حديث البلابل بمشمولة صفراء من خمر بابل

وفي كتابي المبهج: ليس للبلابل، كخمر بابل؛ على غناء البلابل.

نسيم الراح

يضرب به المثل في الذكاء والطيب؛ كما قال السري في استزارة صديق له (من الكامل):

نفسي فداؤك كيف تصبر طائعًا عن فتية مثل البدور صباح!
وغدوا لراحهم وذكرك بينهم أذكى وأطيب من نسيم الراح

رضاع الكأس

يدخل في باب الاستعارات وقد أكثروا فيه؛ قال الشاعر (من الطويل):

وإن رضاع الكأس أعظم حرمة وأوجب حقًّا من رضاع لبان

وقال آخر (من البسيط):

اذكر أبا جعفر حقًّا أمت به   إني وإياك مشغوفان بالأدب
وإننا قد رضعنا الكأس درتها   والكأس درتها من أقرب النسب

وقال عصابة الجرجرائي (من الكامل):

اقرَ السلام على الأمير وقل له: إن المنادمة الرضاع الثاني

سُكْر الولاية

من أبيات التمثيل والمحاضرة، قول ابن المعتز (من مجزوء الكامل):

سكر الولاية طيب   وخماره صعب شديد
كم تائه بولاية   وبعزله ركض البريد

وقال الآخر (من الوافر):

سكرت بإمرة السلطان جدًّا   فلم تعرف عدوك من صديقك
رويدك من طريق صرت فيه   فإن الحادثات على طريقك

سُكْر الشباب

يقال إن سكر الشباب أشد من سكر الشراب.

ويقال: السكر ثلاث: سكر الشباب، وسكر الولاية، وسكر الشراب — وهو أهونها.

وقد بلغ بهذه السكرات خمسًا من قال، وأحسن (من الخفيف):

سكرات خمس إذا مُنِيَ المر   ء بها صار أكلة للزمان
سكرة المال والحداثة والعشـ   ـق وسكر الشراب والسلطان

وأنشدت بعض الزهاد هذين البيتين، فقال: أين هو من سكرة الموت! ثم قرأ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

وقال إبراهيم بن المهدي (من البسيط):

ما زلت في سكرات الموت مطرحًا ضاقت علي وجوه الأمر من حيلي
فلم تزل دائبًا تسعى لتنقذني حتى اختلست حياتي من يدي أجلي

بُغض الخُمار

يضرب مثلًا لما يستثقل؛ ولذلك قيل: لو أن المخمور يعرف قصته، لقدم وصيته.

وفي المثل: ما أطيب الخمر لولا الخمار!

قال الشاعر (من الطويل):

إذا أنا ميزت الخمار وجدته يكدر ما في الخمر من لذة الخمر
فأحجم عن شرب المدام مخافة على جسدي من أن يؤول إلى ضر
وإن امرأ يبتاع سكرًا بصحة لفي سكرة تغنيه عن لذة السكر

وقال أبو علي البصير في أبي العيناء (من مجزوء الكامل):

إنما يحلو أبو العيـ ـناء في صدر النهار
فإذا طاولته أر بى على بُغض الخُمار

الباب الرابع والخمسون

في السلاح وما يجانسه

سيف علي، صمصامة عمرو، سيوف الخوارج، مخراق لاعب، ظل السيف، بقية السيف، قوس حاجب، ظل الرمح، ظهر الترس، سهام الترك، عصا الأعرج، تفاريق العصا، عبيد العصا، عصا الجبان، قتيل العصا.

الاستشهاد

سيف علي

يضرب المثل بسيف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في المضاء؛ كما قال الصاحب (من السريع):

أحسن من عود ومن ضارب ... ومن فتاة طفلة كاعب
قَدُّ غلامٍ صيغ من فضة ... متصل الحاجب بالحاجب
سل على الأمة من طرفه ... سيف علي بن أبي طالب

صمصامة عمرو

صمصامة عمرو بن معدي كرب، أشهر سيوف العرب؛ وبه يضرب المثل في كرم الجوهر، وحسن المنظر والمخبر، والمضاء والتصميم.

وكان عمرو — وهو فارس اليمن — حسن الاستعمال له في الجاهلية، كثير الغناء به في الإسلام، وفيه يقول من شهر (من الوافر):

سناني أزرق لا عيب فيه وصمصامي يصمم في العظام

وقال عبد الله بن العباس لبعض اليمانيين: لكم من السماء نجمها، ومن الكعبة ركنها، ومن السيوف صمصامها؛ يعني سهيلًا، والركن اليماني، وصمصامة عمرو.

ومن تمثل بها من المتقدمين نهشل بن حري في قوله (من الطويل):

أغر كمصباح الدجنة يتقي قذى الزاد حتى يستفاد أطايبه
أخ ماجد ما خانني يوم مشهد كما سيف عمرو لم تخنه مضاربه

ولما وهبها عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن، قال فيه عمرو بن معدي كرب (من الوافر):

خليل لم أخنه ولم يخني إذا ما صاب أوساط العظام
خليل لم أهبه عن قلاء ولكن التواهب للكرام
حبوت به كريمًا من قريش فسر به وصين عن اللئام
وودعت الصفي صفي نفسي على الصمصام أضعاف السلام

فلم يزل في آل سعيد إلى أيام هشام بن عبد الملك، فاشتراه خالد بن عبد الله القسري بمال خطير، وأنفذه إلى هشام، وقد كان كتب إليه فيه؛ فلم يزل عند بني مروان حتى زال الأمر عنهم، ثم طلبه السفاح والمنصور والمهدي فلم يجدوه؛ وجدَّ الهادي في طلبه حتى ظفر به فجرده، ودعا بمكتل من دنانير، وقال لحاجبه: ائذن لمن بالباب من الشعراء؛ فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فيه، فقالوا وأطالوا؛ ولم يأتوا بطائل، فقام أبو الهول الحميري، وأنشأ يقول (من الخفيف):

حاز صمصامة الزبيدي من بيـ ـن جميع الأنام موسى الأمين
سيف عمرو، وكان فيما سمعنا خير ما أغمدت عليه الجفون
أخضر اللون بين حديه برد من ذباح تميس فيه المنون
أوقدت فوقه الصواعق نارًا ثم سالت به الرعاف المتون

قال الجاحظ: يزعم كثير من الناس أن بعض السيوف من خبث نيران الصواعق، وذلك في أفواه الأعراب شائع.

فإذا ما سللته بهر الشمـ ـس ضياء فلم تكد تستبين
يستطير الأبصار كالقبس المشـ ـعل ما تستقر فيه العيون
وكأن الفِرِنْد والجوهر الحا ري على صفحتيه ماء معين
نعم مخراق ذي الحفيظة يوم الرْ ـرَوع يعصى به ونعم القرين
ما يبالي إذا الضريبة حانت أشمال سطت به أم يمين!
وكأن المنون شطت إليه وهو من كل جانبيه منون

فقال الهادي: السيف لك، والمكتل لك؛ فأخذهما، وفرق على الشعراء الدنانير، وقال لهم: دخلتم معي، وحرمتم من أجلي، وليس في السيف عوض.

وذكر أبو هفان أن صاحب هذه القصة ابن يامين البصري.

وقال غيره: بل هو أبو الهول؛ وهو القائل في وصف هذا السيف (من الطويل):

كأن على متنيه أمواج لجة تقاصر في ضحضاحه وتطول
كأن صغار الذر كسرن فوقه عيون جراد بينهن ذحول
حُسام غداة الروم ماض كأنه من الله في قبض النفوس رسول

وأما ابن يامين، فهو القائل (من البسيط):

نصل كأن المنايا جند طاعته في طوله قصر إلَّا عن القصر

أمضى من الأجل الماضي وأنفذ من جاري القضاء وأضوا من سنا القمر

سيوف الخوارج

يضرب المثل بسيوف الخوارج، لأنهم يتأنقون في استجادتهم، ثم يقاتلون بها تدينًا إذا قاتل غيرهم تكسبًا.

وقد تقدم ذكر السبب في استفاضة النجدة فيهم، وقال بعض العصريين (من المتقارب):

وفيك لنا فتن أربع تسل علينا سيوف الخوارج
لحاظ الظباء، وطوق الحمام، ومشي القباج، وحسن التدارج

مخراق لاعب

هو سيف اللاعب، لا سيف المحارب؛ وذلك أخف له، وهو أضرب به (من الرجز):

والضرب في الهيجاء غيـ ـر الضرب في الميدان

قال عمرو بن كلثوم في السيف (من الوافر):

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدي اللاعبينا

ظل السيوف

في الخبر: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية؛ فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف».

وقال الشاعر (من البسيط):

العز تحت ظلال السيف مطلبه فلا يفوتنك عز آخر الأبد

وقال آخر (من المتقارب):

مقامك تحت ظلال السيو ف عافى الخلافة من دائها

وقال آخر (من الكامل):

اليوم لا جبل نلوذ بظله اليوم نتخذ السيوف ظلالا
اليوم نقدح زند كل ملمة اليوم نصرع للنسور رجالا

بقية السيف

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: بقية السيف أنمى عددًا، وأكثر ولدًا.

فوجد ذلك عيانًا في ولده وولد المهلب؛ وذلك أنه قتل مع الحسين بن علي رضي الله عنه عامة أهل بيته، فلم ينج منهم إلَّا علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، وإنما نجاه صغر سنه، فلما أدرك أخرج الله من صلبه الكثير الطيب.

وقتل المهالبة دفعتين، بالعقر، وبقنادربيل، حتى استؤصلوا ثم أدرك منهم مثل روح ويزيد ابني حاتم.

ويقال: إنه لو تفاخرت الجن والإنس لفخرها الإنس بابني حاتم: روح ويزيد، وأمثالهما من المهالبة كثير.

وذكر المدائني، عن أشياخه أنه مكث آل المهلب بعد مقتل يزيد وأخيه نيِّفًا وعشرين سنة لا يولد لهم أنثى، ولا يموت لهم غلام.

قوس حاجب

هو حاجب بن زرارة التميمي، أتى كسرى في جدب أصاب قومه بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يأذن له ولقومه في دخول الريف من بلاده حتى يحيوه ويمتاروا؛ فقال لهم كسرى: إنكم معشر العرب قوم غدر، فإذا أذنت لكم أفسدتم بلادي، وأغريتم عليَّ رعيتي. فقال حاجب: أنا ضامن للملك ألا يفعلوا،

قال: فمن لي بأن تفي؟ قال: أرهنك قوسي؛ فضحك من حوله، فقال كسرى: ما كان يسلمها أبدًا. وقبلها منه، وأذن لهم في دخول الريف.

ولما أحيا الله الناس بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم — وقد مات حاجب — ارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى في طلب قوس أبيه، فأمر بردها عليه، وكساه حلة؛ فلما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد بني تميم وأسلم، أهدى الحلة إليه فلم يقبلها، فباعها بأربعة آلاف درهم من رجل من اليهود، وبقيت القوس عند ولد جعفر بن عمير بن عطارد بن حاجب، لأنهم كبر ولده، وصارت مفخرة كبيرة لبني تميم.

ويروي الشعوبية أن كسرى لما عوتب على ارتهانها قال: لولا أنهم عندي أقل منها لما أخذتها!

ويحكى أن كسرى قال لحاجب: إن قوسك هذه لقصيرة معوجة، فقال: أيها الملك، فإن وفائي طويل مستقيم.

ومن مليح ما سمعت في قوس حاجب، قول المطراني (من المنسرح):

تزهى علينا بقوس حاجبها   زهو تميم بقوس حاجبها

ظل الرمح

يضرب به المثل في الطول، كما قال ابن الطثرية (من الطويل):

ويوم كظل الرمح قصر طوله   دم الدَّنِّ عنا واصطفاق المزاهر

قال الجاحظ: قولهم: مُنينا بيوم كظل الرمح، فإنهم ليس يريدون به الطول وحده، ولكنهم يريدون أنه مع الطول ضيق غير واسع، قالوا: وليس يوجد لظل الشخص نهاية مع طلوع الشمس.

وقال ابن المعتز (من الكامل):

بدلت من ليل كظل حصاة   ليلًا كظل الرمح ليس موات

وقال آخر (من الوافر):

نهار مثل إبهام الحُبارى وليل مثل ظل الرمح طولا

ظهر التُّرْس

يشبه به الأرض المستوية الخالية.

كما قال البحتري (من البسيط):

والعيس ترمي بأيديها على عجل في مهمه مثل ظهر الترس رجراج

ويضرب ظهر المِجَنِّ مثلًا لمن تحول عن عهد، فيقال: قلب له ظهر المِجَنِّ، قال الشاعر (من الطويل):

قلبت له ظهر المِجَنِّ فلم أدُمْ على ذاك إلَّا ريثما أتحول

وقال بعض أهل العصر (من الطويل):

لقد قلب الدهر الخؤون مجنه فقلبي على جمر الغضى يتقلب
وأصبحت في ظفر الزمان ونابه وما أنا فيه دون ما أترقب

ومن حديث علي رضي الله عنه أنه كتب إلى ابن العباس، رضي الله عنهما حين أخذ من مال البصرة ما أخذ: إني أشركتك في أمانتي، ولم يكن رجل من أهل أوثق منك في نفسي، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرب، قلبت لابن عمك ظهر المِجَنِّ، ففارقته مع المفارقين، وخذلته مع الخاذلين، واختطفت ما قدرت عليه من مال الأمة اختطاف الذئب دامية المعزى.

وإنما خص الدامية لأن في طبع الذئب محبة الدم، فهو يؤثر الدامية على غيرها كما تقدم ذكره في باب الذئب.

سهام الترك

يضرب بها المثل؛ وتذكر مع سهام الترك، رماح العرب، ومزاريق الهند، وزانات الديلم، ونصول الروم.

عصا الأعرج

تضرب مثلًا في القرب، فيقال: أقرب من عصا الأعرج؛ وذلك أنه يقربها من نفسه إلى قعد لحاجته إليها، فهي قريبة منه في حال قعوده وقيامه.

تفاريق العصا

تضرب مثلًا للمحقرات يحتاج إليها، وينتفع بها، قالت غنية الأعرابية (من الرجز):

أحلف بالمروة حقًّا والصفا أنك خير من تفاريق العصا

تقول لابنها، وكان عارمًا كثير التعرض للناس، مع ضعف أسر ودقة عظم؛ فواثب فتًى فقطع الفتى أنفه، فأخذت غنية دية أنفه، فحسنت حالها بعد فقر مدقع، ثم واثب آخر فقطع أذنه، فأخذت ديتها، فزادت حسن حال، ثم واثب آخر فقطع شفته، فأخذت ديتها، فلما رأت ما صار عندها من المال — وذلك من كسب جوارح ابنها — حسن رأيها فيه، وذكرته في أرجوزتها.

وسئل ابن الأعرابي عن تفاريق العصا فقال: العصا تقطع فتصير سواجير ثم تقطع فتصير أوتادًا، ثم تقطع فتصير كل قطعة شظاظًا، ثم تقطع فتصير مهارًا، وهو العود الذي يدخل في أنف البختي، ثم تقطع فتصير تواد (جمع تودية) تجعل في حنك الفصيل لئلا يرضع أمه.

عبيد العصا

يضرب هذا المثل للقوم إذا استذلوا، وهو اسم لكل ذليل وتابع؛ ولزم ذلك بني أسد لقول صاحبهم بشر بن أبي خازم (من الطويل):

عبيد العصا لم يتقوك بذمة سوى سيب سعدى إن سيبك واسع

وقال امرؤ القيس (من السريع):

قولا لدودان عبيد العصا: ما غركم بالأسد الباسل!

ومن كلام الحجاج في خطبة له: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق، يا بني اللكيعة وأولاد الإماء، وعبيد العصا.

عصا الجبان

يضرب مثلًا، فيقال: عصا الجبان أطول؛ وإنما يطول الجبان عصاه من فشله، يري أن طولها أشد ترهيبًا لعدوه من قصرها.

قتيل العصا

العرب تقول: إياك وقتيل العصا؛ أي: لا تكن قاتلًا ولا مقتولًا في شق عصا المسلمين. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب الخامس والخمسون

في الحلي وما أشبهها

قرطا مارية، طوق عمرو، سبحة زيدان، خاتم الملك، حلقة الخاتم، درة التاج، واسطة القلادة، فرائد الدر، قشور الدر، منطقة الجوزاء، خلاخيل الرجال.

الاستشهاد

قُرطا مارية

من أمثال العبر: خذه ولو بقرطي مارية.

وهي مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الكندي، وابنها الحارث الأعرج الملك وإياه عنى حسان بقوله (من الكامل):

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

وكان في قرطيها درتان كبيض الحمام، لم ير مثلهما، ولا يدرى ما قيمتهما، فضربهما الناس مثلًا في الرغائب والنفائس.

طوق عمرو

يضرب مثلًا للشيء يكبر عنه الإنسان.

وأصله: أن عمرو بن عدي كان له طوق يلبسه في صغره، فاستهوته الجن دهرًا، إلى أن وجده مالك وعقيل؛ ندمانا جذيمة، فأتيا به خاله جذيمة الأبرش؛ فألبسته أمه طوقته بالطوق الذي كان يلبسه في الصغر، فلما رأى جَذيمة لحية عمرو، والطوق في عنقه، قال: شب عمرو عن الطوق؛ فصار مثلًا.

وإياه عنى السري بقوله (من الطويل):

تصابى فأضحى بعد سلوته صبًّا　　　وعاود عمرو طوقه بعدما شبَّا

سبحة زيدان

زيدان قَهْرَمانة أم المقتدر، وكانت ممكنة من خزانة الجواهر، وفيها جوهر الخلافة، فاتخذت سبحة تشتمل على ثلاثين درة متشابهة في الوزن واللون، كل واحدة منها كبيضة العصفور، مفصلة بعشر يواقيت، لم ير أمثالها معًا في عقد ملكة، ولا خزانة ملك، فصارت مثلًا في النفائس والذخائر، وقد تقدم بعض ذكرها. والله أعلم.

خاتم الملك

يضرب مثلًا في النفاسة والشرف؛ كما قال بشار (من الهزج):

ألا يا خاتم الملك الــ　ـلَذي أملك إن نلته
فؤادي بك مجنون　ولو أسطيع سلسلته
وأنت الحجر الأسو　د لو يخلو لقبلته

وكتب الصاحب من رسالة:

وصل كتاب مولاي فكانت فاتحته أحسن من كتاب الفتح، وواسطته أنفس من واسطة العقد، وخاتمته أشرف من خاتم الملك.

حلقة الخاتم

يضرب بها المثل في الضيق، كما قال الشاعر (من الطويل):

كأن فجاج الأرض حلقة خاتم   علي فما تزداد طولًا ولا عرضا

ويذكر معها كفة حابل، كما قال الآخر (من الطويل):

كأن بلاد الله وهي عريضة   على الخائف المذعور كفة حابل

ويحكى أن بشار بن برد، ضحك يومًا بعد طول سكوته، فقيل له: ما يضحكك يا أبا معاذ؟ أها هنا محتشم؟ قالوا: لا، قال: لو أعطي كل إنسان أمنيته هلك الناس، وبطل الحرث والنسل، قيل: كيف؟ قال: ما على ظهرها رجل إلَّا وهو يتمنى أن يكون أيره أعظم من أير الحمار، ولا امرأة إلَّا وهي تتمنى أن يكون فرجها أضيق من حلقة خاتم، فمتى يدخل ذاك في هذه!

درة التاج

يضرب بها المثل في تفضيل بعض الشيء على كله كما قال أبو الطيب المتنبي (من البسيط):

إن الخليفة لم يسمك سيفه   حتى بلاك فكنت عين الصارم
فإذا تتوج كنت درة تاجه   وإذا تختم كنت فص الخاتم

واسطة القلادة

يضرب بها المثل أيضًا في تفضيل بعض الشيء على كله، فيقال: واسطة القلادة، ودرة التاج، وإنسان الحدقة، وعين الكتيبة، وأول الجريدة، وبيت القصيدة.

وفي الكتاب المبهج: الصديق الصدوق واسطة العِقد، وأول العَقد.

فرائد الدر

يضرب مثلًا للمحاسن والنفائس، ويشبه بها الكلام الحسن، والخط الرائق.

ولابن طباطبا كتاب مترجم بفرائد الدر، وكتب إلى صديق له كان قد استعاره يسترجع منه ذلك (من الكامل):

يا در رد فرائد الدر وارفق بعبد في الهوى حر

قشر الدر

يشبه به الجلد الناعم، كما قال أبو نواس (من مجزوء الكامل):

ظبي كأن الله ألـ ـبسه قشور الدر جلدا
وترى على وجناته في أي حين شئت وردا

وقال ابن المعتز في تشبيه الكأس بقشر الدر (من الكامل):

من لي على رغم العذول بقهوة بكر ربيبة حانة عذراء
موج من الذهب المذاب تضمه كأس كقشر الدرة البيضاء

وشتان ما بين هذه القشور والقشور التي ذكرها اللحام في قوله (من الطويل):

ويبرز للرائين وجهًا كأنما كساه إهابًا من قشور الخنافس

منطقة الجوزاء

يستعار للجوزاء المنطقة، كما تستعار للثريا العقد؛ كما قال بعض أهل العصر وهو الهمذاني (من الطويل):

خليلي إني من محبتي العلا　　بليت بعلوي الصفات أخي البدر
فعقد الثريا من محاسن ثغره　　ومنطقة الجوزاء في خصره تجري

خلاخيل الرجال

وهي القيود.

قال علي بن الجهم وهو في الحبس (من الطويل):

إذا سلمت نفس الحبيب تشابهت　　صروف الليالي سهلها وشديدها
فلا تجزعي إما أرنت قيوده　　فإن خلاخيل الرجال قيودها

وقال أبو إسحاق الصابي (من مخلع البسيط):

الحبس قصر لكل حر　　والقيد خلخال كل فحل
والخطب كالضيف لا تراه　　ينزل إلى على الأجل

الباب السادس والخمسون

في الليالي المضافة

ليلة القدر، ليلة الميلاد، ليلة التمام، ليل المحب، ليلة النابغة، ليل الضرير، ليل السليم، ليلة الخلافة، ليلة حرة، ليلة شيباء، ليلة الغدير، ليلة الهرير، ليلة الفرزدق، ليلة الحزيز، ليلة منبج، ليلة الصدر، ليل الشباب، حاطب الليل، فصل في ذكر الأيام المضافة.

الاستشهاد

ليلة القدر

قال النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر: «اطلبوها في العشر الأواخر من رمضان».

وأكثر العلماء على أنها في السابعة والعشرين من شهر رمضان.

ويروى عن بعضهم أنه قال: كلمات سورة القدر ثلاثون على عدد ليالي الشهر، وقوله تعالى: ﴿هِيَ﴾ السابعة والعشرون من الكلمات، فكأنها إشارة إلى الليلة.

وقد ضرب بها المثل من قال (من الطويل):

فتى ترهب الأموال من ظل كفه　　　كما يرهب الشيطان من ليلة القدر

فأدعو إله الناس دعوة مخلص   عسى أن يريح العاشقين من الهجر

ومن أحسن ما قيل في ضرب المثل بها، قول أبي الفتح البستي (من الخفيف):

قيل لي: قد خفيت؛ قلت: كبدر   صار يخفى من بعد أن كان بدرا
أنا خاف كليلة القدر في النا   س وعالٍ كَلَيْلة القدر قدرا

ليلة الميلاد

هي الليلة التي ولد فيها عيسى عليه الصلاة والسلام، يضرب بها المثل في الطول.

قال أبو نواس (من الخفيف):

ليلة كان يلتقي طرفاها   قصرًا، وهي ليلة الميلاد

وقال ابن المعتز (من الرجز):

يا ليلة الميلاد هل عرفت   أسهر مني عاشقًا مذ كنت
ألم أصابرك فما صبرت   حتى بدت غرة يوم السبت!

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (من الطويل):

مضت ليلة الميلاد أطول ليلة   وأقصرها، هذان مختلفان
فطالت بمعنى واحد وتقاصرت   بقرب حبيب واجتماع معان

وقال ابن بسام (من الخفيف):

يا مقيتًا يصور اليوم حولًا   ساعة منه ليلة الميلاد
خل عنا فإنما أنت فينا   واو عمرو كالحديث المعاد

ليلة التمام

ليلة التمام أطول ليلة في السنة؛ قال امرؤ القيس (من المتقارب):

فبتُّ أكابد ليل التما م والقلب من خشية مقشعر

وقد أحسن القائل (من الوافر):

أيا قمر التمام أعنت ظلمًا عليَّ تطاول الليل التمام

ليل المحب

قد أكثر الشعراء في وصف ليل المحب بالطول فأطالوا، وحصل خالد الكاتب على الغرة والنكتة، حيث قال (من المتقارب):

وليل المحب بلا آخر

ليلة النابغة

حدث أبو العيناء عن الأصمعي أنه قال: انصرفت ليلة من دار الرشيد، وأنا أشكو علة، ثم غدوت إليه من الغد، فقال لي: يا أصمعي، كيف بت؟ فقلت: بليلة النابغة يا أمير المؤمنين، فقال: إنا لله! هو والله قوله (من الطويل):

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

فقلت: والله يا أمير المؤمنين ما أخبرت خبره، وإنما أردت قوله (من الطويل):

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

ليل الضرير

لم يزل الشعراء يصفون الليل بالطول، ويزيد بعضهم على بعض في الإبداع والإبلاغ، حتى جاء سيدوك الواسطي، فسبق إلى وصفٍ تفرد به، إذ وجد ما ضيعوه من ذلك، فأخذه، وهو قوله (من البسيط):

عهدي بنا وراء الوصل يجمعنا والليل أطوله كاللمح بالبصر
فالآن ليلي مذ غابوا فديتهم ليل الضرير فصبحي غير منتظر

ليل السليم

يضرب به المثل في الطول والسهر فيه، لأن السليم لا ينام لما به، ولا يترك والنوم إن غشيه النعاس، لئلا يسري السم في بدنه؛ والعرب تعلق عليه الحلي وتسهره، كما قال النابغة (من الطويل):

يسهد من نوم العشاء سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع

وقال السري في وصف القلم (من الوافر):

لك القلم الذي يضحي ويمسي له الإقليم محمي الحريم
هو الصل الذي لو عض صلًا لأسلمه إلى ليل السليم

وفي الكتاب المبهج: شتان ما بين ليل السليم، وليل السالم في فراش النعيم.

ليلة الخلافة

هي ليلة لم يتفق مثلها قط، ويقال لها: ليلة الخلفاء أيضًا؛ وكانت ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة؛ مات فيها خليفة، وولد خليفة، واستُخلف خليفة: مات الهادي، وولد المأمون؛ واستخلف الرشيد.

ليلة حرة

من أمثال العرب، عن أبي عمرو؛ قولهم للمرأة: باتت بليلة حرة؛ إذا امتنعت على زوجها في ليلة زفافها، فلم يقدر على افتضاضها؛ قال النابغة (من البسيط):

شمس موانع كل ليلة حرة   يخلفن ظن الفاحش المعيار

أي: إذا ساء ظن الفاحش بهن أخلفن ظنه لعفتهن.

ليلة شيباء

ومن أمثالهم: باتت بليلة شيباء، إذا أمكنت زوجها من نفسها ليلة عرسها، تشبه بمن شابت وجرت مجرى من لا تمتنع، لأن الحدثة أشد امتناعًا من الطاعنة في السن.

ليلة الغدير

هي الليلة التي خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في غدها بغدير خُمٍّ على أقتاب الإبل، فقال في خطبته: «من كنت مولاه فعلي مولاه؛ اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله»، فالشيعة يعظمون هذه الليلة ويحيونها قيامًا.

وقد ذكر ابن طباطبا غداة غدير خم في قوله للرستمي (من الكامل):

يا من يسر لي العداوة أبدها   واعمد لمكروهي بجهدك أو ذر
لله عندي عادة مشكورة   فيمن يعاديني فلا تتجبر
أنا واثق بدعاء جدي المصطفى   لأبي غداة غدير خم فاحذر
والله أسعدنا بإرث دعائه   فيمن يعادي أو يوالي فاصبر

ليلة الهرير

كانت بصفين، فاشتد فيها القتال، وكشفت الحرب عن ساقيها، وتناثرت الرؤوس، وكثر عدد القتلى؛ وكان علي رضي الله عنه كلما قتل واحدًا كبر تكبيرة، فأحصيت تكبيراته تلك الليلة فبلغت سبعمائة، وضرب المثل بهذه الليلة في الشدة واستفحال المكاره.

ليلة الفرزدق

تضرب مثلًا لليلة يبلغ الخليع فيها النهاية من الخلاعة وتعاطي الفواحش والركض في حلبة المآثم.

وقصتها أن الفرزدق نزل ليلة بديرانية، فأكل عندها طفيشلًا بلحم خنزير، وشرب من خمرها، وزنى بها، وسرق كساءها، ثم قال: لله در ابن المراغة — يعني جريرًا — في قوله (من الوافر):

وكنت إذا نزلت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا!

وبعض الرواة ينسب القصة إلى أبي الطمحان القيني.

ليلة الحزيز

قال الجاحظ: في أعلى جبانة البصرة موضع يقال له: الحزيز، يقال: إن الناس لم يروا قط هواء أعدل، ولا نسيمًا أرق، ولا أطيب مسًّا من ذلك الموضع.

وكان أمية بن عبد الله بن خالد يقول: ما آسى من العراق إلَّا على ثلاث خلال: ليل الحزيز، ورطب السكر، وحديث ابن أبي بكرة؛ قال أبو عبيدة: وأي شيء بقي، ويله!

وأراد الحجاج أن يتعالج، فدله تياذوق الطبيب على هذا المكان، فقال: سفل عن يبس البرية وخشونتها وقحولتها، وعلا عن الآجام وعفنها ولثقها. وكان يتعالج هناك.

ليلة منبِج

منبج بالشام كالحزيز بالعراق، في طيب الهواء، وعذوبة الماء، ورقة النسيم، وصحة التربة، وهي بلدة البحتري وأبي فراس الحمداني، وقد ظهرت آثارها عليهما في اعتدال الطبع، وعذوبة اللفظ، واختلاط

أشعارهما بأجزاء النفس، وقبلهما كانت مسقط رأس عبد الملك بن صالح الهاشمي، ووطنه، وهو جبل قريش، ولسان بني العباس، ومن به يضرب المثل في البلاغة.

ولما دخل الرشيد منبِج قال لعبد الملك: هذا البلد منزلك؟ قال: يا أمير المؤمنين، هو لك ولي بك، قال: كيف بناؤك به؟ قال: دون منازل أهلي وفوق منازل غيرهم؛ قال: وكيف صفة مدينتك هذه؟ قال: عذبة الماء، طيبة الهواء، قليلة الأدواء؛ قال: كيف ليلها؟ قال: سحر كله، قال: صدقت، إنها لطيبة؛ قال: بك طابت يا أمير المؤمنين، وأين تذهب بها عن الطيب! وهي تربة حمراء، وسنبلة صفراء، وشجرة خضراء، فياف فيح من قيصوم وشيح! فقال الرشيد: هذا الكلام — والله — أحسن من الدر المنظوم.

وقد أخذ ابن المعتز قوله: سحر كله، فقال (من السريع):

يا رُبَّ ليلٍ سحر كله ... مفتضح البدر عليل النسيم
تلتقط الأنفاس برد الندى ... فيه فتهديه لحر الهموم

ليلة الصدر

تقول العرب في أمثالها: أنقى من ليلة الصدر، وهي الليلة التي يصدرون فيها ولا يبقى على الماء أحد.

قال أبو عبيدة: من أمثالهم في اصطلام الدهر الناس بالجوائح، قولهم: تركتهم على مثل ليلة الصدر، قال: يعنون نفر الناس من حجهم، وهو مثل قولهم: تركته على أنقى من الراحة.

ليل الشباب

قال ابن الرومي (من الطويل):

وعزاك عن ليل الشباب معاشر ... فقالوا: نهار الشيب أهدى وأرشد
وكان نهار المرء أهدى لرشده ... ولكن ظل الليل أندى وأبرد

وقال ابن المعتز (من الكامل):

ونهار شيب الرأس يوقظ من قد كان في ليل الشباب رقد

حاطب الليل

يشبه به المكثار، لأن حاطب الليل ربما احتمل فيما يحتطبه حية، وهو لا يشعر بها لمكان الظلمة؛ فيكون فيها حتفه.

كذلك المكثار ربما عثر لسانه في إكثاره بما يجني على رأسه.

وإياه عنى بشر بن المعتمر، بقوله في مزدوجته التي أنشدها الجاحظ وفسرها (من الرجز):

يا عجبًا والدهر ذو عجائب من شاهد وقلبه كالغائب
كحاطب يحطب في بِجاده في ظلمة الليل وفي سواده
يحمل فوق ظهره الأيم الذكر والأسود السالخ مكروه النظر

وقال ابن المعتز من قصيدة (من الطويل):

فرشنا لكم منا جناحي مودة وأنتم زمانًا تلقحون الدواهيا
أظنكم كحاطب الليل جمعت حبائله عقاربًا وأفاعيا

فصل في ذكر الأيام المضافة

لما كانت الأيام المضافة أكثر من أن تحصى، ورأيت الأخذ ببعض أطراف القول فيها يستغرق الصحائف الكثيرة، اقتصرنا من ذكرها على هذا القدر الذي قدرت فيه الكفاية. وبالله التوفيق.

قال أبو بكر الخوارزمي: يقولون: ما يومي من فلان بواحد، أي: ما الشر علي منه من جهة واحدة؛ والغالب في اليوم أنه لا يذكر إلَّا في الشر، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾، أي: عقوبته ووقائعه في أعدائه.

ويقال في الدعاء: لا أراني الله يومك، أي: يوم موتك.

ويوم عبيد، يوم قتله؛ ويوم العنز، يوم ذبحها.

وأنت إذا نظرت في قولهم: أي يوم لك مني، وقولهم: يوم البسوس، وهو بين بكر وتغلب؛ ويوم تحلاق اللمم، وهو بينهما.

ويوم الفجار، وهو بين كنانة وقيس؛ ويوم النباح وهو بين أسد وتميم وعامر.

ويوم خزازى وهو لعدنان على قحطان.

ويوم ذي قار، وهو بين بكر بن وائل والفرس.

ويوم حليمة، وهو بين المنذر والحارث الغساني، حتى عد أكثر من مائة يوم.

ثم قال: فإذا نظرت من الأيام إلى يوم بدر وأحد والخندق وحنين.. حتى عد أيام المغازي كلها، ثم قال: فإذا نظرت بعدها في يوم اليمامة على حنيفة، ويوم الحيرة لخالد على بني نفيلة، ويوم قِنِّسْرين على الروم لأبي عبيدة، ويوم القادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند على الفرس لسعد بن أبي وقاص والنعمان وغيرهما، ويوم الدار، ويوم الجمل، ويوم صفين والنهروان، حتى عد أكثر وقائع الإسلام — علمت أن ذلك أكثر من قولهم: يوم الشورى، ويوم بركوارا.

قال غيره: وقد تقع الأيام على أيام الخير والسرور، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، وقال الشاعر (من المتقارب):

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساءُ ويوم نسر

الباب السابع والخمسون

في الأزمان والأوقات

زمن الفطحل، زمن الورد، عام الحزن، عام الجحاف، زبدة الحقب، بكر الدهر، نسيم السحر، إغفاءة الفجر، تباشير الصبح، فلق الصبح، نفس الربيع، جمرات الظهيرة، قمر الشتاء، فاكهة الشتاء، برد الكوانين، ركوب الكوسج، سقوط الجمرة، هلال شوال، حد الأحد، ثقل الأربعاء.

الاستشهاد

زمن الفطحل

من أمثال العرب: كان ذلك زمن الفطحل؛ قال رؤبة (من الرجز):

إنك لو عمرت عمر الحسل ... أو عمر نوح زمن الفطحل
والصخر مبتل كطين الوحل ... كنت رهين هرم أو قتل

وسئل عن زمن الفطحل، فقال: أيام كانت الحجارة رطبة، وإذ كل شيء ينطق.

وزعم بعض أهل اللغة أن زمن الفطحل هو زمن الخصب والسعة، وأنهم أرادوا برطوبة السلام ابتلال الصخر، ورفاهية العيش، واتصال الغيوث، وصدق الأنواء.

وقال الخليل: زمان الفطحل: زمان لم يخلق الناس بعد.

قال القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز: أما قولهم: أيام كانت الحجارة رطبة وإذ كل شيء ينطق، فهما من الأمور التي يتداولها جهلة الأمم، وهو كالظاهر بين أغفال العرب وغثاء العامة؛ هذا أمية بن أبي الصلت — وهو من حكماء العرب والمتخصصين منها بالرواية — يقول (من الوافر):

وإذ هم لا لبوس لهم عراة   وإذ صم السلام لهم رطاب
بآية قام ينطق كل شيء   وخان أمانة الديك الغراب

وعن مقاتل بن سليمان أنه كان يقول: إن الصخور كانت لينة، وإن قدم إبراهيم أثرت في صخرة المقام، لِلين الصخر كله يومئذ.

وليس مذهب هؤلاء فيما رووه مذهب من جعلها أجزاء من الأرض، تناسبت فتضامت وتحجرت، فيزعم أن الصخر إنما ييبس من ندوة ويصلب بعد رخاوة، ولو أرادوا ذلك لوجدوا متسعًا في القول؛ لكن الأوهام التي صورت لهم أن البهائم كانت ناطقة عاقلة، وفروع السعدان ملساء لينة، وأغصان السيال خضرة ناعمة، هي التي أدتهم لذلك.

ولا يبعد أن يكون القوم قصدوا استعطاف القلوب إلى الحكمة، وأرادوا تألفهم على الفهم، فوضعوا أمثالًا وشُّوها ببعض الهزل، وأدرجوا الجد في أثناء المزح؛ ليخف على القلوب احتمالها، ويسرع إليها التفاتها.

وظن من لم يقع من التمييز موقع الكمال بالبهائم أنها كانت تنطق، وتفصح، وتبين عن نفسها وتعرب، فاختلقوا أحاديث أضافوها إليها؛ وكان للعرب خصوصًا في ذلك ما زادت به على سائر الأمم، لفضل ما فيها من اللهج بالكلام، وما أوتيت من الاقتدار على التصرف في المنطق، فاختلقت لها قريضًا، وفصلت أسجاعًا، كالذي حكت عن الضب أنه قال في صبره على الماء، وهو عندهم أصبر ذي نفس على الظمأ (من الرجز):

آليت ألا أراد إلا عرادًا عردا
وصليانًا صردا وعنكثًا ملتبدا

وزعموا أن القطا قالت للحجل (من الرجز):

جَل حَجَل تفرين في الجبل
من خشية الرجل

فقالت لها الحجل (من الرجز):

قطا قطا أرى قفاك أمعطا
بيضك ثنتان وبيضي مائتا

هكذا جاءت الرواية؛ والأمثال تجري على ألفاظها وأشباه ذلك كثير؛ والعرب تسمي ذلك الزمان: زمان الفطحل؛ قال شاعرها (من الكامل):

زمن الفطحل إذ السلام رطاب

زمن الورد

زمن الورد يضرب به المثل في الطيب والحسن؛ قال أبو الفرج الببغاء (من الخفيف):

زمن الورد أطيب الأزمان وأوان الربيع خير أوان
أشرف الزهر زار في أشرف الدهـ ـر فصل فيه أشرف الفتيان

وقال ابن سكرة الهاشمي (من الطويل):

وعاذلة هبت بليل تلومني وما عندها من لذة القصف ما عندي
توبخني بالشيب والشيب مرشد لعمري ولكن لست أنشد للرشد
فقلت لها: كفي ملامك إنني بطيء عن العذال في زمن الورد

عام الحزن

توفيت خديجة رضي الله عنها، وأبو طالب؛ في عام واحد لسنة ست من الوحي، فسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك العام عام الحزن.

عام الجُحاف

كما يقال: عام الفيل، للعام الذي وردت فيه الحبشة مكة بالفيل، وعام الرمادة للعام الذي اشتد فيه القحط، وذلك زمن عمر رضي الله عنه؛ ويقال: عام الجحاف، وهو سيل كان يبطن مكة سنة ثمانين للهجرة، حف الحجاج، وذهب بالإبل وعليها الحمولة.

زبدة الحقب

يضرب مثلًا للشيء النادر الذي لا يتفق مثله إلَّا في الأحقاب، كما قال أبو تمام في ذلك (من البسيط):

حتى إذا مخض الله السنين لها مخض البخيلة كانت زبدة الحقب

نسيم السحر

يضرب بطيبه المثل، وقد استكثر من ذلك الصاحب، فكتب: كلام أذكى من نسيم الأسحار، وأنفاس الأنوار.

وكتب: كلام كما هب نسيم السحر، على صفحات الزهر، ولذ طعم الكرى بعد برح السهر.

وكتب: نثر كما تفتح الزهر عن كميمه، ونظم كما تنفس السحر عن نسيمه، وتبسم الدر عن نظيمه.

بكر الدهر

قال إبراهيم بن العباس الصولي (من الرجز):

وليلة من الليالي الغر قابلت فيها بدرها ببدري

لم تك غير شفق وفجر حتى تولت وهي بكر الدهر

إغفاءة الفجر

يضرب بها المثل، فيقال: ألذ من إغفاءة الفجر.

وأحسن ما سمعت في إغفاءة الفجر، قول ابن طباطبا (من الطويل):

أقول وقد أوقظت من سنة الهوى بعذل يحاكي لذعة الهجر:
دعوني وحلم اللهو في ليل لمتي ولا توقظوني بالملام وبالزجر
فقالوا لي: استيقظ فشيبك لائح فقلت لهم: طيب الكرى ساعة الفجر

تباشير الصبح

تباشير الصبح أوائله؛ قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (من المنسرح):

بكر فقد صاحب العصافير ولاح من صبحك التباشير

فلق الصبح

من أمثالهم عن أبي عمرو: أبين من فلق الصبح؛ وأبين من عمود الصبح قال أبو تمام (من الكامل):

نسب كأن عليه من شمس الضحى نورًا ومن فلق الصبح عمودا

وقال البحتري (من الكامل):

كالصبح يضرب في الدجى بعموده

ويقال: كان ذلك من بياض الفلق، إلى سواد الغسق. أي: من مفتتح النهار إلى مختتمه.

نفس الربيع

يضرب المثل بطيبه، فيقال: أطيب من نفس الربيع؛ كما يقال: أطيب من نفس الحبيب.

وقد ذكره من قال (من الكامل):

العذل والتفنيد غير صواب مع أربع أصبحن من أصحابي
نفس الربيع وصبوة عذرية ومدامة تجلى وشرخ شباب

وقال (من المتقارب):

تنفس هذا الربيع المريع وأصبح للروض كالرائض
وما فرحي بشباب الزما ن والشيب يَعْرض في عارضي!

جمرات الظهيرة

تقع في الاستعارات الحسنة، كما كتب بعض البلغاء في وصف انتصاف نهار الصيف فقال: انتعل كل ظله، وقام قائم الهاجرة، ورمت الشمس بجمرات الظهيرة.

قمر الشتاء

يضرب به المثل في الضياع، فيقال: أضيع من قمر الشتاء؛ لأنه لا يجلس فيه كما يجلس في قمر الصيف.

قال ابن الحجاج (من الخفيف):

خاطر يصفع الفرزدق في الشعـ ـر ونحو ينيك أم الكسائي
غير أني أصبحت أضيع في القو م من البدر في ليالي الشتاء

فاكهة الشتاء

يقال للنار: فاكهة الشتاء؛ قال الشاعر (من الكامل):

النار فاكهة الشتاء فمن يرد   أكل الفواكه شاتيًا فليصطل

برد الكوانين

يشبه به كل ما يوصف بالبرد؛ قال الشاعر (من السريع):

أبرد من برد الكوانين   زيارة الراجل في الطين
لا يصلح التسليم يوم الندى   إلا لأصحاب البراذين

وقد زاد ابن المعتز في هذا المعنى زيادة حسنة فقال (من الطويل):

بلينا وقد طاب الشراب وأوقدت   حُميَّاه في الفتيان نار نشاط
بأبرد من كانون في يوم شمأل   وأكثر قسوًا من رياح السبت

ركوب الكَوْسَج

جرت العادة في أول يوم من شهر آذرماه الفارسي سنة من الكوسج، كان يتناول في هذا اليوم من بعض الأدوية المسخنة، ويطلي ببعض الأطلية الحارة، ويركب ويخرج في شهرة من الثياب مضحكة للناس؛ وهذه السنة مستعملة ببغداد وفارس.

قال المرادي (من السريع):

قد ركب الكوسج يا سيدي   فانزل على المزهر والراح
وأنعم بآذرماه عينًا وخذ   من لذة العيش بمفتاح

سقوط الجمرات

كانت كناية عن انتهاء البرد، وابتداء الحر؛ وسقوط الجمرات الثلاث في ما بين شباط وآذار، على ما تنطق به التقاويم.

ووصف بعضهم إنسانًا باردًا فقال: كأن قيام فلان من عندنا سقوط جمرة في الشتاء.

هلال شوال

يضرب به المثل للشيء السار الذي يستشرفه الناس ويختلفون في النظر إليه.

قال ابن المعتز (من المنسرح):

مر بنا تشرق الطريق به في قد غصن وحسن تمثال
فخلته والعيون تأخذه من كل فج هلال شوال

أخذه من قول ذي الرمة، حيث قال (من الوافر):

قيامًا ينظرون إلى بلال كأنهم يرون به الهلالا

وقال الطائي (من الكامل):

رمقوا أعالي جذعه فكأنما رمقوا الهلال عشية الإفطار

وقال كُشاجِم (من الخفيف):

بحر علم غداة حجة خصم طود حلم هلال ليلة عيد

حد الأحد

كان قدار بن سالف، ومن تابعه من ثمود عقروا ناقة الله يوم الأربعاء فصبحهم العذاب يوم الأحد، فأهلكهم.

وفي الحديث: «تعوذوا بالله من شر الأحد». وفيه: «وإياكم والشخوص يوم الأحد، فإن له حدًا كحد السيف».

ولما ولى يزيد بن معاوية سلم بن زياد خراسان، كتب إلى عبيد الله بن زياد — وهو على البصرة — بأن يوجه عبد الله بن خازم في أربعة آلاف من أهل البصرة في معونة سلم بن زياد، فقال عبيد الله: أخرجوا ابن خازم يوم الأحد إذا ضرب الناقوس حتى لا يرجع أبدًا؛ وجعل يردد الرسل والشرط إليه ليخرج، وابن خازم يتربص ويعتل بالعوام، إلى أن زاغت الشمس، فركب بالعشي، فقال للموكل به: أعلم صاحبك أنه قد ذهب حد الأحد.

وقال أبو تمام في محمد بن يوسف، وقد أوقع بقوم في يوم الأحد (من البسيط):

من كان أنكأ حدًا في كتائبهم ... أأنت أم سيفك الماضي أم الأحد

وقال إسماعيل الشاشي (من مجزوء الوافر):

تنكب حدة الأحد ... ولا تركن إلى أحد
فما بالري من أحد ... يؤهل لاسم لا أحد

ثقل الأربعاء

يقال: إن الأربعاء أثقل الأيام، وفيه قيل من مزدوجة (من الرجز):

الأربعا يوم وحش ... النحس فيه منكمش
الأخذ فيه والعطا ... من ذي المودات خطا

ولابن الحجاج من قصيدة يرثي بها أبا الفتح بن العميد (من الطويل):

أقول ليوم الأربعاء وقد غدا ... علي بوجه أغبر اللون قاتم
بعثت على الأيام نحسًا مؤبدًا ... بشؤمك يا بوم الندى والمكارم

وقرأت في أخبار مزبد أن رجلًا جاءه فقال له: أحب أن تخرج معي وتصل جناحي في حاجة لي، فقال: هذا يوم الأربعاء أستثقله، ولست أبرح فيه من منزلي، فقال الرجل: وما تكره من يوم الأربعاء، وفيه ولد يونس بن متى! فقال: لا جرم، قد بانت له بركته في اتساع موضعه، وحسن كسوته، حتى وصل على ورق القرع! قال: وفيه ولد يوسف، قال: فما أحسن ما فعل به أخوته حتى طال حبسه وغربته! قال: وفيه أوحي إلى إبراهيم عليه السلام! قال: فما كان أبرد الأتون الذي أوقدوه له حتى خلصه الله تعالى منه! قال: وفيه نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب، قال: أجل، بأبي أنت وأمي! ولكن بعد أن ﴿زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ وظنوا ﴿بِاللَّهِ الظُّنُونَا ۞ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾.

فهذا في الأربعاء عامة، وأما الأربعاء التي لا تدور، فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «آخر أربعاء في الشهر يوم نحس مستمر».

وتمثل به من قال (من الوافر):

لقاؤك للمبكر فأل سوء ووجهك أربعاء لا تدور

الباب الثامن والخمسون

في الآثار العُلْويَّة سوى ما تقدم منه

شمس العصر، لعاب الشمس، كلف البدر، عادة القمر، قمر المقنع، صحبة الفرقدين، مَناط العَيُّوق، نجوم الشيب، سحابة الصيف، مر السحاب، ظل الغمام، برق خلب، مطر الربيع، مطر مصر، ريق المزن، عيث الغيث، نسيم الصبا، أنفاس الرياح.

الاستشهاد

شمس العصر

تضرب مثلًا للشيخ المسن، ذي السن العالية، الذي خرف وبلغ ساحل الحياة، فيقال: ما هو إلَّا شمس العصر على القصر.

لعاب الشمس

لعاب الشمس عند العرب هو ما يتراءى كالخيوط في الجو عند شدة الحر؛ قال الراجز (من الرجز):

وذاب للشمس لعاب فنزل   وقام ميزان النهار فاعتدل

وقد يشبه به الشيء الباطل الذي لا أصل له.

ويقال له أيضًا: مخاط الشيطان، وخيط الشيطان، وخيط باطل.

وكما يقال: لعاب الشمس، يقال: بصاق القمر، للحجر الأبيض الذي يقال له المهو.

كلف البدر

يشبه به ما يعرض في المحاسن من القبح، وقد تقدم طرف من ذكره، قال الشاعر (من الرمل):

إن يكن أثر في عارضه ذلك الشعر ففي البدر كلف

عادة القمر

تضرب مثلًا لمن لا يجيء إلَّا ليلًا؛ قال ابن الرومي (من الرمل):

لا تعجب من سرانا فالسرى عادة الأقمار والناس هجود

وقال الآخر (من الخفيف):

هكذا البدر في الظلام يواتي

وقال أبو إسحاق الصابي (من البسيط):

سرى إلي وجنح الليل معتكر كذلك البدر في ظلمائه سار

قمر المقنَّع

المقنع كان رجلًا من أهل مرو، أعور، يقول بالحلول والتناسخ، ويدعي الإلهية، ويضرب في السحر والنيرنجيات بسهم وافر، فاتخذ وجهًا من ذهب، واشتدت شوكته بما وراء النهر، وتفاقم أمره، واستفحل

شره وأجابه قومه المبيضة الذين بقيت منهم إلى الآن بقية في حدود كش ونسف.

ومن مخاريقه أنه احتال حتى أظهر في الجو قمرًا، يقال: إنه من عكس شعاع عين الزئبق التي بتلك الأرض، وهو حتى الآن منسوب إليه.

ولما كان سنة ثلاث وستين ومائتين، استعمل المهدي المسيب على خراسان وأمره بمحاربة المقنع، فناصبه الحرب، وتحصن المقنع، فلما أحسن استيلاء المسيب على الحصن جمع نساءه كلهن، وقال: أنا صاعد إلى السماء فمن كان يريد أن يصحبني فليشرب من هذا الشراب؛ وسقاهن شرابًا مسمومًا، وشرب هو أيضًا منه فمات، ومتن جميعًا.

صحبة الفرقدين

يضرب بها المثل في طول الصحبة، وفي التساوي والتشاكل؛ كما قال البحتري (من الكامل):

كالفرقدين إذا تأمل ناظر لم يعل موضع فرقد عن فرقد

وقال آخر (من مجزوء الكامل):

شغلي بمعتدل القوا م ظلوم لحظ المقلتين
أفنيته عضًّا وتقـ ـبيلًا وإني بين ذين
وكأنني وكأن من أهوى اقتران الفرقدين

مَناط العَيُّوق

يضرب به المثل في البعد، فيقال: أبعد من بيض الأنوق، وأبعد من مَناط العَيُّوق.

ويقال أيضًا: أبعد من مناط الثريا؛ قال الشاعر (من الطويل):

وأبعد من هذا الذي قد أردته مناط الثريا من يد المتناول

نجوم الشيب

قال ابن الرومي (من الخفيف):

رب ليل كأنه الدهر طولًا قد تناهى فليس فيه مزيد
ذي نجوم كأنهن نجوم الشْـ ـشَيب ليست تغور لا بل تزيد

سحابة الصيف

يضرب مثلًا لمن يقل لبثه ويخف مكثه؛ ويشبه بها أيضًا غضب العاشق.

وقال أحد الحكماء الذين وقفوا على تابوت الإسكندر الرومي، ورمى كل واحد منهم بحكمة بالغة: انظر إلى حلم النائم كيف انقضى، وإلى سحاب الصيف كيف انجلى!

وكان ابن شبرمة إذا نزلت به نازلة، يتمثل بقول الشاعر (من الطويل):

سحابة صيف عن قليل تقشع

ومن فصل للصاحب: سحائب الصيف أثبت من قولك، والخط في الماء أقوى من عهدك.

وفي الكتاب المبهج: إقبال الدنيا كإلمامة ضيف، أو سحابة صيف، أو زيارة طيف.

مر السحاب

يتمثل به في السرعة؛ قال بعض الحكماء: الفرص تمر مر السحاب؛ قال الشاعر (من مجزوء الكامل):

الدهر أقصر مدة من أن يمحق بالعتاب
فتغنم الساعات منـ ـه فمرُّها مرُّ السحاب

وقد شبه به الأعشى مشي المرأة حيث قال (من البسيط):

كأن مشيتها من بيت جارتها   مر السحابة لا ريث ولا عجل

ظل الغمام

يضرب مثلًا لما لا يدوم، بل يسرع انقضاؤه؛ قال كثير (من الطويل):

وإني وتهيامي بعزة بعدما   تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما   تبوأ منها للمقيل اضمحلت

وقال ابن المعتز (من الطويل):

ألا إنما الدنيا كظل غمامة   إذا ما رجاها المستظل اضمحلت
فلا تك مفراحًا إذا هي أقبلت   ولا تك مجزاعًا إذا هي ولت

بَرْق خُلَّب

يقال: بَرْقٌ خلب، وبَرْقُ خلب؛ قال الشاعر (من الطويل):

وقول بلا فعل كبارق خلب

وقال آخر (من الرمل):

لا يكن برقك برقًا خلبًا   إن خير البرق ما الغيث معه

وبرق خلب هو الذي لا مطر معه؛ يضرب مثلًا لمن يخلف كما يخلف ذلك البرق.

والخلب من الخلابة؛ قال الليث، عن الخليل: البرق الخلب الذي يومض ويطمع في المطر، ثم يعدل.

وللصاحب من رسالة: وعده برق خلب، وروغان ثعلب.

مطر الربيع

الدهاقين يقولون: مطر الربيع ماء كله. أي: نفع كله، وذلك أن الماء حياة كل شيء، فمطر الربيع هو الماء الذي تحيا به الأرض بعد موتها، ولا يضيع منه شيء كما تضيع أمطار سائر الفصول.

وقد أحسن من قال لشارب دواء (من المنسرح):

وجال نفع الدواء فيك كما يجول ماء الربيع في الغصن

مطر مصر

يضرب مثلًا للشيء النافع يتضرر به، لأن من عيوب مصر أنها لا تمطر، فإذا مطرت كره أهلها ذلك أشد كراهة؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾، يعني المطر، فهذه رحمة مجللة لهذا الخلق، وهم لها كارهون، وهي لهم غير موافقة، ولا تزكو عليها زروعهم؛ قال بعض الشعراء (من الطويل):

يقولون: مصر أخصب الأرض كلها فقلت لهم: بغداد أخصب من مصر
وما مصر إلَّا بلدة مثل غيرها تعاقبها الأيام بالعسر واليسر
ولكنكم تطرونها بهواكم ولم تخل أرض من محب ومن مطر
وإلا فأين الخصب من معشر بها يقاسون أنواع العذاب من الفقر!
وما خير قوم تجدب الأرض عندهم بما فيه خصب العالمين من القطر!
إذا بشروا بالغيث ريعت قلوبهم
كما ريع في الظلماء سرب القطا الكدري

قال الجاحظ: وإذا هبت بها الريح المريسية — وهي ريح الجنوب — ثلاثة عشر يومًا تباعًا، اشترى أهل مصر الأكفان والحنوط، وأيقنوا بالوباء القاتل.

ريق المزن

يدخل في باب الاستعارات؛ كما قال بعض أهل العصر (من البسيط):

ريق الحبيب بريق المزن والعنب   أذاقني ثمرات اللهو والطرب
وقد سرقت من الأيام صفوتها   فكيف أهرب منها وهي في طلبي!

عيث الغيث

يضرب مثلًا لما يعم خيره، ويخص شره؛ وذلك أن الغيث على إغاثته الخلق، وإحيائه الأرض بعد موتها، ربما يضرب الناس بهدم البنيان، وتخريب العمران، وتعويق المواعيد، وإيذاء المسافرين.

وقد أنشدني أبو الفتح البستي (من السريع):

لا ترج شيئًا خالصًا نفعه   فالغيث لا يخلو من العيث

نسيم الصَّبا

الصَّبا مخصوصة من بين الرياح برقة النسيم، وطيب الهبوب، لانخفاضها عن برد الشمال، وارتفاعها عن حرب الجنوب.

وقد أكثر الناس من ذكرها؛ قال امرؤ القيس (من الطويل):

نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وقال ابن طباطبا (من المتقارب):

أتاني قريض كنظم الجمان   وروض الجنان وأمن الفؤاد
وعهد الصبا ونسيم الصبا   وبرد الفؤاد وطيب الرقاد

وقال ابن الرومي في وصف اللَّوْزِينَج (من السريع):

مستكثف الحشو ولكنه أرق جرمًا من نسيم الصبا

أنفاس الرياح

إحدى الاستعارات الحسنة السائرة؛ قال إسحاق بن خلف في وصف السيف (من مجزوء الكامل):

ألقى بجانب خصره أمضى من الأجل المتاح
وكأنما ذر الهبا ء عليه أنفاس الرياح

وقال السري في وصف قصيدة (من الطويل):

أتتك وقد أعدت خلالك لفظها جمالًا ففيه من خلالك رونق
معان كأنفاس الرياح بسحرة تمر بأنوار الرياض فتعبق

الباب التاسع والخمسون

في الأدب وما يتعلق به

أدب النفس، حرفة الأدب، حلية الأدب، بيت القصيدة، طريق القافية، غذاء الروح، سير المثل، طغيان القلم، عنوان الخير، توراة الثمانين، آخر الصك، جواب الجواب.

الاستشهاد

أدب النفس

قالوا: أدب النفس خير من أدب الدرس؛ ونظمه من قال (من السريع):

يا مغرقًا في أدب الدرس أفضل منه أدب النفس

وأهدى أبو غسان التميمي إلى الأمير نصر بن أحمد في يوم نيروز كتابًا من تأليفه؛ فقال له: ما هذا يا أبا غسان؟ فقال: كتاب أدب النفس، قال: فكيف لا تعمل بما فيه! وكان أبو غسان التميمي من سيئي الأدب في المجالس، ويعد فيمن يسيء أدبه بالأدب.

حرفة الأدب

قال الخليل: حرفة الأدب آفة الأدباء.

وفي الكتاب المبهج: حِرفة الأدب حُرفة.

وفي غيره: حرفة الأدب حرقة.

ويروى لنفر من الأدباء والشعراء، منهم الخليل والحمدوي (من البسيط):

ما ازددت في أدبي حرفًا أسر به إلا تزيدت حرفًا دونه شوم
إن المقدم في حذق بصنعته أنى توجه منها فهو محروم

وقال ابن بسام في مرثية ابن المعتز (من البسيط):

ما فيه لو ولا ليت فتنقصه وإنما أدركته في حرفة الأدب

حلية الأدب

قيل: لكل شيء حلية، وحلية الأدب الصدق؛ قال الصاحب (من مجزوء الخفيف):

الزم الصدق إنه حلية العلم والأدب
كذب المرء شينه لعن الله من كذب

بيت القصيدة

يضرب مثلًا في تفضيل بعض الشيء على كله، وقد تقدم ذكر مثله.

يقال: فلان فارس الكتيبة، وأول الجريدة، وبيت القصيدة؛ قال المتنبي (من الكامل):

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة أنت البديع الفرد في أبياتها

وهذا البيت بيت القصيدة التي عرضها.

طريق القافية

لما قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي في وصف الخمر (من الطويل):

وصافية تعشي العيون رقيقة سليلة عام في الدنان وعام
أدرنا بها الكأس الروية بيننا من الراح حتى انزاح كل ظلام
فما ذر قرن الشمس حتى كأننا من العي نحكي أحمد بن هشام

قال له أحمد بن هشام: لم هجوتني مع الصداقة التي بيننا! قال: لأنك قعدت على طريق القافية.

غذاء الروح

إن الأدب غذاء الروح، كما أن الطعام غذاء الجسم.

وفي الكتاب المبهج: الكلام الفائق بالخط الرائق، نزهة العين، وفاكهة القلب، وريحانه الروح.

سير المثل

يضرب به المثل، فيقال: أسير من مثل.

وقال ابن الحجاج (من الرجز):

وقصتي مشهورة تسير سير المثل

وقال أبو عثمان الخالدي (من البسيط):

إني لأملأ للآماق من قمر بدر وأسير في الآفاق من مثل

طغيان القلم

طغيان كل شيء: مجاوزته حد مثله؛ وطغيان القلم أن يجري بما لا يقصده الكاتب فكأنه يطغى في ذلك.

عنوان الخير

قال ابن الرومي في أبي الصقر (من البسيط):

له محيا جميل يستدل به على جميل، وللبطنان ظهران
وقل من ضمنت خيرًا طويته إلا وفي وجهه للشر عنون

وقيل لإنسان وسيم جسيم: ما هذه الجسامة؟ قال: عنوان نعمة الله عندي.

توراة الثمانين

هي التي ترجمها ثمانون حبرًا لبعض ملوك الروم، وذلك أنه أوردهم وفرق بينهم، وأمرهم بترجمة التوراة ليأمن تواطؤهم على تغيير شيء منها؛ ففعلوا، وهي الآن أصح تراجم التوراة. والله أعلم.

آخر الصك

يشبه به ما وصفه ابن الرومي، وسبق إليه في قوله (من الخفيف):

لك وجه كآخر الصك فيه لمحات كثيرة من رجال
كخطوط الشهود مشتبهات معلمات أن لست بابن حلال

جواب الجواب

كان الصاحب يقول: جواب الجواب، من الخطط الصعاب.

الباب الستون

في فنون مختلفة الترتيب على توالي حروف الهجاء

- **الألف:** إرجاف العوام، أيام الشباب، أنفاس الحبيب، أنفاس الرياض، أخبار الآحاد، أسارى الثرى، أثافي الشر.

- **الباء:** بكاء السرور، باب السماء، باب الآخرة، بكر بكرين، بيدق الشطرنج، بغلة الشطرنج.

- **التاء:** تحلة القسم، ترهات البسابس، تقسيمات إقليدس.

- **الثاء:** ثقل الفيل، ثقل الدين، ثقل الرصاص.

- **الجيم:** جَهْد البلاء، جهد المقل، جِلْسة الآمن، جلسة الخطيب، جهل الصِّبا.

- **الحاء:** حكم الصبي، حلم النائم، حب الظرف، حاسي الذهب، حمى الروح.

- **الخاء:** خدعة الصبي، خطيب القدر، خبط الفيل.

- **الدال:** دار القرار، دينار يحيى، داء الكرام، دعوة المظلوم.

- **الذال:** ذل السؤال، ذل الفقر، ذل الهوى، ذل العز.

- **الراء:** رشاء الحاجة، راكب الفيل، راكب اثنين، ريق الدنيا، رقية الزنا.

- **الزاي:** زكاة الجاه، زغب الحسن.
- **السين:** سقاية الحاج، سر الزجاجة، سر الفلك، سوط عذاب، سلم الشرف، سوس المال، سفاتج الأحزان، سقط الجند.
- **الشين:** شريكا عنان.
- **الصاد:** صحبة السفينة، صبغة الشباب، صدع الزجاج، صولة الكريم، صابون الهموم.
- **الضاد:** ضمير الغيب، ضربة الجبان، ضربة لازب.
- **الطاء والظاء:** طعم الحياة، ظل الموت.
- **العين والغين:** عرق القربة، عرق الموت، عز التقى، غفلة الرقيب، غضب العاشق، غبار العسكر، غبار الولاية، غصص الموت.
- **الفاء والقاف:** فتنة الدجال، فقاع القلى، فطنة الأعراب، فتح الفتوح، قصعة المساكين، قبور الأحياء، قبلة الحمى، قمع الفؤاد، قرن الكركدن، قطب السرور.
- **الكاف واللام:** كُتَّاب النِّثار، كيمياء الفرح، كف الجواد، كرب الدواء، لمع السراب، لعاب المنية، لزوم الدبق، لذة الخلسة.
- **الميم والنون:** مجالس الكرام، ميزان القوم، مصباح السرور، مفتاح النجاح، مفتاح الفرج، مفتاح الرزق، مفتاح الأمصار، مفتاح الفتن، مطية الجهل، مودة السوقة، مولى الموالي، معترك المنايا، مدرجة الشرف، نقد البلد، نور الهموم.
- **الواو والياء:** وقار الشيب، وقاحة العميان، ينبوع الأحزان.

الاستشهاد

إرجاف العوام

كان محمد بن عبد الملك الزيات يقول: إرجاف العوام مقدمة الكون؛ فنظمه جحظة، فقال (من الوافر):

أرى الإرجاف متصلًا بنذل ولابس حلتي كبر وتيه
وإرجاف العوام مقدمات لأمر كائن لا شك فيه

وخفف العوام، وحقها التشديد، وإنما جاء بها عامية بغدادية.

أيام الشباب

يشبه بها ما يوصف بالحسن والطيب، قال ابن أبي البغل (من الوافر):

مداد مثل خافية الغراب وقرطاس كرقراق السراب
وأقلام كمرهفة الحراب وخط مثل مَوْشِيِّ الثياب
وألفاظ كأيام الشباب

أنفاس الحبيب

يشبه بها كل شيء طيب.

قال أبو بكر الخوارزمي في وصف البخور (من الوافر):

وطيب لا يخل بكل طيب يحيينا بأنفاس الحبيب
متى يشممه أنف جن قلب كأن الأنف جاسوس القلوب

أنفاس الرياض

من أحسن ما قيل فيها قول ابن الرومي (من الطويل):

كذلك أنفاس الرياح بسحرة تطيب وأنفاس الأنام تغير

آخبار الآحاد

هي التي لم يروها إلَّا الآحاد، ولا يحكم بها أكثر الفقهاء.

ومن فصل للصاحب: مولاي يعرف أخبار الآحاد، وكم أهلكت من العباد.

وله من نتفة (من المنسرح):

لا تَعِ ما جاءك الوشاة به فإن هذين أخبار آحاد
وعد إلى الرسم في مواصلتي واعطف على عبدك ابن عباد

أسارى الثرى

كان محمد بن عبد الملك بن صالح إذا ذكر عنده قوم موتى بسوء، قال: كفوا عن أسارى الثرى.

وفي معناه يقول ابن المعتز في الفصول القصار: لا تذكر الميت بسوء، فتكون الأرض أكتم عليه منك.

أثافي الشر

قال الأصمعي: كان جرير والفرزدق والأخطل أثافي الشر؛ تهاجوا أربعين سنة.

بكاء السرور

السرور إذا أفرط أبكى، والغم إذا أفرط أضحك.

قال أبو الطيب (من الكامل):

ومن السرور بكاء

وقال أيضًا (من المتقارب):

ومن فرح النفس ما يقتل

وقال آخر (من المتقارب):

وشر الشدائد ما يضحك

وقال بعض العصريين (من البسيط):

وكنت أبكي قرير العين من فرح فالآن من عجب بي ضحك مكروب
وكنت أولع بالتصفيق من طرب فالآن أوهى يدي تصفيق محروب

باب السماء

قلت في الكتاب المبهج: لا يقرع باب السماء بمثل الدعاء.

باب الآخرة

قال ابن المعتز في الفصول القصار: الموت باب الآخرة.

بِكْر بِكْرين

البكر: أول ولد الرجل، والعرب تتشاءم به إذا كان ذكرًا؛ فإذا كان كل من أبويه أيضًا كذلك، قيل له: بكر بكرين، وهو النهاية في الشؤم؛ وكان قيس بن زهير بكر بكرين، وكان أزرق.

ويقال: بكر بكرين شيطان؛ قال الشاعر في غلام كان بكر بكرين (من الرجز):

يا بكر بكرين ويا خلب الكبد أصبحت مني كذراع من عضد

بيدق الشطرنج

يشبه به القصير الدنيء الساقط؛ وأظن الناجم أول من شبه به، حيث قال (من الهزج):

ألا يا بيدق الشطرنـ ـج في القيمة والقامةْ
لقد صغر منك الكُلْـ ـلُ غير الدبر والهامةْ

بغلة الشطرنج

يشبه بها من يستغنى عنه ولا يحتاج إليه، ومن يكون دخيلًا في القوم، إذ ليس للبغل مكان في دواب الشطرنج.

وله يقال في المثل: من أنت في الرقعة!

قال بعض العصريين (من الرجز):

يا كاتبًا أقبل من زرنج مبرقع الوجه بلون الزنج
اذهب فأنت بلغة الشطرنج

تَحِلَّة القسم

أحسن ما سمعت فيها قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (من الكامل):

حلف الأمير بقطعه يده إذ مس من يهواه بالألم
حتى إذا ضاق الفضاء به جعل الفصاد تحلة القسم

تُرَّهات البسابس

ذكر الأصمعي أن الترهات الطرق الصغار، المتشعبة من الطريق الأعظم؛ والبسابس جمع بسبس، وهو الصحراء الواسعة التي لا شيء فيها؛ يقال لها: بسبس وسبسب، هذا أصل الكلمة.

ثم يقال لمن جاء بكلام محال: أخذ في ترهات البسابس، وجاء بالترهات.

ومعنى المثل أنه أخذ في غير القصد، وسلك الطريق الذي لا ينتفع به؛ كقولهم: وركب بنيات الطريق؛ قال الشاعر (من الطويل):

تطاول ليلي واعترتني وساوسي لآت أتى بالترهات البسابس

تقسيمات إقليدس

حكى أبو القاسم الآمدي، قال: سمع بعض الشيوخ من نقدة الشعر قول العباس بن الأحنف (من الطويل):

وصالكم هجر وحبكم قلى وعطفكم صد وسلمكم حرب
وأنتم بحمد الله فيكم فظاظة وكل ذلول من مراكبكم صعب

فقال: هذا — والله — أحسن من تقسيمات إقليدس.

ثقل الفيل

يضرب به المثل. وكان أبو حنيفة رضي الله عنه كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت (من المتقارب):

وما الفيل تحمله ميتًا بأثقل من بعض جلاسنا

وأنشد المدائني (من المتقارب):

وما الفيل تحمله موقرًا رصاصًا بأثقل من معبد

وقال بعض الظرفاء (من مجزوء الرمل):

أنت والله ثقيل وثقيل وثقيل
أنت في المنظر إنسا ن وفي الميزان فيل

ثِقْل الدَّين

يضرب به المثل؛ كما قال ابن الرومي (من الخفيف):

وثقيل كأنه ثقل دَين يتعداه طالعًا كل عين
حمَّل الله أرضه ثقليها وبراه علاوة الثقلين

ويروى أن لقمان قال لابنه: يا بني، حملت الصخر والحديد، فلم أحمل أثقل من الدين، وأكلت الطيبات، وعانقت الحسان؛ فلم أصب ألذ من العافية، وذقت المرارات؛ فلم أذق أمر من الحاجة إلى الناس.

ثقل الرصاص

أنشد الجاحظ لدوست المعلم (من الرمل):

لي جيران ثقال كلهم فأخف القوم في ثقل الرصاص
قلت لما قيل لي قد غضبوا: غضب الخيل على اللجم الدِّلاص

جَهْد البلاء

اختلفت الآراء والأقاويل فيه.

فيروى أن الأحنف كان يقول فيه: جَهْد البلاء: خادم يدمدم، وبيت يكف، وحطب يتفرقع، وخوان ينتظر به غائب.

وأتي عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب برجل قد استحق القتل، فأقيم ليضرب عنقه، ودعا بالسياف، فقال رجل من جلسائه: هذا — والله — جَهْد البلاء؛ فقال عبد الله: لا تقل هذا، فوالله ما هذا وشرط حجام بمشرطه إلَّا سواء؛ ولكن جَهْد البلاء فقر مدقع بعد خير موسع.

ويروى أن المأمون قال يومًا لجلسائه: ما جَهْد البلاء؟ فقال عمرو بن مسعدة: طول الليلة الساهرة، من خوف ذي البطشة القادرة؛ فقال: إن هذا لجهد، ولم يبلغ أن يكون كل الجهد.

فقال صالح العباسي: جَهْد البلاء؛ زوال النعمة، وانتهاك الحرمة، والأمر الغمة؛ فقال المأمون: إن الأمر الغمة لناهيك به.

فقال الحجاج بن خيثمة: بل جَهْد البلاء؛ من غضب عليه أمير المؤمنين، فلا يقبل له عذرًا، ولا يعده صفحًا، فالأرض لا تقله، والسماء لا تظله.

فقال ثمامة: جَهْد البلاء، جري حكم جاهل على عالم؛ فقال المأمون: ينبغي أن يكون لحديثك قصة، قال: نعم، يا أمير المؤمنين؛ حبسني الرشيد ووكل بي مسرورًا، فمنعني الأنفاس، وقرب الناس، ثم دخل علي يومًا وهو يقرأ: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ويقول: ويل للمكذبين؛ فقلت: إن المكذَّبين هم الرسل، والمكذِّبين قومهم؛ فقال: قد قيل لي إنك قدري، ولكنني لم أصدق إلى الآن! فأي جهد يكون أجهد من هذا! فقال المأمون: صدقت يا أبا معن.

وحكى الأصمعي، عن المعتمر بن سليمان أنه قال: لم يعالج جَهْد البلاء من لم يعالج الأيتام.

وقال الجاحظ: ليس جَهْد البلاء مد الأعناق، وانتظار وقوع السيوف؛ لأن الوقت قصير، والحس مغمور؛ ولكن جَهْد البلاء أن تظهر الخلة، وتطول المدة، وتعجز الحيلة، ثم لا تعدم صديقًا مؤنبًا، وابن عم شامتًا، وجارًا حاسدًا، ووليًا قد تحول عدوًا، وزوجة مختلعة، وجارية مستبيعة، وعبدًا يخفرك، وولدًا ينتهرك.

وقال في مكان آخر: قد علمنا أن المخنوق يجد للترفيه وإرخاء الوتر، وأن صاحب الحصر وصاحب الأسر يجدان عند التطلق وانفتاح المخرج ما لا يجده آكل الرطب، وكذلك المصبور على ضرب العنق؛ وهو الذي يسمى جَهْد البلاء؛ فإنه إذا سلم وقد عاين بريق السيف يجد لتلك السلامة من اللذة ما لا يجد لشيء من الفواكه والحلوى.

جهد المقل

أحسن ما سمعت فيه قول الشاعر (من الخفيف):

قد بعثنا إليك أصلحك اللـ ـه بشيء فكن له ذا قبول
لا تقسه إلى ندى كفك الغمـ ـر وإفضالك الجسيم الجزيل
واغتفر قلة الهدية مني إنَّ جهد المقل غير قليل

وكتب بعضهم في ذكر قصيدة له: هي جهد المقل، لا دعوى المستقل.

جِلْسة الآمن

قيل لمحمد بن واسع: ألا تتكئ؟ فقال: تلك جِلْسة الآمن ولست به.

جلسة الخطيب

تمثل بها في الخفة بعض البلغاء، فقال: جلسة فلان عندي أخف من جلسة الخطيب فيما بين الخطبتين.

وفي الكتاب المبهج: جلسة العيادة خلسة.

جهل الصبي

يضرب به المثل، فيقال: أجهل من صبي، ويقال: الصبي صبي ولو لقي النبي؛ وقال الشاعر (من الطويل):

ولا تحكما حكم الصبي فإنه كثير على ظهر الطريق مجاهله

حكم الصبي

يضرب مثلًا، لمن يشط في الاقتراح على صاحبه.

وكان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار يقول له: يا هذا إنك قد اخترتني جارًا، فجناية يدك علي دونك، وإن جنت عليك يد فاحكم علي حكم الصبي على أهله.

وقال قديد بن منيع لجديع بن علي: لك علي حكم الصبي على أهله.

حلم النائم

يشبه به ما يشرع انقضاؤه.

وقال حكيم: كان مكتوبًا على تابوت الإسكندر: انظر إلى حلم النائم كيف انقضى، وإلى سحاب الصيف كيف انجلى!

وقال الشاعر في وصف الدنيا (من الكامل):

أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وقال إبراهيم بن المهدي (من الطويل):

وما المرء في دنياه إلَّا كهاجع رأى في غرار النوم أضغاث حالم

حَبُّ الظرف

هو الجرب عند فتيان الشام والعراق ومتظرفيهما؛ قال الصنوبري (من البسيط):

الشيب عندي والإفلاس والجرب هذا هلاك وذا شؤم وذا عطب
إن دام ذا الحك لا ظفر يدوم ولا جلد ولا لحم ولا عصب
ولقبوه بحب الظرف ليتهم يا نفس ضاعوا كما قد ضاع ذا اللقب

وقال آخر (من مجزوء الرمل):

يا صروف الدهر حسبي أي ذنب كان ذنبي
علة عمت وخصت في حبيب ومحب
دب في كفيه يا من به دب بقلبي
فهو يشكو حرب حب واشتكائي حر حب

ومن أحسن ما سمعت في الجرب، قول الآخر (من محزوء الخفيف):

سيدي ليس ذا جرب هذه حكة الطرب
كلما قلت قد ذهب دب في الجلد والتهب
ما أراه مزايلي ما أراه التين والعنب
أو يرى رأيه الملي فيمضي مع الرطب

حاسي الذهب

هو عبد الله بن جدعان؛ يسمى حاسي الذهب، لأنه كان يشرب في إناء من ذهب.

وكانت قريش تتمثل به بقولها: أقرى من حاسي الذهب؛ لجوده وكثرة قراه.

حمى الروح

كان بَخْتَيشُوع يقول للمأمون: يا أمير المؤمنين، لا تجالس الثقيل، فإنا نجد في كتبنا مجالسة الثقيل حمى الروح.

خدعة الصبي

من أمثال العرب: إنها خدعة الصبي عن اللبن؛ يقال للشيء اليسير يخدع به الإنسان عن الشيء الخطير. وإنما يشبه بما يعطى الصبي عند فطامه من طعام أو غيره، فيعلل به ليسلو عن اللبن.

خطيب القِدْر

سمعت الأمير السيد — أدام الله تأييده — يقول: سأل أعرابي أهله فقال: أين بلغت قدركم؟ فقالت: قد قام خطيبُها، تكني عن الغليان.

خبط الفيل

يضرب به المثل في ثقل الوطأة.

وكانت الأكاسرة ربما قتلت الرجل بوطء الفيلة؛ وكانت قد دُرِّبت على ذلك وعُلِّمت، فإذا ألقي إليها الرجل تركت العلف وقصدت نحوه، فضربته بخراطيهما، وخطبته بقوائمها حتى يموت.

وكان ممن ألقي تحت أرجل الفيلة النعمان بن المنذر.

دار القرار

قال الله عز من قال: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾. قال علي بن الجهم (من الخفيف):

من وراء الشباب شيب حثيث الشْـ	ـسَير والليل مزعج بنهار
ومع الصحة السقام وحال الـ	ـعز مقرونة بحال الصغار
ليس دار الدنيا بدار قرار	فتزود منها لدار القرار

دينار يحيى

يحيى هذا بلي بالعباس المصيصي الخياط المعروف بالمشوق لما أعطاه دينارًا خفيفًا؛ كما بلي ابن حرب بالحمدوي إذ خلع عليه طيلسانًا خلقًا، وصار دينار يحيى مثلًا في الخفة، كما صار طيلسان ابن حرب مثلًا في الخلوقة.

فمن ملح العباس في دينار يحيى قوله (من السريع):

دينار يحيى ذلك الرجس كأنما جاء من الحبس
وفي هبوب الريح يحكي لنا تقلب الرقاص في العرس
كأنه في الكف من خفة مقداره من صفرة الورس

وقوله (من الكامل):

دينار يحيى زائد النقصان فيه علامة سكة الحرمان
قد دق منظره ودق خياله فكأنه روح بلا جثمان
أهداه مكتتمًا إلي برقعة فوجدته أخفى من الكتمان

داء الكرم

كناية عن الدين؛ لأن الكرام كثيرًا ما يبلون به، وربما يراد به رقة الحال، كما قال الشاعر (من الخفيف):

وافق المهرجان والعيد مني رقة الحال وهي داء الكرام
فاقتصرنا على الدعاء وفيه عون صدق على قضاء الذمام

وقال آخر (من المنسرح):

أحمد ربي اللطيف حمد فتى في كدر العيش غير مغبون
إن كان دار الكرام يَعْرُوني فإن دار الملوك يعدوني

دعوة المظلوم

جاء في الخبر: «اتقوا دعوة المظلوم ولو كان كافرًا»، وفيه «اتقوا دعوة المظلوم فإنها لينة الحجاب».

وقال الشاعر (من البسيط):

كنت الصحيح وكنا من في سقم ... فإن سقمت فإنا السالمون غدا
دعت عليك أكف طالما ظلمت ... ولن ترد يد مظلومة أبدا

وبات أبو العيناء عند ابن مكروم في بيت، فتأذى بفسائه، فتحول إلى الصفة، فلحقه النتن، فصعده غرفة فوجد تلك الرائحة، فقال له، يا ابن الفاعلة، ما أشبَه فساءك إلَّا بدعوة المظلوم، والريح العقيم؛ ليس دونهما حجاب!

ذل السؤال

من أحسن ما قيل فيه قول الأول (من الوافر):

يقول الناس: كسب فيه عار ... فقلت: العار في ذل السؤال
لنقل الصخر من قلل الجبال ... أخف علي من مَنَن الرجال

وقول أبي تمام (من البسيط):

ذل السؤال شجى في الحلق معترض ... من فوقه شرق من تحته جرض
ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت ... من ماء وجهي إذا أفنيته عوض

ذل الفقر

من دعاء بعض السلف: اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر وبطر الغنى.

قال ابن أبي السرح (من الطويل):

صحبتكم حولين في حال عزة ... أرجي نداكم والجنون فنون
فما نلت منكم طائلًا غير أنني ... تعلمت ذل الفقر كيف يكون

ذل الهوى

لما قصد أبو تمام البصرة شق ذلك على عبد الصمد بن المعذل، فكتب إليه يقول (من الخفيف):

أنت بين اثنتين تبرز للنا س وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالبًا لوصال من حبيب أو طالبًا لنوال
أي ماء لحر وجهك يبقى بين ذل الهوى وذل السؤال!

ذل العزل

كان بعض الولاة يقول: لا يقوم عز الولاية بذل العزل.

وقال ابن المعتز (من الوافر):

وذل العزل يضحك كل يوم ويضرب في قفا الوالي المذل

رشاء الحاجة

من فصول أبي الفتح البستي القصار: الرشوة رشاء الحاجة.

راكب الفيل

سمع البحتري قول الشاعر (من مجزوء الرمل):

ومغن يتغنى بطعام وشراب
فإذا رمنا سكوتًا فبمال وثياب

فقال: مثل هذا كمثل راكب الفيل، يركب بدانق وينزل بدرهم.

راكب اثنين

يضرب مثلًا لمن يعتمد شيئين اثنين فما يحصل منهما على شيء، ويتضرر بذلك؛ قال الشاعر (من البسيط):

أضحى حُرَيْثٌ أدام الله صرعته   كراكب اثنين يرجو قوة اثنين
حتى إذا أخذا في حال شوطهما   تفرقا فهوى بين الطريقين
طال الزمان ولم يظفر بحاجته   كذاك حال الذي يدعو إلهين

ريق الدنيا

أول من قال ذلك للنبيذ ابن الرومي في قوله (من الطويل):

فتى هجر الدنيا وحرم ريقها   وما ريقها إلَّا الشراب المصرد

وفي الكتاب المبهج: الدنيا معشوقة، ريقها الراح.

رقية الزنا

قال المدائني: لما نزل الحطيئة ببني قريع، فسمع شبانًا يتغنون، فقال: جنبوني مغنيكم، الغناء رقية الزنا.

وكان سليمان بن عبد الملك يقول: إن الفرس يصهل فتستودق له الحجر، وإن الفحل يهدر فتضبع له الناقة، وإن التيس ينب فتستحرم له العنز، وإن الرجل يغني فتشبق له المرأة.

زكاة الجاه

سأل سائل رئيسًا كتاب وصاة، فمنعه إياه، فقال له: إن الله تعالى قد أمر بإيتاء الزكاة، وزكاة الجاه الكتب؛ فأمر له بما سأل.

ومما يستحسن لأبي أحمد بن أبي بكر الكاتب، قوله لأبي الفضل البلعمي (من الرمل):

يا أبا الفضل لك الفضل المبين   وبما تكنى به أنت قمين
ليس تخلو من زكاة نعمة   أوجبت شكرًا لرب العالمين
فزكاة المال من أصنافه   وزكاة الجاه رفد المستعين

زغب الحسن

أول من قال ذلك لخط عارض الغلام الصاحبُ في قوله (من السريع):

قلت وقد قيل بدا شعره: بمثل ذاك الشعر لا يشعر
هل زغب الحسن له ضائر   والقمر التمر به يقمر!

سقاية الحاج

كانت مكارم قريش ومآثرها، إذ كانت تسقي الحجيج السويق ونبيذ الزبيب طول أيام الموسم؛ وكانت تسمي تلك المكرمة سقاية الحاج، ويتولاها أكابرهم، ويتوارثونها كابرًا عن كابر؛ حتى استقرت للعباس بن عبد المطلب، وسمي ساقي الحجيج.

ويروى أن مفاخرة وقعت بين طلحة بن شيبة، والعباس، وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، فقال العباس: أنا صاحب السقاية، والقائم عليها، وقال ابن شيبة: أنا صاحب البيت، ومعي مفتاحه؛ فقال علي: ما أدري ما تقولون؟ أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما وقبل الناس أجمعين بستة أشهرٍ، فنزلت آية: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

سر الزجاجة

يضرب مثلًا لما لا ينكتم من الأسرار، لأن الزجاجة جوهر لا ينكتم فيه شيء لما في جرمه من الضياء.

وكتب ابن المعتز إلى صديق له: أقلل من فلان نصيبك، فإنه أتم من زجاجة على ما فيها.

وللسري في هذا المعنى ملح لم أر مثلها حسنًا وبراعة، فمنها قوله وهو يعاتب صديقًا له أسر له حديثًا فأذاعه (من البسيط):

لسانك السيف لا يخفى له أثر وأنت كالصِّلِّ لا تبقي ولا تذر
سري لديك كأسرار الزجاجة لا يخفى على العين منها الصفو والكدر
فاحذر من الشعر كسرًا لا انجبار به فللزجاجة كسر ليس ينجبر

ومنها قوله (من الطويل):

رأيت تُبدي للصديق نوافذًا عدوك من أمثالها الدهر آمن
وتكشف أسرار الأخلاء مازحًا ويا رب مزح راح وهو ضغائن
سألقاك بالبشر الجميل مداهنًا فلي منك خل مذ عرفت مداهن
أنم بما استودعته من زجاجة يرى الشيء فيها ظاهرًا وهو باطن

وقوله (من البسيط):

أروض منك ثمارًا لست أجنيها وأرتجي الحال قد حلت أواخيها
أستودع الله خلًا منك أوسعه ودًا ويوسعني غشًا وتمويها
كأن سري في أحشائه لهب فما تطيق له طيًا حواشيها
قد كان صدرك للأسرار جندلة ضنينة بالذي تخفي نواحيها
فصار من بث ما استودعت جوهرة رقيقة تستشف العين ما فيها

وللأمير السيد — أدام الله تأييده — في حل البيتين الأخيرين: قد كان في حفظ السر صخرة لا تنصدع، فأصبح زجاجًا لا يحتجب ما في ضمنه ولا يمتنع.

سر الفَلَك

قال بعض العصريين في صديق له منجم (من المتقارب):

صديق لنا عالم بالنجوم يحدثنا بلسان الملك
ويكتم أسرار إخوانه ولكن ينم بسر الفلك

سوط عذاب

من استعارات القرآن قول الله تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

اقتبس منه كُشاجِم، فقال (من الكامل):

يا رحمة الله التي قد أصبحت دون الأنام علي سوط عذاب

سلم الشرف

قال بعض الحكماء البلغاء: التواضع سلم الشرف.

وقال آخر: التواضع من مصايد الشرف.

سوس المال

قال بعضهم: العيال سوس المال.

ومن أبلغ ما قيل في التمثل بالسوس قول خالد بن صفوان: والله لثلاثون في مالي أسرع من السوس في الصوف في الصيف.

وقال أبو نصر العتبي في فصول القصار: للهم في وخز النفوس أثر السوس في خزِّ السوس.

سفاتج الأحزان

قال بعض أدباء التناء: كتب الوكلاء سفاتج الأحزان.

فنظمه من قال (من الكامل):

طلب التناءة جاهدًا لتعزه ... فغدا بدار مذلة وهوان
ورأى رقاع وكيله فزهي بها ... فإذا الرقاع سفاتج الأحزان

وفي الكتاب المبهج: الضياع مدارج الغموم، وكتب وكلائها سفاتج الهموم.

سقط الجند

هم الذين قد أسقطت أرزاقهم، فلا أذل منهم ولا أضيع؛ يضرب بهم المثل في السقوط والذل؛ قال الشاعر (من السريع):

وعاشق من سقط الجند ... قد مات من شهوة فلكند
أهدى إلى أحبابه كامخًا ... في زمن النرجس والورد

شريكا عنان

يضرب بهما المثل، كقولهم: رضيعا لبان؛ في المتقاربين المتماثلين.

وقد أحسن أبو تمام في الجمع بينهما وبين ما يذكر معهما من أشكالهما، حيث قال (من المتقارب):

شريكي عنان، رضيعي لبان ... عتيقي رهان، حليفي صفاء

صحبة السفينة

يضرب مثلًا في الصحبة التي لا صداقة معها، وذلك أن الناس ربما يتصاحبون في السفينة، ثم لا يتصادقون بعدها؛ قال الشاعر (من مخلع البسيط):

من غاب عنكم نسيتموه ... وروحه عندكم رهينةْ

أظنكم في الوفاء ممن صحبته صحبة السفينةْ

ومن فصل للهمذاني: قد كانت صحبتنا في المدينة صحبة السفينة.

صِبْغة الشباب

هي السواد، والإنسان أحسن ما يكون في العين ما دام أسود الشعر، وكذلك شعورهم في الجنة.

وقال كُشاجِم في وصف مجلدات بسواد (من الخفيف):

كسيت من أديمها الحلل الجو ن غشاء أحسن به من غشاء!
مشبهًا صبغة الشباب ولما ت العذارى ولبسة الخطباء

صدع الزجاج

يضرب مثلًا لما لا يجبر ولا يلتئم.

قال الأعشى (من المتقارب):

فبانت وقد أسأرت في الفؤاد كصدع الزجاجة لا يلتئم

وأنشدني الأمير السيد — أدام الله تمكينه — لابن العلاف في الزجاج، فقال (من مجزوء الرمل):

لك ود قد جبرنا ه فأعيتنا صدوعه
فإذا ودك مما كنت بالأمس تبيعه

صولة الكريم

يقال: اتقوا صولة الكريم إذا جاع، وصولة اللئيم إذا شبع.

ويقال: نعوذ بالله من صولة الكريم إذا جاع، وضربة الجبان إذا خاف.

صابون الهموم

كان كسرى يقول: النبيذ صابون الهموم.

ومن أمثال التجار: النقد صابون القلوب؛ يعنون أنه يغسل ما خامرها من الموجدة بطول المطل.

ضمير الغيب

قال بعض فضلاء أهل العصر (من الكامل):

كم في ضمير الغيب من أسرار تهدي اليسار إلى ذوي الإعسار
فاستشعر الظن الجميل توقعًا لمناجح الأوطار في الأطوار

ضربة الجبان

كان يقال: اتقوا ضربة الجبان إذا خاف، لأنه لا يبقي ولا يذر.

ومن أمثالهم: عصا الجبان أطول. والله أعلم.

ضربة لازب

يضرب مثلًا في الشيء الواجب اللازم.

قال البحتري (من الكامل):

وإذا رأيت الهجر ضربة لازب أبدًا رأيت الصبر ضربة لازب

طعم الحياة

سئل بعضهم عن طعم الماء، فقال: طعم الحياة.

قال ابن المعتز (من الخفيف):

هاك مني خذها، ومنك فهات   صفو مشمولة كطعم الحياة
كل يوم تعفو الحوادث عنه   فانتهز فيه فرصة الأوقات

ظل الموت

قال أعرابي لابنه: يا بني، كن يدًا لأصحابك على من قاتلهم؛ ولكن إياك والسيف، فإنه ظل الموت؛ واتق الرمح فإنه رشاء المنية؛ واحذر السهام فإنها رسل الهلاك. قال: فبماذا أقاتل؟ قال: بما قال القائل (من الطويل):

جلاميد أملاء الأكف كأنها   رؤوس رجال حلقت بالمواسم

عَرَق القِرْبة

من أمثال العرب: لقيت من فلان عرق القربة، أي: شدة ومشقة؛ وأصله أن حامل القربة يتعب في حملها ونقلها حتى يعرق جبينه؛ فاستعير عرقه في موضع الشدة والتعب.

عرق الموت

يضرب مثلًا لأشد الشدة.

وكان الحسين الخادم خادم المعتضد والمكتفي الذي كان يتولى البرد يلقب بعرق الموت. وقيل: إن المكتفي لقبه بذلك.

عز التقى

يقال: إنه لم يمدح عالم بأحسن من قول ابن الخياط في الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه (من البسيط):

يأبى الجواب فما يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان
هدي التقي وظل سلطان التقى فهو المهيب وليس ذا سلطان

غفلة الرقيب

يشبه بها ما يستحسن ويستلذ، كما قال العطوي (من البسيط):

أحسن من غفلة الرقيب وغمرة اللحظ من حبيب

وقال غيره (من مخلع البسيط):

يدير في كفه مدامًا أحسن من غفلة الرقيب

ومن فصل للأمير السيد أدام الله تأييده: ما زلت أسمع بوصل الحبيب، وغفلة الرقيب، ونيل الوطر، ومخالسة النظر؛ وكل ذلك مستصغر في جنب سروري بكتابك، وإعجابي بثمرة آدابك.

غضب العاشق

تشبه به سحابة الصيف، وتشبه سحابة الصيف بغضب العاشق في سرعة الانحلال.

وكان الهمذاني يقول: غضب العاشق أقصر عمرًا من أن ينتظر عذرًا، وإن كان في الظاهر مهابة سيف، فإنه في الباطن سحابة صيف.

غبار العسكر

كان أبو السمط مروان بن أبي الجنوب يلقب غبار العسكر، لقوله (من الكامل):

لما بدا لون المشيب سترته وتركت منه ذوائبًا لم تستر
قالت: أرى شيبًا برأسك؛ قلت: لا هذا غبار من غبار العسكر

وفي رهج الخميس يقول أبو تمام (من الكامل):

من لم يقد فيطير في خيشومه رهج الخميس فلن يقود خميسا

وفي الكتاب المبهج: ناهيك بمن أدَّى منه حق الخميس، وطار في أنفه رَهَجُ الخميس.

غصص الموت

يشبه بها كل ثقل وكراهة؛ قال الشاعر (من الخفيف):

ونديم كأنه غصص المو ت كثير المراء ويشجب الخليلا
يذكر الدين والخصومة في الديـ ـن وقد حازت الكؤوس العقولا
ويصلي في غير وقت صلاة ليس إلَّا لأن يكون ثقيلا

فتنة الدجال

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ بالله من فتنة الدجال، وعذاب الفقير؛ والأخبار في وصف الدجال وفتنته والاختلاف في أمره أعظم من أن يتسع لها هذا الباب.

فقاع القلى

قال بعض المولدين (من السريع):

شربت فقاع القلى بعدكم لعارض من تخمة الحب

حتى تجشأت جميع الذي قد كان من حبك في قلبي

فطنة الأعراب

يضرب بهما المثل، وذلك لصفاء أذهانهم وجودة قرائحهم؛ قال أبو تمام (من الكامل):

لا رقة الحضر اللطيف غذتهم وتباعدوا عن فطنة الأعراب

فتح الفتوح

فتح مكة يسمى: فتح الفتوح، ويشبه به كل فتح جليل القدر؛ كما قال أبو تمام في فتح عمورية (من البسيط):

فتح الفتوح المعلى أن يحيط به نظم من الشعر أو نظم من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب

قبور الأحياء

يروى أن يوسف عليه السلام كتب على باب السجن:

هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وتجربة الأصدقاء، وشماتة الأعداء.

قبلة الحمى

هي ما يثور بشفة المحموم من البثور، ويسميها أهل اللغة: العقابيل؛ قال الشاعر (من البسيط):

يا ليت حماك بي أو كنت حماكا إني أغار عليها حين تغشاكا

حُمَّاك جماشة، حُمَّاك عاشقة لو لم تكن هكذا ما قبلت فاكا

قمع الفؤاد

قال بعض الحكماء: الأذن قمع الفؤاد.

ومن فصل للصاحب: زوج بنات صدرك من بني علمي، وأفرغ صوب عقلك في قمع أذني.

قرن الكركدن

الكركدن حيوان لا يكون إلَّا بأرض الهند.

يحكى عنه أعاجيب، ويذكر أن له قرنًا واحدًا في جبهته في طول ذراع، وعرضه يضرب به المثل، ويشبه به قرن القرنان.

قال ابن الرومي (من الخفيف):

كان للكركدن قرن فأضحى وهو الآن عند قرنك مدرى
من يكن قرنه كقرنك هذا فليكن بابه كإيوان كسرى

قطب السرور

هو النبيذ عند أصحابه؛ قال العطوي (من الخفيف):

أنا بالقرب منك عند الكريم قد ألحت عليه شهب سنيه
مجلس كالرياض حسنًا ولكن ليس قطب السرور واللهو فيه

وقال السري (من المنسرح):

الكأس قطب السرور والطرب فاحظَ بها قبل حادث النوب

كُتَّاب النِّثار

هم الكُتَّاب الذين لم يختلفوا إلى الكُتَّاب وكان الخوارزمي يقول: فلان من أدباء المجاز، وكُتَّاب النِّثار.

وممن ذكرهم في شعره ابن عروس، حيث قال (من الوافر):

ولما أن رأيتهم وقوفًا على الجسرين كالحدأ الضواري
سألت فقيل: كتاب ولكن ألم تسمع بكُتَّاب النِّثار!

ثم قال:

وكم بغل على بغل وكم من حمار قد أناف على حمار
وبرذون تراه وقد تثنى على برذونه مثل الجدار

كيمياء الفرح

النبيذ كيمياء الفرح، وصابون الهموم، ولحام أرحام الكرام.

كف الجواد

قال العسكري في تشبيه المطر بها (من الخفيف):

حال بيني وبين بابك حالا ن: وحول وقرب عهد عهاد
فكأن الوحول ليل محب وكأن السماء كف جواد

كرب الدواء

كان المكتفي يلقب وزيره العباس بن الحسن: كرب الدواء، فلما قتل في أيام المقتدر قيل فيه (من مجزوء الرمل):

قد أرحنا من بلاء ومضى كرب الدواء

كان والله على الصِّحْـ ـحَة غيظ العقلاء

لمع السراب

يضرب مثلًا لما لا حاصل له من الوعد الكاذب، وغيره؛ قال المأموني (من المنسرح):

يفتح بالوعد باب نائلها حتى يرى الوصل ثم ينطبق
وعد كلمع السراب تحسبه منك قريبًا ودونه شقق

ومن فصل للصاحب: بعض الوعد كلمع السراب، وبعضه كنقع الشراب.

والأصل فيه قوله تعالى: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

لعاب المنية

كان لأبي حية النميري سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه لعاب المنية، فحكى جار له قال: أشرفت عليه ليلة وقد انتضاه، وكان كلب يعتس فدخل بيته، فظن أنه لص، فجعل يقول: أيها المغتر بنا، والمجترئ علينا، بئس والله ما اخترت لنفسك! خير قليل، وشر طويل، وسيف صقيل؛ لعاب المنية الذي سمعت به؛ مشهور ضربته، لا تخاف نَبْوَته؛ اخرج بالعفو عنك، أو لأدخلن بالعقوبة عليك؛ والله إن أدع قيسًا تملأ الفضاء خيلًا ورجلًا. سبحان الله، ما أكثرها وأطيبها! ثم فتح الباب، فإذا كلب قد خرج!

فقال: الحمد لله الذي مسخك كلبًا، وكفاني حربًا!

لزوم الدبق

وصف الحسين الجمل المصري ابن الخراساني فقال: يلزم لزوم الدبق إلى أن يأخذ شيئًا، ثم ينسل انسلال الزئبق.

لذة الخلسة

قال الجاحظ: قيل لرجل يعشق قينة: لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها! فقال: كيف لي إذ ذاك بلذة الخلسة، ونيك المسارقة، وانتظار الموعد على الرقبة، وإيقاع الكشح على مولاها!

مجالس الكرام

كان أبو مسلم الخولاني يكثر الجلوس في المساجد، ويقول: المساجد مجالس الكرام.

ميزان القوم

كانت العرب تقول: السفر ميزان القوم؛ كأنه يزنهم بأوزانهم، ويفصح عن مقاديرهم في الكرم واللؤم.

قال الشاعر (من البسيط):

ولا تكن كلئام أظهروا ضجرًا إن اللئام إذا ما سافروا ضجروا

مصباح السرور

في الكتاب المبهج: الخمر مصباح السرور، ولكنَّها مفتاح الشرور.

مفتاح النجاح

قال بعض الحكماء: مفتاح النجاح الصبر على طول مدته.

مفتاح الفرج

قال الشاعر (من السريع):

مفتاح باب الفرج الصبر وكل عسر بعده يسر
وكل من أعياك أخلاقه فإنما حيلته الهجر

مفتاح الرزق

قال الشاعر — وهو أحسن ما قيل في معناه (من الكامل):

قبل أنامله فلسن أناملًا لكنهن مفاتح الأرزاق

مفتاح الأمصار

كان يقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: مفتاح الأمصار؛ لأنه هو الذي فتح أكثرها، وهو أول من مصر الأمصار، ودون الدواوين في الإسلام.

مفتاح الفتن

يقال: إن ذلك قَتْلُ عثمان رضي الله عنه.

ويقال: بل قَتْلُ الحسين رضي الله عنه.

حدث الصولي قال: حدثني الحسين بن علي الكاتب، قال: دخلت يومًا على عبيد الله بن سليمان، وعنده ابن الأشنب وحده، فحين وقعت عينه علي قال لي: يا أبا عبد الله، إنا رضينا في شيء قد تشاجرنا فيه بأول من يدخل علينا، ولو تمنينا لذلك همًّا ما جازتنا الأمينة، فاحكم بيننا من غير أن تعرف ما قاله كل واحد منا؛ لئلا تتبع قولي؛ ثم قال: تلاحينا على أشد ما كان في الإسلام على المسلمين؛ فقال أحدنا: أشده قتل عثمان لأنه مفتاح الفتن، وأول الاختلاف، وسبب الفرقة؛ وقال أحدنا: قتل الحسين، لأن المسلمين يئسوا بعد قتله من كل فرج يرتجونه، وعدل ينتظرونه.

قال: فقلت: أيد الله الوزير! الأمر في هذا الحكم أوضح سبيلًا، وأقرب متناولًا من أن يقع فيه لأحد شك. قال: ومن أين ذلك؟ اشرحه لنا. فقلت: انظر إلى أشده على رسول الله صلى الله عليه سلم، فهو الأشد على

المسلمين.

فضحك عبيد الله، وقال: لله درك يا أبا عبد الله من صادع بالحق، حاكم بالعدل؛ أنت والله أحج في جوابك من قريش. فقال ابن الأشنب: يجوز أن يكون الأشد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عثمان رضي الله عنه، وإن لم يكن عنده كالحسين لأمر الإسلام. فقال عبيد الله: اسكت يا هذا، فإنك عند الحجة عطفت عن المَحَجَّة.

مطيَّة الجهل

هي الشباب.

قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾، قال سفيان: قال الحسن: أي: شبان، لأن الشباب مطية الجهل.

قال النابغة (من الوافر):

فإن يك عامر قد قال جهلًا فإن مطية الجهل الشباب

ومن روى مظنة بالظاء والنون، عنى معدته.

قال أبو نواس (من الكامل):

كان الشباب مظنة الجهل ومحسن الضحكات والهزل

مودة السوقة

يضرب بها المثل في الضعف والركاكة؛ قال بعضهم (من مجزوء الرمل):

قد نرى يا ابن أبي إسْـ ـحاق في ودك عُهدةْ
وكذا السوقي للإخـ ـوان سوقي المودةْ

مولى الموالي

يضرب به المثل في القلة والذلة.

قال الجاحظ: أنشدني أبو زيد وأبو عبيدة (من الطويل):

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

وأنشد (من مجزوء الرمل):

من لقب صد عن سلـ ـمى على غير مثال
صد عنها خشية النا س ومن قيل وقال
رغبت عني لأني كنت مولًى لا أبالي

وأُنْشِد: مولى لموالٍ.

ليتها قالت إذا ما عيروها: لا أبالي

معترك المنايا

هو ما بين الستين إلى السبعين من سني أعمار الناس؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أكثر أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين».

ولما أنافت سنو عبد الملك بن مروان على الستين، وسئل عن مبلغ عمره قال: في معترك المنايا.

مدرجة الشرف

قال أكثم بن صيفي: المناكح الكريمة مدارج الشرف.

نقد البلد

يضرب مثلًا للإنسان المتوسط؛ ويشبه ما يتعامل به أهل البلاد من النقد المتوسط بين الجودة والرداءة، فيقال: فلان من نقد البلد، ومن الطبقة الوسطى.

نور الهموم

هو الشَّيْب؛ قال ابن المعتز (من المديد):

أنكرت هند مشيبي وولت	بدموع في الرداء سجوم
اعذري يا هند شيبي لهمي	إن شيب الرأس نور الهموم

وقد شبه الشيب كثيرًا بالنور، قال ابن الرومي (من الخفيف):

قد يشيب الفتى وليس عجيبًا	أن يرى النور في القضيب الرطيب

وقال التميمي (من الطويل):

أقول ونوار المشيب بعارضي	قد افتر عنه ناب أسود سالخ:
أشيبًا وحاجات الفؤاد كأنما	يجيش بها في الصدر مرجل طابخ

وقال بعض أهل العصر (من السريع):

لم يعرف القوم الألى شبهوا الـ	ـمشيب بالنوار ما شبهوا
الشيب نوار ولكنه	يثمر بالموت فأفًّا له!

وقار الشيب

يروى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أول من شاب، وحلاه الله بالشيب ليتميز عن إسحاق، إذ كان من الشبه به ما لا يكاد يميز بينهما، فلما وَخطه الشيب قال: يا رب ما هذا؟ قال: هو الوقار، قال: يا رب زدني وقارًا.

وقال دعبل (من الكامل):

أهلًا وسهلًا بالمشيب فإنه سمة الوقور وهيبة المتحرج

وقال أبو نواس (من الطويل):

يقولون في الشيب الوقار لأهله وشيبي بحمد الله غير وقار

ومن فصل للبديع الهمذاني: الشباب هناة، والمشيب أناة، فالحمد لله الذي بيض القار، وسماه الوقار.

وقاحة العميان

من أمثال العامة: أوقح من الأعمى؛ لأن الحياء في العين، وليست له.

وأحسن ما سمعت في ذم الأعمى (من الخفيف):

كيف يرجو الحياء منه صديق ومكان الحياء منه خراب!

وقيل لأبي العيناء: ويحك ما أوقحك! فقال: أما علمت أن للحياء شرائط ليست معي واحدة منهن! قيل: فصفهن، قال أولهن: في العينين، ولست أبصر؛ الثانية: اجتناب الكذب، وأنا من اليمامة من رهط مسيلمة الكذاب؛ والثالثة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الحياء من الإيمان» وأي إيمان ترون معي؟

ونظير هذا ما يحكى أن رجلًا سأل يحيى بن أكثم، فقال له يحيى: أخطأت باب الرزق من ثلاثة أوجه: أحدها أني امرؤ مروزي، وبخل أهل مرو مضروب به المثل؛ والآخر أني تميمي، ومن لم يكن من التميميين بخيلًا فهو لغير رِشْدة؛ والثالث أني قاضٍ، والقاضي يأخذ ولا يعطي، ويرتزق ولا يرزق.

ينبوع الأحزان

قال بعض الفلاسفة: القُنية ينبوع الأحزان.

قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (من الطويل):

ألم تر أن الدهر يهدم ما بنى ويأخذ ما أعطى ويفسد ما أسدى
فمن سره ألا يرى ما يسوؤه فلا يتخذ شيئًا يخاف له فقدا

الباب الحادي الستون

في الجنان

وهو آخر الأبواب في المضافات والمنسوبات

جنة الدنيا، جنة الرجل، جنة الفردوس، جنة الخلد، جنة عدن، جنة المأوى، جنة المنتهى، ظل طوبى، باب الجنة، روضة الجنة، كنوز الجنة، ريح الجنة.

الاستشهاد

جنة الدنيا

كان يقال للشام: جنة الدنيا.

ولما أفرج هرقل عن بلاد الشام للمسلمين، وخرج منها هاربًا إلى الروم بكى حتى أخضلت لحيته، وغشي عليه، فلما أفاق قال: السلام عليك يا سوريًّا، يا جنة الدنيا، سلامَ غير ملاقٍ.

جنة الرجل

في الخبر: «جنة الرجل داره».

وأنشدني المأموني لنفسه (من الوافر):

أَجِدْ صنع المباني حين تبني | فليس لمن يحُلُّ بها حصون
وأَحسِنْ جنة الدنيا إلى أن | يكون من القيامة ما يكون
فما الإحسان إلَّا مقلة لا | تغمض أن يكون لها جفون

جنة الفردوس

يضرب مثلًا للمكان يجمع الحسن والأمان والطيب؛ وممن ضرب بها المثل في شعره أبو تمام، حيث قال (من البسيط):

مالي أرى القبة الفيحاء مقفلة | دوني وقد طال ما استفتحت مقفلها
كأنها جنة الفردوس معرضة | وليس لي عمل زاكٍ فأدخلها

وابن الرومي في قوله (من البسيط):

له حريم إذا ما الجار حل به | أضحى الزمان عليه جد مؤتمن
كأنه جنة الفردوس قد أمنت | فيها النفوس من الروعات والحزن

جنة الخلد

قال ابن طباطبا (من الوافر):

فمهما أَنسَ لا أنسَ التذاذي | بجنات كجنات الخلود
بنفسج عارضين إلى أقاحي | ثغور زانها ورد الخدود

وأحسن جدًّا في قوله (من الرجز):

ووجنة كجنة عشقي فيها قد خلد

جنة عدن

من الأبيات السائرة على وجه الدهر، قول القائل (من البسيط):

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الباب ما الدار!

الجواب عنه:

الدار جنة عدن إن عملتَ بما يرضي الإله وإن خالفت فالنار

جنة المأوى

قال بعض المفسرين: أخص الجنان وأعلاها جنة المأوى، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۞ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۞ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾؛ فلمَّا كانت السدرة غاية لتلك المواطن، وعندها جنة المأوى، علمنا أنها أخص الجنان.

جنة المنتهى

قال سعيد بن حميد (من السريع):

لو كنت لا أهدي إلى أن أرى شيئًا على قدرك أو قدري
لم أهد إلَّا جنة المنتهى ترفُلُ في أثوابها الخضر

ظل طوبى

من أحسن ما ينشده المذكرون القصاص على فروع المنابر ورؤوس الأشهاد، قول محمود الوراق — ويروى لغيره (من البسيط):

من يشتري قبة في الخلد عالية في ظل طوبى رفيعات مبانيها
دَلَّالُها المصطفى، والله بائعها ممن أراد، وجبريل مناديها

باب الجنة

خطب علي رضي الله عنه، فقال في خطبته:

أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، من تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل، وسيمَ الخسفَ، ودُيِّث بالصغار.

روضة الجنة

في الخبر: «ألا إن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار».

وفيه: «إن منبري هذا على ترعة من ترع الجنة».

وفيه: «عائد المريض على مخارف الجنة حتى يرجع».

وفيه: «من سره أن يلزم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة».

كنوز الجنة

كان يقال: أربع من كنوز الجنة: كتمان المصيبة، وكتمان المرض، وكتمان الفاقة، وكتمان الصدقة.

ريح الجنة

في الحديث: «ريح الولد من الجنة».

وقال صلى الله عليه وسلم للحسين والحسن: «إنكم لتجبنون، وإنكم لتبخلون، وإنكم من ريحان الجنة».

وقال الجاحظ في قول أبي العتاهية (من الرجز):

إن الشباب حجة التصابي روائح الجنة في الشباب

معنى كمعنى الطرب الذي ترتاح له القلوب، ولا تقدر على وصفه الألسن.

وقال بعض أهل العصر في وصف الند (من الهزج):

وند ما له ند تعاطيه من السنةْ
إذا ما دخل النار حكى رائحة الجنةْ

إلى هنا انتهى الكتاب ولله الحمد، والصلاة على النبي محمد وآله.